عَلَى أَعتَابِ الحُلم
نُعمَان البرَبرِي
رواية

على أعتاب الحلم

رواية

نعمان البربري

إلى أمي

التي رافقتني بتضحياتها الصامتة وإيمانها العميق في كل خطوة اتخذتها.

✍ كلمةٌ إلى القارئاتِ والقرّاءِ

تدورُ هذهِ الحكايةُ في سوريّا سبعينيّاتِ القرنِ الماضي، في زمنٍ تخبّطُ بينَ تغيُّرٍ اجتماعيٍّ عميقٍ وجمودٍ سياسيٍّ خانق.
وهي تسردُ سيرةَ شابٍّ ريفيٍّ، يَسعى بينَ التقاليدِ والمُعاصَرة، بينَ توقُ العائلةِ وأحلامِ القلبِ، إلى أن يجدَ سبيلَهُ الخاصَّ في عالمٍ كثيرِ التقلّب.

المواضعُ التي تجري فيها الأحداثُ — من دكّانِ الأقمشةِ الصغيرِ في حاراتِ دمشقَ القديمة، إلى الأزقّةِ الضيّقةِ في قريتِهِ الأولى — ليست مجردَ خلفيّاتٍ ساكنة، بل مرايا لتوتّراتٍ داخليّةٍ خفيّة. فالتبايُنُ بينَ المدينةِ والريف، بينَ العلمِ والحاجة، بينَ الحريّةِ والانقيادِ، يُشكّلُ الخلفيّةَ الشعوريّةَ والسياسيّةَ لهذهِ الرواية.

«على أعتابِ الحلم» ليست بيانًا سياسيًّا، لكنّ في ثناياها ارتعاشةً خفيّةً لمجتمعٍ يُربّي شبابَهُ في ظلالِ القلقِ واللايقين.
إنّها حكايةُ مُتلمِّسٍ للطريقِ، وحكايةُ أملٍ ينهضُ في وجهِ كلّ ما يُحاولُ خنقَهُ وإطفاءَه.

أدعوكم أن تُنصتوا لهذه العوالمِ بقلوبٍ مفتوحةٍ وعيونٍ يقِظة — فقد تجدون فيها صدى لشيءٍ من ذاكرتِكم، بعيدًا... وقريبًا في آنٍ معًا.

— نُعمان البربري

عادَ نُعمانُ إلى بيتِهِ بعدَ ما يَزيدُ عَن أُسبوعٍ حافلٍ بالامتحاناتِ، قضاهُ في مدرستِهِ الخاصَّةِ في قلبِ العاصمة دمشقَ، مُثقلًا بتعبٍ ما زالَ عالقًا في عينيهِ، "وكأنَّ الأيّامَ سَلَبَتْ من روحِهِ سَكِينَةً لا يَشْعُرُ بِغيابِها إلّا حينَ يَعُودُ إلى بيتِهِ".
كَأنَّ عَودتَهُ كانَتْ تَرقُّبًا صامِتًا على أعتابِ لحظةٍ فاصِلةٍ، يُنصِتُ فيها لِصوتِ النَّتيجةِ قبلَ أن يُعلَنَ عنها.

هُنا، على التُّخومِ الفاصلةِ بينَ العاصِمَةِ والرِّيفِ، يتباطَأُ الضَّوءُ قَبْلَ أن يُشرِقَ، وتَتَردَّدُ الرُّوحُ قَبْلَ أن تَهْوِيَ إلى قَدَرِها.
إنَّهُما مَكانانِ لا تَفصِلُ بَيْنَهُما الجُغْرافيا وَحدَها، بَلْ تَفْصِلُهُما هُوَّةٌ شُعوريَّةٌ سَحيقَةٌ، لا تُرى، ولَكِنَّها تُحَسُّ في كُلِّ نَبْضٍ.

فَالعَاصِمَةُ كَانَت بِالّنسبَةِ لَهُ سَاحَةَ اَلِدراسَةِ وَالامتِحَانِ طِيلَةَ هَذا اَلعَام، قَلبَ الصِّراعِ فِي مُجَابَهَةِ وَتَحَدِّي الذّاتِ.

أمَّا الرِّيفُ، فَكَانَ عودَةً إِلَى الحَنَانِ، إِلَى اَلذّاكِرَةِ، إِلَى اَلجَوهَرِ اَلبَسِيطِ لِلحَيَاةِ.
لَكِنَّ قَلبَهُ فِي هَذِهِ اَلمَرَّةِ كَانَ يَحمِلُ شَيئًا غَرِيبًا، شُعُورًا مُبهَمًا لم يعتَدْهُ مِن قَبلُ؛ مَزِيجًا مِن لَا يَقينٍ مُربكٍ، وأملٍ ناعمٍ يتسرَّبُ كخيطِ ضوءٍ في عتمةِ شكٍّ.

كانَ الغروبُ في مدينتِهِ "دُوما"، الواقعةِ في الرِّيفِ الدمشقيِّ، ينسابُ فوقَ دفءِ المساءِ اللامعِ كأنَّهُ يُمهِّدُ الطريقَ لعودتِهِ. أضواءُ الزُّقاقِ الضيِّقِ تلمعُ الآنَ بخجلٍ، تُنيرُ دربًا خافتًا نحوَ حيِّ (السَّاحَةِ) قَبلَ أَنْ تَتَلَاشَى بِبُطءٍ.

وَرَغْمَ الإِنْهاكِ الَّذِي يَنْهَشُ تَفْكِيرَهُ قَبْلَ جَسَدِهِ، كَانَ فِي دَاخِلِهِ لَهْفَةٌ يَصْعُبُ تَفْسِيرُهَا.

وَمَا إِنْ تَخَطَّى عَتَبَةَ اَلبَيتِ، حَتَّى اِنْسابَ إِلَى سَمْعِهِ صَوْتُ أُمِّهِ، كَأُغْنِيَةٍ طَالَ اِشْتِيَاقُهُ لَهَا:

"نُعمانُ! أخيرًا جِئْتَ، يا قُرَّةَ عَيْني... أَخْبِرْني، هَلْ نَالَ التَّعَبُ مِنْكَ بَعْدَ ذاكَ الإِمْتِحانِ؟"

اِرْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ اِبْتِسامَةٌ مُتْعَبَةٌ، لكِنَّ عَيْنَيْهِ لَمَعَتا بِبَريقِ فَرَحٍ دَقيقٍ، كَأَنَّهُ يُخْفيه. وَهَمَسَ بِنَبْرَةٍ واهِنَةٍ:

"نَعَمْ... كانَ مُتْعِبًا يا أُمِّي، ولَكِنْ... لا أَدْرِي، أَشْعُرُ بِأَنَّ شَيْئًا ما قَدْ تَغَيَّرَ فِي داخِلِي... النَّجاحُ أَصْبَحَ قَرِيبًا، أَشْعُرُ بِهِ"!

أَشْرَقَ وَجْهُها كَما يَشْرُقُ قِنْديلُ زَيْتٍ قَديمٍ في عَتْمَةِ الرُّوحِ، وتَقَدَّمَتْ نَحْوَهُ، تَعانِقُهُ بِكُلِّ ذاكَ الحَنانِ الَّذي لا يُهْدى إِلّا مِن أُمٍّ.

هَمستْ وهي تحتضنُهُ:

" أنتَ بَطلُنا يَا نُعمَانُ... أَنْتَ فَخْرُنا، تَعِبْنا وَنَحْنُ نَراهُ يَكْبُرُ في أَحْلامِنا، وَصَبَرْنا حَتَّى جاءَت هذِهِ اللَّحْظَةُ. أُؤْمِنُ بِكَ، وَأَدْرِي أَنَّكَ سَتَصِلُ إِلى شَيْءٍ يَلِيقُ بِجُهْدِكَ وَنُبْلِكَ".

كانتْ كلماتُها تنبضُ بذلكَ الإيمانِ الأفلاطونيِّ بالخيرِ المطلقِ؛ حيثُ تتحوَّلُ الأُمُّ إلى مرآةِ الحُلمِ، إلى مِحورِ الأملِ، إلى مركزِ ثِقَلِهِ العاطفيِّ.

في تلكَ اللحظةِ، حينَ عانقتْهُ وقالتْ: "أنتَ بطلُنا"، لم يعُدِ الغروبُ مجرَّدَ خلفيَّةٍ تنعكسُ في الأفقِ البعيدِ، بل صارَ لحظةً وجوديَّةً شعرَ فيها أنَّ للحياةِ معنًى.
كلماتُها انزلقتْ إلى قلبِهِ، هزَّتْهُ بعمقٍ. لطالما آمنتْ بهِ، بقدراتِهِ، بأحلامِهِ.

وضعتْ كلَّ أملِها في هذا الابنِ، رغمَ تعقيداتِ الحياةِ وخشونتِها.
وفي تلكَ اللحظةِ، ظهرَ والدُهُ عندَ بابِ الغرفةِ وقد جذبتْهُ الأصواتُ، يلبسُ ملابسَهُ المنزليَّةَ البسيطةَ، كما اعتادَ في يومِ عُطلتِهِ.

لكنَّ ملامحَهُ كانتْ تنطقُ بفخرٍ ودفءِ أبٍ يرى في ابنِهِ امتدادًا لأملِهِ.
اقتربَ منهُ وقالَ بصوتٍ خفيضٍ يملؤهُ الاعتزازُ:
"أنا فَخورٌ بِكَ، يا نُعمانُ... وَلَكِنَّنِي أَعْرِفُ أَنَّكَ لَنْ تَقِفَ عِندَ هذا الحَدِّ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟"

رفعَ نُعمانُ نظرَهُ إليهِ، ثمَّ إلى يدَي أُمِّهِ الَّتينِ ما زالتا تحتضنانِهِ، وأحسَّ أنَّهُ يقفُ حقًّا على أعتابِ القرارِ الأهمِّ في حياتِهِ... أنْ يُحقِّقَ حُلمَهُ، وحُلمَ أسرتِهِ.
مرَّتْ لحظةُ صمتٍ كثيفةٌ، ثمَّ قالَ بصوتٍ ملؤهُ اليقينُ:
"أَخِيرًا حَسَمْتُ أَمْرِي، يَا أَبِي وَ يَا أُمِّي... سَأُكْمِلُ دِراسَتي بَعْدَ النَّتائجِ، وأَسْتَعِدُّ لِدُخُولِ كُلِّيَّةِ الهَنْدَسَةِ. لَمْ أَعُدْ مُتَرَدِّدًا... سَأَبْذُلُ كُلَّ مَا فِي وُسْعِي، وسَأَكُونُ – يَوْمًا مَا – الأَفْضَلَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ".

تهلَّلتْ وجوهُهم فرحًا. كانت لحظةَ إعلانٍ، لا لقرارٍ دراسيٍّ فقط، بل لاستقلالِ الذّاتِ، لنُضجِ الحُلمِ، لولادةِ "الاختيارِ."
تبادلَ الأبوانِ نظرةً صامتةً، ثمَّ قالَ والدُهُ:
"إذًا، يا نُعمانُ... نَحْنُ مَعَكَ في كُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوها. هٰذا حُلْمُكَ، وَنَحْنُ فَخورونَ بِكَ، وَبِكُلِّ ما سَتُصْبِحُ عَلَيْهِ".

اِبتسمَ نُعمانُ، وفي ابتسامتِهِ ارتجفَ شعورٌ بالنَّجاةِ.

لقد أصبحَ قرارُهُ ملكًا لهُ، وملكًا لقلبَيْ وَالِدَيْهِ فِي آنٍ وَاحِدٍ. فَفِي عَيْنَيْ كُلٍّ مِنْهُمَا نَشْوَةٌ خَفِيَّةٌ، كَأَنَّهُمَا تَلَقَّيَا إِعْلَانَ هَذَا الْقَرَارِ كَمَنْ يُبَلَّغُ بِالنَّجَاةِ مِنَ الغَرَقِ.
إِنَّهُ حُلمٌ يَبْدَأُ مِنْ فَرْدٍ، لَكِنَّهُ يَتَّسِعُ لِيَشملَ الكُلَّ.
وربَّما، سيكونُ هذا القرارُ بدايةً لسلسلةٍ من التحدِّياتِ، للقاءاتٍ تُغيِّرُ مسارَهُ، أو سقوطٍ يُعيدُ تشكيلَ صورتِهِ عن ذاتِهِ.

لكنَّ المؤكَّد أنَّ هذه اللحظةَ كانتْ أولى خطواتِهِ على أعتابِ الحُلمِ، وستبقى دائمًا نقطةً مرجعيَّةً يعودُ إليها ليقولَ:

" **هناكَ بدأتُ**".
ثمَّ قالَ:

" شكرًا لكما... كلُّ ما أحتاجُهُ هو دُعاءكما... وتشجيعُكما فقط".

وفي تلكَ اللحظةِ، وبينَ دفءِ العائلةِ، شعرَ نُعمانُ بأنَّهُ مستعدٌّ ليُغيِّرَ حياتَهُ، لا من أجلِ نفسِهِ فقط، بل ليُشِعَّ ضوءً في سماءِ مَن يُحبُّ، كما اعتادَ دائمًا... حينَ يختارُ أن يسيرَ نحوَ الأفضلِ.

يَتشَكَّلُ الْمَتْجَرُ فِي ذَاكِرَتِهِ لَا كَمَكَانٍ مَادِّيٍّ لِلْعَمَلِ فَحَسْبُ، بَلْ كَبُنْيَةٍ شُعُورِيَّةٍ رَاسِخَةٍ، كَمَعْبَدٍ صَغِيرٍ تَتَرَاكَمُ فِيهِ الذِّكْرَيَاتُ، وَتَنْبُضُ فِيهِ أَنْفَاسُ الذِّكْرَى، التَّارِيخِ وَالْعَمَلِ الدَّؤُوبِ.
كَانَتِ الْأَقْمِشَةُ فِيهِ، بِخُشُونَتِهَا وَنُعُومَتِهَا، بِأَلْوَانِهَا وَخُيُوطِهَا، تُجَسِّدُ اِزْدِوَاجِيَّةَ الْحَيَاةِ الَّتِي عَاشَهَا نُعْمَانُ: بَيْنَ الْحُلْمِ وَالْوَاقِعِ، بَيْنَ الطُّمُوحِ وَالِاضْطِرَارِ.

فِي زَوَايَا ذَاكَ الْمَتْجَرِ الْقَدِيمِ، الْكَائِنِ فِي قَلْبِ دِمَشْقَ، بَيْنَ صَنَادِيقَ خَشَبِيَّةٍ وَكَرْتُونِيَّةٍ اِمْتَلَأَتْ بِالْأَثْوَابِ، مِنْهَا مَا أُحْكِمَ جَمْعُهُ بِنُسُجٍ مِنَ الْخَيْشِ الْخَشِنِ، وَمِنْهَا مَا تَدَلَّى بِنُعُومَةٍ عَلَى أَطْرَافِ الرُّفُوفِ.

هُنَا بَدَأَتْ حِكَايَةُ فَتًى فِي مُقْتَبَلِ الْعُمْرِ.

فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْمَتْجَرُ، الْوَاقِعُ فِي سُوقِ الْحَرِيقَةِ، مُجَرَّدَ مَكَانٍ لِلْعَمَلِ الصَّيْفِيِّ، بَلْ كَانَ أَشْبَهَ بِمَحَطَّةٍ يَتَزَوَّدُ مِنْهَا بِالْأَمَلِ، لِيُكْمِلَ بِهَا دَرْبًا نَحْوَ مُسْتَقْبَلٍ يَحْلُمُ بِهِ.

كانَ نُعمانُ يَقتربُ من إتْمامِ عامِهِ الحادي والعِشرين، فتىً وُلِدَ في قلبِ الرِّيفِ الفقيرِ المُتديِّن، وَكَانَ الأكبَرَ بينَ إخوتِهِ، وَالحفيدَ الأوَّلَ لجَدَّيْهِ، وَالوحيدَ الَّذي تابَعَ تعليمَهُ في بيتٍ لَمْ تَكُنْ فيهِ الدِّراسةُ سَبيلًا مُمَهَّدًا، بلْ رِحلةً في مَضائقِ الحَياةِ وقَسوتِها.لَمْ يَكُنْ وَالِدَاهُ مِنَ الْمُتَعَلِّمِينَ؛ فَوَالِدُهُ الْحَلَّاقُ يَكُدُّ فِي دُكَّانٍ صَغِيرٍ لَا يَكَادُ دَخْلُهُ يَكْفِي لِإِطْعَامِ أَحَدَ عَشَرَ فَمًا.
وَأُمُّهُ تَمْضِي سَاعَاتِ النَّهَارِ بَيْنَ ضَوْءِ الصَّبَاحِ وَظِلَالِ الْمَغِيبِ، مُنْحَنِيَةً عَلَى مَاكِينَةِ تَطْرِيزٍ تراثية "الْأَغْبَانِي"، تَحِيكُ نُقُوشًا دِمَشْقِيَّةً أَصِيلَةً فَوْقَ الْأَقْمِشَةِ، فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَأْمِينِ مَا نَقَصَ مِنْ نَفَقَاتِ الْبَيْتِ.

كَانَ يَعْلَمُ، مُنْذُ بِدَايَاتِ وَعْيِهِ، أَنَّ طَرِيقَ التَّعْلِيمِ لَا يُعَبَّدُ بِالنَّوَايَا الطَّيِّبَةِ وَحْدَهَا، بَلْ هُوَ دَرْبٌ وَعْرٌ، تَكْتَنِفُهُ التَّضْحِيَاتُ، وَيُثْقِلُهُ التَّنَوُّعُ وَالْمَزِيدُ مِنَ النَّفَقَاتِ.
فَهُوَ مَسَارٌ مُكْلِفٌ، يَحْتَاجُ إِلَى نَفَقَاتٍ جَمَّةٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا فَتًى يَافِعٌ مِنْ أُسْرَةٍ كَادِحَةٍ.

لِذَا، بَدَأَ الْعَمَلَ بَاكِرًا، مَا إِنْ أَنْهَى دِرَاسَتَهُ الِابْتِدَائِيَّةَ، لِيُعِيلَ نَفْسَهُ، وَيُؤَمِّنَ لَوَازِمَ دَرْبِهِ الْعِلْمِيِّ.
وَمُنْذُ ذَلِكَ الصَّيْفِ، وَجَدَ نَفْسَهُ مُنْخَرِطًا فِي مِهْنَةٍ لَا تُشْبِهُهُ، وَلَا تَمُتُّ إِلَى أَحْلَامِهِ بِصِلَةٍ، لَكِنَّهَا كَانَتِ الْمَخْرَجَ الْوَحِيدَ أَمَامَهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ تَرَفَ اِخْتِيَارِ الْعَمَلِ وَلَا تَنَوُّعِ التَّجْرِبَةِ.
كَانَ مُلْزَمًا أَنْ يَعْمَلَ، لَا بِدَافِعِ الرَّغْبَةِ، بَلْ لِحَاجَةٍ ضَاغِطَةٍ لَا سَبِيلَ إِلَى دَفْعِهَا، لِيَسْتَطِيعَ أَنْ يُتَابِعَ دِرَاسَتَهُ الْإِعْدَادِيَّةَ، وَمِنْ بَعْدِهَا الثَّانَوِيَّةَ.

غَيْرَ أَنَّ هَذَا الصَّيْفِ كَانَ مُخْتَلِفًا بِالنِّسْبَةِ لَهُ؛ فَقَدِ اخْتَارَ أَنْ يَعْمَلَ عِنْدَ الْحَاجِّ أَبِي مَحْمُودٍ.

كانَ أَبُو مَحْمُودٍ رَجُلًا طَاعِنًا فِي السِّنِّ، صَارِمًا، قَلِيلَ الْكَلَامِ، لَا يَحِيدُ عَنْ رُوتِينِ نِظَامِهِ الْيَوْمِيِّ.
فَهُوَ رَجُلٌ يُقَدِّسُ النِّظَامَ، وَلَا يَرْكُنُ بِسُهُولَةٍ إِلَى الْأَرْقَامِ، وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَى أَيَّةِ عَمَلِيَّةٍ تِجَارِيَةٍ أَوْ حِسَابِيَّةٍ مَا لَمْ تُدَوَّنْ وتنظم بِالْقَلَمِ و الْوَرَقِ، وَلَوْ كَانَ بِإِمْكَانِهِ حِفْظُهَا أَوْ حَلُّهَا ذِهْنِيًّا فِي لَمْحِ الْبَصَرِ.

كُلَّ صَبَاحٍ، يَدْخُلُ الْمَتْجَرَ فِي تَمَامِ السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ، يُعَايِنُ نَظَافَتَهُ، يُرَاجِعُ تَرْتِيبَ الْأَقْمِشَةِ، يُدَقِّقُ فِي التَّفَاصِيلِ، ثُمَّ يُدَوِّنُ وَ يُمْلِي عَلَى عَامِلِهِ بِخُفُوتٍ خُطَّةَ عَمَلِ مَتْجَرِهِ الْيَوْمِيَّةِ.

مَرَّ شَهْرٌ عَلَى بَدْءِ نُعْمَانَ عَمَلَهُ مَعَ الحاج أَبِي مَحْمُودٍ، إِذْ كَانَ هُوَ العَامِلَ الوَحِيْدَ فِي هَذَا المَتْجَرِ، بَعْدَ أَنْ أَنْهَى اِمْتِحَانَاتِهِ فِي الصَّفِّ الثَّالِثِ الثَّانَوِيِّ، وَكَانَ قَدْ أَظْهَرَ جَدَارَةً لَافِتَةً فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ، اِنْتَبَهَ إِلَيْهَا جَمِيعُ مَنْ كَانُوا حَوْلَهُ.
كَانَ دَافِعُهُ الْأَوْحَدُ كَوْنُهُ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ أُمْنِيَّةً بَسِيطَةً: أَنْ يَنْجَحَ، وَيَتَفَوَّقَ، لِيَبْلُغَ الْجَامِعَةَ، وَيُغَيِّرَ مَصِيرَهُ، وَلَعَلَّهُ يُمْنَحُ أَهْلَهُ وَأُسْرَتَهُ غَدًا أَفْضَلَ.

وَلَمَّا صَدَرَتِ النَّتَائِجُ، كَانَ مِنَ النَّاجِحِينَ.

ما كانَ نُعمانُ مِن أوائِلِ الطُّلَّابِ، لكنَّهُ اجتازَ الامتحانَ بنجاحٍ.
وإنْ لَمْ يَكُنِ النَّجاحُ كما رَغِبَ وتمنَّى، فقد كانَ كافياً ليَضعَ قَدَمَهُ الأُولى على الدَّرْبِ.

دَخَلَ الْمَتْجَرَ صَبَاحًا يَحْمِلُ كَشْفَ عَلَامَاتِهِ، فِي عَيْنَيْهِ مَزِيجٌ مِنَ التَّوَتُّرِ وَالْفَرَحِ.
يَتَرَدَّدُ فِي قَلْبِهِ سُؤَالٌ دَاخِلِيٌّ شَائِكٌ:

"هَلْ هَذه العلامات كَافية؟ أَمْ هَلْ يُعَدُّ هَذَا النَّجَاحُ نَجَاحًا حَقِيقِيًّا؟ هَلْ هَذِهِ هِيَ النَّتِيجَةُ الْمَقْبُولَةُ لِجَمِيعِ جُهُودِكَ الَّتِي بَذَلْتَهَا حَتَّى الْآنَ؟"
لَكِنَّ صَوْتًا خَافِتًا دَاخِلَهُ هَمَسَ بِدِفْءٍ:

"أَنْتَ الْوَحِيدُ فِي الْعَائِلَةِ الَّذِي تَابَعَ الدِّرَاسَةَ. فَكُلُّ نُقْطَةٍ فِي هَذَا الْكَشْفِ إِنْجَازٌ حَقِيقِيٌّ لَكَ".

قَرَأَ أَبُو مَحْمُودٍ الْكَشْفَ بِصَمْتٍ، ثُمَّ اِنْفَرَجَتْ شَفَتَاهُ عَنْ اِبْتِسَامَةٍ صَغِيرَةٍ وَقَالَ:
" مُبَارَكٌ النَّجَاحُ".

ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إِلَى خَزْنَةٍ حَدِيدِيَّةٍ، وَأَخْرَجَ ثَلَاثَ أَوْرَاقٍ نَقْدِيَّةٍ مِنْ فِئَةِ الْمِئَةِ لَيرَةٍ، وَوَضَعَهَا فِي جَيْبِ نُعْمَانَ قَائِلًا:
" تَسْتَحِقُّ إِجَازَةَ هَذَا الْيَوْمِ... !". لَكِنَّهُ تَوَقَّفَ قَلِيْلاً ثُمَّ أَرْدَفَ طَالِبَاً مِنْهُ:

" اِذْهَبْ أَوْلاً إِلَى دُكَّانِ (السَّيِّدِ أَبِي عَلِيٍّ) فِي سَاحَةِ الْمَرْجَةِ، وَاشْتَرِ طَبَقَيْنِ مِنْ أَفْخَرِ الْحَلْوِيَّاتِ، وَقُلْ لَهُ إِنَّكَ مُرْسَلٌ مِنْ قِبَلِي، لِيَخْتَارَ لَكَ مَا يَلِيقُ بِهَذَا النَّجَاحِ. وَ دَعْنَا نَحْتَفِلْ بِكَ نَحْنُ وَالْجِيرَانُ أَوَلاً، وَخُذِ الْآخَرَ إِلَى بَيْتِكَ، لِتَحْتَفِلَ مَعَ أَهْلِكَ كَمَا يَنْبَغِي".

كَانَتْ تِلْكَ الْمِئَاتُ الثَّلَاثَةُ تُسَاوِي أَجْرَ شَهْرٍ كَامِلٍ.
وَبَيْنَمَا يَسِيرُ نُعْمَانُ نَحْوَ الْمَرْجَةِ، رَاوَدَهُ تَسَاؤُلٌ دَاخِلِيٌّ: **" أَأُنْفِقُ جُهْدَ شَهْرٍ كَامِلٍ فِي ضِيَافَةِ يَوْمٍ وَاحِدٍ؟"**
لَكِنَّهُ مَا لَبِثَ أَنْ أَطْفَأَ صَوْتَ التَّرَدُّدِ، حِينَ تَذَكَّرَ أَنَّ صَاحِبَ الْمَالِ هُوَ مَنْ قَرَّرَ، وَأَنَّ الِاحْتِفَالَ بِالنَّجَاحِ لَمْ يَعُدْ رَفَاهِيَّةً، بَلْ أَصْبَحَ اِسْتِحْقَاقًا.

عَادَ بِثَلَاثِ عُلَبٍ مِنَ الْحَلْوِيَّاتِ الدِّمَشْقِيَّةِ، وَوَضَعَهَا عَلَى طَاوِلَةِ الْمَكْتَبِ. اِبْتَسَمَ أَبُو مَحْمُودٍ وَقَالَ:
" وَقَبْلَ أَنْ نَفْتَحَهَا... خُذْ هَذِهِ لَكَ!.... ".

وَأَخْرَجَ مِنَ الْخَزْنَةِ ثَلَاثَ أَوْرَاقٍ نَقْدِيَّةٍ أُخْرَى، وَدَفَعَهَا إِلَيْهِ مُبْتَسِمًا.
" لَكِنْ يَا مُعَلِّمِي... هَذَا كَثِيرٌ!" قَالَ نُعْمَانُ بِدَهْشَةٍ.

فَأَجَابَهُ:
" لَا، يَا أُسْتَاذَ نُعْمَانُ، لَيْسَ كَثِيرًا عَلَى مَنْ نَجَحَ وَتَفَوَّقَ. لَقَدْ أَسْعَدْتَ قَلْبِي... كَمْ تَمَنَّيْتُ فِي صِبَايَ أَنْ أُسْعِدَ قَلْبَ وَالِدَيَّ بِنَجَاحِي، كَمَا فَعَلْتَ أَنْتَ الْيَوْمَ، وَلَكِنَّنِي لَمْ أُفْلِحْ".

لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، يَفْتَحُ أَبُو مَحْمُودٍ قَلْبَهُ. خَرَجَ مِنْ صَمْتِهِ الْمَحْسُوبِ، وَكَشَفَ هَشَاشَةً إِنْسَانِيَّةً طَالَمَا أَخْفَاهَا.

حِينَ قَالَ: **" كَمْ تَمَنَّيْتُ أَنْ أُسْعِدَ قَلْبَ وَالِدَيَّ بِنَجَاحٍ يُشْبِهُ بَعْضًا مِنْ هَذَا النَّجَاحِ... وَكَمْ مَرَّةً حَاوَلْتُ! وَلَكِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ"**، كَانَ يُعِيدُ تَدْوِيرَ الزَّمَنِ. مَرَّ مَاضِيهِ بِخِفَّةٍ دَاخِلَ قِصَّةِ نُعْمَانَ، لِيَرَى فِيهِ نُسْخَةً مِنْهُ لَمْ يَكُنْهَا.

وَهَكَذَا، لَمْ يَكُنْ قَرَارُهُ بِالِاحْتِفَالِ مُجَرَّدَ لَحْظَةِ فَرَحٍ عَابِرَةٍ، بَلْ كَانَ مَشْهَدًا رَمْزِيًّا: حَيْثُ يَتَحَوَّلُ مَتْجَرٌ قَدِيمٌ فِي قَلْبِ سُوقٍ عَتِيقٍ، إِلَى سَاحَةِ اِحْتِفَاءٍ بِنُمُوِّ إِنْسَانٍ، لَا بِكَسْبِ صَفْقَةٍ أَوْ رِبْحٍ مَادِّيٍّ.

نَهَضَ أَبُو مَحْمُودٍ قَائِلًا:
" هَيَّا، لِنَدْعُ بَعْضًا مِنَ الْجِيرَانِ، وَلْنَحْتَفِلْ كَمَا يَلِيقُ بِكَ".

وَفِي أَحَدِ أَيَّامِ صَيْفِ دِمَشْقَ، سَيَحْتَفِلُ مَتْجَرُ الْأَقْمِشَةِ الْعَتِيقُ، لَا بِصَفْقَةٍ رَابِحَةٍ، بَلْ بِحُلْمٍ صَغِيرٍ بَدَأَ يَكْبُرُ... بِنُعْمَانَ، الْفَتَى الرِّيفِيِّ، الَّذِي يَمْضِي خُطْوَةً جَدِيدَةً نَحْوَ مُسْتَقْبَلٍ طَالَمَا اِنْتَظَرَهُ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، دَخَلَ رَجُلٌ فِي أَوَاخِرِ الْأَرْبَعِينَ من العمر، يَرْتَدِي بَدْلَةً سَوْدَاءَ، وَقَمِيصًا رَمَادِيًّا، وَرَبْطَةَ عُنُقٍ يَتَدَرَّجُ لَوْنُهَا بَيْنَ الرَّمَادِيِّ وَالْأَسْوَدِ.
كَانَتْ تُرَافِقُهُ فَتَاةٌ نَقِيَّةٌ فِي بَيَاضِ بَشَرَتِهَا، فِي مثل عُمْرِ نُعْمَانَ تَقْرِيبًا، تَرْتَدِي تَنُّورَةً سَوْدَاءَ قَصِيرَةً، وَكَنْزَةً رَمَادِيَّةً بِأَكْمَامٍ قَصِيرَةٍ، وَتَحْمِلُ فِي يَدِهَا قُصَاصَةَ قِمَاشٍ.

قَالَ الرَّجُلُ بِتَحِيَّةٍ هَادِئَةٍ:
" السَّلَامُ عَلَيْكُمْ".

فَرَدَّ أَبُو مَحْمُودٍ بِصَوْتِهِ الْمَعْهُودِ الرَّصِينِ:
" وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ"، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَكْتَبِهِ، بَيْنَمَا كَانَ نُعْمَانُ يَسْتَعِدُّ لِلْخُرُوجِ، لِتَنْفِيذِ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ مَعَ مُعَلِّمِهِ

نَادَاهُ الْحَاجُّ بِصَوْتٍ وَاضِحٍ:
" سَيِّدَ نُعْمَانَ، لَوْ سَمَحْتَ... اِسْتَقْبِلِ الزَّبَائِنَ وَسَاعِدْهُمْ".

تَوَقَّفَ نُعْمَانُ وَقَدْ وَصَلَ إِلَى عَتَبَةِ الْمَتْجَرِ، ثُمَّ عَادَ مُسْرِعًا بِخُطُوَاتٍ قَصِيرَةٍ، وَوَقَفَ خَلْفَ طَاوِلَةِ الْبَيْعِ، مُبْتَسِمًا وَهُوَ يُخَاطِبُ الرَّجُلَ:

" أَهْلًا وَسَهْلًا، كَيْفَ يُمْكِنُنِي مُسَاعَدَتُكَ، يَا سَيِّدِي؟"

كانَتْ كَلِماتُهُ مُوَجَّهَةً إلى الرَّجُلِ، ويَداهُ تَسْتَنِدانِ إلى طاوِلَةِ البَيْعِ الطَّويلَةِ الَّتي تَفْصِلُ بَيْنَهُما.

لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ إلى الفَتاةِ، ولا إلى القُصاصَةِ الَّتي مَدَّتْها إلَيْهِ وهي تَقُولُ بِنَبْرَةٍ واثِقَةٍ وقَدِ التَمَعَتْ عَيْناها بِبَعْضِ التَّحَدِّي:

" نَبْحَثُ مُنْذُ الصَّباحِ عَنْ قِطْعَةِ قُماشٍ تُطابِقُ هذِهِ القُصاصَةَ، لَوْنًا وخامَةَ نَسِيجٍ ومَلْمَسًا".

لَكِنَّ نُعْمانَ، بِثَباتٍ لَمْ يَتَزَحْزَحْ، تابَعَ حَديثَهُ إلى الرَّجُلِ دُونَ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ نَحْوَها:

" عُذْرًا يا سَيِّدي، نَحْنُ نَبيعُ القُماشَ بِالجُمْلَةِ أَوْ بِنِصْفِ الجُمْلَةِ فَقَطْ، ولا نَبيعُ بِالمُفَرَّقِ".

تَدَخَّلَتِ الفَتاةُ وقَدْ أَخَذَتْ تَتَنَقَّلُ بِنَظَرِها بَيْنَ الأَكْوامِ والأَرْفُفِ، وقالَتْ بِاعْتِراضٍ:

" لَكِنَّ أَحَدَهُمْ أَرْشَدَنا إلَيْكُمْ، وأَكَّدَ أَنَّكُمْ مُتَخَصِّصُونَ بِهذا النَّوْعِ، وأَنَّنا سَنَجِدُ عِنْدَكُمْ ما نَبْحَثُ عَنْهُ".

كَرَّرَ نُعْمانُ اعْتِذارَهُ لِلرَّجُلِ، بِذاتِ الهُدُوءِ:

" عُذْرًا، كَما قُلْتُ لَكَ سَيِّدي، نَحْنُ لا نَبيعُ بِالمُفَرَّقِ".

امْتَعَضَتِ الفَتاةُ، وبانَ الغَضَبُ في نَبْرَتِها وهِيَ تَقُولُ:

" أَوَلا يُسْمَحُ لَنا حَتَّى بِالنَّظَرِ؟! فَلَرُبَّما وَجَدْنا حاجَتَنا لَدَيْكُمْ، أَمْ أَنَّ مُسْتَواكُمْ فَوْقَ اعْتِباراتِ النَّاسِ؟"!

لَكِنَّ نُعْمانَ لَمْ يَلْتَفِتْ إلَيْها، ظَلَّ مُحافِظًا على وِقارِهِ، وقالَ مَرَّةً ثالِثَةً مُوَجِّهًا كَلامَهُ لِلرَّجُلِ:

" سَيِّدي، مِنْ فَضْلِكَ"...

قاطَعَتْهُ الفَتاةُ بِعَصَبِيَّةٍ وقَدْ عَلَتْ نَبْرَتُها:

" إنَّهُ هُناكَ! ذاكَ القُماشُ على الرَّفِّ! نَعَمْ! هذا هُوَ تَمامًا! بابا، هذا ما أَبْحَثُ عَنْهُ"!

ورَغْمَ أَنَّها صاحَتْ، ظَلَّ نُعْمانُ يُتابِعُ حَديثَهُ مَعَ الرَّجُلِ بِهُدُوءٍ يَكادُ يُثيرُ العَجَبَ:

" أَعْتَذِرُ مِنْكَ سَيِّدي، لِلأَسَفِ لا نَبيعُ إلّا بِالجُمْلَةِ".

ازْدادَتْ حِدَّةُ الفَتاةِ، فَأَشارَتْ بِيَدِها إلى القُماشِ، وهَتَفَتْ:

" أَنْزِلْ لِي ذاكَ الثَّوْبَ! ...... هَيَّا! .... تَحَرَّكْ! ..... ما بِكَ تَقِفُ هَكَذا؟! ..... هَلْ أَنْتَ غَبِيٌّ؟ .... أَلَمْ تَسْمَعْنِي؟"!

مِنْ بَعيدٍ، كَانَ الْحَاجُّ أَبُو مَحْمُودٍ يُرَاقِبُ الْمَشْهَدَ بِصَمْتٍ لَمْ يُخلُ مِنْ حُكْمَةٍ.
قَالَ نُعْمَانُ بِلُطْفٍ لَمْ يَتَخَلَّ عَنْهُ:

" سَيِّدِيٌّ، يُمْكِنُنِي أَنَّ أَكْتَبَ لَكَ اِسْمَ أحَدِ تُجَارِ الْمُفَرِّقُ الْقَرِيبِينَ مِنْ سُوقِ الْحَرِيقَةِ، وَهُوَ الْوَحِيدُ فِي هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ الَّذِي يَشْتَرِي مَنَّا هَذَا النَّوْعِ ... . سَتَجِدُونَ عِنْدَهُ طَلَبَكُمْ".
"هَزَّ الرَّجُلُ رَأْسَهُ مُوَافِقًا، وَقَالَ:

" نَعَمْ، مِنْ فَضْلِكَ".
"تَنَاوَلَ الْوَرَقَةُ مِنْ يَدِ نُعْمَانِ، وَشَكَرَهُ بِلُطْفٍ، وَأَمْسَكَ يَدَ اِبْنَتِهِ وَهَمَّ بِالْمُغَادِرَةِ، لَكِنَّهَا سَحَبَتْ يَدُهَا بِإِصْرَارٍ وَقَالَتْ:

" عَلَيْنَا أَنْ نَتَأَكَّدُ أَوْلًا "! ... ثُمَّ اِقْتَرَبَتْ مِنْ نُعْمَانِ، وصرخت فِي وَجْهِهِ:

" أَنَا مَنْ يَتَحَدَّثُ! .. وَلَيْسَ أَبِي ! هَلْ أَنْتَ أعْمَى ؟ !أَمْ لَا تَسَمُّع؟ !أَمْ أَنَّكَ لَا تفهم؟"!
رَغْمَ الإِهَانَةِ، ظَلَّ وَجهُ نُعمانَ بَاسِمًا وَمُهَذَّبًا، فَكَأَنَّ رَدَّهُ الصَّامِتَ كانَ أَشَدَّ وَقْعًا مِنْ أَيِّ كَلِمَةٍ.
وَهٰذا مَا أَجَّجَ غَضَبَ الفَتَاةِ، فَأَطْلَقَتْ الشَّتَائِمَ بِلَهْجَةٍ لَمْ يَأْلَفْها مِنْ قَبْلُ؛ كَلِماتٌ مُبَعْثَرَةٌ وَمُتَسارِعَةٌ، لَمْ يَفْهَمْ مُعظَمُهَا، لَكِنَّ وَقْعَهَا كانَ كَصَفَعَاتٍ تُلْقَى عَلَى وَجْهِهِ.

وَمَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَفْقِدِ السَّيْطَرَةُ، كَانَ كَجِدَارٍ يَتَلَقَّى نُزُولَ الْمَطَرِ بِصَمْتٍ، وَلَا يَبُوحُ بِوَهْنٍ.
قَالَ بِهُدُوءٍ:

" هَلْ مِنْ خِدْمَةٍ أُخْرَى أَستَطِيعُ تَقْدِيمَهَا لَكُمْ، سَيِّدِيٌّ؟"
هُنَا بَلَغَ الْغَضَبُ بِالْفَتَاةِ ذَرْوَتَهُ، فَالْتَفَّتْ نَحْوَ الْحَاجِّ أَبِي مَحْمُودٌ، وَهَتَّفَتْ بِصَوْتٍ حَادٍّ:

"أَلَمْ تَجِدْ عَامِلًا أَذْكَى مِنْ هَذَا الْغَبِيِّ ؟ !هَلْ خَلَّتْ دِمَشْقُ مِنَ الْعُمَّالِ حَتَّى تَسْتَخْدِمُ هَذَا الْأَبْلَهِ؟"!

عِنْدَهَا، تَقْدَمُ الْحَاجُّ أَبُو مَحْمُودٍ بِخُطَاهِ الْهَادِئَةِ، وَقَالَ بِلُطْفٍ يَحْتَمِلُ الْغَضَبُ:

**" أَهَلًا وَسَهْلًا بِكُمْ! أَظُنُّ أَنَّكُمْ وَصَلْتُم إِلَى دِمَشْقِ بَعْدَ سَفَرٍ طَوِيلٍ، وَرُبَّمَا أَنَّكُمْ مُتْعِبُونَ.
أَتَمَنَّى أَنْ تَقْبَلُوا دَعْوَتَنَا لِكَأْسٍ مِنَ الشَّايِ، وَنَرْتَاحُ قَلِيلًا، وَنَتَحَدَّثُ بِهُدُوءٍ ".**

قَالَتِ الْفَتَاةُ بِانْفِعَالٍ شديد :

" شُكرًا على الاسْتِقْبالِ! واضِحٌ تَمامًا من طَريقةِ تَعامُلِ عامِلِكُمْ معنا كَيْفَ تَسْتَقْبِلون الضُّيوف في بَلَدِكُم"!

أجابَ الحاجُّ، وقد ظلَّ مُحْتَفِظًا بِنَبْرَتِهِ اللَّطيفةِ:

" أرْجو ألّا تَتسَرَّعي في الحُكْمِ، آنِسَتي الكَريمة! هذا الشّابُّ الّذي أمامَكِ هو في الواقِعِ خَلوقٌ ومُهَذَّبٌ، غيرَ أنَّهُ لم يَسْبِقْ له التَّعامُلُ مع الآنساتِ، فَهُنَّ لا يَدْخُلْنَ مَتجَرَنا، لِأنَّنا لا نَبيعُ بِالمُفرَّقِ، كما قالَ لَكِ الأُسْتاذُ نُعمان، وتَعامُلُنا يَنْحَصِرُ مع التُّجّارِ فقط".

صَرَخَت:

" لا يَعْنيني هذا! أنا أَدْفَعُ من مالي! وأنتَ كَصاحِبِ مَتْجَرٍ، يُفْتَرَضُ بِكَ أن تَحْرِصَ على بيعِ بَضاعَتِك، وهو كَعامِلٍ يَجِبُ أن يَهْتَمَّ بالزَّبائِن"!

أجابَها الحاجُّ بلُطْفٍ:

" كلامُكِ فيهِ شَيءٌ من المَنْطِقِ، لكِنِّي لم أرَ من هذا الشّابِّ سِوى حُسْنِ الخُلُقِ، رغمَ أنّكِ قُلْتِ له ما يُوجِعُ، ومعَ ذلك لم يُخْطِئْ. أَعْتَذِرُ مِنكِ عن سُوءِ الفَهْمِ".

ثم أشارَ إلى طَبَقِ الحَلْوَياتِ وَهُوَ يَقُوْلُ:

" بِالمُناسَبَةِ، اليومُ يَوْمٌ مُميَّزٌ لَنَا فِي هَذَا الْمَتْجَرِ، فَلَقَد نَجَحَ الأُسْتاذُ نُعمان في امْتِحاناتِ الشَّهادَةِ الثّانَويَّةِ الْعَامَةِ بِفَرْعِها الْعِلْمِيِّ، وجاءَنا بِهذِهِ الحَلْوَياتِ لِنَحْتَفِلَ. وكُنّا سَنَدْعو الجيرانَ لِنَحْتَفِلَ بِهِ، وَلَكِنْ طَالَمَا أنّكُم قد وَصَلْتُم قَبْلَهُم، فَمَرْحَبًا بِكُمْ بَيْنَنا".

سَكَتَتِ الفتاةُ لَحْظَةً، ثم قالت بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ:

" لا... لا، شُكرًا. نُريدُ فقط شِراءَ القُماشِ، وسَنُغادِرُ فَوْرًا".

قالَ الحاجُّ بِهُدوءٍ:

" كما تُريدين! ".ثم عادَ إلى مَكْتَبِه.

تَقَدَّمَتْ نَحْوَهُ قائلةً وقد غَيَّرَتْ من نَبْرَتِها:

" ألن تَطْلُبَ من عامِلِكَ أن يَبيعَنا قِطْعَةً من هذا القُماشِ؟"

" أَمْ هُوَ لَا يَسْمَعُكَ؟ ...... أَمْ تَرَاهُ يَنْتَظِرُ أَمْرًا لَا يَأْتِي؟

أجابَها:

" نَعْتَذِرُ. لا نَمْلِكُ سِجِلَّ فَواتيرٍ لِلْبَيْعِ بِالمُفَرَّقِ، كما أنّ الفَضَلاتِ لا تُباعُ لدينا".

تَمْتَمَتْ وهي تَنْظُرُ إلى نُعمان:

" مِنَ المُوَكَّدِ أن لا أحَدَ يَشْتَري مِنكُم شَيْئًا... طالَما تَعامُلُكُم على هذهِ الحال"...

ثم الْتَفَتَتْ لِلْحاجِّ وقالت:

" حَسَنًا، سَأَشْتَري الثَّوْبَ كامِلًا. أَنْزِلُوهُ لي".

طَلَبَ الحاجُّ من نُعمان تَنْفيذَ الطَّلَبِ، فأنْزَلَ الثَّوْبَ ووَضَعَهُ على الطّاوِلَةِ أمامَ مُعَلِّمِهِ، ثم عادَ إلى مَكانِهِ، وقد احْمَرَّتْ عَيْناهُ، كأنّما تُخَبِّئانِ دَمْعَةً تَأْبى السُّقوطَ.

تَفَحَّصَتِ الفتاةُ القُماشَ، وَلَفَّتْ شَيْئًا مِنهُ على جَسَدِها، ثُمَّ نَظَرَتْ إلى نَفْسِها في مِرآةٍ صَغيرةٍ أَخْرَجَتْها من حَقيبَتِها، وَالْتَفَتَتْ إلى والِدِها بِعَيْنَيْنِ تُخْفِيانِ حَديثًا طَويلًا لَمْ يَسْمَعْهُ سِواه، ثُمَّ قالَتْ لَهُ بِهَمْسٍ:

" هذا هو، بابا... تَمامًا كما أَرَدْتُ."

أَخْرَجَ الرَّجُلُ مِحْفَظَةً وَقَدَّمَ لِلْحاجِّ رُزْمَةً من المالِ، لكِنَّ الثَّمَنَ كانَ باهِظًا، فَلَمْ يَكُنِ المَبْلَغُ الّذي قَدَّمَهُ كافيًا. طَلَبَ إِرْجاءَ الدَّفْعِ رَيْثَما يَذْهَبُ إلى السَّيّارَةِ وَيعودُ.

عِنْدَها سَبَقَتِ الفَتاةُ وَقالَتْ لِنُعمانَ بِنَبْرَةٍ آمِرَةٍ:

" احْمِلِ الثَّوْبَ إلى السَّيّارَةِ، وَسَنَدْفَعُ هُناكَ."

تَجَمَّدَ نُعمانُ لَحْظَةً. كَيْفَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بَعْدَ كُلِّ ما قِيلَ؟

لٰكِنَّهُ كَتَمَ ما بِداخِلِهِ، وَأَخْفى كُلَّ ما يَشْتَعِلُ في صَدْرِهِ.

الْتَفَتَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ بِلُطْفٍ وَقالَ:

" مِنْ فَضْلِكَ، هَلْ يُمْكِنُكَ مُساعَدَتَنا في نَقْلِ الثَّوْبِ؟ لَنْ نُؤَخِّرَكَ، فَالسَّيّارَةُ قَريبَةٌ."

نَظَرَ نُعمانُ إلى مُعَلِّمِهِ، كَأَنَّهُ يَسْتَأْذِنُهُ لِيَقولَ شَيْئًا. ثُمَّ قالَ بِهُدوءٍ:

" يُمْكِنُكُمْ اسْتِئْجارُ أَحَدِ الحَمّالينَ مِنْ هُناكَ."

أَوْمى الحاجُّ بِرَأْسِهِ، وَقالَ بِابْتِسامَةٍ:

" لا داعي لِلْحَمّالينَ يا نُعمان، إِنَّهُ ثَوْبٌ واحِدٌ، وَهُوَ خَفيفُ الحَمْلِ كَما تَرى... فَقَطْ ضَعِ الثَّوْبَ في السَّيّارَةِ، وَاسْتَلِمْ تَتِمَةَ الْمَبْلَغِ، وَارْجِعْ بِسُرْعَةٍ."!

ثُمَّ قالَ الرَّجُلُ:

" لَوْ سَمَحْتَ، يا سَيِّدَ نُعمان."

خَفَضَ نُعمانُ رَأْسَهُ وَهُوَ يُرَدِّدُ بِصَمْتٍ: "فَقَطْ ضَعِ الثَّوْبَ في السَّيّارَةِ... وَاسْتَلِمِ الْمَبْلَغَ... وَارْجِعْ بِسُرْعَةٍ."

تَرَدَّدَ قَليلًا، ثُمَّ حَمَلَ الثَّوْبَ وَقَدْ أَثْقَلَهُ الصَّمْتُ وَالْحَرَجُ، وَخَرَجَ خَلْفَ الرَّجُلِ بِخُطًى بَطيئَةٍ، بَيْنَما كانَتِ الفَتاةُ قَدْ سَبَقَتْهُما بِخُطًى واثِقَةٍ، وَكَأَنَّها تَقولُ بِعَيْنِ الانْتِقامِ: "**اتْبَعْني**..." كانت تمشي أمامه، كمن تجرّ وراءها ما تراه ملكًا لها.

دقَّتِ السَّاعةُ الثَّانيةَ بعدَ الظُّهرِ، وَلَمْ يَعُدْ نُعمانُ إِلَى الْمَتْجَرِ بَعْد. كانَ وقتُ القَيْلولَةِ قَدْ حَلَّ، فَأَغْلَقَتْ مَتاجِرُ الجُملةِ أَبْوابَها، كَما هِيَ العادَةُ في ذاكَ السُّوقِ العَريقِ مِن دِمَشْقَ.

مَضَتْ ثَلاثُ ساعاتِ اسْتِراحَةِ الْغَداءِ ثَقيلَةً عَلَى الْحاجِ أَبي مَحْمُود، انْقَضَتْ خِلالَها اسْتِراحَةُ الغَداءِ، وَبَدَأَتِ المَتاجِرُ تَسْتَعيدُ نَبْضَها شَيْئًا فَشَيْئًا.

نزل من علّيّته، فوجد الباب ما زال موصدًا، كأنّ الغياب قد طال عمرًا. اسْتَوْقَفَهُ المَشْهَدُ لَحْظَةً، ثُمَّ اقْتَرَبَ وَفَتَحَهُ بِيَدِهِ، وَمَدَّ رَأْسَهُ خارِجًا، يَتَلَفَّتُ يَمينًا وَيَسارًا، كَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ شَبَحٍ غادَرَ لِلتَّوِّ.

ثُمَّ دَخَلَ بِخُطًى بَطيئَةٍ، يُفَتِّشُ في الزَّوايا وَغُرْفَةِ الخَدَماتِ، يُنادِي دُونَ صَوْتٍ، إِذْ لا أَثَرَ لِنُعمانَ.

جَلَسَ خَلْفَ مَكْتَبِهِ، يُقَلِّبُ أَفْكارَهُ، وَيُحَدِّقُ في الصَّمْتِ، لا شَيْءَ يَمْلَأُ المَكانَ سِوى عَقارِبِ السّاعَةِ وَهِيَ تَلْدَغُ الدَّقائِقَ بِبُطْءٍ. اسْتَقْبَلَ بَعْضَ الزَّبائِنِ على مَضَضٍ، وَأَخَذَ يُؤَجِّلُ تَنْفيذَ طَلَباتِهِمْ رَيْثَما يَعودُ عامِلُهُ، كَأَنَّهُ لا يُريدُ أَنْ يُنجِزَ شَيْئًا في غِيابِهِ.

طالَ الانْتِظارُ، وَكَأَنَّ السّاعاتِ تَنْهَشُهُ، حَتّى دَلَفَ نُعمانُ أَخيرًا.

دَخَلَ بِخُطًى مُثْقَلَةٍ، وَقَدْ لَفَحَتْ وَجْهَهُ شُحوبَةٌ غَريبَةٌ، كَأَنَّ دَهْراً مِن أَيّامِ العُمْرِ قَدْ عَبَرَ فَوْقَهُ وَأَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا لا يُسْتَرَدُّ.

لَمْ يَكُنِ التَّعَبُ وَحْدَهُ ما يُثْقِلُهُ، بَلْ شُعورٌ دَفينٌ بِالْمَهانَةِ ظَلَّ يَضْرِبُ قَلْبَهُ وَعَقْلَهُ عَلى السَّواءِ.

كانَ التَّعَبُ الجَسَدِيُّ يَسْكُنُ المَلامِحَ، أَمَّا في داخِلِهِ فَكانَ جُرْحٌ غَيْرُ مَرْئِيٍّ لا يَزالُ يَنْزِفُ، بَلْ وَيَلْتَهِبُ اشْتِعالًا.

أَشارَتِ السّاعَةُ إِلى السّابِعَةِ وَالنِّصْفِ مَساءً، حينَ وَضَعَ المالَ فَوْقَ طاوِلَةِ المَكْتَبِ أَمامَ مُعَلِّمِهِ بِصَمْتٍ.

رَفَعَ الحاجُّ عَيْنَيْهِ إِلَيْهِ وَقَدِ ارْتَسَمَ عَلى وَجْهِهِ مَزيجٌ مِنَ الاسْتِغْرابِ وَالقَلَقِ، وقالَ بِصَوْتٍ حانٍ:

" أَيْنَ كُنْتَ يا بُنَيَّ؟.... لِمَ تَأَخَّرْتَ كُلَّ هَذا الْوَقْتَ؟.... ماذا جَرى مَعَكَ؟...."

لَكِنَّ نُعمانَ لَمْ يُجِبْ. مَضى بِهُدوءٍ نَحْوَ البَرّادِ الصَّغيرِ، تَناوَلَ زُجاجَةَ ماءٍ وَشَرِبَها دَفْعَةً واحِدَةً، ثُمَّ جَلَسَ لَحْظَةً دُونَ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ. بَعْدَها، نَهَضَ وَبَدَأَ يَتَهَيَّأُ لِإِغْلاقِ المَتْجَرِ، كَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُسْدِلَ السِّتارَ عَلى هٰذا اليَوْمِ بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُ.

كانَ يَوْمًا طَويلًا... اسْتِثْنائِيًّا بِكُلِّ ما فيهِ. وَحينَ اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ مِنَ الثّامِنَةِ مَساءً، وَدَّعَهُ الحاجُّ، وَغادَرَ عائِدًا إِلى مَنْزِلِهِ، تارِكًا خَلْفَهُ نُعمانَ يُنْهي تَرْتيباتِ الإِغْلاقِ.

أَغْلَقَ نُعْمانُ المَتْجَرَ بِعِنايَةٍ، وَقَفَلَ البابَ الأَوْسَطَ، ثُمَّ تَفَقَّدَ الأَقْفالَ الجانِبِيَّةَ مِنَ الخارِجِ. الْتَفَتَ مَرَّةً أَخِيرَةً نَحْوَ الدّاخِلِ، ثُمَّ مَضى في طَريقِهِ، يُجَرُّ قَدَمَيْهِ الْمُتْعَبَتَيْنِ نَحْوَ مَوْقِفِ الباصِ.

صَعِدَ الحافِلَةَ، وَجَلَسَ قُرْبَ النّافِذَةِ، يُحَدِّقُ بِصَمْتٍ في العَتْمَةِ مِن خِلالِ الزُّجاجِ المَخْدوشِ، كَأَنَّهُ يُفَتِّشُ في الظَّلامِ عَنْ صُوَرٍ تَمْلَأُ رَأْسَهُ وَلا يَراها سِواهُ. وَبَيْنَما كانَ السّائِقُ يَسْتَعِدُّ لِلانْطِلاقِ، صَعِدَ الحاجُّ أَبو مَحْمودٍ فَجْأَةً، وَكَأَنَّهُ جاءَ يَبْحَثُ عَنْ أَحَدٍ.

فَنُعْمانُ هُنا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنا فَيَنْتَبِهَ إِلى مُعَلِّمِهِ أَوْ سِواهُ مِمَّنْ هُم عَلى مَتْنِ هٰذِهِ الحافِلَةِ، ما زالَ يَنْظُرُ إِلى العَتْمَةِ الَّتي تَرْتَسِمُ خَلْفَ الزُّجاجِ لا يُحَرِّكُ ساكِنًا.

جَلَسَ الحاجُّ إِلى جانِبِهِ، دُونَ أَنْ يَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ.

ظَلَّ نُعْمانُ شارِدًا، عَيْناهُ مُعَلَّقَتانِ بِشَيْءٍ لا يُرى، شَيْءٍ لا اسْمَ لَهُ وَلا مَلامِحَ. اقْتَرَبَ الجابي لِيَجْمَعَ الأُجْرَةَ، فَأَخْرَجَ الحاجُّ نُقودَهُ بِهُدوءٍ، وَأَشارَ إِلى الجابي قائِلًا:

" راكِبَيْنِ." وَلَمْ يَزِدْ.

مَضَتْ ساعَةٌ تَقْرِيبًا، كانَ الصَّمْتُ فيها سَيِّدَ الحافِلَةِ. وَعِنْدَما اقْتَرَبَتِ المَحَطَّةُ الَّتي يَنْزِلُ عِنْدَها الحاجُّ، قالَ بِصَوْتٍ جَهُورِيٍّ لِلسّائِقِ:

" المَوْقِفُ التّالِي، لَوْ سَمَحْتَ."

الْتَفَتَ نُعْمانُ نَحْوَهُ بِانْدِهاشٍ لَمْ يَسْتَطِعْ إِخْفاءَهُ، فَقَدْ أَدْرَكَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ فَقَطْ أَنَّ مُعَلِّمَهُ كانَ جالِسًا إِلى جانِبِهِ طِوالَ الوَقْتِ. زادَ ذٰلِكَ مِن ارْتِباكِهِ، فَتَحَوَّلَتْ نَظَراتُهُ إِلى سُؤالٍ صامِتٍ لَمْ يَجِدْ لَهُ جَوابًا.

هَمَسَ لَهُ الحاجُّ وَهُوَ يَسْتَعِدُّ لِلنُّزولِ:

" دَفَعْتُ عَنْكَ الأُجْرَةَ..."

ثُمَّ أَرْدَفَ بِلُطْفٍ لَمْ تَخْلُ نَبْرَتُهُ مِن دِفْءٍ:

" لا تَنْسَ أَنْ تَأْخُذَ مَعَكَ طَبَقَي الحَلْوى إِلى البَيْتِ..."

وَهَمَّ بِالنُّزولِ، وَلٰكِنَّهُ تَوَقَّفَ فَجْأَةً، وَالْتَفَتَ إِلَيْهِ بِابْتِسامَةٍ رائِقَةٍ، وَقالَ:

" وَانْتَبِهْ لَهُما جَيِّدًا! كَيْ لا تَنْساهُما... كَما نَسِيتَهُما في المَحَلِّ قَبْلَ قَليلٍ!"

ثُمَّ لَوَّحَ لَهُ بِيَدِهِ مُوَدِّعًا، تارِكًا خَلْفَهُ أَثَرًا دافِئًا يَتَرَدَّدُ في قَلْبِ الشّابِّ كَأَنَّهُ يَعْتَذِرُ لَهُ بِصَمْتٍ لا يُنْسى.

عادَ نُعمانُ إلى بَيْتِهِ كَما اعْتادَ في ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ المَساءِ، تُحيطُ بِهِ ظِلالُ التَّعَبِ وَخُيوطُ الحَنينِ، فَاسْتَقْبَلَتْهُ أُمُّهُ عِندَ البابِ بِابْتِسامَةٍ دافِئَةٍ طالَما انْتَظَرَتْ أَنْ تُزْهِرَ عَلى وَجْهِها. كانَتْ تَنْتَظِرُهُ، لا لِتُعاتِبَهُ عَلى التَّأَخُّرِ، بَلْ لِتُهْدِيَهُ فَرَحَ القَلْبِ في لَيْلِ النَّجاحِ.

وَجْهُها الْمُتْعَبُ بدا مُشْرِقًا، كَأَنَّ التَّعَبَ فيهِ زِينَةُ الْمَحَبَّةِ، وَقَدْ أَمْضَتِ النَّهارَ مُنْهَمِكَةً في إِعْدادِ مائِدَةٍ تَلِيقُ بِابْنِها الْمُجْتَهِدِ، ذٰلِكَ الَّذي لَمْ يَهُدَّهُ الجُهْدُ، بَلْ صَقَلَهُ.

الْتَفَّ إِخْوَتُهُ الصِّغارُ حَوْلَها، يُلاحِقُونَ بِعُيُونِهِم خُطُواتِها، وَيَشُمُّونَ رائِحَةَ الطَّعامِ الَّتي كانَتْ تَتَسَرَّبُ مِنَ الأَبْوابِ وَالنَّوافِذِ، كَما لَوْ أَنَّها بُشارَةُ يَوْمِ عيدٍ. لَمْ يَكُونُوا يَنْتَظِرُونَ العَشاءَ وَحْدَهُ، بَلْ لَحْظَةَ اللِّقاءِ، وَفَرْحَةَ انْتِصارِ نُعْمانَ.

دَلَفَ إِلى البَيْتِ بِخُطىً ثَقِيلَةٍ، أَلْقَى السَّلامَ بِصَوْتٍ خافِتٍ، مُبَلَّلٍ بِشَيْءٍ مِنَ الإِرْهاقِ وَالْخُذْلانِ... غَيْرَ أَنَّهُ، حينَ الْتَقَتْ عَيْناهُ بِوَجْهِ أُمِّهِ الْمُضيءِ وَوُجُوهِ إِخْوَتِهِ الطّافِحَةِ بِالْبِشْرِ، شَعَرَ بِدِفْءٍ يَنْسابُ في صَدْرِهِ، يُطْرِدُ عَنْهُ التَّعَبَ وَالْمَرارَةَ. ابْتَسَمَ ابْتِسامَةً خَجُولَةً، وَمَدَّ يَدَيْهِ يُقَدِّمُ طَبَقَيْ الحَلْوَى كَأَنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِم قَلْبَهُ مُحَمَّلًا بِالامْتِنانِ.

ما إِنْ رَأى الأَطْفالُ الحَلْوَى حَتّى انْطَلَقَتْ صَيحاتُ الفَرَحِ، وَهَرَعُوا نَحْوَها تارِكِينَ المائِدَةَ الَّتي طالَما انْتَظَرُوها. حاوَلَتِ الأُمُّ أَنْ تَضبِطَ المَشْهَدَ، رَفَعَتْ أَحَدَ الطَّبَقَيْنِ وَقالَتْ بِرِفْقٍ: "يَكْفِي هٰذا الطَّبَقُ لِلْجَمِيعِ... رُبَّما لِيَوْمَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ!"، وَلَكِنَّ الصِّغارَ كانُوا قَدْ غَرِقُوا في عالَمٍ مِنَ السُّكَّرِ وَالدَّهْشَةِ.

طَلَبَ نُعْمانُ مِن أُمِّهِ أَنْ تَتْرُكَ لَهُمْ حُرِّيَّتَهُمْ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ جَلَسَ إِلى جِوارِها يَتَناوَلُ العَشاءَ بِهُدوءٍ، وَعَيْناهُ تَتَنَقَّلانِ بَيْنَ وُجُوهِ إِخْوَتِهِ الصَّغِيرَةِ، تُضِيءُ في صَدْرِهِ أَنْوارٌ مِنَ الرِّضى.

قالَتْ أُمُّهُ وَهِيَ تُقَطِّعُ لَهُ الخُبْزَ وَتُناوِلُهُ إِيّاهُ:

" سَعادَتِي لا تُوصَفُ يا بُنَيّ، لَقَدْ رَفَعْتَ رَأْسِي عالِيًا."

أَجابَها مُبْتَسِمًا وَهُوَ يُشِيرُ إِلى إِخْوَتِهِ:

" هُنا، مَعَهُمْ، أَجِدُ السَّعادَةَ الحَقِيقِيَّةَ... انْظُرِي كَيْفَ يُعَبِّرُونَ عَنْ فَرَحَتِهِم!"

ضَحِكَتِ الأُمُّ وَقالَتْ:

" لَقَدِ انْتَظَرُوا الطَّعامَ بِالسّاعاتِ، يَشُمُّونَ رائِحَتَهُ بِأُنُوفِهِم، وَيُراقِبُونَنِي بِأَعْيُنِهِم، ثُمَّ تَرَكُوهُ كُلَّهُ مِن أَجْلِ حَلْوَى نَجاحِكَ."

تَدَخَّلَتْ أُخْتُهُ الْكُبْرَى بِفَخْرٍ:

" لَكِنَّني ساعَدْتُكِ يا أُمِّي، لا تَنْسَيْ!"

وَرَدَّ أَخُوهُ الصَّغِيرُ:

" وَأَنَا ذَهَبْتُ إِلى السَّمّانِ لِأَشْتَرِي زَيْتَ الزَّيْتُونِ!"

ثُمَّ تَناوَبَ الإِخْوَةُ عَلى سَرْدِ مُساهَماتِهِم، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَرْفَعُ رايَةَ الْمُشارَكَةِ عَلى طَرِيقَتِهِ.

ضَحِكَ نُعْمانُ وَقالَ بِعَفْوِيَّةٍ:

" أَنْتُمْ أَطْيَبُ إِخْوَةٍ فِي الدُّنْيا... شُكْرًا لَكُمْ، وَشُكْرًا لَكِ يا أُمِّي، وَلِأَبِي. لَوْلا دَعْمُكُمْ، وَصَبْرُكُمْ، وَهُدُوؤُكُمْ حِينَ كُنْتُ أُذاكِرُ، لَما وَصَلْتُ إِلى ما أَنا عَلَيْهِ. لَكِنْ... انْتَبِهُوا! عَلَيْكُمْ أَنْ تَهْتَمُّوا أَنْتُمْ أَيْضًا بِدِراسَتِكُمْ... وَاتْرُكُوا بَعْضَ الْحَلْوَى لِأَبِي وَأُمِّي!"

احْتَجَّتْ أُخْتُهُ الصَّغِيرَةُ، وَهِيَ تَحْتَضِنُ الطَّبَقَ بِيَدَيْها:

" لا تَقُلْ إِنَّكَ سَتُبْقِي شَيْئًا لِأَوْلادِ الْجِيرانِ أَيْضًا! هُمْ لا يُعْطُونَنا شَيْئًا أَصْلًا!"

أَشارَتِ الأُمُّ بِيَدِها قائِلَةً بِرِفْقٍ حازِمٍ:

" لا يا ابْنَتِي، نَحْنُ لا نَنْظُرُ إِلى ما فِي أَيْدِي غَيْرِنا... نَحْنُ نَرْضى، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ."

وَانْطَلَقَتِ الضَّحِكاتُ مِنْ هُنا وَهُناكَ، تَمْلَأُ الزّاوِيَةَ الصَّغِيرَةَ بَهْجَةً، حَتّى قامَتِ الأُمُّ تَجْمَعُ الصُّحُونَ وَتَقُولُ بِنَبْرَةٍ فِيها مَحَبَّةٌ وَحَنانٌ:

" الآنَ، يَغْسِلُ كُلٌّ مِنْكُمْ يَدَيْهِ وَفَمَهُ، وَيُنَظِّفُ أَسْنانَهُ، وَيَذْهَبُ إِلى فِراشِهِ. وَغَدًا... نَسْمَعُ مِنْكُمْ أَحْلامَكُمْ."

ضَحِكَتِ الصَّغِيرَةُ وَقالَتْ مُداعِبَةً:

" لا يا أُمِّي! أُرِيدُ أَنْ أَنامَ وَطَعْمُ الْحَلْوَى فِي فَمِي... لِأَحْلُمَ بِها!"

ابْتَسَمَتِ الأُمُّ وَقالَتْ مُمازِحَةً:

" وَهَلْ تُرِيدِينَ أَنْ تَتْرُكِي وَحْشَ التَّسَوُّسِ يَمْرَحُ فِي فَمِكِ؟ اغْسِلِي فَمَكِ، وَإِلّا... لَنْ نَسْمَعَ حُلْمَكِ صَباحًا بِسَبَبِ الرّائِحَةِ!"

حِينَ عَمَّ السُّكُونُ الْبَيْتَ، وَكانَ الْجَمِيعُ قَدْ ناموا، عادَ الأَبُ مِنْ عَمَلِهِ، بادِيَةٌ عَلَيْهِ أَماراتُ التَّعَبِ. جَلَسَتِ الأُمُّ إِلى جِوارِهِ تُخْبِرُهُ بِكُلِّ ما جَرى، وَقَدَّمَتْ لَهُ طَبَقًا صَغِيرًا مِنَ الْحَلْوَى، وَضَعَتْهُ فِي صَحْنٍ نُحاسِيٍّ قَدِيمٍ احْتَفَظَتْ بِهِ مِنْ جِهازِ زِفافِها.

سَأَلَ الأَبُ مُسْتَغْرِبًا:

" مِنْ أَيْنَ أَتى نُعْمانُ بِثَمَنِ هٰذِهِ الْحَلْوَياتِ الْفاخِرَةِ؟"

أَجابَتْهُ الأُمُّ بِهُدُوءٍ:

" لَمْ أَسْأَلْهُ... هُوَ يَعْمَلُ، وَالْيَوْمَ ناجِحٌ وَسَعِيدٌ، وَلَمْ أَرْغَبْ بِإِفْسادِ فَرَحَتِهِ."

قالَ الأَبُ وَهُوَ يُطالِعُها بِتَأَمُّلٍ:

" رَأَيْتُ عُلْبَتَيْنِ مِنْ مَحالٍّ مَعْرُوفَةٍ... أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ كَيْفَ حَصَلَ عَلَيْهِما."

قالت الأمُّ برقةٍ مطمئنة:

" سأسألهُ صباحًا. دع فرحته تبقى صافيةً الليلة".

أومأ الأبُ برأسه وقال مبتسمًا:

" فقط لا تنسي أن تُرسلي قليلاً منها لوالديَّ، وإخوتي، وأولادهم، ومن تشائين أن تشاركيه فرحة النجاح".

أجابت الأمُّ وهمستْ برضا:

" كنتُ سأفعل، ولكن الكمية لا تكفي كل هؤلاء!".

وبعد أن أنهت أعمالَ المطبخ، تمدّدت بجواره، وغلبَهما صمتٌ ناعمٌ يشبه الدعاء.

قبل الفجر، استيقظ نُعمان، توضّأ، ثم فرشَ سجادته في زاويةٍ بعيدةٍ عن أقدامِ إخوته، وصلّى ركعتين. رفع رأسه نحو والده النائم، وتمتم بصوتٍ منخفض:

" لا تقلق، يا أبي... أنا كما عهدتني، بإذن الله".

عاد إلى فراشه، قرأ المعوّذتين، ثم أغمض عينيه.

عند أول أذانٍ للفجر، نهض مجددًا، توضأ، وصلّى، ثم أيقظ إخوته بلطفٍ، وساعدهم في تجهيز أنفسهم. جهّز المائدةَ بصمتٍ: خُبز، زيتون، زعتر، لبن، وشاي. ثم أخرج من جيبه ثلاث ورقاتٍ نقدية ومدّها نحو أمّه قائلاً:

" أعطاني معلّمي مئة ليرةٍ لأشتري بها الحلوى، ثم أهداني هذه الثلاث أوراق... قال إنها هدية نجاحي. هذه كلُّ النقودِ يا أمي".

أخذتها الأمُّ، وقبّلت رأسه:

" هي لك يا ولدي، هذه فرحتك... وفرحتنا بك تكفينا".

ثُمَّ الْتَفَتَتْ إِلى باقي إِخْوَةِ نُعْمانَ وَقالَتْ بِحَزْمٍ يَشُوبُهُ الْحَنانُ:

" وَأَنْتُمْ، هَلْ تَعِدونَنِي أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُ؟"

هَتَفُوا جَمِيعًا:

" نَعَمْ يا أُمِّي!"

لَكِنَّ نُعْمانَ كانَ شارِدًا، سَأَلَتْهُ الأُمُّ:

" بِمَ تُفَكِّرُ يا بُنَيَّ؟"

أَجابَ بِصَوْتٍ هادِئٍ:

" أُفَكِّرُ أَنْ أَتْرُكَ الْعَمَلَ لَدَى السَّيِّدِ أَبِي مَحْمُودٍ، لِأَسْتَعِدَّ لِتَقْدِيمِ أَوْراقِي إِلى الْجامِعَةِ في دِمَشْقَ... أَوْ إِلى مَعْهَدٍ مُتَوَسِّطٍ عَلَى الْأَقَلِّ."

قالَتِ الأُمُّ بِصَوْتٍ مُطْمَئِنٍّ:

" سَأَتَحَدَّثُ مَعَ والِدِكَ، وَأَظُنُّهُ لَنْ يُمانِعَ. أَنْتَ أَدْرَى بِمُسْتَقْبَلِكَ، يا نُعْمانُ."

دَخَلَ الأَبُ الْمَطْبَخَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَقالَ:

" صَباحُ الْخَيْرِ!"

رَدَّ الْجَمِيعُ بِصَوْتٍ واحِدٍ:

" صَباحُ الْخَيْرِ يا بابا!"

جَلَسَ إِلى جِوارِ نُعْمانَ، وَرَبَتَ عَلَى كَتِفِهِ:

" مُبارَكٌ نَجاحُكَ يا وَلَدِي!"

قَبَّلَ نُعْمانُ يَدَ أَبِيهِ وَهَمَسَ:

" بارَكَ اللَّهُ فِيكُما يا أَبِي وَأُمِّي."

ثُمَّ اسْتَأْذَنَ لِلذِّهابِ، فَوَقَفَ الأَبُ مَعَهُ عِنْدَ الْبابِ وَقالَ بِهُدُوءٍ:

" لا تَخَفْ مِنْ شِدَّتِي... أَنا فَقَطْ أَخافُ عَلَيْكَ. سَمِعْتُ حِوارَكَ مَعَ والِدَتِكَ... الْقادِمُ هُوَ مُسْتَقْبَلُكَ، وَأَنْتَ أَدْرَى بِهِ... وَأَنا واثِقٌ بِكَ."

ثُمَّ رَبَتَ عَلَى كَتِفِهِ وَأَضافَ:

" رافَقَتْكَ السَّلامَةُ."

غادَرَ نُعْمانُ باكِرًا، مُتَّجِهًا إِلى عَمَلِهِ، بَيْنَما عادَ الأَبُ إِلى سَرِيرِهِ لِيَسْتَكْمِلَ نَوْمَهُ حَتّى الثّامِنَةِ. فِي تِلْكَ السّاعَةِ، بَدَأَ إِخْوَةُ نُعْمانَ اسْتِعْدادَهُمْ لِلذِّهابِ إِلى الْكُتّابِ، تِلْكَ الْبُيُوتِ الصَّغِيرَةِ في الْحَيِّ، حَيْثُ تُعَلِّمُهُمْ امْرَأَةٌ مُسِنَّةٌ تُعْرَفُ بِـ" الْخَجا"، تَحْفَظُ مِنْ جُزْءِ "عَمَّ" وَ"تَبارَكَ"، وَتُلَقِّنُهُمْ إِيّاهُ بِصَبْرٍ وَمَحَبَّةٍ.

وَحينَ يَنْقَضِي صَخَبُ الصَّباحِ، وَتَفْرُغُ الأُمُّ مِنْ أَعْمالِها، تَجْلِسُ إِلى ماكينةِ الأَغْبانِي، تُطَرِّزُ بِخُيُوطِ الْحَرِيرِ الْمُلَوَّنَةِ عَلَى قِطَعِ الْقُماشِ، تَنْسُجُ رِزْقَها بِالإِبْرَةِ، كَما اعْتادَتْ مُنْذُ سَنَواتٍ.

كانَتْ تَطْرِيزاتُ الأَغْبانِي مَصْدَرَ رِزْقٍ لَها. تَتَسَلَّمُ الْقِطَعَ وَالْخُيُوطَ مِنْ أَصْحابِ الْعَمَلِ، وَتُعِيدُها مُخَرَّمَةً بِزِينَةٍ رَفِيعَةٍ مِنْ صُنْعِ يَدَيْها، يُرافِقُها أَحيانًا أَحَدُ أَبْنائِها لِحَمْلِ الْقِطَعِ، وَقَدْ كانَ نُعْمانُ يَفْعَلُ ذلِكَ لِسَنَواتٍ، حَتّى صارَ الدَّوْرُ الْيَوْمَ عَلَى أَخِيهِ الأَصْغَرِ.

كانَ الصَّباحُ قد بَزَغَ لِلتَّوِّ على أَزِقَّةِ دِمَشْقَ القَديمَةِ، حينَ دَخَلَ نُعْمانُ مَتْجَرَ الأَقْمِشَةِ كَعادَتِهِ، مُبَكِّرًا، يَسْبِقُ حَتّى هَمَساتِ النُّورِ الأُولَى. فَتَحَ الأَقْفالَ بِيَدٍ خَبيرَةٍ، ثُمَّ شَرَعَ يُنَظِّفُ الأَرْضِيَّةَ، وَيُعِيدُ تَرْتِيبَ القُماشِ بِحِرْصٍ يُشْبِهُ مَن يُنَقِّبُ عَنْ كَنْزٍ دَفِينٍ.

وَقَبْلَ وُصُولِ مُعَلِّمِهِ، غَلَى الماءَ وَأَعَدَّ لَهُ كُوبًا مِنَ الأَعْشابِ الزَّهْرِيَّةِ، كَما اعْتادَ أَنْ يَفْعَلَ كُلَّ صَباحٍ.

دَخَلَ الحاجُّ أَبو مَحْمُودٍ، صاحِبُ الْمَتْجَرِ، مُرَدِّدًا تَحِيَّتَهُ الْمُعْتادَةَ بِصَوْتٍ ثابِتٍ:

" صَباحُ الْخَيْرِ!"

فَأَجابَهُ نُعْمانُ بِخُفُوتٍ مائِلٍ إِلى الأَدَبِ:

" صَباحُ النُّورِ، يا مُعَلِّمِي."

غَيْرَ أَنَّ الحاج فاجَأَهُ هَذا الصَّباحَ بِابْتِسامَةٍ خَفِيفَةٍ وَنَبْرَةٍ وادِعَةٍ:

" الْيَوْمَ... أَرْغَبُ في قَهْوَةٍ بَدَلًا مِنَ الأَعْشابِ. وَسَنَشْرَبُها سَوِيًّا. هَلْ تُجِيدُ إِعْدادَ الْقَهْوَةِ؟"

أَجابَ نُعْمانُ وَهُوَ يَتَّجِهُ إِلى الْغُرْفَةِ الصَّغِيرَةِ:

" بِالطَّبْعِ يا مُعَلِّمِي، لَكِنْ... سامِحْنِي، لا أَرْغَبُ بِشُرْبِ الْقَهْوَةِ."

وَصَلَهُ صَوْتُ الحاج مِنْ خَلْفِ الْبابِ، تَتَدَلَّى مِنْهُ ابْتِسامَةٌ خَفِيَّةٌ:

" سَتَشْرَبُها، وَلَنْ تَرْفُضَ لِي طَلَبًا كَما عَهِدْتُكَ. أَلَيْسَ كَذلِكَ؟"

فَرَدَّ نُعْمانُ بِابْتِسامَةٍ مُتْعَبَةٍ:

" حَسَنًا... كَما تَشاءُ، يا مُعَلِّمِي."

ثُمَّ تَمْتَمَ في داخِلِهِ:

" وَما طَعْمُ الْقَهْوَةِ دُونَ سِيجارَةٍ؟! إِنَّهُما تَوْأَمانِ لا يَفْتَرِقانِ..."

سَأَلَهُ الحاج عَنْ كَمِّيَّةِ السُّكَّرِ، فَأَجابَهُ نُعْمانُ:

" كَما تُحِبُّها أَنْتَ."

وَبَعْدَ دَقائِقَ، عادَ نُعْمانُ يَحْمِلُ صِينِيَّةً صَغِيرَةً، عَلَيْها فِنْجانانِ مِنَ الْقَهْوَةِ وَكَأْسُ ماءٍ بارِدٍ. وَضَعَها عَلَى طاوِلَةِ الأَدْراجِ الصَّغِيرَةِ، وَقَدَّمَ الْفِنْجانَ الأَوَّلَ لِلحاج قائِلًا بِابْتِسامَةٍ مُصْطَنَعَةٍ:

" تَفَضَّلْ يا مُعَلِّمي..."

رَمَقَهُ بِنَظْرَةٍ مُتَفَحِّصَةٍ ثُمَّ قالَ مُسْتَغْرِبًا:

" أَراكَ عَلى غَيْرِ عادَتِكَ هَذا الصَّباحِ. أَيَجُوزُ لِي أَنْ أَعْرِف السَّبَبَ؟"

تنفّس نُعمانُ قليلًا، ثمّ أجاب محاولًا أن يُخفي ما به من توتُّر:

" لا شيء... سوى أني واثقٌ بأنّكَ لستَ من رُفقاءِ القهوة".

ضحكَ ضحكةً قصيرةً وقال:

" صحيحٌ ما تقول، لكنّني اليومَ أردتُ فنجانًا بصُحبتِكَ، وتفاصيلَ ما جرى مساءَ الأمس. تحدّثْ إليَّ عن فترة غيابك عن المتجر منذ مغادرتك حاملاً ثوب القماش .. حتّى عودتك ما قبل موعد الاغلاق ليلاً".

نظرَ إليه نُعمانُ مليًّا، ثمّ قال:

" لكن، يا معلّمي... هل ستغضبُ إذا طلبتُ منك ثلاثَ أشياء؟"

رفعَ الحاج حاجبَيْه وقال:

" هذه المرّة فقط... لن أغضب. تفضّل، قُل ما عندك".

تنحنحَ نُعمانُ وقال:

" أولًا، أعذرني، لا أودُّ الحديث عمّا جرى أمس. ثانيًا، أودُّ إعادة المبلغ الذي منحتني إيّاه، ويكفيني ما تكرّمتَ به ثمَنًا للحلويات".

ووضعَ ثلاثَ أوراقٍ نقديّةٍ أمامَ معلمه بهدوء.

نظر إليه الحاج قليلًا ثم قال:

" وثالثًا؟"

ردَّ نُعمانُ بصوتٍ يختلطُ فيه العزمُ بالحزن:

" أرجو أن تبحثَ عن عاملٍ جديدٍ للمتجر، وسأبقى في خدمتكَ ريثما تجدُ البديل"...

صمتَ اَلحَاج لحظةً، كأنّه يقرأُ ما بينَ السطور، ثم قال بنبرةٍ أكثر هدوءًا:

" وماذا أيضًا؟"

وفي تلك اللحظة، دَخَلَ المتجرَ رجلٌ بدا عليه الوقار، تقدّم نحوهما ببطءٍ وقال بأدبٍ جمٍّ:

"السّلام عليكم... أرجو المعذرة، هل تسمحان لي بالانضمام إليكما؟"

وقفَ الحاجُّ أبو محمود يُجيبُه مرحّبًا:

" وعليكم السلام ورحمةُ اللهِ وبركاته، أهلًا وسهلًا بك. كُنّا على وشكِ الحديث عمّا جرى مساءَ الأمس... تفضّل بالجلوس".

في هذه الأثناء، حملَ نُعمانُ الفناجينَ والكأسَ إلى الغرفةِ الجانبيّة، وجلسَ يُكمِلُ فنجانَه بصمتٍ ثقيل، يعتملُ في صدرِه شعورٌ حارقٌ بالرفض، إذ لم يستسغْ قبولَ معلّمه انضمامَ هذا الرجل، الذي لزمَ الصمتَ حين أساءت ابنتُه التصرفَ أمام الناس.

طلبَ الرجلُ من اَلحَاج أن يُحادثه على انفراد، فاستدار الحاجُّ أبو محمود، ونادى بصوتٍ عالٍ:

" أستاذ نُعمان، يا بُنيّ! أحضِر لنا بعضَ الحلويات من المحلّ الذي اشتريتَ منه بالأمس... خُذ النقودَ عن الطاولة".

غادر نُعمانُ المتجرَ، ثمّ عاد بعدَ نحو نصفِ ساعةٍ يحملُ طبقًا من البقلاوة، وضعَه في صحنٍ صغير، ثم قدّمه لمعلّمه دونَ أن ينطقَ بكلمة، وخرج مسرعًا، ليقفَ على الرصيفِ المقابل، بعيدًا عن أنظارِ من في الداخل، وأشعلَ سيجارةً ينتظرُ أن يغادرَ الرجل.

دخلَ الزبائنُ واحدًا تلو الآخر، اَلحَاج كان يُشيرُ إليهم بالانتظار ريثما يعود نُعمان.
أحدُ الزبائن نادى حمّالًا، وسرعانَ ما وصل الأخيرُ يسأل عن نُعمان، فأشارَ إليه الحمالُ قائلًا:
"إنّه هناك، على الرصيف".

قال الزبون:

" من فضلك! نادِه، ليُرشدك إلى البضاعة التي جهّزها لي، وانقلها إلى سيارتي. هذا أجرُك سلفًا"...
وأشارَ إلى سيارتِه البيضاء خلفَ شاحنةٍ قريبة، ثمّ تابع:

" البابُ الخلفيُّ مفتوح، فانتبهْ إلى البضاعة".

استدارَ الحمالُ ينادي:

" يا سيد نُعمان! لا تقطعْ رزقَنا، لدينا عمل"!

دخلَ نُعمانُ بصمتٍ، وأشار إلى صندوقٍ كرتونيّ كبيرٍ:

" احملْ هذا، وضعه في سيارة التاجر أبي سعيد، وارجع إن شئتَ مزيدًا من العمل".

توالى الزبائنُ بالسؤال، فكان نُعمانُ يُجيبهم بأدبٍ وصبر. أحدُهم أراد ثوبًا أعاده من قبل، فأجابه نُعمانُ معتذرًا:

" للأسف يا أبا زُهير، لقد بِعنا الثوبَ بالأمس".

رجا التاجرُ أن يؤمَّنَ له واحدٌ بسرعةٍ، فالتفتَ نُعمانُ إلى معلمه، الذي تولّى الحديث مع الزبون ووعدهُ بالمحاولة.

بقيَ الرجلُ الغريبُ في مكانِه يراقبُ نُعمان بصمتٍ ثقيل، فيما هو يتظاهرُ بأنّه لا يراه، ويُطيلُ الوقوفَ عندَ الباب.

ناداهُ الحاجُّ أبو محمود أخيرًا، فاقتربَ نُعمانُ يُجيبُ بلطفٍ:

" نعم يا معلّمي، هل أُحضِرُ لك شيئًا؟"

قال اَلحَاج أبو محمود، مشيرًا إلى الرجل:

" لا... لكنّ السيّد أحمد يريدُ منك أمرًا".
تنهّدَ نُعمانُ وهو يقول:

" خيرًا إن شاء الله، ماذا يريد بعد؟"

وقفَ اَلحَاج يُعدّلُ ثوبَه ويقول بابتسامةٍ ساكنة:

" حانَ وقتُ الصلاة، سأذهبُ إلى المسجد".

ثم تناولَ حقيبةَ يدٍ صغيرةً تحتوي على منشفةٍ وشحّاطة، وتوجه نحو الباب مودّعَاً لهما بابتسامةٍ خفيفةٍ وهو يُغادر، تاركًا نُعمانَ على أعتابِ لحظةٍ جديدة... لا تشبهُ ما سبقها من أوقات الظهيرة.

مدَّ الرَّجلُ يده مُبتسمًا، وهو يقول بصوتٍ هادئٍ:
" السَّلامُ عليكم".

رفع نُعمانُ بصرَه إليه، وردَّ التَّحيَّةَ باقتضاب، ثمَّ صافحه ببطءٍ، كأنَّ شيئًا في داخله يُثنيه، لكنَّه ما لبث أن لبَّى واجب اللِّقاء.

جلسَ الزَّائرُ وقد رفعَ يديه قليلاً، كأنَّه يطلبُ إذنًا بالجلوس، ثمَّ قال بصوتٍ لم يَخلُ من التَّردُّد:
" أخبرني عنكَ الحاجُّ أبو محمود، صاحبُ المتجرِ، حسبَما فهمتُ... إنَّك شابٌّ ملتزمٌ، إلى حدٍّ لا تنظر فيه إلى أيٍّ من المارَّةِ في طريقكَ، بقدرِ ما ترى غايتَكَ التي تمضي نحوها، وهدفَكَ الذي تقصده... حدثني عنك كثيرًا. وأجد أن قد حانَ الوقتُ لنتعرَّفَ إلى بعضٍ أكثر عن قرب".

ثم تنفَّسَ قليلًا، وأضاف:
" لن آخذَ من وقتكَ الكثير، فأنا أدركُ ما لديك من واجبات.
اسمي أحمد عبد الكريم، مهندسٌ إنشائيٌّ، مسلمٌ سنِّيٌّ، في الخامسةِ والأربعين من العمر، من مدينة بيروت. لديَّ مكتبٌ هندسيٌّ هناك، وأُساهِمُ شريكًا في واحدةٍ من كبرى شركاتِ التَّعهداتِ الإنشائيَّة، كان قد أسَّسَها والدِ زوجتي الرَّاحلة رحمها الله منذ زمنٍ بعيد، ثمَّ انضمَّ إلينا لاحقًا زوجُ أختِها، وعددٌ من أقاربها من كبار المهندسين والمتعهدين".

توقَّف ثوانٍ قليلةٍ، كأنَّه يستجمعُ أنفاسَهُ، ثم تابع بصوتٍ خافتٍ:
" زوجتي وطفلي الصَّغير توفِّيا في حادثٍ أليمٍ منذ نحو عام، في بيروت. بقيتُ أنا وابنتي الوحيدة، "مُنَى"... هي ذاتها التي كانت معي بالأمس".

سادَ الصَّمتُ برهةً، قبل أن يُتابع بنبرةٍ تَخنقها العاطفة:
" منذ تلك الفاجعة، أوقفْتُ حياتي لها. أفعل ما تطلبه كي لا تشعرَ بغياب أمِّها وشقيقها، أو تتألَّمَ بوحدتها. البارحة... حين أساءت إليكَ، يا نُعمان، أقسمُ أنَّها لم تكن تقصد. لم تنمْ ليلتَها، تحدَّثْتُ إليها بلهجةٍ لم تعهدها منِّي، ونبَّهتُها إلى ما فعلت".

رفع نُعمانُ رأسه ببطء، وصوته مشوبٌ بشيءٍ من الحزن:
" رحم الله مَن فقَدْتُم، وعوَّضهم الجنَّة... لكن، من فضلك، ما علاقتي أنا؟"

ابتسمَ السيِّدُ أحمد بأسى، وقال:
" معكَ كلُّ الحقِّ أن تستغرب... ما علاقتك بما حدث؟ ولماذا نحن هنا في دمشق؟ ولمَ كنَّا نبحث عن هذا القماش تحديدًا؟ ولماذا غضبت مُنى حين وجدَت القماشَ لديكم، ولم تكن، في نظرها، متعاونًا؟"

تنفَّس بعمقٍ ثم استأنف:
" ما سأقوله لك ليس تبريرًا لِما فعلتُه، ولا لأنَّها فتاةٌ مدلَّلة، أو لأنَّها ابنتي الوحيدة، بل لأنَّها ببساطة... حياتي. فتاةٌ صغيرةٌ، رقيقةُ المشاعر، فقدت أمَّها منذ وقتٍ ليس ببعيد، وما تزال معلَّقة بها".

ثم صمتَ فجأة، وأخرجَ منديلاً من جيبه، يمسحُ دموعًا اندفعت دون إذن، حتى بدأ بياضُ عينيه يشوبُه شيءٌ من الاحمرار. كان يُحني رأسه، يخفي انفعاله، ثم قال بصوتٍ مخنوق:
" لقد احترقت أمُّها في ذلك الحادث... كما احترق شقيقُها أيضًا".

ثم تابع بصوتٍ متهدِّج:
" كانت ترتدي فستانًا جديداً صممه لها أمهر الخياطين، كانت ستبدو فيه كملكة في حفل نجاح ابنتنا منى، ..... وكان جدها وجدتها، والدا زوجتي، رحمهما الله، قد رتبا لذلك الاحتفال ليكون مفاجأة لابنتنا الوحيدة يوم حصولها على الثانوية العامة بدرجة ممتازة، ولكنّ الفاجعة أن تعرضت زوجتي وابني الصغير لذلك الحادث خلال انتقالهما مع والديها إلى الفندق الذي سبق أن تم حجزه لهذه المناسبة، وتبقى من ذلك الفستان بعضُ قطع صغيرة لا تكاد تدل على نوعه أو مادته. أمَّا القطعة التي كانت مع مُنى، فهي الأكبر من بين ما تبقَّى. ومنذ شهور، تُصرُّ على أن تشتري قماشًا شبيهًا لتخيط منه فستانًا، ترتديه في ذكرى أمِّها وأخيها وجديّها. كانت منى قد بحثتْ هي وخالاتها في مجملِ محالِّ الأقمشة في لبنان... حتى أخبرهنَّ من صمم الفستان عن التَّاجر الذي ابتاع القماش منه أنَّ هذا النَّوع من القماش كان يأتي من دمشق، بتوصية لمناسبات خاصة جداً. وهكذا جئنا. منذ أسبوعٍ ونحن نبحث يوميًّا، من الصَّباح إلى المساء".

كان نُعمانُ يصغي في البدءِ ببرود، مسنِدًا ظهره إلى الكرسيِّ باعتدال، لكنَّ ملامحَه بدأت تتغيَّر شيئًا فشيئًا. اقتربَ بجذعه نحو الرجل، ومدَّ يدَه إليه مجددًا، وقال بصوتٍ تغلب عليه حرقة:
" أعتذر يا سيدي، إن كان شيءٌ من سلوكي قد أساء إليكم... لكن، لِمَ تركتُموني خلفكم أمس؟ حتى إنَّكم دخلتم محلات لا حاجة لكم بها... شعرتُ وكأنكم تُعاقبونني! وبدأتُ أظنُّ أنكم تُريدون إذلالي... كنتُ أسير خلفكم كأنِّي عبد. هل كنتُ واهمًا؟ سامحني، فقد اختلطت الأمور في ذهني، وتألمت".

أطرق برأسه، ثم أكمل محاولا أن يخبره بأن كلّ ما جرى لم يكن كلماتٍ فظة... بل اعتداءً على شيء هشٍّ في داخله، شيءٍ لم يتشكّل اسمه بعدُ:
" كتمتُ كلَّ شيء، حفاظًا على احترامي لِنفسي... واحترامًا لمعلمي. لقد رأى فيَّ صورةً من أحلامه، وحملني أمانةً لم يُنجزْها في شبابه. كان يُراهن عليَّ. لهذا كنتُ أتوسَّل إلى بعض التُّجار والحمَّالين ألَّا يُخبروا معلمي بما رأوه. صحيح أني عاملٌ بسيط، لكنِّي أعرفُ كيف أُفكِّر، وأين أضع قدمي. لذا، من فضلك سيدي... دعني وشأني. بلِّغ ابنتكم اعتذاري، أو أخبرها بالحقيقة، وانقل لها أسفي على فقد والدتها وشقيقها وجدّيها".

دخلَ الحاجُّ أبو محمود المتجر، فوقف نُعمانُ على الفور، معتذرًا مجددًا من الضيف، ثمَّ استقبل معلمه عند الباب باحترامٍ جمٍّ، وقال:
" تقبَّل الله يا معلّمي".

ردَّ المعلم بهدوء:
" تقبَّل الله منَّا ومنكم صالحَ الأعمال".
ثم جلس خلف مكتبه وسأل:
" هل استطعتَ تأمين طلبِ السيِّد أبي زُهير؟ لقد التقيتُه في المسجد، وسألني عنه مجددًا".

اقتربَ نُعمانُ بخطى خفيفة، وهمس:
" معلّم، الطلب الذي يريده أبو زهير... عند هذا الرَّجل. أرجوك، لا أرغب في الحديث معه مجددًا".

ثم رفع رأسه وقال بصوتٍ مسموع:
" بعد إذنك، سأذهب لأداء صلاة الظُّهر".

بقي السيِّد أحمد جالسًا، يُحدِّق في أوراقٍ بين يديه، كأنَّه يبحث فيها عمَّا يتجاوز الحسابات.

عاد نُعمان من صلاته، فإذا بثوب القماش ممدّدٌ على الطاولة، لا أثر لصحابه.

رمقَ معلمه بدهشةٍ، لكنَّ الأخير ابتسم، وقال بنبرةٍ هادئةٍ لا تخلو من الغموض:
" من فضلك، قِس مترين ونصفًا من هذا الثوب، وعدّل بياناته، السيِّد أبو زُهير سيأتي لاستلامه. وأحضر ورق تغليف جيدًا وكيسًا لائقًا... من محلات المفرّق. وثمنُهما هذه المرَّة... من جيبك".

أضاف، وقد لاحظ علامات الدَّهشة على وجهه:
" وسنتحدَّث لاحقًا".

نفَّذ نُعمان ما طُلب منه، وعاد بالكيس الأنيق، وسلَّم اللفافة للمعلم:
" تفضل، يا معلّمي".

دخل التاجر أبو زُهير بعد دقائق، سلّمه نُعمان الثوب، وقبض المعلم الثمن، وغادر التاجر سريعًا.

اقترب نُعمان من معلمه وسأله بصوتٍ حذر:
" من فضلك، كيف حدث ذلك؟"

أجاب المعلمُ مبتسمًا:
" ببساطة، كان هناك رجلٌ اشترى مكرَهًا كمية من القماش، لا يحتاج إلا إلى مترين ونصف، ودفع أكثر مما يُطيق. وفي الوقت نفسه، كان لدينا تاجرٌ بحاجة إلى باقي القماش، بأيِّ حالٍ كان. قضينا طلبَيْهما، واعتبرتُك تاجرَ المفرق الذي باع السيد أحمد ... وكلُّ ربحٍ تحقق منه سيعود إليك، دون أن تدري".

ثم أخرج مبلغًا من المال، وقال بإصرارٍ لطيف:
" هذا هو المال، إنه من حقك".

قال نُعمان بصراحةٍ لا تخفى:
" عفوًا، يا معلمي... أنا أعمل هنا، وأتلقى أجري بانتظام. لا أظن أني قدَّمت ما يستحق هذا".

هزَّ المعلم رأسه، وأعاد المال إلى خزينةٍ صغيرة، قائلاً بحزمٍ فيه حنوّ:
" إذن، سأحتفظ به لك، حتى نهاية خدمتك. الآن، اقترب وقتُ الإغلاق، وسأصعدُ لأتناول طعامي وأستريح. أنت أغلق المتجر... وستجد من ينتظرك عند الباب".

ثم أضاف بعد برهة، بنبرةٍ منتقاة:
" هي دعوةٌ لتناول الغداء. وأنا مطمئنٌ لصاحبها، فلا تُحرِجه برفضك. أنا أثق بك وبقرارك، فافعل ما تراه مناسباً ... ولكن لا تنسَ أن تفتح المتجر بعد الظهيرة. بأمانِ الله".

صعد المعلمُ السُّلَّم الجانبيَّ بخطًى ساكنة، يُردِّدُ أدعيةً واستغفارًا، فيما بقي نُعمان واقفًا، تتزاحم في رأسه الأسئلة:
" من هذا الرَّجل؟ ولماذا دعاني؟ أأثق به؟ أم أعتذر بأدب؟"

لكنَّ صوتًا خافتًا في داخله كان يُشجِّعه على القبول... ربَّما فضول، وربَّما شيءٌ آخر... يشبهُ الإِنصاف.

أَغلقَ نُعمانُ بابَ المتجرِ من الخارجِ، ووقفَ على الرصيفِ يَنتظر. لم تَكد تمضي لحظاتٌ حتى توقَّفت أمامَه سيّارةٌ سوداء من طراز "بويك"، تشقُّ الطريقَ ببطءٍ وسط زحامٍ خانق. انخفضَ الزجاجُ، وأطلّ وجهُ السيِّدِ أحمد مُبتسمًا، وقد علت نبرته العجلى:

" أَسْرِعْ يا بُني! الشارعُ ضيِّقٌ والسياراتُ خلفي بدأت تُزَمِّر"!

تردَّدَ نُعمانُ برهةً، ثم فتحَ البابَ وجلس إلى جوار الرجل، وأغلقهُ بهدوءٍ قبل أن يُلقي التحيَّة بصوته الخجول. استقبله السيّدُ أحمد ببشاشةٍ صادقة، قائلاً:

" أهلًا بكَ يا سيِّد نُعمان، وشكرًا لقبولك دعوتي... بل شكرًا مضاعفًا، لأنك صدقتني و وثقتَ بي"!

كان الرجلُ يُدركُ تمامًا أن حضورَ نُعمانَ لم يكن ليقع لولا توصية الحاجِّ أبي محمود، ذاك الشيخ الذي يسكنُ في قلب الفتى كجذعٍ من شجرةِ الطفولة.

قال نُعمانُ، بلطفٍ وحرص:

" لكن أرجو أن لا نبتعد كثيرًا، فعليّ أن أكونَ في المتجرِ عند الخامسةِ إلّا ربعًا، لأجهّزَ بعض الأمور قبل أن ينزلَ الحاجُّ".

ابتسم السيِّد أحمد مُطمئنًا:

" لا تقلق، لقد أخبرتُ الحاجَّ بذلك، ورتّبتُ الأمورَ معه. لن نغيبَ طويلًا... فقط، دعنا ننجُ من هذا الازدحامِ أولًا".

انطلقت السيّارةُ تشقُّ طرقات دمشق، حتى توقّفت عند مدخلِ فندقٍ أنيقٍ حيث يُقيمُ السيِّدُ أحمد وابنتُه. صعدا معًا إلى الغرفةِ التي كان قد حجزها مسبقًا، وما إن دخلا حتى أشار له أن يجلس على أريكةٍ وُضِعت بمحاذاةِ النافذة، ثم نادى بنبرةٍ دافئة:

" مُنَى! حبيبتي... لقد وصلنا، ومعي السيِّد نُعمان، الذي أصرّ على مرافقتي ليعتذر منكِ"!

تجمّد نُعمانُ في مكانه، وحدَّقَ في الرجلِ باستغرابٍ لم يُخفه، وقال:

" أعتذر؟! ماذا تقصد يا سيدي؟"

لوّح السيِّد أحمد بيدهِ إشارةً غامضة، وهمس بنبرةٍ شبه مازحة:

" لا تُدقِّق كثيرًا يا سيِّد نُعمان... فقط، تعاونْ معي، هذه المرّة... أرجوك".

لكنّ نُعمان لم يرضَ بهذه اللعبة. وقفَ فجأةً، وصوتهُ يحملُ شيئًا من الألم:

" أنا آسف... لا يمكنني أن أكونَ طرفًا في تمثيلية. ما حدث البارحة كان كافيًا، ولا أرغبُ في تكراره. سأعودُ إلى عملي... السَّلامُ عليكم".

تحرّك نحو الباب بخطًى ثابتة، غير أنّ السيّد أحمد لحق به، وأمسك بذراعهِ بلُطفٍ، وهمسَ برجاءٍ صادق:

" لو سمحت، ابقَ... فقط هذه المرة. أنا من يعتذر إليك، لم أطلب منك شيئًا مستحيلًا... فقط امنحها فرصة... أرجوك".

بدتِ ومضات الرجاءِ تظهر لمعاناً في عينيه وهو يُمسك بذراع نُعمان، كأنما يتمسّكُ بخشبةِ نجاة. وفي تلك اللحظة، جاء الصوتُ من داخل الغرفة، حادًّا، غاضبًا:

" أنا لا أريد رؤيته! اطردْهُ يا أبي! لا أريد رؤية ذلك المعتوه"!

كان صوتُ مُنى. ومع ذلك، لم يُفلِت السيِّدُ أحمد ذراعَ الفتى، بل أشار إليه أن يرافقه إلى قاعةِ الاستقبال في الطابق الأرضي، حيث يمكنُ لهما أن يتحدّثا بهدوء.

جلسا في زاويةٍ هادئةٍ من القاعة، وقال السيِّد أحمد بصوتٍ خفيضٍ فيه مزيجٌ من الأسى والتوسُّل:

" دعنا ننسَ ما مضى، ونبدأ من جديد. لقد أخبرتُك عن الحادثة، لكنني لم أُخبرك كيف تركتْ في نفسِ مُنى جُرحًا لا يندمل. أن تفقدَ فتاة في مثل سنها أمّها وأخيها وجديها دفعةً واحدة... شيءٌ لا يَحتمِلُه عقل ولا يقوَ عليه قلب. تحوّلت بعد تلك الحادثة إلى إنسانةٍ أخرى. لم تعد تثق بأحد، وأيُّ تصرُّفٍ تراه مساسًا بذكرى والدتها، تراه عداءً شخصيًّا".

صمتَ قليلًا، ثم تابع وهو ينظرُ في عيني نُعمان:

" تصرفكَ البارحة... هدوؤكَ، وضبطكَ لنفسك، كان نُبلًا ما بعده نُبل. لكن مُنى رأته تجاهلًا، وإهانةً مبطّنة. تلك القطعةُ التي كانت تحملها... كانت لأمّها، ولم تُفارِقها منذ رحيلها. إنّ ما تمرّ به من غليانِ الذكرى، يجعلها ترى في كلّ اقترابٍ تهديدًا، وفي كلّ طِيْبةٍ خداعًا. لقد صارت، بعد وفاة أمّها، كمن يسيرُ فوق جرحٍ مكشوف، يجرحُ ويُجرَح، دون أن يدري".

مسح دمعةً انسابت على وجنتِه، وتنهَّد قائلًا:

" لم أطلب منك أن تعتذر لأنك مخطئ، بل فقط لنُخفّف عنها، ونُعينها على الخروج من ظلال المأساة التي لا تفارقها. صدّقني، هذه ليست المرة الأولى التي تخسرُ فيها صديقًا وتكسب عداوةً بسبب طريقتها في التعبير. لقد خسرنا أقرباءنا في بيروت... لذلك جئنا إلى دمشق، نبحثُ عن بدايةٍ جديدة، كما نبحثُ عن قماشٍ دمشقيٍ أصيل".

ثم ابتسم ابتسامةً متعبة، ومدَّ يده إلى نُعمان، قائلاً:

" هل نُصافحُ من جديد؟ أنا بحاجةٍ إلى صديقٍ مثلك... وأشعر أن الله أرسلك إليَّ. لا أدري لماذا ارتحتُ لحديثي معك... لكن يا لثقلِ ما أحمِل، ويا لِمرارةِ ذلك الحادث الذي غيّرني أكثر ما غير ابنتي إلى الأبد. منذ فقدتُ زوجتي وطفلي، باتت مُنى هي كلّ حياتي... بل أراها امتدادًا لروحي، ولا همَّ لي الآن إلّا حمايتُها".

ورغم انفتاحه على الناس، فإنّ في قلب السيّد أحمد وِجْسًا مقيمًا، يمنعه من الاقترابِ التام. الخوفُ من انفجارِ غضب مُنى، من أن يخذلها، من أن يُخطئ بحقها، يحكمُ تصرّفاته. ذلك الذنبُ القديم، الذي لا يُغادره، جعله يُضحّي بكبريائهِ أمامَ نُعمان، لعلّه يُنقذها.

نظر نُعمان إلى اليدِ الممدودة، ثم صافحها بهدوءٍ وقال:

" تُسعدني صداقتك يا سيّدي... وسأكون في خدمتك ما استطعت. أمّا ابنتك... فذاك أمرٌ آخر. لا أستطيع أن أقيم معها علاقة... لا حوارًا، ولا حتى نظرة. أرجوك، تفهّم موقفي".

ابتسم السيّد أحمد بإشفاق، وقال:

" معك حقٌّ يا بُني... ومع ذلك، شكرًا لك. فقط... دعني أدعوك غدًا إلى غداءٍ بسيط".

في اليومِ التالي، أَغلقَ نُعمانُ المتجرَ عندَ الظَّهيرة، ومَا إنْ خَطا إلى الرصيفِ الخارجيّ، حتَّى أبصرَ السَّيِّدَ أحمَدَ يَنتظِرُهُ على مَقربةٍ، مُتكئًا إلى سيارتهِ وكأنّهُ يُراقبُ الوقتَ لا الطريق.

ركبا معًا، وانسابتِ السيارةُ بينَ شوارعِ دمشقَ، حتّى بلغَا مَوْقِفاً للسَّيَّاراتِ في وسطِ المدينة. ألقى السَّيِّدُ أحمَدُ نَظرةً حذِرَةً حولَهُ، ثمّ قالَ ضاحكًا:

" هذِهِ مَدينتُكَ... أتعرفُ مطعمًا شاميًّا طَيِّبًا؟"

ابتسمَ نُعمانُ بهدوءٍ، وهزَّ رأسَهُ قائلاً:

" صَدِّقني يا سَيِّدي، لا أعرفُ في دمشقَ سِوى طريقِ المتجر".

قهقهَ الرَّجُلُ، ثمَّ تقدَّمَ نحوَ أحدِ المتاجرِ الصغيرةِ يسألُ عمَّا يُرضي الذَّوق، وعادَ بعد لحظةٍ وأمسكَ بيَدِ نُعمان قائلاً بحماسةٍ:

" تعالَ... دلَّني أحدُهم على مطعمٍ قَريب".

سارا معًا، ينعطفانِ يمينًا ويسارًا كمن يتلمّسانِ سبيلًا في ذاكِرةٍ غريبة، حتَّى تردَّدَ نُعمانُ وسألَ متوجّسًا:

" إلى أينَ نَحنُ ذاهبَان؟"

ابتسمَ السَّيِّدُ أحمَدُ ابتسامةً غامضةً وقال:

" ها قد وصلنا"!

وقفا أمامَ بابِ مَطعمٍ أنيق، تَنبعثُ من نافذتِه رائحةُ توابلِ دافئةٍ تُحاكي الذِّكرى. استقبلهما نادلٌ باسِم، وقادهما إلى طاولةٍ ظن للوهلة الأولى أنها لم تُرتَّبْ بعد؛ لكن .... لا تزالُ عليها محفظةٌ نسائيةٌ سوداءُ وبعضُ البقايا المُتناثرةِ.

جلسَ نُعمانُ مُترددًا، بعد أن لاحظَ تلكَ المحفظةَ وجعل يدقق فيها، لكنَّهُ لم يُعلّق. ومعَ ذلك، سَبقَه لسانُهُ إلى القولِ بخجلٍ:

"كما تَشاءُ يا سَيِّدي... أو كما كنتم قد اتفقتم مسبقاً مع الأنسة، وحضَّرتُموه على أنه .... أو كان يجب أن يبدو الأمر على أنه دون تحضير أو اتفاقٍ مسبق".

انفجرَ السَّيِّدُ أحمَدُ ضاحكًا:

" لقد كَشفنا السَّيِّدَ نُعمان"!

وقبلَ أن يَردَّ، اقتربت فتاةٌ ترتدي بِنطالًا أسودَ وكنزةً رماديةً ذاتَ أكمامٍ طويلة، وقالت وهي تُخاطبُ والدها:

" تأخّرتُم كثيرًا يا أبي... أكَلتُ نصفَ المُكسَّراتِ من شدّةِ الجوع!"

أشارَ والدُها إلى نُعمان قائلاً:

" تَعرّفي عليه جيداً ... هذا هو الشّابُ الواعي الذَّكيُّ الذي حدَّثتُكِ عنه".

ردَّت بلهجةٍ لا تخلو من لا مبالاةٍ وهي تلوّح للنادل، (أو هكذا أحس الضيف الصامت):

" دَعني آكُل أوّلًا... الحديثُ لاحقًا".

وصلَ الطّعام، وأخذُوا يأكلونَ في صَمتٍ، ونُعمانُ لا يَتناولُ سوى لُقيماتٍ قلائلَ من صَحنِه، دونَ أن يَرفعَ نظرَه.

أومأ السَّيِّدُ أحمدُ إلى النّادلِ أنِ اعتنِ به، فامتلأتِ الطاولةُ أمامهُ بأطباقٍ متنوِّعةٍ.

وخَلفَ مذاقِ الطَّعام، كانت الأفكارُ تَطوفُ في رؤوسهم كأشباحٍ صامتة. هيئ له أن منى كانت تأكُلُ بنَهَمٍ، وكأنَّ الجوعَ يُنهِكُ أعصابَها، لكن شيئًا فشيئًا، بدأت ملامحُها تَهدأ، وتَخِفُّ القسوةُ المرسومةُ على وجهِها.

لاحظَ نُعمانُ ذاك التَّحوُّل الذي بدأ يشعر به، لكنَّهُ ظلَّ مُلتزمًا بوقارِه، مُعلِّقًا نظرَهُ على حافَةِ الصّحنِ لا يَتجاوزُها إلا إلى وجه منى، الجالسة أمامه بنظرة سريعةً. وهي، وقد لمحتْ نظرة له خلف ذاك التَّحفّظ، أرسلت إليه نَظرةً خاطِفةً، كأنَّها تَسألُ:

" أتتجاهلُني؟ أم تخشَى الحَرج؟"

نظر نعمان إلى نفسه مجدداً وأغرق بضع ثوان يفكر... شيئٌ ما، أو ربما شخص ما يخاطبه ... يريد أن يتحاور معه بصمت وسط هدوء داخله.

"نعمان، أنت أيها الشاب الريفي المتزمت، عندما دخلت دمشق، بدأت تتخلخل قناعاتك دون أن تشعر. فالمدينة، والمتاجر والأسواق بزحامها وضجيجها وألوانها الكثيفة، أصبحت تهزّ في داخلك ركائز كنت تظنها ثابتة".

وفي لحظةِ صَمتٍ بينَ لُقمَتَين، همست:

" يبدو أنَّك لا تُحِبُّ الحديثَ أثناءَ الطَّعام... أليسَ كذلك؟"

نظر فإذا هي تخفي عينيها، خلف ستار التعب والجوع، برقٌ خافت من شيء آخر... شيء يشبه الاعتذار دون البوح له به.
لم يكن نعمان بحاجة إلى كثير من الذكاء ليدرك أنّ هذه الفتاة القاسية لم تعد هي ذاتها. شيء ما قد

انكسر داخلها، أو ربما لانَ تحت وطأة التعب، أو تحت وقع حضوره الصامت الذي لم يطالبها بشيء، ولم يبادل فظاظتها إلا بسعة صدرٍ نادرة.

كانت منى، بطريقتها المتعثرة في الحديث، تحاول أن تقول:

" أنا لست كما تراني"...
وكان نعمان، ببصيرته الهادئة، يسمع هذا الصوت الخفي، فيبتسم، ولا يزيد على أن يملأ لها كأس الماء دون سؤال.

رفعَ نُعمانُ رأسَهُ ببطء، وتوقّفَ عن تناول الطعام للحظة، ثمّ ابتسمَ وقالَ بلُطف:

" ليس تمامًا... بل أظنُّ أني لا أُجيدهُ كما ينبغي، لا سيّما في أوقاتٍ مفاجئةٍ كهذه".

ابتسمتْ، بخفةٍ كأنَّ شيئًا هشًّا تَصدّعَ داخلها، لم تَتوقّع أن يردَّ بهذه الرّصانة، دونَ غضبٍ، دونَ تحفظٍ، فقط ذلك اللُّطفُ المتوجِّس.

كان الصمت خفيفًا بينهما بعد صمت انتهى إلى حوار، كأنَّه نُسِجَ من ندفات قطنٍ تتساقط على استحياء.
منى، التي كانت فيما مضى سريعة الاشتعال، بدت هذه المرة وكأنها تتلمس كلماتها بحذر، كما يتلمس المرء طريقه في عتمة قلبه.

تدخَّلَ السَّيِّدُ أحمَدُ، وقال ضاحكًا:

" منى، لا تُحرجي ضَيفَنا... هو صبورٌ، لكنَّهُ لا يُحبُّ المفاجآت، كما رأينا يوم أمس وما قبله"!

ضحكوا جميعًا بخفّة، حتّى منى، وإن بدا في ضحكتِها شيءٌ من التردُّد.

نظرت إليه وقالت، لكن هذه المرة دون حدّة:

" كنتُ غاضبةً يوم أمس وما قبله... جدًا. وأعترف أنني لم أُحسنِ التصرّف".

وأخذ يراجع موقفه مع منى، فرغم شعوره الأول بالمهانة، ورغم أنها كانت أول صدمة شخصية تهزّ كبرياءه الصامت. لكنه ... وخاصة بعد ما رآه من لمحات إنسانية حقيقية في منى (تعبها، قسوتها المغلفة بخوف خفي، عجزها عن التعبير بلين)، (إلى جانب حديث والدها عن مأساتها) كل ذلك جعل شيئاً في قلبه يتحرك... ليس من باب الضعف أو الهوان، بل من باب الإحساس العميق بالإنسانية المشتركة.

أيضًا اليوم، فمنى منذ أن دخل هذا المطعم لم يكن ليتجسد له فيها تلك الفتاة القاسية كما اعتادها أن تكون. كانت مجهدة، مكسورة الحدة، وهو الشاب الذي تربى على احترام "الضعف الإنساني" حتى لو كان في خصمٍ له. لهذا لم يستطع أن يدير ظهره لها.

حاول أن ينهي هذا الصراع الذي نشأ قبل أن يستفحل داخله، بين الماضي المتزمت ورغبته الفطرية في التماس الأعذار، أملاً في حدوث تغيير لدى الناس. فمنى الآن تمثل هذا التناقض الحاد الذي وجده في نفسه، لذا وجد نفسه ينصت لها، لا لأنه تخلى عن قناعاته القديمة تمامًا، ولكن لأن الحياة كانت تعلّمه درسًا جديدًا:

(إنّ القلوب ليست بيضاء أو سوداء، بل درجات متداخلة من الألوان)". كما قال معلمه ذات يوم

فأجابها عن اعتذارها بإيماءةِ احترامٍ:

" وأنا أعتذرُ أيضًا... إن بدا لي أنني قلّلتُ من قيمةِ شيءٍ عزيزٍ عليكِ... لم أكن أقصد".

سكتوا لحظةً، لكن الصَّمتَ هذه المرَّة كانَ هادئًا، خفيفًا، كأنَّ شيئًا صَغيرًا تصافحَ بينَ قلبين.

اقتربَ النَّادلُ وسأل إن كانوا يرغبونَ بالقهوة. قالت منى:

" إن لم يكن السَّيِّدُ نُعمان يُمانع، فأنا أُفضّل القهوةَ المُرّة".

قال نُعمانُ بابتسامةٍ هادئة:

" وأنا أيضًا أُحبّها... وإن كنتُ أُكثِرُ من شربِها حلوةً".

أشار السَّيِّدُ أحمَدُ للنّادل:

" إذًا، قهوةٌ مُرّةٌ بثلاثةِ فناجين... واتركوا لي أمرَ التَّحلية".

ضحكت منى وقالت لوالدها:

" لا شَكّ أنّك ستطلبُ لنا كُنافةً أو شيئًا من ذاك القبيل... كعادتك".

غمز لها وقال:

" بل لأجلكِ... ولأجلِ إصلاح ذات البَين... فالحَلْوى تُصلحُ ما أفسدَته الكلمات".

ثم التفت إلى نُعمان وقال بلُطفٍ أبويٍّ:

" ما رأيكَ؟ ألسنا على بدايةِ طريقٍ طيّبة؟"

ردَّ نُعمانُ بابتسامةٍ صافية:

" إنْ صَفَتِ القلوبُ... فكلُّ طريقٍ طيّب".

ثمّ استأذن لغسلِ يديه، ولَحِقَ به السَّيِّدُ أحمد. وبينما الماءُ يَنسابُ على الأصابع، قالَ الأخير:

" بعد غدٍ يومُ الجُمعة... يومُ عطلة، فهل نُمضيه معًا؟ دمشقُ فيها أماكنُ تستحقُّ أن تُرَى".

أجابه نُعمانُ وهو يُجفِّفُ وجههُ بمنشفةٍ ورقيّةٍ:

" عندي بعضُ الالتزاماتِ بعدَ غدٍ، ....."...

قاطعه السَّيِّدُ أحمد، مُبتسمًا:

" فلتُؤجِّلها إذن... سأراكَ عندَ التاسعةِ صباحًا في الموقفِ المعتاد. لا ترفُض، أرجوك، ألم ترَ كيف سررنا بلقائك اليوم".

هزَّ نُعمانُ رأسَهُ موافِقًا، بصمت، وهما يعودان إلى الطاولة.

حينَ أوصلوهُ إلى مَقربةٍ من "الحَريقة"، وقبلَ أن يَترَجِّلَ نعمان من السيارة، استجمعت "مُنى" شجاعتَها، وقالت بصوتٍ خافتٍ لا يكادُ يسمَعه إلا نعمان:

" مضى مسرعاً ... وكأنما ما كان قبل قليل .. هو الوقتُ الوحيدُ الذي يُشبهُ الصِّدق"...

وتابعت بصوت مسموع:

– " شُكرًا على لُطفِكَ اليوم... وعلى صَبرِكَ، أيضًا".

التفتَ نُعمانُ إليها، وفي عَينَيه دفءٌ خفيفٌ لم يكنْ هناكَ من قبل، وقالَ بنبرةٍ وادعة:

– "لا شُكرَ على واجبٍ... أو بالأدق فإني أنا من كنت ضُيفكمُ اليوم، ومن الواجب أن أتقدم لكم أنا بالشكر، لا أنتم".

ثمَّ أَغلقَ البابَ بلُطف، ومَضى بخُطًى هادئةٍ، لكنَّ خُطواتِه كانت أخفَّ من العادةِ، وكأنَّ شيئًا في قلبِه بدأ يتحرّكُ في صمتٍ لا يُرى ولا يُقال.

دخلَ نُعمانُ المتجرَ بخُطًى أكثرَ سكونًا من المعتاد، وألقى التحيَّةَ بصوتٍ رَخيمٍ فيه شيءٌ من الحُلم، ثمّ اتَّجهَ نحو طاولةِ العرضِ، كأنّهُ يَتلمّسُ طريقَهُ في غابةٍ من الأفكارِ التي لم تَهدأ. لا تزالُ كلماتُ "منى" تَتردَّدُ في أُذنِه:

" مضى مسرعاً ... وكأنما ما كان قبل قليل .. هو الوقتُ الوحيدُ الذي يُشبهُ الصِّدق"...

كانَ الحاجُّ "أبو محمود" يُرتّبُ بعضَ الفواتيرِ خلفَ مكتبٍ صغيرٍ في الزاوية، التفتَ إليهِ وابتسمَ قائلاً:

– "تأخَّرتَ قليلًا يا بُني... لكنَّ وجهَكَ يقولُ إنّ هذا الوقتَ لم يَذهَبْ سُدًى".

أجابهُ نُعمانُ وهو يفتحُ بابَ الواجهةِ الآخر:

– "نعم... كانَ لقاءً مختلفًا. كأنّي التقيتُ بشخص وزرت مكانًا لا يُشبهُ المعتاد".

اقتربَ الحاجُّ منه، ووضعَ يدَهُ على كَتِفِه بلُطفٍ وقال:

– "بعضُ اللقاءاتِ تُشبهُ المطرَ يا نُعمان، لا تدري متى يَهطِل، لكنَّهُ يترُكُ فيكَ شيئًا لا يُنسى".

أطرقَ نُعمانُ رأسَه، ثم قالَ بنبرةٍ دافئةٍ يُخالِطُها شجن:

– "ما أَغرَبَ هذهِ الحياة... أحيانًا يكونُ الغريبُ أكثرَ قربًا من القريب".

ضحكَ الحاجُّ "أبو محمود" ضحكتَهُ الهادئة، وقالَ مُداعبًا:

– "وهل بدأتَ ترى ما كنتَ لا تراه؟ أم أنَّ عينيكَ صارتا أَليَن؟"

لم يُجبْ نُعمانُ فورًا، بلِ استندَ إلى الطاولةِ وبدأَ يطوي بعضَ الأقمشةِ بهدوءٍ، كما لو أنَّهُ يطوي بها شيئًا من تردُّدِه. وبعد لحظةِ صمتٍ ناعمٍ، قال:

" – مُنى"... "كانت مختلفةً اليوم. أقلَّ قسوةً... كأنَّ شيئًا ما تَغيَّر".

ردَّ الحاجُّ وهو يُعيدُ ترتيبَ بعضِ الأوراق:

– "وربَّما أنتَ مَن تَغيَّر، يا نُعمان. أحيانًا، حينَ نَهدأُ من الداخلِ، نَسمعُ صوتَ الآخَرِ بطريقةٍ جديدةٍ".

سادَ صمتٌ قصيرٌ، لم يقطعهُ إلّا صوتُ القماشِ وهو يُطوَى بدِقَّةٍ متناهية.

ثمَّ رفعَ نُعمانُ رأسَهُ، وحدّقَ في الضَّوءِ المُنعكِسِ من زُجاجِ الواجهة، وقالَ كأنَّهُ يُحدِّثُ نفسه:

– "لا أَعلمُ ما الذي تَغيَّر تمامًا... لكنِّي لم أعدْ أَنظُرُ إليها كمن تسبّبتْ لي بالأذى. هناك شيءٌ ما... شيءٌ يُشبهُ النَّدمَ في عينيها، أو ربّما أنا... أنا الذي بدأتُ أقرأُها بطريقةٍ أُخرى".

اقتربَ الحاجُّ "أبو محمود" منه، ووضعَ يدَهُ على كَتفِه بحنوٍ وهمسَ بصوتٍ أقربَ إلى الحِكمة:

– "لا تَخَفْ مِن أن تَشعُر، يا بُني. القَلبُ الذي لا يَلين... يَشيخُ باكرًا".

ثمَّ عادَ إلى عملِه، وتركَ نُعمانَ في شُرودِه، يطوي آخرَ قِطعَةِ قُماشٍ أمامَه، لكنَّهُ هذهِ المرّة أطالَ النظرَ إليها، ربّما لأنَّ لونَها... كان يُشبهُ الكنزةَ الرَّماديّةَ التي ارتدَتْها "مُنى" اليوم.

وبينما هو غارقٌ في ذاكَ السُّكونِ المُخمليّ، رنَّ الجرسُ الموضوع أعلى الباب، فدخَلَ أحدُ الزبائن، وانتفضَ نُعمانُ بلُطف، وعادَ إلى واجهةِ المتجرِ ببَسمتِه المُعتادة...

لكنَّ قلبَه، لم يَكُن كمَا كانَ، قبلَ هذا اليوم.

كان الزبونُ رجلاً أربعينيًّا أنيقًا، يحملُ في ملامحِه مسحةَ تعبٍ مألوفةٍ لنُعمان؛ كأنَّه جاءَ من يومٍ طويلٍ لم يُمهلهِ ليَلتقطَ أنفاسَه. حيّاهُ نُعمانُ بودٍّ، وأشارَ له وهو يلتف خلف طاولةِ العرض:

– **"تحتَ أمرك... ماذا تحبُّ أن ترى؟"**

أجابَ الرجلُ وهو يُقلّبُ بعينيه الأقمشةَ المُنسَّقة:

– **"أبحثُ عن قماشٍ يُشبهُ الصَّيف... خفيفٌ، لكن فيه وَقار".**

ابتسمَ نُعمانُ، وكأنّ الطلبَ لامسَ وترًا في داخله:

– **"هناكَ نوعٌ جديدٌ وصلَ قبل أيام... خفيفٌ، لكنَّهُ يحتفظُ بشكلِه، مثل من يعرفُ قدرَ نفسِه ولا يتصنّع".**

أخرجَ ثوب قماشٍ بلونٍ سماويٍّ باهت، ونشرها على الطاولةِ برفقٍ. امتدّت يدُ الزبونِ إلى القماش، لمسهُ بإعجابٍ صامتٍ، ثم قال:

– **"كأنَّهُ ظلُّ غيمةٍ على بحر".**

أومأَ نُعمانُ برأسِه، لكنه لم يُعلّق. شعرَ بشيءٍ يجعل معانٍ للكلماتِ التي يسمعها، وأن فهماً لها داخله يعيد ترتيب أماكن قائلها في داخله من جديد. هذه اللحظة، بكلِّ بساطتها، كانت تُشبِه الحكايات التي تبدأ بلا ضجيج.

بينما انشغلَ الزبونُ باختيارِ الألوان، دخلَ صوتُ الحاجِّ "أبو محمود" من الخلف:

– **"لا تُقلّل من شأنِ اللحظاتِ الصغيرة، يا نُعمان... هي التي تَصنَعُ الفرق بين يومٍ عاديٍّ ويومٍ يُحكى".**

ردَّ نُعمانُ دون أن يلتفت:

– **"هل يُمكن للحياةِ أن تتغيّرَ بسببِ نظرةٍ؟ أو كلمةٍ قيلَت دونَ ترتيب؟"**

ضحكَ الحاجُّ وهو يقتربُ من الواجهة:

– **"الحياةُ نفسُها قد تبدأُ بخطأِ طباعة... أو بنُقطةٍ في غيرِ محلّها".**

ثمّ نظرَ إلى الزبونِ وقالَ ممازحًا:

–" وأحيانًا، تبدأُ بدُرزةٍ غيرِ متقنة".

ضحكَ الجميعُ، وصار الجوُّ أليفًا. الزبونُ اختارَ الكمية التي يحتاجها من أثواب قماشَه، وسدد ثمنها، وترك العنوان مكتوباً على بطاقة صغيرة. وغادرَ وهو يلوّحُ بيده ويقول: "أنتظر أن تصلني بضاعتي غداً".

عادَ الهدوءُ إلى المتجر، لكنّه كان هدوءًا مختلفًا... مُشبَعًا برائحةٍ جديدة، كرائحة المطر بعدَ أوّل نَسمةٍ تُلامسُ الأرضَ اليابسة.

جلسَ نُعمانُ خلفَ الطاولة، وبدأَ يدوّنُ شيئًا في دفترٍ صغيرٍ يُخفيه في الدُّرج السفليّ. كتبَ بخطٍّ مائل:

"اليومُ، شعرتُ أنّ القلوبَ لا تُشفى وحدها... لا بُدّ أن يَمُسّها أحد، بكلمةٍ، أو بلُطفٍ غيرِ متوقَّع".

أغلقَ الدفتر، وأسندَ ظهرَهُ إلى الحائط. وفي عينيه... كان شيءٌ من حُلمِه قد بدأ يُورِق.

في صباح اليوم التالي، كانت الشمسُ قد شرعت في تسلُّق كبد السماءِ، والهواءُ لا يزال يحتفظ بشيءٍ من نسمات الصباح الباردة. وقف نعمانُ أمام واجهة متجر الأقمشة، يُنظِّم القطع برفقٍ، حين دخل صبيٌّ صغير، يتأبّطُ مغلَّفًا أنيقًا بيده النحيلة.

اقترب الصبيُّ بحذرٍ وقال بصوتٍ خفيض:

– **"عمو... في وحدة عطتني هالرِّسالة وقالت جيبها إلك".**

مدَّ نعمانُ يده وتناول المغلَّف بدهشةٍ، ثم سأل الصغير:

– **"من أعطاك إيَّاها؟"**

أجاب الصبيُّ بعفوية:

– **"بنت طويلة شوي، شعرها أسود ومربوط... كانت واقفة عند زاوية الشارع. ما قالت اسمها، بس قالت رح تعرف مين هي".**

شكر نعمان الصغير، ومدَّ له قطعة حلوى من فوق الطاولة، ثم فتح المغلَّف ببطءٍ، فوجد بداخله ورقة صغيرة مكتوبًا عليها بخطٍّ أنيق:

"ليست كلُّ بداياتنا مثالية... لكن بعض اللحظات تُعيد ترتيب دواخلنا. شكرًا لأنك لم تكن قاسيًا. – م"

لم يحتجِ القلب إلى توقيعٍ صريحٍ؛ كان يعرف جيدًا إلى أين تشير الحروف. طوى الورقة بعنايةٍ، وحدَّق عبر زجاج المتجر نحو الزاوية المُشار إليها... كانت خاليةً إلا من ظلِّ شجرةٍ يُراقصه النسيم.

عاد إلى طاولته، وجلس على الكرسيِّ الخشبيِّ، يحملقُ في الرسالة، وابتسم لأول مرَّةٍ ذلك الصباح... ابتسامةً خفيفةً دافئةً، فيها امتنانٌ شفيف.

في تلك اللحظة دخل الحاجُّ أبو محمود، فانتفض نعمانُ وأخفى الورقة بسرعةٍ.

– **"صباح الخير يا حاجّ!"**

– **"صباح القلوب المرتاحة! ما بالك تبتسم وحدك؟! أيقظك حلمٌ جميل؟"**

ضحك نعمان بخجلٍ وقال:

– "ربما... أو لعلَّه يومٌ جديد يستحقُّ أن نبتسم له."

اقترب الحاجُّ وربتَ على كتفِه وقال:

– "لعلك بدأت تكتب فصلًا جديدًا، بني... اكتبْهُ بحذرٍ، لكن لا تتردَّد".

في صباح الجمعة، حين يغطُّ الجميع في نومٍ طويلٍ، كان نعمان، كعادته، يُوقظ إخوته لأداء صلاة الفجر. وبعد الصلاة، اجتمعوا حول مائدة إفطارٍ هادئةٍ تفوح منها رائحة الخبز الطازج والشاي المعطر.

ما إن انتهوا، حتى اقترب نعمان من والدته، يطلب منها بإلحاحٍ هادئ إذنًا بالذهاب إلى دمشق. نظرت إليه الأم بعينين مستغربتين، دافئتين، وقالت:

– "إلى دمشق؟ هل هناك أمرٌ مهم؟"

أجاب بنبرةٍ خجلةٍ مترددة:

– "سأحدِّثك لاحقًا، أعدكِ أن أخبرك بكل شيءٍ بالتفصيل."

تأملته الأمُّ طويلًا، ثم ابتسمت ابتسامةً رضيةً، وما هي إلا لحظات قليلة حتى سمحت له.

بحلول الثامنة، أذنت أبواب الرحيل.

كان نعمان قد ارتدى أجمل ما لديه من ثيابٍ، وسرَّح شعره بعنايةٍ، وبدت على وجهه ملامحُ الترقب والفرح. ودَّع والدته التي لَمَعَت عيناها بمزيجٍ من الفخر والقلق، وانطلق إلى دمشق.

مرَّ أولًا بمنزل معلمه، الذي كان قد أفضى إليه يوم أمس بأسراره. استقبله المعلمُ عند الباب، ووضع في يده خمس ورقاتٍ نقديةٍ من فئة المئة ليرة، وهمس:

– "لا تناقشني... خذها، وكن اليوم صاحب الدعوة. عِشْهُ كما لو أنه وعدٌ لا يتكرر".

شكره نعمان بحرارةٍ، ومضى مسرعًا للحاق بالباص.

عند وصوله إلى دمشق، لمح سيارة البويك الرمادية واقفةً إلى جانب الطريق، والسيد أحمد خلف المقود، ينتظره.

ركب السيارة وقال بتحيةٍ مشرقة:

– "صباح الخير! أرجو ألَّا أكون قد أخَّرتك . أو تأخرت عليك؟"

ابتسم السيد أحمد وردَّ:

– "وصلتُ للتو... ويقي دقيقتان على التاسعة. هل ننطلق؟"

– "إلى أين؟"

أجاب السيد أحمد وهو يقود السيارة:

– "منى تنتظرنا... هي من خططت لقضاء هذا اليوم. ما رأيك؟"

تردد نعمان قليلًا، ثم قال:

– "ألا نشاركها التخطيط؟"

ضحك السيد أحمد ولم يُجب، وكأنَّه يترك للمفاجآت أن تتكلم.

وصلا إلى الفندق حيث يقيم السيد أحمد وابنته، أوقف السيارة، وتوجها إلى المصعد. جلس نعمان في ردهة الفندق بينما أجرى السيد أحمد اتصالاً، ثم عاد إليه قائلاً:

– "سنصعد إلى غرفتنا أولًا، تعال معي".

في الطابق العلوي، مرّا عبر ممر طويل حتى وصلا إلى باب إحدى الغرف. طرق السيد أحمد الباب ففتحت منى، بثياب النوم، وآثار النوم لا تزال على وجهها. همست لوالدها بشيء ثم انسحبت عائدة الى الداخل، دعاه السيد أحمد للدخول، ريثما يعود، لكن نعمان تردد، فعادت منى إلى الباب قائلة:

– "تفضل، أبي ذهب لإحضار شيء من السيارة، وسيعود حالًا".

لكنه بقي خارجًا حتى عاد السيد أحمد، الذي اعتذر له ودعاه للدخول مجددًا.

دخلوا إلى غرفة جلوس أنيقة أشبه بشقة صغيرة. قال السيد أحمد مناديًا:

– "منى! هل عندك شيء نشربه؟"

رد صوتها من الغرفة المجاورة بنعاس:

– "في المطبخ كل شيء... دعني أنام قليلاً فقط".

التفت السيد أحمد إلى نعمان مبتسمًا:

– "سنصنع القهوة بأنفسنا، أتساعدني؟"

دخلا المطبخ معًا، وأعدّ السيد أحمد المستلزمات، ثم أعدا القهوة بعناية، ثم جلسا ينتظران عودتها.

بعد قليل، انضمت إليهما منى، مرتدية فستانًا صيفيًا بسيطًا، لكنه هذه المرة ليس أسوداً ولا رمادياً، وشعرها الطويل قد ربط على عجل. جلست بهدوء، لكنها بدت أكثر انفتاحًا من لقائهما الأول. قالت بنبرة مرحة:

– "أظن أن القهوة جاهزة... أم أنكما أعددتماها لتبرد؟"

ضحك السيد أحمد وقال:

– **"نعم، نعمان أعدها كمن كان يحضر لامتحان".**

جلسوا يرتشفون القهوة في جوٍّ من المزاح الخفيف، والضحكات تنساب كأنها أنغامٌ عذبةٌ.

وبدأ الجليد بين منى ونعمان يذوب تدريجيًا. تحدثوا عن أمور بسيطة: الطقس، ازدحام المدينة، والذكريات الطفولية.

اقترحت منى بعد القهوة:

– **"ما رأيكم أن نذهب إلى مطعمٍ على ضفاف بردى؟"**

وافقا على الفور، وانطلق الثلاثة بسيارة السيد أحمد إلى المطعم، حيث استقبلهم المكان برائحة الخبز الطازج وصوت المياه المتدفقة.

جلسوا على طاولة قريبة من النهر، وكان المشهد ساحرًا.

لكن شيئاً جديداً كان قد حصل هذا اليوم؛ هو شعور نعمان في هذه المرة؛ بأنه هو صاحب هذه الدعوة؛ فقد مارس هذا الشعور بمرونة واندفاع؛ واستعداد نفسي جيد، ولم يجرِ حواراته المعتادة مع نفسه؛ بخصوص التقنين في الإنفاق، وبدا يؤكد على جودة كل ما يُطلب من النادل والإسراع في تلبية الطلبات.

كانت الجلسة على طاولة قريبة من النهر، بظلال شجرة ياسمين متفرعة تملأ المكان بعطرها. الهواء ناعم، والماء يتمايل برقة على وقع الحديث، والموسيقى الهادئة التي تنبعث من جهاز عالي الأداء في الزاوية.

بدت منى في ذلك اليوم أكثر ارتياحًا، وقد بدّل حديثها نغمه المعتاد، لتضيف عليه نكهات الدعابة اللطيفة، والتعليقات الذكية.

قالت وهي تنظر إلى طبق الفتوش:

– **"كيف لشيء بسيط مثل هذا أن يحمل كل هذا الجمال؟ يبدو كأنه لوحة رسمها فنان جائع!"**

ضحك نعمان بحرارة، وقال:

– **"ربما لأن الجائع يرى أي طعام أطيب مما هو عليه... أو ربما لأن من يقوم على إعداده، يفعل ذلك بروح مختلفة".**

أجابته بعينين متلألئتين:

– **"بل لأننا مجتمعون، والمذاق لا يصنعه الطعام وحده".**

أحضر الطعام، وتفننت منى في مداعبة الأسماء، تعلق مازحة:

– "شيخ المحشي" يبدو وكأنه شيخ حقيقي، ربما سيعظنا قبل أن نأكله!"

ضحك نعمان من قلبه، ولأول مرة شعر أن المسافة بينه وبينها تتلاشى. كانت تتحدث بخفة ظل، وعيناها تلمعان بحياة جديدة. أخبرته عن بعض مغامراتها الصغيرة، وعن هواياتها القراءة و كتابة الخواطر، فسألها بإعجاب:

– "هل تكتبين فعلًا؟ لم أكن أتوقع ذلك."

أجابت بخجل:

– "أحيانًا، حين أشعر أن العالم يضيق بي، أهرب إلى الورق".

رد بلطف:

– "الورق صديق مخلص... لا يسأل ولا يحكم."

كان لقاء اليوم؛ لا يشبه إلا إلى حد غير قريب لقاء يوم أمس؛ الذي جمعهم على الغداء في أحد مطاعم المدينة؛ إذ لم تكن هناك أي حوارات جماعية، فقد اقتصر لقاء الأمس، على سؤال سريع من أحدهم، وجواب مختصر من آخر.

أما اليوم فقد جرت أحاديث كثيرة بينهم، كان أهمها، عن البوح بهواية القراءة عند كليهما و المعطلة عند منى منذ فترة. بدا واضحًا أن الحواجز بدأت تتهاوى، وأن شيئًا من الألفة يتسلل رويدًا رويدًا إلى ما بينهم. تحدّث السيد أحمد عن زيارته الأولى القديمة إلى دمشق أيام دراسته الجامعية، وما وجد من فوارق في دمشق بين الزيارتين، وأضفى حديثه عن دراسته ما قبل الجامعية على اهتمام خاص من نعمان، وكيف كان يقطع مثله كنفس الطريق الذي يسلكه نعمان كل يوم إلى مدرسته، حتى شعر أن القدر يعيد نفسه في صورة شاب مختلف.

بينما ذهب السيد أحمد ليحضر كميرا من سيارته كي يلتقط صوراً ومشاهد، منها ما كان للذكرى، ومنها ما سيرسلها إلى بيروت لتطمئن خالة منى عنها، ويخبرها كيف حدث هذا التغيير سريعاً في سلوك وتفكير منى، بينما انشغل الأب بما هم به من متابعة لتسجيل هذا الحدث، وقد حاول أن يبقى بعيداً بشكل يساعده على ما يقوم به دون انتباه من كليهما، كانت منى تتحدث عن هواية القراءة، وكيف كانت تذهب بها إلى عوالم أخرى خارج عالمها المقيد بحدود البيت والمدرسة والدراسة، وتحدثت منى كيف فتحت لها هواية القراءة أن تكتب خواطرها حين تضيق بها الدنيا، وحين تصفو لها الحياة أيضاً.

أعجب نعمان بها، وشجعها أن تواصل الكتابة، فهي صديقة الورق كما هو.

في ختام النهار، اقترحت منى لعبةً صغيرةً: أن يقول كلٌّ منهم شيئًا لا يعرفه عنه الآخرون.

قال السيد أحمد:

– "كنتُ أعزف على العود أيام الجامعة... ثم هجرتُ العزف بعد أول خيبة".

وقال نعمان:

– " لا أحد يعرف أنني كنت أكتب الشعر خفية في الدفتر نفسه الذي أكتب فيه تلخيصاً للكتب التي كنت أقرأها ".

شهقت منى بدهشة:

– " شاعر؟ حقًا؟ وماذا كنت تكتب؟"

رد مبتسمًا:

– " أشياء لا ينفع أن تُقرأ أمام الغير ... لكنها كانت تريحني."

قالت منى:

– " أرجوك، في اللقاء القادم، اجلب دفتراً واحداً فقط ... واختر منه نصًّا تقرأه لنا".

وافق بخجل، فيما نظر السيد أحمد إليهما بابتسامة تحمل في طياتها شيئًا من الرضا العميق.

حين مالت الشمس إلى المغيب، وتمشَّوا على ضفاف النهر، كانت الضحكات تتناثر مع النسيم كأغنياتٍ خفيفة.

وفي طريق العودة، سأل نعمان السيد أحمد:

– "لماذا اهتممتَ بي إلى هذا الحد؟"

أجابه الرجل بنبرة فيها مزيج من الحنان والجدية:

" بصدق... لأنني رأيت فيك شيئًا من نفسي.. أو لأنني رأيتُ فيك شبابي الذي تمنيتُ لو انتبه إليه أحد".

كان هذا الاعتراف كفيلًا أن يُسقط آخر الحواجز من قلب نعمان.

وبينما كانت الشمس تميل للغروب، اقترحت منى أن يكتب كلٌّ منهم جملة تصف هذا اليوم. كتبت منى: **"يومٌ بدأ رماديًا، وانتهى بلون الياسمين".**

وكتب نعمان: **"اليوم... التقيتُ دمشق الحقيقية، لا شوارعها بل وجوهها".**

أما السيد أحمد فكتب ببساطة: **"ضحكتكما... كانت أجمل ما في هذا اليوم".**

دون أن يشعر أحدهم كان الوقت يمر مسرعاً، فانتبه نعمان إلى صوت يأتي من شخص على طاولة قريبة يقول: "منتصف الليل سيحين قريباً، هل سنبقى حتى الصباح" هنا وقف مسرعاً وذهب نعمان

إلى قسم المحاسبة، يسدد قيمة الفاتورة من المبلغ الذي كان قد نقده إياه معلمه وعند عودته قال مبتسماً: أما حان وقت العودة؟ فقد تأخر الوقف كثيراً"، وقف الجميع واستعدوا للمغادرة.

حين أوصله السيد أحمد إلى موقف الحافلات كانت منى تجلس في المقعد الخلفي شبه نائمة، لكن الحافلة التي يجب أن يستقلها لم تكن هناك، لقد غادرت عند منتصف الليل تماماً، ولن تأتي قبل الصباح الباكر. اقترح السيد أحمد إيصاله إلى المنزل إذ لا مجال إلا لذلك.

تردد نعمان، متحججًا بأن منى قد تحتاج إلى النوم في سريرها، فتنبهت قائلةً:

– "لا تقلق، إني لم أعتد النوم باكراً".

اضطر نعمان للموافقة. كانت الطريق صامتة أول الأمر، ثم كسرت منى الصمت :

– "هل نام رفيق الرحلة؟ أم أن كثرة الكلام هذا اليوم بلغت ذروتها حتى لم تبق مكانا لكلمات جديدة"

ضحك نعمان وأجاب:

– "لا ليس الأولى، فقط أستمتع بهدوء بما تركته لدي من ذاكرةٍ تلك الثانية".

– "وأنا أيضاً أستمتعُ بذكريات هذا اليوم".

وأردفت برقة:

– "شكرًا لأنك لم تحكم عليَّ من أول لقاء".

ردَّ عليها:

– "الحكم الأول لا يصنع صداقةً... بل التأني والتيقن ..."

تسارعت الكلمات على شفتيها وهي تقول: "أتقصد أننا أصبحنا أصدقاء؟"

ابتسم وقال:

– "الصداقة تعرف طريقها إلى القلوب من تلقاء نفسها".

حين الوصول، ودَّعه نعمان قائلًا:

– "شكرًا لكم... سأحفظ هذا اليوم في قلبي طويلًا".

عاد نعمان إلى بيته، حيث كانت أمه بانتظاره. جلس بقربها يرواد عن عينيه النوم، إذا هي أصرت أن تعرف الآن كل شيء لكنها تفاصيل نهاره كانت بادية على وجهه فاكتفت بأن أثنت عليه، ونصحته بالتيقظ والحذر.

أوى إلى فراشه. ومع أن التعب كان يغلبه، إلا أن الأفكار كانت تداعب جفونه ، مرددًا في قلبه:

"إنَّ الشمس ستسطع من جديد... حتمًا".

حتى استسلم أخيرًا لنوم عميق، أيقظه منه صوت أمه قبل الخافت: " قم يا بني إلى الصلاة قبل أن يمضي وقت صلاة الفجر".

في الصباح، حين لامست أصابعه مزلاج باب المتجر، كانت يده خفيفةً، وكأنها تخشى أن توقظ شيئًا هشًّا يسكن في الداخل.
توقف لحظةً قبل أن يدفع الباب، طرفاه مشدودان كمن ينتظر إشارة خفية.
في عينيه، كان هناك شيء جديد، لم يكن موجودًا يوم أمس الأول. شيء لم يكتمل، لكنه يلمع خافتًا، مثل نجمةٍ تتهيأ أن تنبض.

فتح البابَ ببطءٍ.
دخل، وأغلق خلفه كمن يغلق عالَمًا على سره.
وقف وسط المتجر، نظر إلى الأقمشة المركونة على الأرفف.
لثوانٍ، خُيّل إليه أن الألوانَ أدفأ، أن الروائحَ أعمق، أن المكانَ صار يتنفّس معه.

مرر كفه فوق سطح طاولة البيع، كأنه يلامس ماءً راكدًا.
عقله كان صامتًا، لكنّ قلبه كان يتهامسُ مع حلمٍ صغيرٍ لم يتشكّل تمامًا.

ابتسم... لا يدري لماذا. ابتسامةٌ قصيرةٌ عبرت ملامحه، وانطفأت سريعًا، كفقاعةٍ ارتجفت ثم تلاشت.

دقّت الساعةُ التاسعة ولم يحضر معلمه بعد، فكان يُقلّب بين الأقمشة، يحاول أن يبدو منشغلاً، لكنّ كلّ حركةٍ من حركاته كانت أقلّ حدةً من المعتاد، كأنّه يعيش في نصفِ يقظةٍ.

يمدّ قطعةً من قماشٍ أحمر، ثم يعود ويطويها ببطءٍ، دون سبب.
ينهض ليصفّ الأرفف، ثم يتوقف في منتصف الحركة.
ينظر إلى شيءٍ بعيدٍ كان يحدث بالأمس، مثل هذا الوقت، لا تراه العين.

كانت صورةً ما تومض خلف جفنيه، ظلّ وجهٍ غير واضح، طرف ابتسامةٍ، خفقةَ هدبٍ في الضوء.

قرابة العاشرة رن صوت الهاتف ليسمع منه أن معلمه لن يتمكن من الحضور اليوم.
دخل أحد الزبائن يطلب ثوبين من قماشٍ داكن.
خدمه حسب النظام والهدوء الذي اعتاد مع الزبائن، لكن صوتهُ كان هادئاً أكثر من العادة، فيه نغمةٌ رخوةٌ كمن يتحدث من تحت الماء، حين ناوله ثوبي القماش، انحنى لها بخفةٍ أكثر مما تقتضي العادة، كأنه يعتذر للحياة عن غياب قلبه الآن.

خرج الرجل يلتفت خلفه، وبقي هو لحظةً ينظر إلى الفراغ عند الباب.

مع انتصاف النهار.
جلس خلف طاولة البيع، أراح ذقنه على كفّه، وغاصت عيناه في شقٍّ بين لوحين خشبيين في

الجدار.لم يكن يفكر إلا بشيءٍ محدد . إنه الإحساس الذي يسبق الحلم: ضبابٌ دافئٌ يلفّ الروح. كأنّه في انتظار عودة الساعة إلى مثيلتها يوم أمس، لكنّه واثقٌ أنها لن تعود.

كان يرمش ببطء، حاجباه مسترخيان، وفمه يكاد يبتسم دون أن يقرر.

الساعة تقترب من الثالثة، نسي أن يغلق باب المتجر قبل ساعة فأسرع إلى إغلاقه وتناول شيء يأكله، لكن قطعة قماش بلون زهري مائلٍ إلى البياض جذبته من بعيد.
اقترب منها دون وعي، مد يده إليها، لامسها بأطراف أصابعه، للحظةٍ قصيرةٍ جدًا، أغمض عينيه، كأنّ الملمسَ نقل إليه حكايةً تنسجها له تلك الكلمات التي كانت منى تقولها مثل هذه اللحظات.

أعلنت الخامسة وقت انتهاء فترة استراحة الظهيرة.
باشر يعمل، يبيع، يوزع ابتسامات مقتضبةٍ، يتحرّكُ في المكان كأنه نصفه هنا، ونصفه الآخر في مكانٍ سريٍّ لا تطاله أعين أي ممن هم حوله.

كلما همد الزحام، عاد السكونُ يتسلّل إلى ملامحه.

وفي كل سكون، كانت تزداد ملامح حلمه الغامض وضوحًا:
همسات منى، خطواتها، ما لون عينيها، إنه لا يعرف لونهما بعد.

عند الثامنة، وقف عند الباب، يُغلق الدكّان، يده على القفل، لكن عينه لا تزال مشرّعةً على المساء، شعر بأن قلبه صار خفيفًا، هشًا، مثل قميصٍ معلقٍ على حبلٍ تحرّكه نسمة.
ولم يكن يعرف تمامًا: "أكان هذا بداية الحب؟ أم مجرّد ولادة الحنين؟"

أغلق الباب أخيرًا، ومشى ببطءٍ، كأنّه يمشي نحو مصيرٍ لا يرى ملامحه، لكنه يشعر به يقترب بخطواتٍ واثقةٍ بين العتمةِ والضوء.

عاد نُعمانُ إلى البيتِ مع موعدِ اجتماعِ الأسرةِ حول مائدةِ العشاءِ.
كانت خُطاه أبطأَ من العادةِ، كأنَّ كلَّ خطوةٍ تجرُّ خلفها ذيولَ فكرةٍ تأبى أن تكتمل.
فتح بابَ البيتِ بهدوءٍ، وتسلّل كما يتسلّل العطرُ الخفيفُ في نسيمِ المساءِ.

في المطبخِ، كانت أُمُّه تُجهِّزُ العشاءَ، وعيناها ترمقان الداخلَ عبرَ النافذةِ الخشبيةِ. بين يديها أوعيةٌ تفردها برفقٍ فوق الطاولةِ التي تحلّق حولها أبناؤها بصبرٍ جائع.
رفعت رأسها حين شعرت به، وابتسمت له ابتسامةً صغيرةً، دافئةً، كمن يعرف دون أن يُقال شيءٌ.

ابتسمَ هو الآخر، لكنّه ظلَّ واقفًا مكانه لحظةً، كأنَّه ينقّبُ في صدره عن الكلماتِ المناسبةِ.
ثم دنا منها، وساعدها على إتمامِ إعدادِ العشاءِ لإخوته، قبل أن يأخذ يدَها برفقٍ إلى غرفةِ المعيشةِ.
أجلسها على كرسيِّها الخشبيِّ المعتادِ، وجلس هو أرضًا عند قدميها.
أسند رأسه إلى جانب ركبتيها، كما كان يفعل صبيًّا صغيرًا.
أطلق تنهيدةً طويلةً، لم تكن تنهيدةَ تعبٍ، بل كأنَّه يفرغ صدره مما امتلأ به طوال النهارِ.

قال هامسًا، بصوتٍ مختنقٍ بنعومةٍ:
" أمِّي"...

لم تُجبه، بل وضعت يدها فوق شعره بحنوٍّ عميقٍ، ففهم من لمستها أنَّها تقول: "أنا هنا، من أجلك".

أغمض عينيه، وبدأ يحدّثها، كأنَّه يحكي لنفسه أكثر مما يحكي لها:
" اليوم... كان غريبًا"...

ثم تابع بصوتٍ منخفضٍ:
" لا أدري... شعرتُ كأنَّ الدنيا تغيَّرت فجأةً...
المحلُّ هو المحلُّ، الأقمشةُ هي الأقمشةُ، والناسُ هم الناسُ... لكنني أنا... لستُ أنا".

صمت قليلًا.
وأمُّه ظلَّت تمرّر يدها فوق رأسه بحركاتٍ بطيئةٍ، كأنَّها تمشّط روحه، لا شعره. ثم قالت:

" "التغيّرُ يا بنيّ، سنةُ الحياة... لكن قل لي، ما الذي يحزنك؟ ما الذي يخيفك؟"

استطرد بنبرةٍ حالمةٍ:
" كلُّ شيءٍ حولي صار... ربما أحلى.
في الصباحِ، عندما فتحتُ باب المتجرِ، شعرتُ كأنني أدخلُ إلى عالمٍ آخر.
كأنَّ شيئًا في داخلي كان ينتظرني... لم يكن واضحًا... لكنه كان موجودًا"...

ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ خجولةٌ، طفوليةٌ، ثم أكمل:
" حتى الأقمشة... كنتُ ألمسها كأنني ألمس حلمًا"...

رفعت أمه يدها إلى خدّه، تتحسّس حرارة الكلمات الخارجة من قلبه.
نظر إليها، فوجد في عينيها ذلك اللمعانَ العتيقَ، الذي لا يراه إلا حين ينجح، أو يحزن، أو يحلم.

قال لها بصوت منخفض، يكاد يكون سرًّا:

" أمي أشعر ... كأني على أبواب شيء كبير.
كأنه... مشروع حياة مختلفة... أو حلم قريباً سيتحقق ...لا أدري"...

ضحكت أمه بهدوءٍ، ضحكةً فيها حنان وأمل وخوف خفيّ.
ثم همست له، ومسحة حنان في صوتها:

" الحلم... يا نعمان... يأتيك عندما يكون قلبك جاهزاً لاستقباله ... وأنت اليوم... قلبك مفتح متل زهرة، لكن عليك أن تسأله ... هل قلبك جاهز لاستقباله ".

ظل ساكنًا مكانه، رأسه إلى جانبها، يسمع دقات قلبها المطمئنة الهادئة، كأنها موسيقى لليل طويلٍ دافئ. وغفى، دون أن يدري، إذا ما استمرت أمه مواصلة تمشيط شعره بأصابعها، أو إذا ما كانت تتابع حديثها، لكن قلبها كان يدعو له بصمتٍ لا يعلمه إلا الله.

مرّت يدُ أمه على خده مرور النسيمِ على وجه الحقلِ عند الغروبِ.
همست، كأنها تخاطب قلبه لا أذنه:
" إذا شعرتَ أن شيئًا ما يتغيّرُ فيك... فذلك لأنّ الله يهيّئك لما هو أجمل".

لم يفتح عينيه، بل ازداد التصاقًا بركبتيها، كأنما يتشبث بجذور الطمأنينةِ قبل أن تعصف به رياحُ المجهولِ.
وظل ساكنًا، يسمع صدى كلماتها يتردّد في قلبه، حتى خيّل إليه أن أنفاسه نفسها بدأت تتلو حروفها مع كل شهيقٍ وزفيرٍ.

مرت لحظاتٌ لا يُقاسُ وزنها بالزمنِ، بل بثقل المشاعرِ التي ظلّت معلّقةً بين القلبين.
ثم، بهدوءِ الطفولةِ التي لم يغادرها بعد، رفع رأسه، وقبّل يدها قبلةً طويلةً صامتةً.
ابتسمت له ابتسامةً أكبرَ هذه المرة، وقالت بصوتٍ بالكاد يُسمع:
" اذهبْ، ولا تخفْ. الحلمُ لا يُطرقُ بابه مرتين".

نهض نُعمانُ كأنما قامَ من صلاةٍ، وعيناه لا تزالان تلمعان بشيءٍ بين الدمعِ والضياءِ.
ودون أن ينطق بكلمةٍ، اتجه إلى غرفتهِ، حيث ألقى جسده فوق سريرهِ، وأغمض عينيه.

لم يكن النومُ بعيدًا عنه تلك الليلة، ولا كانت الأحلام.
رآى نفسَه، في نومه، واقفًا على عتبةِ بابٍ عظيمٍ من نورٍ، تتطاير حوله قطعٌ صغيرةٌ من قماشٍ ملوّنٍ، كأنها فراشاتٌ ترقصُ في مهرجانٍ سرّيٍّ أُقيمَ لأجلِه وحده.
ومع كل خطوةٍ يخطوها نحو الباب، كان يسمع صدى أمه يهمسُ في قلبه:
" اذهبْ، ولا تخفْ"...

بعد صلاة الفجر، أسند نعمان رأسه إلى جانب ركبتي أمّه، لكن شيئًا من خفّة الطفولة لم يكن في هذه الحركة هذه المرة.
شعرت الأم، وهي تمرر يدها على شعره، أن بين خصلاته حزنًا لم تعرفه من قبل.
توجّست في قلبها، كما تتوجّس الأم إذا ما رأت ظلّ غيمةٍ صغيرةٍ تعبر وجه ابنها.

همسَ، صوته مشوبٌ بتردّدٍ خفيفٍ:
" أمّي... أريد أن أحدثكِ عن شيءٍ"...

شدّت على رأسه براحتها برفق، وكأنها تقول له: "تكلّم... ما هذا الشيء الذي يشغلك منذ مساء الأمس؟".

أغمض نعمان عينيه قليلًا قبل أن يبدأ:
" يوم الجمعة... ذهبت مع منى و والدها إلى مطعمٍ صغيرٍ على ضفاف بردى. لم يكن شيئًا مخططًا له من قبلي، فقط جلسنا هناك نتناول الطعام ونتحدث"...
توقف لحظةً، كأنه يسترجع المشهد.
" كانت المرة الأولى التي أراها فيها بلا وهج الخيال الذي سبق لي أن رأيتها عليه ... رأيتها كما هي. ليست تلك الفتاة الظالمة فقط... بل إنسانةٌ حقيقية، لها قلقها، وأحلامها التي تعبت في بنائها، وخوفها الذي يشبه خوفي".

تقلّب قلب الأم بين الفرح والخوف؛ فرحٌ لأن ابنها يحيا لحظةً صادقةً، وخوفٌ من أن تصيبه خيبةٌ لا تداويها الكلمات.

تابع نعمان، صوته يهبط ويعلو كأنما يسير فوق جسرٍ معلق بين الرجاء والخذلان:
" كنا نسمع خرير الماء، وأصوات الناس تتلاشى من حولنا... كأن العالم كله ضاق حتى صار مجرد نظرة بيننا. تحدّثنا عن كل شيء: عن الأحلام التي نحملها، عن هواياتنا التي اكتشفنا أن لكلينا نفسها، عن الرغبة بأن نصنع لنا مكانًا ضمن هذه الهوايات، صغيرًا فقط، لكنه يكون لنا وحدنا".

لم تقل الأم شيئًا، لكنها شعرت بالدمعة تهدد طرف عينها، وخبأتها بأن زادت من ضغط يدها على رأسه، محاولةً أن تمنحه يقينًا لم تعد تملكه هي نفسها.

استمرّ، كأنه يحكي حلمًا، لكنه كان واقعيًّا حتى في رقّته:
" منى كانت مختلفة عما تخيّلتها أول مرة. ليست تلك الصورة الكاملة التي نسجها سلوكها معي أول لقاء ... هي أجمل من ذلك في حقيقتها، لأنها هي الحقيقية. بسطت أمامي خوفها كما أبسط لكِ خوفي الآن... ومنحتني فرصة أن أكون أنا، دون تكلّف ولا حذر".

أحسّت الأم أن يدها ترتجف قليلًا فوق شعره.
همست بصوتٍ بالكاد خرج من بين شفتيها:
" رفقًا بقلبك، يا ابني"...

رفع رأسه ونظر إليها نظرةً طويلةً ممتلئةً بعرفانٍ لا يحتاج إلى كلمات، وقال:
" أعرف، يا أمّي... لهذا أنا أعود إليكِ. هنا فقط... أجد قلبي حين أضيّعه".

وضمّ رأسه إلى حجرها مرةً أخرى، بينما ظلّ خرير بردى بعيدًا يهمس بما لا يسمعه سواهما.

تنهد تنهيدةً طويلةً، ثم قال:
" منى... ، إنها، شيئٌ جديدٌ في عيني... صحيح أنني أدركت إنها إنسانة من لحمٍ ودم، وليست ظلمًا هابطًا من الخارج".

تأملته الأم بعينين فيهما قلقٌ دفينٌ، وقالت:
" وهل في هذا ما يُحزنك؟ أن ترى الحقيقة بعين القلب؟"

هزّ رأسه ببطءٍ، ثم رفع عينيه إليها وقال:
" الحقيقة أحيانًا، يا أمّي، ثقيلة... عندما تحدّثنا بم نتحدث طويلاً، لكن والدها كشف لي عن همومها، عن حلمها بأن تدرس الطب بعد أن حصلت نتائج الثانوية، لكنها تركت المدرسة ولم يبق لديها ثقة بأحد بعد وفاة والدتها وأخيها... تحدث عن خوفها من الفشل... عن وحشة الطريق الطويل أمامها دون أمها".

تغيّرت نظرة الأم، وانسحب ظلّ حنانها إلى عمق قلبها، فقالت بحذر:
" وهل تخشى أن تحمل قلبها فوق قلبك، فلا تقوى على المسير؟"

ابتسم نعمان ابتسامةً باهتةً، وأجاب:
" أخشى أن أغرق قبل أن أتعلم السباحة... وأخشى أن أضيّعها، أو أن أضيّع نفسي".

سكت لحظةً، ثم قال كمن يزيح سِتْرَ قصةٍ طويلةٍ:
" تعرفين يا أمّي... حكى لي أبو حسن صاحب المتجر المجاور لنا قصةً قبل أيام. قال إن الرياح لا تسبقها عاصفةٌ عظيمةٌ إلا إذا كانت تحمل أمراً جللاً".

"حكى عن شابٍ تعلّق بفتاةٍ ظنها ملاكًا، حتى إذا اقترب منها عرف أنها كانت تجرُّ وراءها أحمالًا من ألمٍ ومعاناة لا يستطيع تحمله معها. لم يتركها، لكنه أضاع نفسه وهو يحاول أن يكون لها الأرضَ والسماء معًا".

ارتجف قلب الأم، فمررت يدها فوق رأسه مراتٍ بطيئة، محاولةً أن تهدّئ نذير القلق الذي بدأ يلسعها.

قالت له، بنبرةٍ تحمل الحنو والخوف معًا:
" يا ابني... هل تخاف من الحب؟ أم تهرب من الحقيقة؟... لكن في كلتي الحالتين اعرف، أن القلبَ الطيب إذا حمل أكثر مما يطيق، انكسر".

نظر إليها طويلًا، كأنما يغترف من كلامها زادًا لطريقٍ لم تكتمل معالمه بعد، ثم قال:
" لهذا أفردتُ هذا الصباح لك... لأطمئن أني لا أمشي وحدي في هذا الطريق".

ابتسمت الأم، ابتسامةً شابها الدمع، وقالت:
" لن أدعك وحدك، ما دام لي قلبٌ ينبض".

ثم احتضنته بذراعيها، وهو يسند رأسه إلى صدرها، كما لو أنه يعود إلى الطمأنينة الأولى، حيث لا عاصفة، ولا ريح، ولا خوف.

مضى نُعمانُ في حياتِه بهُدوءٍ رتيبٍ، لا يكادُ يُقلقُ صفوَه شيءٌ، بعد أن أزاحَ عن كاهِلِه هَمَّ التفكيرِ فيما قد يُسبِّبُ له أو لعائلتِه ألمًا، أو يُنغِّصُ عليه حياتَه.

وبعد يومين، اقتربَ من مُعلِّمِه مُستأذنًا:

«مُعلِّمي، أودُّ أن أُراجِعَ الجامعةَ لتسجيلِ اسمي، أو ربّما أبحثُ عن معهدٍ يُناسبُ علاماتي».

هزَّ المُعلِّمُ رأسَه مُوافقًا بابتسامةٍ مُشجِّعةٍ، فانطلقَ نُعمانُ برفقةِ زميلِه الخلوقِ، رفيقِ دربِه في الدراسةِ خِلالَ الأعوامَ الفائتة، نحوَ مبنى جامعةِ دمشقَ القديم.

هناك، وقفا أمامَ مكتبِ شؤونِ الطلابِ، ينتظرانِ دورَهما بصبرِ الشبابِ وحماسِ الآمالِ الوليدة.

حصل الاثنانِ على شروطِ القبولِ والتسجيلِ، ثم ودَّع نُعمانُ رفيقَه عند بوابةِ الجامعة، وانطلقَ عائدًا إلى «الحريقة»، يقطعُ الشارعَ المُزدحمَ بالسياراتِ بخفَّةٍ، غافلًا عن صوتٍ يناديه من إحدى المركباتِ العابرة.

وصلَ المتجرَ لاهثًا، ليجدَ الحاجَّ أبا محمودٍ يستقبلُه عند البابِ بابتسامةٍ ودودةٍ، قائلًا:

«ها قد عدتَ، يا بُنيَّ! لقد جاءَ السيِّدُ أحمدُ وابنتُه لوداعِنا، فهم مسافرونَ غدًا صباحًا... سأترُكُكما الآن لألحقَ بصلاةِ الجماعة».

تركهما الحاجُّ ومضى مُسرعًا، بينما ظلَّ نُعمانُ واقفًا مُتردِّدًا، مُتلعثمًا في حضرةِ السيِّدِ أحمدَ، الذي قال له بنبرةٍ دافئةٍ:

«أردنا فقط أن نودِّعَك. لقد رأيناكَ تعبرُ الشارعَ، وناديناكَ، لكنكَ لم تلتفِت. حاولنا أن نحضُرَكَ معنا كي لا تتعبَ في هذا الحرِّ... نعلمُ أنك لا تحملُ لنا إلا كلَّ خيرٍ، ونرجو أن تذكرَنا بصورةٍ طيبةٍ لعلَّ الأيامَ تجمعُنا مرةً أخرى».

اختارَ السيِّدُ أحمدُ كلماتِه بعنايةٍ، ورافقها بابتسامةٍ رقيقةٍ طمأنت قلبَ نُعمان، الذي أجاب وهو يتلعثمُ:

«عذرًا، يا سيِّدي! لم أنتبهْ لصوتِكم، وأُقسمُ أنني لا أكنُّ لكم إلا كلَّ مودَّةٍ وخيرٍ. أشكُرُكم على لطفِكم... وأدعو اللهَ أن تبلُغوا بلدَكم وأهلكم وتصلوا بالسلامةِ والسعادةِ».

وغادرا ...... مرَّت الأيامُ، واستقرَّ الروتينُ مُجددًا.

وفي ظُهيرةِ يومٍ صيفي حارٍ، وقبيلَ موعد إغلاقِ المتاجرِ لفترة الظهيرة بقليل، توقفت سيارةٌ أنيقةٌ أمام باب المتجر للحظات. ولأن ازدحام السيارات خلفه كان شديداً فلم ترجلَ منها السيِّدُ أحمدُ، ولكنه

شرع يبحثُ بعينيه عن نعمان، ولما لم يجده نادى حمّالاً كان قد رآه من قبل. وسلّمه ورقةً صغيرةً مع بقشيشٍ كريمٍ، طالبًا منه أن يُسلِّمَها إلى نُعمان.

" أعتذر منك! فلم أجد مكانًا قريبًا يسمح لي بركنِ السيارة والنزول، ستجدني بعد قليل أنتظرك عند مدخل الحريقة. مع تحياتي م. أحمد".

وصلت الرسالةُ إلى نُعمانَ، قرأها بسرعةٍ، ثم اتجه إلى علّيةِ المتجرِ، حيث كان مُعلّمُه يستعد لتناولُ غداءَه، قائلًا:

« مُعلِّمي، إنها الثانيةُ الآن، سأغلقُ المتجرَ من الخارجِ، وسأغادر لبعضِ الوقتِ، عندي أمرٌ عاجلٌ».

أجابه المُعلِّمُ بموافقةٍ مُتفهمةٍ، فودَّعه نُعمانُ وغادرَ، حيث كان السيِّدُ أحمدُ ينتظرُه.

في السيارةِ، دار بينهما حديثٌ قصيرٌ، ثم انطلقا نحوَ مطعمٍ قريبٍ. وبين لقيماتِ الطعامِ السريعةِ، طلبَ السيِّدُ أحمدُ من نُعمانَ مساعدةً جديدةً:

« هل يمكنكَ أن تبحثَ لي عن شقةٍ مفروشةٍ للإيجار، هنا في دمشق؟ سأمكثُ بعضَ الوقتِ، فقد مللتُ من الإقامةِ في الفنادق».

لم يُفسِّر السيِّدُ أحمدُ الأسبابَ، واكتفى بنظرةٍ غامضةٍ.

توجه نُعمانُ نحو مكتب صاحب المطعم، وطلب منه بلطفٍ أن يجري اتصالاً، واتصل بأحدِ معارفِه، فدلَّه على قريبٍ له يملكُ مكتبًا عقاريًا.

بعد الغداءِ، توجَّها معًا إلى المكتبِ، حيث استقبلهما صاحبُ المكتبِ بودٍّ ظاهرٍ.

رافقهما إلى شقةٍ قريبةٍ من منطقة الحريقة (بناءً على طلبِ السيِّدِ أحمدَ)، فأعجبت السيِّدَ أحمدَ بموقعِها ومساحتِها، واتفقا على العودةِ مساءً لإتمامِ العقدِ مع صاحبِ الشّقةِ.

عاد نُعمانُ إلى متجرِه، فيما بقي السيِّدُ أحمدُ يُديرُ حوارًا مع صاحبِ المكتبِ العقاري.

وعند المساءِ، حضر السيِّدُ أحمدُ إلى المتجرِ مجددًا، وأوضح للحاجِّ أبي محمودٍ ما يحتاجه:

« سأُغادرُ إلى بيروتَ الليلةَ، وأحتاجُ إلى من يستلمُ العقدَ ويدفعُ الإيجارَ مُقدمًا لستةِ أشهرٍ».

سلَّم السيِّدُ أحمدُ نعمانَ مبلغًا كبيرًا من المالِ، بحضورِ الحاجِّ أبي محمودٍ، ثم غادرَ عائدًا إلى لبنانَ.

عند الإغلاقِ، رافق الحاجُّ أبو محمودٍ عامِلَه إلى المكتبِ العقاري، حيث أنجزا المهمةَ بدقةٍ وأمانةٍ، ثم تابعا إلى موقفِ الباصِ مُطمئنين.

في اليوم التالي، حضر السيِّدُ أحمدُ لاستلامِ نسختهِ من العقدِ ومفاتيحِ الشقةِ، فقدمها له نُعمانُ بكلِّ أمانةٍ، وسط كلماتِ شكرٍ دافئةٍ.

وفي عصرِ اليومِ نفسه، عاد السيِّدُ أحمدُ بدعوةٍ لطيفةٍ:

«أتشرفُ بدعوتكما لعشاءٍ خفيفٍ في شقتي الجديدة».

اعتذرَ الحاجُّ أبو محمودٍ بسببِ التزاماتِه، وكاد نُعمانُ يعتذرُ كذلك، لولا إصرارُ السيِّدِ أحمدَ ولُطفُه.

وافق الاثنانِ أخيرًا، ورافقاه بعد الإغلاقِ.

استقبلَهما السيِّدُ أحمدُ بحفاوةٍ، وقدَّم لكلٍّ منهما هديةً صغيرةً جلبها من بيروتَ، مع ضيافةٍ من الكاتو الطازجِ وعصيرِ البرتقالِ الباردِ.

كانت زيارةً قصيرةً ولكن دافئةً، تبادلوا خلالها أحاديثَ خفيفةً. وعند المغادرةِ، أصرَّ السيِّدُ أحمدُ أن يُقلّهما بسيارتهِ.

وعلى الطريقِ، دار حديثٌ لطيفٌ مع الحاجِّ أبي محمودٍ، تمحور أكثره حول نُعمانَ وأمانتِه وروحهِ الطيبةِ.

عند منزلِ الحاجِّ أبي محمودٍ، ترجَّل السيِّدُ أحمدُ ليودِّعَه بحرارةٍ، ثم أصرَّ أن يُوصِلَ نُعمانَ حتى بابِ بيتِه.

هناك، ودَّعَه بابتسامةٍ عريضةٍ، وعاد أدراجَه مسرورًا، يحملُ في قلبِه امتنانًا خالصًا لذلك الفتى الطيبِ.

في صَباحِ اليومِ التالي، توجّه نُعمانُ إلى مُعلِّمِهِ، يَطلُبُ إذنَهُ بالانصرافِ مُؤقَّتًا، إذ كان عليهِ مُراجعةُ الجامِعةِ لتقديمِ أوراقِ تسجيلِهِ، فَقَد عَقَدَ النِّيَةَ عَلَى أَنْ يَتقدَّمَ للالتحاقِ بكليَّةِ الفنونِ الجميلةِ، مُتطلِّعًا لدراسةِ اختصاصِ هندسةِ الديكورِ لأربعِ سنواتٍ القادمةِ.
باركَ لهُ مُعلِّمُهُ هذهِ الخُطوةَ، وأعطاهُ الإذنَ بكلِّ سرورٍ.
مضى نُعمانُ بخُطًى حثيثةٍ نحو مبنًى الكليَّةِ، وقدَّم أوراقَهُ، وعادَ حاملًا موعدًا لمُقابلةٍ شخصيَّةٍ، يتبعُها اختبارٌ كتابيٌّ، وفنِّيٌّ، وعمليٌّ، سيُحدِّدُ مصيرَهُ الأكاديميَّ، كان الموعد بعدَ شهرٍ كاملٍ من الآن.
عادَ مُسرعًا إلى المتجرِ، فوجدَ معلمه يتحدث مع أحد الزبائن عند باب المتجر وكأنه، كان ينتظر عودته بفارغ الصبر، ليذهب إلى المسجد لأداء الصلاة، بينما كان السيِّدَ أحمدَ ينتظرُهُ في اَلّداخلِ.
استقبلَهُ الحاجُّ أبو محمودٍ عِندَ اَلبَابِ وَنقلَ إليهِ رِسَالَةً سَرِيعَةً من السَّيِّد أَحمَد قَائِلاً له بِصَوتٍ أَقرَبَ إِلَى اَلهَمسِ:
" اَلسِّيِّدُ أحمدُ فِي اَلدَاخِلِ يَنتَظِرُكَ، يَرغَبُ بمرافقَتِكَ لَهُ بَعدَ الإِغلَاقِ، مَا رَأيُكَ؟."
فكَّرَ نُعمانُ لحظاتٍ وجيزةً، بَينَمَا يُغَادِرُ اَلمُعَلِّمُ اَلمتجَرَ يَدخُلُ نُعمَانَ وَيَتَوَجَّهُ حَيثُ يَجلِسُ اَلرَجُلُ فَيَقُولُ بِلُطفٍ بَعدَ أَن يُلقِي اَلتَّحِيَّةَ:
" سَأَذهَبُ إِلَيكَ لَأَلتَقِيكَ فِي شُقَّتِكَ بَعدَ مَوعِدِ اَلإِغلَاقِ... فَلَدَيَّ اَلآنَ بَعضُ اَلأَعمَالِ، عليَّ إِنجَازُهَا أَوَّلًاَ، وَلَكِن أَستَمِيحُكَ اَلعُذرَ فَرُبَمَا أَخَذَ اِنجَازُهَا مِنِّي وَقتَاً قَد يَمتَدُّ إِلَى أَبعَدَ مِن مَوعِدِ اَلإِغلَاقِ".
ابتسمَ السيِّدُ أحمدُ وقالَ:
" سأنتظرُكَ أمامَ المتجرِ إذاً، لَكِن مِن فَضلِكَ! لَا تَتَأَخَّرْ عَلَيَّ".
ودّعَهُ وغادرَ بخطواتٍ واثقةٍ.
أسرعَ نُعمانُ يقضي شؤونَهُ، وقد امتدَّ بهِ الوقتُ أكثرَ ممَّا توقَّعَ، ورغمَ أنَّهُ أخبرَ السيِّدَ أحمدَ مُسبقًا بتأخُّرِهِ، ظلَّ الرجلُ ينتظرُهُ بصبرٍ أمامَ المتجرِ، حتَّى بَعدَ أَن أُغلِقَ اَلمَتجَرُ بابَهُ، بَل بَقِيَ مُنتَظِرَاً حتَّى خَرَجَ مِنهُ نُعمَانُ.
وبعدَ نحوِ ساعةٍ، خرجَ نُعمانُ وأغلقَ المتجرَ خلفَهُ، والتحق بالسيِّدِ أَحمَد اَلذِي انطَلَقَ بسيَّارتِهِ، مُتوجِّهاً نحوَ المكتبِ العقاريّ.
دخلَ السيِّدُ أحمدُ، بينما بقيَ نُعمانُ عندَ البابِ يُدخِّنُ سيجارةً، وقد بدت عليهِ علاماتُ الحيرةِ دونَ أن ينبسَ بكلمةٍ.
دخلَ السيِّدُ أحمدُ المكتبَ، وقالَ لصاحبه بهدوءٍ بعد أن ألقى التحيةَ:
" أعتذرُ منكَ سَلَفًا!"

قالها السيِّدُ أحمد بنبرةٍ حاول أن يُخفي فيها الإحراج، ثم تابعَ:
" فالشقَّةُ التي استأجرتُها لم تُرضِ ابنتي... إنَّها تُفضِّل شقَّةً أوسع، وفي منطقةٍ أرقى نِسْبِيًّا".

تناول صاحبُ المكتبِ سمّاعةَ الهاتفِ وأجرى عدَّةَ اتصالاتٍ سريعة، بينما كان السيِّدُ أحمدُ قد خطا نحوَ حيثُ يقفُ نُعمان، وسأله بلطفٍ فيهِ عِتابٌ:

" لِمَ لَمْ تدخلْ معي؟"

أجابه نُعمانُ بهدوءٍ لا يخلو من المسافة:

" وما أدراني بحاجتِكَ؟ لم تُخبرني بشيءٍ، ولا أعرفُ أصلًا ما سببُ وجودي معكَ هنا؟"

في تلك الأثناء، أنهى صاحبُ المكتبِ مكالماته، ثم أشار إلى السيِّدِ أحمدَ ليدنو منه، وقال:

" الشُّقَقُ المفروشةُ في مناطقَ أرقى إمّا غاليةٌ جدًّا، أو غيرُ متوفّرةٍ حاليًّا".

هزَّ السيِّدُ أحمد رأسَه متفهِّمًا، وقال:

" لا مشكلةَ لديّ في قيمةِ الأُجرةِ إنْ وجدتُ ما يُناسبُ ابنتي، لكن... متى يُمكنني أن أعثرَ على ما أُريد؟ أو... هل تعرفُ أحدًا يُمكنهُ مساعدتي؟"

ثم التفتَ إلى نُعمان، وناداهُ بلهجةٍ أقربَ إلى الرجاء منها إلى الأمر. اقتربَ نُعمان، وسأله:

" ما المدّةُ التي تُفكِّرُ في استئجارِ الشقّةِ خلالها؟"

أجاب السيِّد أحمد:

" لا مُدّةَ مُحَدَّدة... أنا مُستعدٌّ لدفعِ أيِّ مبلغٍ، ما دامتِ الشقّةُ ستُرضي ابنتي".

التفتَ نُعمانُ إلى صاحبِ المكتب، وسأله عما إذا كان لديه شقة بنفس المواصفات التي طلبها السيد أحمد للبيع، فأجاب:

" كلُّ ما يَطلُبُهُ السيِّدُ متوفِّرٌ... إذا أراد الشراء. فهناكَ ثلاثُ شُقَقٍ جديدةٍ في بناءٍ واحدٍ، بموقعٍ راقٍ جدًّا، قريبٍ من المزَّة، وأعمالُ التَّشطيبِ انتهتْ حديثًا"..

ثم أضافَ:

" أوراقُ الملكيَّةِ جاهزةٌ للفراغ، لكنَّها معروضةٌ للبيعِ فقط، لا للإيجار"..

سألَ السيِّدُ أحمدُ عن السِّعرِ التقريبيِّ، فأجابهُ الرجلُ:

"السِّعرُ لا يتجاوزُ خمسةَ عشرَ ألفَ ليرةٍ سوريَّةٍ للمترِ الواحدِ".

فطلبَ السيِّدُ أحمدُ تحديدَ موعدٍ لرؤيةِ الشُّقق.

وبعدَ اتصالاتٍ قصيرةٍ، تقرَّرَ أن يكونَ الموعدُ بعد صلاةِ الجُمعةِ، أَي في اليومِ التالي مباشرةً.

دوَّنَ السيِّدُ أحمدُ رقمَ هاتفِ المتجرِ حيثُ يعملُ نُعمانُ وأَعطَاهُ لِصَاحِبِ المَكتَبِ، تحسُّبًا لأيِّ طارئٍ.

وفي طريقِ العودةِ، طلبَ نُعمانُ بتواضعٍ:

" هل لكَ أن تتوقَّفَ قليلًا عندَ البحصةِ؟ أُريدُ شراءَ بعضِ الطعامِ".

وقفَ السيِّدُ أحمدُ قربَ أشهرِ محلٍّ للفلافلِ، كما أشار له ونزلَ نُعمانُ وعادَ سريعًا بثلاثِ لفافاتٍ كبيرةٍ وثلاثِ زجاجاتٍ لبنِ عيران.

ناولَ السيِّدُ أحمدَ لفافتينِ وزجاجتينِ، واحتفظَ لنفسِهِ بالباقي، مُبتسمًا وهو يقولُ:

" هذا غداؤنا اليومَ... وأتمنَّى أن تذوقَهُ منى أيضًا".
ثم ودَّعهُ بلُطفٍ، راجيًا أن ينقلَ سلامَهُ وتحياتِهِ إلى مُنى.
كانت هذهِ المرَّةُ الأولى التي يذكرُ فيها اسمَها دونَ لقبِ "الآنسةِ"، والأولى التي يختارُ لها شيئًا بيدِهِ، رغمَ أنَّهُ لم يلتقِ بها بعدَ عودتِها من لبنانَ.
تساءلَ في نفسِهِ:
" ترى، هل ستقبلُ تذوُّقَ هذا الطعامِ البسيطِ الذي اخترتُهُ لها؟
وهل سأتلقَّى منها، عبرَ والدِها، كلمةَ شكرٍ صغيرةً؟"
عادَ نُعمانُ إلى عملِهِ، وغاصَ، كعادتِهِ، بينَ صفحاتِ كتابٍ كان يصطحبُهُ معهُ دومًا.
رآهُ مُعلِّمُهُ، فسألهُ:
" ماذا تقرأُ هذهِ المرَّةَ؟"
أجابَ نُعمانُ بهدوءٍ:
" هي روايةٌ عالميَّةٌ مُترجمةٌ إلى العربيَّةِ".
" وما مضمونُها؟"
" هي تحكي قصَّةَ صراعِ الإنسانِ مع ذاتِهِ، وزمنُها زمنُ الحربِ العالميَّةِ الثانيةِ، تدورُ أحداثُها في قريةٍ أوروبية صغيرةٍ، وأبطالُها أُناسٌ بُسطاءُ، ولكنَّ الكاتب حَمَّلَ أحداثها أعماقًا كبيرةً".
ابتسمَ المُعلِّمُ وسألهُ:
" ولماذا تختارُ الرواياتِ الأجنبيَّةَ، ولا تقرأُ من أدبِنا المحليِّ؟"
ردَّ نُعمانُ بثقةٍ:
" لقد قرأتُ كثيرًا من المؤلَّفاتِ العربيَّةِ، وأستطيعُ أن أُلخِصَها لكَ، إن رغبتَ، في أوقاتِ فراغِنا".
سألهُ المُعلِّمُ مجدَّدًا:
" وهل تُطالعُ غيرَ الرواياتِ؟"

" جرَّبتُ بعضَ الكتُبِ العلميَّةِ، لكنِّي وجدتُ فيها صعوبةً بعضَ الشيءِ... أُفضِّلُ ما هو مناسبٌ لقدراتي العلميَّةِ واستيعابي".
أعجبَ المُعلِّمُ بحماسِهِ وفضولِهِ، وقالَ ممازحًا:
" أخجلُ أن أقولَ إنَّكَ أكثرُ ثقافةً منِّي"!
ثم استدركَ مُبرِّرًا:
" أنا أتلو كلَّ يومٍ جزءًا من المصحفِ الشريفِ، خاصَّةً بعد أن أهداني السيِّدُ أحمدُ نسخةً جميلةً بخطٍّ واضحٍ، لا أحتاجُ معهُ إلى نظَّارتي المُزعجةِ".
وبمناسبةِ ذِكرِ الهدايا، سألهُ المُعلِّمُ:
" وأنتَ، ما الهديَّةُ التي تلقيتَها من السيِّدِ أحمدَ؟"
ابتسمَ نُعمانُ ابتسامةً خفيفةً وقالَ:
" لم أفتحْها بعدُ... تركتُها في دُرجِ الخزانةِ، ربَّما أضطرُّ لإعادتها لهُ يومًا ما".

وفي صباحِ يومِ الجُمُعةِ، كان نعمان يرتدي ملابسه ويستعد للخروج بعد أن استأذن من والدته حين جاءَ أحدُ أبناءِ عمِّه يركضُ نحوهُ قائلًا:

" هناكَ رجلٌ عندَ البابِ يسألُ عنكَ"!

أسرعَ نُعمانُ إلى البابِ، ليجدَ عمَّهُ يُغلق البابَ خلفهُ قائلًا ببرودٍ:

" لا أحدَ هناكَ".

تساءلَ نُعمانُ:

" ولكن ابنُكَ قال إنَّ أحدًا ينتظرُني"!

" لقد ذهبَ الرجلُ، نحن لا نعرفُهُ"!

شعرَ نُعمانُ بالغيظِ، لكنَّهُ ضبطَ نفسَهُ، وقالَ بأدبٍ:

" ولكنَّهُ كانَ يسألُ عنِّي، وكانَ قد حضرَ ليصطحبني معهُ؛ لأني كنتُ قد وعدتُهُ أني سأكونُ في انتظارهِ الآنَ! من فضلكَ يا عمِّي! لماذا لم تسألْني قبل أن تتصرَّفَ بهذا الشكلِ؟"

في تلكَ اللحظةِ، ارتسمَ الغضبُ على ملامحِ عمِّ نُعمانَ، وقالَ بصوتٍ حادٍّ متوتِّرٍ:

" انتبهْ لنفسكَ ولسلوكِكَ، يا نُعمانُ! أنتَ تنتمي إلى بيتٍ محترمٍ، ونحنُ عائلةٌ معروفةٌ بأخلاقِها وعِفَّتِها. لا يجوزُ أن يدخلَ غرباءُ كَهَؤُلاءِ بُيُوتَنا هكذا! فَهَل يَعلَمُ جدُّكَ أَو وَالدَاكَ شيئًا عن هذا الرَّجلِ؟! ثُمَّ ما الذي يَجمَعُ بَينَكَ وبَينَ مثل هؤُلاءِ؟! ولِمَاذا نَسمَحُ لَهُ أَن يَصطَحِبَكَ مَعَهُ؟! لَم يَبقَ إلَّا أَن يَدُوسَ عَتَبَةَ بَيتِنا أمثالُ هَذَا بِفَضلِكَ! أتراكَ تُدرِكُ ماذا سيقولُ الجيرانُ؟! وَكَيفَ سَتُلَطَّخُ سُمعَتَنَا بَالأَقَاوِيلِ التِي مَا إن تَبدَأَ فَلَن نَستَطِيعَ إنهاءَهَا؟! وَهَل تَعلَم إلَى أينَ سَتَنتَهِي بِنَا تَصَرُّفَاتُكَ؟ ..... إلى الحضيضِ..... يا نُعمانُ! إلى الحضيضِ"!

صمتَ نُعمانُ، حينَ وجدَ عمَّهُ قد تجاوزَ منه الغضبُ حدًّا لا يَنتَهِي.

وفيما ارتفعتِ الأصواتُ، حضرَ الجدُّ مُستفسرًا، وعَينَاهُ تُراقُبانِ اَلمَشهَدَ بِحِدَّةٍ وَانفِعَالٍ.

سَألهُ بِنَبرَةٍ هَادِئَةٍ:

" ما الأمرُ، يا بُنَيَّ؟ ما الذي رفعَ صوتَكَ إلى هذا الحدِّ؟"

سارعَ العمُّ بالشكوى:

" رجلٌ غريبٌ، في مثلِ عُمري تقريبًا بل يَكبُرُني، يَرتَدِي ثِيَابًا أَنِيقَةً، وَيركَبُ سَيَّارَةً فخمَةً، وَلَهجَتُهُ تختَلِفُ عَن لَهجَتِنَا! وَتُرَافِقُهُ فَتَاةٌ تَرتَدِي... أَستَغفِرُ اَللهَ اَلعَظِيمَ، جاءَ يَسأَلُ عَن نُعمانَ... يَقولُ إنَّهُ عَلى مَوعِدٍ مُهِمٍّ مَعَهُ! بِاللهِ عَلَيكَ، يَا أَبِي، هَل كُنتَ سَتَسمَحُ لِحَفِيدِكَ أن يُرَافِقَ مِثلَ هَذَا اَلغَرِيبِ؟"!

التفتَ الجدُّ إلى نُعمانَ بعينينِ تستجليانِ الحقيقةَ.

فقالَ نُعمانُ بهدوءٍ حزينٍ:

" لقد غادرَ الرجلُ، يا جدِّي، ولا جَدوى مِن الحَدِيثِ الآن"...

لَكِنَّ اَلجدَّ أَصرَّ، فَأَخذَ حَفِيدَهُ إِلَى غُرفَتِهِ المُطعَّمةِ بالموزاييكِ وخيوطِ الفضَّةِ، سَكَبَ لَهُ كَأسًا مِنَ الشَّاي، وَدَعَاهُ قَائِلًا بِلُطفٍ:

" احكِ لي كلَّ شيءٍ، يا بُنَيَّ... لا تخشَ شيئًا".

وبينما كانا يتحدثانِ، أطلتْ والدةُ نعمانَ على استحياءٍ، تُريد أن تأخذَ ابنها معها.

إلَّا أنَّ الجدَّ دعاهما معًا للجلوسِ وتناولِ الشاي.

اعتذرتِ الأمُّ بأسًى، قائلةً بصوتٍ خافتٍ لكنَّهُ حازمٌ:

" أرجوكَ، يا عمِّي! لا أُريدُ أن أتسبَّبَ بمشكلةٍ جديدةٍ مع ابنكَ. لقد صبرتُ كثيرًا، واحتملتُ من أجلِ زوجي واحترامًا لكَ... لكن حين يتعلَّقُ الأمرُ بابني، فلن أسكتَ! لو استمرَّ ابنُكَ في تدخُّلهِ في حياتِنا، فسأغادرُ البيتَ مع أسرتي، حتى لو اضطررتُ إلى استئجارِ غرفةٍ صغيرةٍ. وليعلم ابنُكَ هَذَا وَالجَمِيعُ أَن لَا طَمَعَ لَنَا فِي شَيءٍ مِمَّا يَملِكُهُ وَالِدُهُم"!

ابتسمَ الجدُّ ابتسامةً هادئةً وهو يقولُ:

" حسنًا، تعالي نشربُ الشايَ معًا، وأنا سأتفهَّمُ من نُعمانَ كل شَيئٍ بهدوءٍ".

وجلسَ الجميعُ، وعكف نعمان يروي لجده، وما إن انتهى حتى دوَّى صوتُ زمورِ السيارةِ من الخارجِ.

قالَ نُعمانُ، وقد تجمَّدتِ الدموعُ في عينيهِ:

" ها هو قد عادَ يا جدِّي... يمكنكَ أن تسألَهُ بنفسِكَ"!

نهضَ الجدُّ، وطلبَ من الجميعِ البقاءَ داخلَ الغرفةِ.

وخرج ليستقبلَ الرجلَ، الذي دخلَ معه حيث يجلسون، وألقى السيد أحمد نظرةً سريعة داخلِ الغرفةِ ومقتنياتها. وبعد حديثٍ قصيرٍ، خاطب الجد حفيده نُعمان قائلاً:

" تعالَ، يا بُنَيَّ، هذا الرجلُ ضيفُنا... وأنتَ سترافقهُ بما تستطيعُ من مساعدةٍ".

بروحٍ مطمئنةٍ، استأذنَ نُعمانُ والدتهُ وجدَّهُ، وخرجَ بصحبةِ السيِّدِ أحمدَ نحو مدينةِ دمشقَ.

في دمشقَ، التقيا بصاحبِ المكتبِ العقاريِّ، ثم قصدا مسجدًا قريبًا في حي المزة.

وبعد أن أدَّوا صلاةَ الجمعةِ، اجتمعوا عند بابِ المسجدِ، حيث كان صاحبُ البناءِ بانتظارِهم.

انطلقتِ السيارتان تتبعُ سيارة صاحبِ البناءِ، حتى وصلوا إلى شارعٍ فسيحٍ تصطفُّ على جانبيهِ الأشجارُ، وهناك، وقفوا أمام مبنى حديثِ البناءِ، تُحيط به حديقةٌ واسعةٌ خضراء.

فتح صاحبُ المبنى البابَ الرئيسيَّ، وقال:

" أيُّ طابقٍ ترغبونَ بمعاينتِهِ؟ الأرضيُّ، أم الأولُ، أم الثانيُ؟"

أجابَ السيِّدُ أحمدُ، بنبرةٍ مهنيَّةٍ رزينةٍ:

" نريدُ الاطلاعَ على كلِّ الخياراتِ، إن أمكنَ".

لكنَّ صاحبَ المبنى أوضحَ بسرعةٍ:

" الشققُ جميعُها معروضةٌ للبيعِ فقط، (وليستْ للإيجارِ). انتهينا من تجهيزِها مؤخرًا، وأرغبُ ببيعِها لتمويلِ مشروعٍ جديدٍ".

اقتربَ منه السيِّدُ أحمدُ، وقال:

" أنا مهندسٌ إنشائيٌّ، وقد يكونُ بيننا عملٌ مستقبليٌّ بعد شراءِ إحدى الشققِ".
ثم فتحوا الشقةَ الأرضيَّةَ أولًا، وترك لهم المفاتيحَ لتفقدِ بقيةِ الشققِ بوجودِ صاحبِ المكتبِ، معتذرًا عن اضطرارهِ للرحيلِ لبعضِ الوقتِ.
همسَ نُعمانُ إلى السيِّدِ أحمدَ، وقد بدتْ عليهِ علاماتُ الحذرِ:
" ألا ترى أنَّ منى ينبغي أن تكونَ معنا لاختيارِ الشقةِ؟ ربَّما كان لها رأيٌ آخرُ"...
وافقهُ السيِّدُ أحمدُ الرأيَ، واستأذنَ صاحبَ المبنى للاتصالِ بابنتِهِ.
رافقهُ صاحبُ المبنى إلى كشكِ هاتفٍ قريبٍ، أجرى منهُ مكالمةً قصيرةً، ثم عاد معتذرًا:
" اسمحوا لي بنصفِ ساعةٍ فقط... سأعودُ مصطحبًا ابنتي".
جلسَ نُعمانُ على حافةِ المدخلِ، قرب صاحبِ المكتبِ، ينتظرانِ عودةَ السيِّدِ أحمدَ وابنتِهِ، بينما كانتِ الشمسُ تزحفُ نحوَ الغروبِ، تنثرُ ظلالَ الأشجارِ على الرصيفِ كأنَّها تدعوهما إلى صبرٍ قصيرٍ، قبل أن يكتملَ المشهدُ.
بعد مضيِّ نحو نصفِ ساعةٍ، وصلَ السيِّدُ أحمدُ وبرفقتِهِ ابنتُهُ منى، فدلفا مع صاحبِ المكتبِ إلى الشقةِ الأرضيَّةِ، فيما بقيَ نُعمانُ في مكانِهِ، ينتظرُ عودتَهم. غير أنَّ السيِّدَ أحمدَ، عبرَ النافذةِ المُطلةِ على المدخلِ، أشار إليهِ أن يلتحقَ بهم، ليشاركهم الاطلاعَ على تفاصيلِ الشقةِ.
دخلَ نُعمانُ مترددًا، ليجدَ نفسَهُ أمامَ شقةٍ فسيحةٍ، تبلغُ مساحتُها قرابةَ مئتين وخمسين مترًا مربعًا، تتوزعُ الغرفُ على محيطِها بأناقةٍ، وترافقُ كلَّ غرفةٍ حمَّامٌ داخليٌّ، إلى جانبِ مطبخٍ جانبيٍّ واسعٍ.
وفي قلبِ الشقةِ، انتصبتْ غرفةُ معيشةٍ أنيقةٍ تتوسطُها مدفأةٌ جداريَّةٌ، تتصلُ بشرفةٍ فسيحةٍ تنفتحُ على حديقةٍ خضراءَ غنَّاءَ.
كانتِ الأنوارُ الطبيعيَّةُ تتدفقُ عبرَ النوافذِ، فتملأُ المكانَ بهجةً ونقاءً.

في صباحِ اليومِ التالي، ظلَّ نعمان مبهورًا؛ لم يتخيَّل يومًا أن أحدًا قد يسكن مثل هذا البيتِ، بتلك المساحاتِ الرحبةِ، والزخارفِ البديعةِ، والتجهيزاتِ التي تخاطبُ أدقَّ الحاجاتِ والكمالياتِ معًا. كتم دهشتهُ بصعوبةٍ، واكتفى بالصمتِ عندما سألهُ السيد أحمد عن رأيه، مكتفيًا بالمراقبةِ والاستماعِ إلى الحوارِ الدائرِ بين السيدِ وابنتهِ، التي لم تخفِ انزعاجها، فتارةً تثورُ، وتارةً تتمتمُ بكلماتٍ مبهمةٍ، كلما تدخل صاحب المكتب العقاري باقتراحٍ أو تعليقٍ.

ما لبثَ السيد أحمد أن طلب من صاحب المكتب متابعة الجولة، فانتقلوا جميعًا إلى الشقة في الطابق الأول، ثم إلى شقة أخرى في الطابق الثاني.

وبعد مرور ساعتين من التجوال، عاد صاحب العقار يسألهم عمّا إذا حسموا أمرهم. أجابه السيد أحمد بأنهم بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الوقت، مرجحًا اختيارَ الشقة الأرضية. فطلب صاحب المكتب أن يتواصلوا معه حين ينوون الذهاب إلى مكتبه لإجراء المفاوضات النهائية.

غير أن صاحب المكتب اعتذر عن إتمام الصفقة في ذلك اليوم، مشيرًا إلى التزاماته، خصوصًا وأنه أمضى يومًا مرهقًا، فاتفقت الأطراف على موعد في اليوم التالي، عند الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، في المكتب العقاري، مصطحبين معهم كل الوثائق اللازمة.

عند الثانية ظهرًا من اليوم التالي، كان السيد أحمد ينتظر نعمان في سيارته. ما إن ركب الأخير حتى انطلقا معًا نحو المكتب.

استقبلهما صاحب المكتب بترحاب، وأمر أحد موظفيه بتقديم الشاي. جلس خلف مكتبه الفخم، وإلى جانبه خزنة حديدية كبيرة وجهاز تلفاز ضخم يعرض فيلمًا وثائقيًا بلا صوت. وما لبث الشاي أن قدّم إليهم حتى دخل صاحب العقار، يحمل مغلفًا يحوي جميع الوثائق المطلوبة.

بدأ الحوار ثلاثيًا، قاده صاحب المكتب العقاري حول سعر الشقة وعمولة المكتب. طلب مالك الشقة مبلغ خمسة ملايين، بينما عرض السيد أحمد ثلاثة ملايين ونصف. ظلَّ نعمان يراقب المشهد بصمت، متنقلًا بنظره بين الوجوه المتحاورة. طال النقاش، فلا البائع خفّض السعر، ولا الشاري زاد عرضه.

أخيرًا، طلب السيد أحمد من نعمان أن يدلي برأيه. فاقترح نعمان حلاً وسطًا، يكون فيه السعر متوسطًا بين الطرفين. ابتسم السيد أحمد وأعلن موافقته رغم أن السعر كان أعلى مما كان يأمل.

وافق مالك الشقة، بعد اتصالٍ قصيرٍ للتشاور، مشترطًا تسديد المبلغ كاملاً عند تسجيل العقد. رحّب السيد أحمد بالشرط، مقترحًا دفع ربع المبلغ فورًا مع عمولة المكتب، مقابل استلام المفاتيح.

بدَتِ الأمورُ تَسيرُ نَحوَ النهايةِ السَّعيدةِ، لولا تَدخّلُ صاحبِ المَكتَبِ، مُذَكّرًا أنَّ السَّيّدَ أَحمدَ، حسبَ هُويّتِه، لا يَحقُّ له تَملّكُ عَقَارٍ في سوريا.
هُنا التفتَ السَّيدُ أَحمدُ إلى نعمانَ، وطلبَ منه أن تُسَجَّلَ الشقةُ باسمه. تردّدَ نعمانُ قليلاً، لكنَّ السَّيّدَ أَحمدَ طمأنَه، فسَلَّمَه بطاقتَهُ الشَّخصيةَ مُبتسمًا.

باشَرَ صاحبُ المَكتَبِ بإضافةِ الشروطِ إلى العقدِ، مِنها غرامةٌ ماليةٌ تَصلُ إلى مليونِ ليرةٍ سُوريةٍ عندَ الإخلالِ بالاتفاق.
غادرَ السَّيّدُ أَحمدُ إلى السيارةِ، وعادَ حاملاً حقيبةً سوداءَ، أَخرجَ منها مبلغًا كبيرًا من المال، وَضعَه على الطاولةِ قائلاً:

" هنا مليونٌ ومئتان وخمسة وسبعون ألف ليرةٍ سُوريةٍ: مليونٌ واثنان وستون ألفًا وخمسمائة ليرةٍ دَفعةً أولى، والباقي عُمولةُ المكتب".

تسلّمَ كلُّ طرفٍ نصيبَه، ووقعَ الجميعُ على العقد: البائعُ، الشاري، ونعمانُ وصاحبُ المكتبِ كشاهدين. أخذَ كلٌّ نسخةَ، وتصافحوا بحرارة. تسلّمَ السَّيّدُ أَحمدُ المفاتيح، فيما ظلَّ نعمانُ يتلفّتُ مذهولًا:

" أكان هذا حلمًا أم حقيقة؟"

بعدَ يومين من توقيع العقد، رنّ هاتفُ نعمانَ. كانَ المتصلُ صاحبَ المكتبِ العقاري، يطلبُ حضوره فورًا مع السَّيدِ أَحمد.

استأذن نعمانُ معلمه الحاج أبي محمود لساعتين فقط، إذ كانت الساعة تقتربُ من الثانية عشرة ظهرًا. وافقَ المعلّمُ، وأوصاه ألا يتأخّر عن موعد افتتاح المتجر للفترة المسائية.

ذهبَ نعمانُ إلى بيتِ السَّيدِ أَحمد، وأخبرَه بأن صاحبَ المكتبِ قد اتصلَ به عدةَ مرات، لكنَّ هاتفَه كان مشغولًا، فاضطرَّ إلى الاتصالِ برقمِ المتجر، وطلبَ حضورهما على الفور.
وفعلًا، ركبَا معًا في سيارةِ السَّيدِ أَحمد، وحين وصلا، وجدا صاحبَ الشقة في المكتب بانتظارهما.
وبعد تبادلِ التحيات، جلس الجميعُ، وبدأ صاحبُ المكتب يعرض طلبَ صاحبِ الشقة: فسخُ العقد بالتراضي، أو تنازلُ السَّيدِ أَحمد عن العقد الذي وُقع قبل يومين، دون التزامٍ بالشروطِ الجزائية.

لكنَّ السَّيدَ أَحمد طلب توضيحًا للأسبابِ التي دفعت صاحبَ الشقة إلى هذه الخطوة التي فاجأته كثيرًا، فاعتذر الأخير عن شرح السبب.

دار حوارٌ طويلٌ استمر أكثر من ساعة بين السَّيدِ أَحمد وصاحب المكتب من جهة، وبين صاحب الشقة وصاحب المكتب من جهة أخرى. ثم طلب نعمان تأجيلَ اتخاذ القرار لساعتين، مقترحًا على السَّيدِ أَحمد أن يعود إلى المنزل، ويعرض الأمر على ابنته منى، ليناقشها ويستطلع رأيها: هل يتنازل أم يتمسك بالعقد؟

فعلاً، عادَ السَّيدُ أَحمد مع نعمان إلى البيت، والتقى بابنته منى، وأخبرها بما حدث، مضيفًا أن نعمان طلب تأخير القرار حتى تكون هي صاحبة الرأي الأخير.

نظرت منى إلى نعمان الذي كان جالسًا في زاوية الغرفة، يتأمل جهاز العرض الموصول بشاشة التلفاز. كانت تعلمُ أنه لن ينظر إليها ولن يتحدث معها كما في العادة، فقاطعت والدها بهدوء. لكن شيئًا في حديث والدها أوشك أن يجعلها توجه له نظرات حادة من عينيها الملتهبتين، وكلماتٍ كانت على وشك الانطلاق.

مع ذلك، اقتربت من نعمان ببطء، وكأنها مترددة للحظة، ثم انحنت ليصبح وجهها قريبًا من أذنه، وهمست له بنعومة:
"هذه هي المرةُ الثانيةُ التي تجعلني مدينةً لك، وتشعرني بأن عليّ أن أشكرك".

ظل نعمان مستغرقًا في تأملاته، كأن أحدًا لم يخاطبه.

عادت منى إلى والدها، وأخبرته بأنها لن توافق على التنازل عن الشقة التي أعجبتها كثيرًا، والتي قضت اليومين الماضيين تفكر كيف ستزينها وتفرشها. قالت إنَّها تكررت معها أحاديث مع خالتيها في بيروت عبر اتصالاتٍ مطولة، حتى أن إحدى خالاتها طلبت منها أن تبحثَ مع والدها عن شقة مماثلة لها، جاهزة للسكن، لتقضي مع زوجها وابنتها الصغيرة إجازاتِهم في دمشق مستقبلًا.

ابتسم السيد أحمد مبتهجًا، وسأل منى عن صحة طلب خالتها. أكدت له منى صحة كلامها، قائلةً إن خالتها أخبرتها بذلك مساء الأمس أثناء مكالمتهما الهاتفية.

لم يتردد الأب، وطلب اتصالًا دوليًا. وبعد لحظات، رنّ الهاتف، وأجرى السيد أحمد اتصالًا مع زوج خالة ابنته، وسأله إن كان يرغب فعلاً بشراء شقة في دمشق. أجابه الرجل أن الحوار جرى مساء الأمس مع زوجته، التي أعربت عن رغبتها في امتلاك شقةٍ بالقرب من ابنة أختها منى، لأنها لاحظت تغيرًا كبيرًا في تعامل منى معهم، فقررت البقاء قريبة منها دائمًا حتى تعود إلى سابق عهدها معهم.

أخبر السيد أحمد المتصل أن هناك شقتين جاهزتين للبيع في الطابقين الأول والثاني من البناء الذي حجز فيه شقته الجديدة، وطلب منه الحضور إلى دمشق غدًا صباحًا للمعاينة، مع تحويل مبلغ يعادل خمسة ملايين ليرة سورية، وأغلق الاتصال.

طلب السيد أحمد من نعمان العودة سريعًا إلى المكتب العقاري، وأخذ معه حقيبة النقود التي كانت تحت سرير منى.

لكن نعمان استأذن وغادر عائدًا إلى عمله.

ذهب السيد أحمد وحده إلى المكتب العقاري، فوجد السيدين: صاحب المنزل وصاحب المكتب في انتظاره.

جلس السيد أحمد أمام صاحب الشقة، وسأله:

" كم تريد ثمن الشقة التي في الطابق الأول؟"

أجابه الرجل بصراحة:

" سأكون معك صريحًا، وأتكلم مباشرة. أريد بيع البناء كله دفعةً واحدة، وأنا جاهز لتنفيذ نقل الملكية خلال أسبوع".

قال السيد أحمد:

" أحاول مع بعض أقاربي شراء البناء، لكن تنقصني بعض السيولة. وحتى الآن، لم يتوفر معي سوى ثمن شقتين." وأخرج العقد من جيبه الداخلي، وأراه لصاحب البناء، مضيفًا:
"هذا هو العقد. سأضعه بين يديك عندما يكون السيد نعمان حاضرًا، فهو من حقه علينا، وواجبنا نحوه أن يشهد على التنازل عن العقد، كما شهد توقيعه. سأسترد منك فقط المبلغ الذي دفعته قبل يومين، ولن أطالبك بأي شرط جزائي، وسأكون شاكرًا لك".

قال صاحب البناء:

" هناك شيء أريد قوله لك: أحببت صدقك وتعاملَك، لكنني أريد بيع البناء كاملاً وبسرعة، لأنني على وشك بدء مشروع بناء آخر. فإذا كنت راغبًا في الشراء، ونقل الملكية خلال أسبوع، وتسديد قيمة البناء فورًا، فلا مانع لدي أن أبيعك إياه في هذه الجلسة".

أجرى السيد أحمد اتصالًا هاتفيًا، ثم أغلق السماعة، وجلس أمام صاحب البناء، وسأله كم يريد ثمن البناء.

بدأ حوارٌ جديدٌ طويلٌ، انتهى بعدم توافق الطرفين على السعر المناسب.

طلب السيد أحمد متابعة جلسة الحوار في اليوم التالي، عند الساعة الثانية والنصف ظهرًا.

عَادَ السيّدُ أحمدُ إلى بيتهِ خائبًا، يُخفي خوفَه من إخبارِ ابنتهِ بما جرى. عندما سألته منى بتوجسٍ، تَردَّدَ، ثم قال لها:

" لقد تركني نعمان عند مدخل البناء، وعاد إلى عمله، ولم يرافقني إلى المكتبِ العقاريّ. وربما لم أستطع متابعةَ شراءِ الشقة لأنني كنت وحيدًا لا أعرف أحداً هنا، ولا أعرف كيف أتصرف!، وربما لن أتمكّن من إتمامِ هذه الصفقة أبدًا إذا لم يكن نعمان معي."

نظرت إليه منى بنبرةٍ حازمةٍ:

" ولِمَ؟ ومن هو حتى يتنمر عليك، مع ذلك فهو وحده يحضرُ في تفكيرَك كيفما توجَّهت؟"

ابتسمَ السيّد أحمد، وأجابها بهدوءٍ:

" إنّه لا بد أن يكون موجودًا، فبحضوره يصبحُ كلُّ شيءٍ أسهلَ مما خططت له، وأبسطَ مما اعتقدتُه معقدًا. أرجوكِ يا ابنتي، جرّبي أن تريَه كما أراه بعيني، وتسمعيه كما أسمعه بأذني. شاهدي كيف تسير الأمورُ بوجوده، ثم قارني كيف تكون في غيابه!

هو شابٌ هادئٌ، رغم أن بركاناً يثور في داخله، أجده مبتسماً دائمًا رغم معاناته التي قد لا تطيقها الجبال".

وتابع مسترسلاً:

" وفوق كلّ ذلك، هو مثقّفٌ رغم صغر سنّه. ألم تلاحظي منذ متى وأنتِ تبحثين عن قطعة القماش التي كانت من ثياب والدتك؟ وكم بحثتِ عنها في لبنان ودمشق، ولم نجد مثلها إلا عنده، ولم نستطع شراءها إلا عن طريقه؟ ألم يعجبك أسلوبه وحديثه يوم أن تناولنا الغداء معاً على ضفة بردى؟ ما الذي غيركما بعد أن كنتما على وفاق مبدئي؟"

رفعت منى حاجبها قليلاً، وقالت:

" لكن، أليس غبيًّا؟! وألم يتجاهلني ويتحاشى الحديث معي؟ مع أني طلبت أن يحضر دفتر أشعاره الذي زعم أنه يكتبها، لكنه تجاهل طلبي؟! وكم كان باردًا في المرات الأخيرة التي التقينا بها؟ وإني لأظنه كاذبا في كل ادعاءاته"

ضحك أحمد بهدوء، وقال:

" صحيح، لكننا لم نسأله لماذا فعل ذلك. ومن الأفضل أن ننظر إلى الأمور من بعيد لنرى الحقائق بموضوعية، وأن لا نحكم على شيء لم نختبره. هل أقول لك سرًّا؟ لقد حاولت أن أعوّضه عمّا سبّبناه له. طلبت من معلمه أن يعطيه مبلغًا من المال دون أن يعرف أنَّه مني. ومع أن معلمه

أخبره أنه قد كسب مالًا بفضلي، إلا أنه رفض أن يأخذ شيئًا. وأنتِ رأيتِ كيف لم يقبل حتى ذلك المبلغ التافه الذي قدّمته له في نهاية ذلك اليوم".

ثم أضاف:

" وأريد أن أخبرك بشيء آخر، حدثَ ونحن معًا، قبل أن نعود إلى بيروت. عندما اتفقنا ألا نعود إلى دمشق مرة أخرى، طلبت منه أن أوصله صباحًا ومساءً كي أتمكّن من الحديث معه في حواراتٍ خاصّةٍ، أدخله من خلالها إلى حياتنا وأدخل إلى حياته. لكنه كان حذرًا، واعتذر بهدوء، دون أن يزعجني . هو من النوع الذي يبتعد ما أمكن عن أي مستجدّات قد تضعه في مأزق يصعب الخروج منه لاحقًا. وأذكر عندما أقمنا في الفندق يومين دون أن نتواصل معه، رغم علمه بعودتنا إلى بيروت، ثم ذهبت إليه طالبًا المساعدة في البحث عن شقة للإيجار، لم يتردّد لحظة، ورافقني إلى المكتب العقاري، وهو من اختار لنا هذه الشقة كي نبقى قريبين منه. إذن فهو على الأقل لا يكن لأحدنا كرهاً، ولا يحمل علينا، هو يريد أن نبقى بجواره، كما أنه مستعد دومًا لتقديم المساعدة . وقد طلبت من صاحب المكتب أن يعطيه عمولة لقاء جلب المستأجرين الموسميين، لكنه لم يرفض، وأخذ العمولة، وقبل أن يحل الليل أعاد المال لي مبرراً أنه خصم على دفع كامل المبلغ بشكل مقدم، وهذا ما لم يخبرني به صاحب المكتب. نعم يا ابنتي، هو شابّ ملتزم، نزيه، أمين، وصادق. ألا ترين كم هو بهيّ الطلعة، ووسيم؟ ...... لكنني أخشى أن كل ما أقوم به من دونه يذهب سدى، فنحن سنخسر الشقة التي حلمنا بها في دمشق. وأصبح وجودنا في سوريا مرتبطًا بوجود نعمان معنا أو بجانبنا . يا ابنتي، أريدك أن تصدقيني، إن لم تتحمّلي وجوده معنا، فمن الأفضل لنا أن نعود إلى بيروت".

هزّت منى رأسها، وقالت بحزم:

" لا يا أبي، لا أريد العودة إلى بيروت. وأرجوك ألا تسأليني عن السبب، لأنك تعرفه. لكنّي أرى أنك تضع السيد نعمان في مكان يجعلني أشعر أنه يقف بيني وبينك، وكأنما هو ابنك الأفضل".

تنهد السيد أحمد وقال بحنان:

" لا تنسي أنك أنتِ ابنتي، وأن وجودنا هنا في دمشق كان وما زال قائماً بناءً على رغبتك".

التفت اليها مجدداً وتابع:

" أما عن المكانة التي تقولين إنني أضعه فيها، فأقول لكِ إنك بدأتِ تغارين منه . أنا لا أميزه عنك مطلقاً، كما لا أفضل عليكِ أي شخص كائناً من كان، وأنت تدركين ذلك. فمهما كان أنتِ ابنتي الوحيدة".

قالت:

" أدرك كل ما قلت يا أبي! ومعك حق! لكن لم أستطع حتى الآن أن أتقبله على هيئته، لقد نفذت لك ما طلبت يوم دعوته إلى المطعم، ويوم الغذاء غلى ضفة بردى، وقد شاهدت كم كنت أجامله، وكل ذلك كان من أجلك!"

سألها أبوها:

" هل تريدين أن نعرف رأيه؟ حتى تستليني كيف يفكر! ونرى كيف ستكون ردة فعله. فنحن الآن في مأزق أدبي ومادي، وأخاف أن نفقد صفقة البيت، هل توافقين؟"

قالت منى:
" نعم! ولكن ما خطتك؟"

أجابها بابتسامة:
" سأشرح لك .... سنذهب إليه معًا ...."

في ظهر اليوم التالي، أبلغه الحاج أبو محمود أنه ذاهب لقضاء شيئاً ما، ولن يتمكن من العودة، وبعد مغادرته المتجر، وبينما يتابع نعمان عمله في الداخل. دخلت منى وهي تتردد في الدخول، لكنها بدأت تقترب منه بهدوء، وتشير له بيدها لتلفت انتباهه. اقتربت منه، وقالت بصوت منخفض وهادئ:
" أعتذر منك! وأرجو أن تقبل دعوتي لنتناول فنجاناً من القهوة معي في أي مكان تختاره".

تجمّد لسان نعمان، ولم يعرف ماذا يقول. خلال اللقاءات السابقة بينهما لم تتحدث معه بمثل هذا الأسلوب قط.
لكنها الآن تتصرّف بأسلوب لم يتوقعه منها. جمع نفسه وأجابها بحدة:
" أعتذر منك يا آنستي، ليس لدي وقت اليوم أو غدا فلا أستطيع أن أغلق المتجر لأن معلمي لديه عمل ما اليوم وقد ذهب قبل قليل ولن يعود اليوم!"

ثم واصل أعماله في المتجر، وتبعت منى خطواته شيئًا فشيئاً، و تحدثت بصوت منخفض وبأسلوب جديد.
ظل نعمان صامتًا، مشغولًا بتحضير البضائع و الفواتير. بعد دقائق، دخل والدها وألقى التحية، فأشارت منى إليه بهدوء:
" بابا، لقد اعتذرت كما طلبتَ مني من السيد نعمان، وطلبتُ منه أن نتحدث معًا قليلًا خلال فنجان قهوة في أي مكان يختاره، رغم أنني دعوته. لكنه رفض بحجة أنه لا يملك وقتًا".

توجَّهَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ إلى نَعْمَانَ قائلاً:
" ما رأيك أن تُحضِرَ فِنْجانَيْ قهوةٍ ريثما أذهبُ لأُحضِرَ شيئاً وأعود؟ لن نأخذَ من وقتكَ كثيراً".

غادرَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ المتجرَ وتوجَّهَ إلى سيارتِه المركونةِ إلى القرب، جلسَ خلفَ المقودِ وبدأ يبحثُ عن شيءٍ داخِلِها.

دخل نَعْمَانُ إلى الغرفةِ الجانبيَّة ليعدَّ فنجانَيْ قهوة، وما لبثت منى أن دخلت خلفه، تقتربُ خطوةً تلوَ الأخرى بحجَّةِ المساعدةِ في البحثِ عن الفناجين. وحينَ أحاطت به في زاويةٍ ضيِّقة، ارتفعت بجسمها واقتربت منه لتهمس في أذنهِ بصوتٍ رقيقٍ ناعم:

" يسلِّمُ لي الحلو! الرَّجل الصَّغير العظيم في سلوكِه وأخلاقِه، صاحبُ القِيَم الثابتة، الذي احتلَّ كياني رغمًا عني، ولم أستطع أن أُخرجه من ذاتي، والذي لم أستطع أن أمنع قدراتِه من أن تطغى عليّ، ولم يستوعب بعدُ ما حلَّ بي بسببه!"

احمرَّ وجهُ نعمانَ خجلاً، تائهًا لا يعرفُ كيف يتصرَّف، فتركَ كل شيءٍ في مكانهِ وخرجَ مسرعًا.
تبعتهُ منى واقفةً أمامَه تنظرُ إليه بثبات، تقولُ:
" أنا لا أخجلُ مما قلت، وما فعلت، ولن أتراجع عنه".

ترددتْ لحظةً ثم أضافتْ:
" لا أريدُ أن أفرضَ شيئًا عليك، فقط أردتُك أن تعلم! اليوم قرَّرَ والدي أن نعودَ نهائيًا إلى بيروت، وأنا لا أستطيعُ أن أسافرَ إلى بلدي بعد الآن، وقد جعلتَ قلبي يخفقُ بك. أعلمُ ما يدور في ذهنك، وأدركُه، وأعرفُ أنك لا تجيد الكلام في موضوع كهذا، فهو جديدٌ عليك كما هو جديدٌ عليّ، لكني تجاوزتُ كل العقبات بفتح حواراتٍ مطولة مع والدي، الذي جعلني أتعلق بك أكثر من خلال حديثه عنك نقلاً عن من عرفوك جيدًا. شاهدتُ كل ذلك بعيني، وأدركته بإحساسي. نعم يا سيد نعمان، لا أريد منك شيئًا، ولا أن تبادلني أي شعور إذا لم يكن حقيقيًا. دعنا لا نودِّع بعضنا وفي داخل أيٍّ منا شيءٌ، حتى لو كانت كلمة واحدة، كان يودُّ أو يتمنى قولها قبل أن يرحل الوقت، ونصبحَ بعيدين عن بعضنا تمامًا".

حينها، دخلَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ مبتسمًا:
" أنا أنهيتُ كل شيء، هل أعددتما القهوة؟"

ردّت منى بسخرية خفيفة:
" يبدو أن بعضهم لا يبخل علينا بفنجان القهوة فقط، بل يبخل أن يُسعدنا بكلمة صدق يقولها!"

وقف نعمان بينهما، وصمتُهُ يطغى على الجو، بينما مدَّ السَّيِّدُ أَحْمَدُ يده إلى نعمان وأعطاه بطاقةً قائلاً:
" هذا عنواننا في بيروت، ننتظر زيارتك، إلى اللقاء".

سأل نعمان السيد أحمد:
" هل أنهيت موضوع الشقة والعقد قبل السفر؟"

نظر السيد أحمد إلى ابنته، وقال:
" كيف نسينا هذا الموضوع!"

أخرجَ العَقدَ من جَيْبِهِ، وطلبَ قلمًا من نُعمان، الّذي قدَّمَ لهُ أحدَ أقلامِ مكتبِ مُعلِّمِهِ. ابتسمَ السَّيِّدُ أحمَد وقالَ: **" سأَتَنازَلُ لَكَ عنْ هذا العَقدِ، وأَرجو أن تُتابِعَ معَ المكتبِ والبائعِ الإجراءَ المُناسِبَ، يُمكنُكَ المُطالبةُ بالشَّرطِ الجزائيِّ معَ الدُّفعةِ الأولى وعمولةِ المكتبِ، أو التَّنازُلُ عنِ العَقدِ دونَ أيِّ**

التزاماتٍ، أو بيعُ الشقَّةِ بالسِّعرِ الّذي تراهُ مُناسبًا، أو حتّى الاحتفاظُ بحقِّكَ في امتلاكِها ودفعِ التَّتمةِ وَفقَ العَقدِ".

نظرَ نُعمانُ إلى السَّيِّدِ أحمَد وسألَهُ:

" متى الجلسةُ القادمةُ لمتابعةِ طلبِ صاحبِ البناءِ الّذي لم تتوصَّلْ معهُ إلى اتّفاقٍ أمس؟"

قالَ السَّيِّدُ أحمَد:

" لا بُدَّ أنَّكَ اتّصلتَ بالمكتبِ أو بالبائعِ، فمِنَ المؤكَّدِ أنَّ أحدَهما أطلَعكَ على ما جرى".

أجابَهُ نُعمانُ بثَباتٍ:

" لمْ أتَّصلْ بأحدٍ، لكنَّكَ أنتَ تُخبرني الآنَ أنَّهُ لمْ يتمَّ الاتّفاقُ إلّا على التَّأجيلِ، وأنَّ العَقدَ ما زالَ معكَ، وأنَّكَ لمْ تَتمكَّنْ من شراءِ شقَّةِ خالةِ مُنى وزوجِها، لأنَّ الزوجَ لمْ يَحضُرْ اليومَ، كما اتّفقتُما، وهو لمْ يَحضُرْ بسببِ طلبِكَ. وأنَّكما قرَّرتُما العودةَ إلى بيروتَ بشكلٍ مُفاجِئٍ، لأنَّ هناكَ شيئًا سيحدثُ بعدَ الثَّانيةِ ظُهرًا، لا تَهتمّا، أتمنَّى لَكما سفرًا مُريحًا، وسأُنهي موضوعَ العَقدِ قريبًا، وأُرسِلُ لَكَ كُلَّ ما دَفعتَهُ كاملاً، أو حتَّى أفضلَ رِبحٍ أتمكَّنُ من تأمينَهُ لَكَ".

وقَّعَ السَّيِّدُ أحمَد تَنازُلَهُ عنِ العَقدِ وأعطاهُ لِنُعمان، مُعلِنًا أنَّ مَوعدَ الجَلسةِ سيكونُ السّاعةَ الثّانيةَ والنّصفَ. وتوجَّهَ نُعمانُ نحو مُنى، الّتي كانتْ تَنظرُ إليهِ بانبهارٍ، وسألها:

" هل أنتِ مُتمسِّكةٌ بالشقّةِ، أَم أنَّكِ حقًّا ستُسافرينَ وتتخلّينَ عنْ خُططِكِ؟"

تَلعثَمتْ مُنى، كادتْ لا تَستطيعُ التَّعبيرَ... هل تُخبرُهُ أنَّ كُلَّ ما كانَ تَمثيلًا، إلّا جُزءًا مِنهُ أَصبحَ حَقيقةً جَعَلَ قلبَها يَكادُ يَقفِزُ من صدرِها؟ لكنَّها لا تَعرفُ كيفَ تُعبِّرُ. فَطلبتْ من والدِها أن يُلغيَ فِكرةَ السَّفرِ، مُؤكِّدةً تَمسُّكها بالشقّةِ وبخُططِها الّتي صارَتْ حُلمًا تَنتظرُ تَحقيقَهُ.

وفي المَوعدِ المُحدَّدِ، حضرَ السَّيِّدُ أحمَد ونُعمان إلى المكتبِ العقاريِّ، جلسَ السَّيِّدُ أحمَد مُنفردًا على الأرِيكةِ، يُراقبُ عن كثبٍ، ونَجحَ نُعمانُ في التَّوصُّلِ إلى اتِّفاقٍ معَ صاحبِ العقارِ لنَقلِ الملكيّةِ خلالَ يومَينِ، مع تَسديدِ كاملِ الاستحقاقِ، وتأمينِ مُشترينَ للشقّتَينِ المُتبقِّيتَينِ خلالَ هذه المُدّةِ.

غادَرَ الجميعُ الجلسةَ راضينَ، وعادَ نُعمانُ إلى عملِه برفقةِ السَّيِّدِ أحمَد، الّذي ظلَّ يَطلبُ توضيحاتٍ طيلةَ الطريقِ، لكنَّهُ لم يحصلْ عليها، حتّى اتّصلَ بأحدِ تُجّارِ القُماشِ، ممّن كانَ يَثِقُ بهم من خلالِ تَعامُلِه في الفَترةِ السّابقةِ؛ ودَعاهُ للحُضورِ مساءَ اليومِ قبلَ موعدِ الإغلاقِ بقليلٍ.

وعندما حَضَرَ هذا التّاجِرُ، طَلَبَ نُعمانُ منهُ أنْ يَذهَبَ برفقةِ السَّيِّدِ أحمَد إلى بيتِه، ريثما يقومُ هو بإغلاقِ المتجرِ واللّحاقِ بِهما.

وفي بيتِ السَّيِّدِ أحمَد، يسألُهُ نُعمانُ عمّا إذا كانَ قد اشترى الشقّةَ الّتي حدّثَهُ عنها منذُ فترةٍ قريبةٍ، فأجابَ بالنّفي، ليقولَ لهُ نُعمانُ:

"إنَّ مَثيلتَها، بل أَفضلَ منها، موجودةٌ، وإنَّها بانتظارِ توقيعِك، لكنَّها قد تَجدُ راغبًا لَها خلالَ يومٍ واحدٍ؛ إذا لم يتمَّ كتابةُ عَقدِها سريعًا".

فَعِندَما أبدَى التّاجِرُ اهتمامَهُ بالشّقَّةِ، طَلَبَ أن يُعايِنَها بِنَفسِهِ.
فاتَّجَهَ نُعمانُ إلى الهاتفِ، واتَّصَلَ بصاحِبِ المكتبِ لِيُنسِّقَ معَ البائِعِ، ويُحدِّدَ موعِدًا مُبَكِّرًا في صباحِ اليومِ التّالي، معَ تَرجيهِ أن يُبلِغَ السَّيِّدَ أَحمَد، لِيكونَ رفيقَ المشتري في زيارَتِهِ المُرتَقَبَةِ.

أمّا في صباحِ اليومِ المُحدَّدِ، فَقَدِمَ السَّيِّدُ أَحمَدُ مُبَكِّرًا كعادَتِهِ، واصطحَبَ التّاجِرَ إلى المكتبِ، وهو يُطمئِنُهُ:
- **"كُلُّ شَيءٍ جاهِزٌ، سَنُنجِزُ الأمرَ اليومَ كما يُرادُ له".**
أومَأَ التّاجِرُ برأسِهِ، وفي عينيهِ لمعةُ رضى مكتومٍ.

تَمَّ الاتّفاقُ على جَلسَةِ البيعِ في السّاعةِ الثّانيةِ والنّصفِ ظُهرًا، حَيثُ اجتَمَعَ الحاضرونَ في جوٍّ يملؤُهُ التَّرقُّبُ، وتَمَّ توقيعُ العقودِ لنَقلِ المِلكيّةِ وسَدادُ الالتِزاماتِ في الأوقاتِ الّتي كانَ قد جَرَى التَّوافُقُ عليها بدقّةٍ.

في نِهايَةِ اليوم، وَقَفَ نُعمانُ على بُعدِ خُطُواتٍ من المَكتبِ، يُراقِبُ وجوهَ الحاضِرينَ وهي تَخْرُجُ تباعًا، تتبادَلُ كلماتِ الشّكرِ والتَّقديرِ.
تَنَفَّسَ بعمقٍ، كأنَّما يَسْتَرجِعُ أنفاسَهُ الّتي أنفقَها على مدارِ الأيّامِ الماضيةِ، وهمسَ في سرِّه:
- **"قد وَفَيتُ بِوَعدي".**

كانَ ذلكَ اليومُ خِتامَ سَعيٍ طويلٍ، ويومًا جديدًا في سِجلّ الثّقةِ الّذي يَكْتُبُه نُعمانُ في صمتٍ، وبامتيازٍ لا يحتاجُ إلى إعلانٍ.

في مساءٍ دافئٍ من مساءاتِ الشّتاءِ الأولى، وبعد أنِ استقرَّت الحياةُ في البناءِ الجديدِ، وصارَ للبيتِ نَفَسٌ وأثاثٌ وذاكرةٌ وليدة، همسَتْ مُنى في أُذُنِ والدِها قائلةً:

- **"بابا... هل تُجري مكالَمةً صغيرة؟ اِتَّصِلْ بنُعمان، وادعُهُ إلى العَشاءِ عندنا الليلة".**

ابتسمَ السَّيِّدُ أحمَدُ بودٍّ، ولم يُعلِّق، كأنَّهُ توقَّعَ الطّلبَ قبلَ أن يُقال، ثم أمسكَ سَمَّاعَةَ الهَاتِفِ واتَّصل.

وبعدَ أقلَّ من ساعةٍ، كانَ نُعمانُ يقرعُ البابَ. فُتِحَ لهُ على اتّساعِه، ووقفَ السَّيِّدُ أحمَدُ بنفسِه في الاستقبال، يُصافِحُه بحرارةٍ، ويقودُه إلى الغُرفَةِ حَيثُ المَائِدَةِ الّتي كَانَتْ مُنى قد أعدَّتها بعنايةٍ خاصّةٍ، كَمَا لَو أَنَّهَا تُحَضِّر شيئًا أَكْبَرَ مِنَ الطّعَامِ.

دخلَت مُنى بعد قليلٍ، وقد وَضَعَتِ الحِجابَ على رأسِها بانسيابٍ، وانتَقَتْ ثيابًا تُغَطّي جسدَها كلَّه، فبدا وجهُها وحدَهُ يضيءُ المكان. كانت تمشي بخفَّةٍ ووقار، وعلى ثغرِها ابتسامةٌ فيها من السّكينةِ بقدرِ ما فيها من الدّهشة.

ثم قالت بلُطفٍ:

ـ "السَّلامُ عليكُم... مَرحبًا يا نُعمان"!

رَدَّ السَّلامَ بصوتٍ خفيضٍ، ولم تَمنَحْهُ فُرصةً ليُضيفَ شيئًا، بل تابعتْ فورًا، وكأنَّها تُخرِجُ شيئًا كانتْ تُخَبِّئُه طَوالَ الأيامِ الماضية:

ـ "تَحدَّثتُ عنكَ بصراحةٍ معَ أبي... والحقيقةُ؟ غِرْتُ منكَ! نعم، غِرْتُ لأنِّي وجدتُه يُحبُّك بطريقةٍ جعلتني أشعرُ بأنَّني أُنافسُكَ على قلبِهِ. فقرَّرتُ أن أَشتري هذهِ الثِّيابَ، لأُقارِبَك في ما تحبُّهُ روحُه، وأن نبدأَ من اليومِ على قدمِ المساواةِ. نُحِبُّهُ نحنُ الاثنان، دونَ غيرةٍ ولا منافسةٍ. ما رأيُك؟ وهل يُناسِبُني هذا الزّيُّ؟"

ظلَّ نُعمانُ لحظاتٍ يُحدِّقُ في وجهِها، يُحاولُ أن يجمعَ شتاتَ عباراتِها الّتي تساقَطتْ أمامَهُ مثلَ قطراتِ المطرِ على زجاجِ نافذةٍ ليليّة، ثمّ قال بهدوءٍ، كأنَّهُ يُريدُ أن يتأكَّدَ:

ـ "هل أنا مَن كنتِ تَقصِدِينَهُ بكلامِك؟ أم كانَ حديثُكِ عن شَخصٍ آخر؟"

ضحكَت بخفةٍ وقالت:

ـ "نعم، أنتَ! وهل كنتَ تتوقّعُ أن أُحدِّثَ والدي بهذه النّبرة؟"

ـ "لا... لم أتوقّع. لكنِّي لا أُنافِسُكِ أبدًا في مَحبَّةِ والدِكِ، ولا ينبغي لي أن أُنافِسَكِ أصلًا. لذلكَ، لا يَجوزُ لكِ أن تَغاري مِنِّي. ومعَ ذلكَ، أنا سعيدٌ جدًّا بأن نبدأَ من جديدٍ. وأنتِ، إن شاءَ الله، إذا ألزَمتِ نفسَكِ بهذهِ التّفاصيلِ حُبًّا للهِ وطاعةً له، فسيكونُ هذا اللباسُ لكِ تاجًا لا حجابًا فحسب".

أجابت مُنى بثقةٍ وعينُها تلمعُ:

ـ "أَعِدُكَ بذلكَ أمامَ والدي. والآن... هيا بنا إلى الطّعام، وأنتَ تُحدِّثُني قليلًا عن نَفْسِك".

نَهَضُوا معًا إلى المائدة، وعلى الجدرانِ كانتِ الظّلالُ تتحرّكُ مثلَ شهودٍ صامتين، يُصغُونَ مثلهم، ويَبتسمون.

انتقلَ نُعمانُ مع السَّيِّدِ أحمدَ ومُنى إلى مائدةِ الطَّعام، لتبدأَ مرحلةٌ جديدةٌ في حياةِ كلٍّ منهم.

السَّيِّدُ أحمد يُواصلُ عملَهُ ومكتبَهُ بشكلٍ يوميٍّ ومنتظمٍ، من خلالِ الاتِّصالاتِ المستمرَّةِ، وسَفَرِهِ يومَيْنِ أو ثلاثةَ أيّامٍ في الأسبوعِ إلى لبنان.

كانت مُنى تتابعُ دراستَها الجامعيَّةَ في كُلِّيَّةِ الآدابِ بجامعةِ دمشق، بعدَ أن قُبِلَتْ رسميًّا في قِسمِ اللُّغَةِ العربيَّة، القِسمِ الذي لطالما مالتْ إليه روحُها سرًّا، وإنْ لم تُفصِحْ عن ذلك إلا مُتأخِّرةً، حين أحسَّتْ أنّها وجدت في اللُّغةِ أُمًّا ووطنًا داخليًّا لا يُطال.

ومع بداية الأيام الأولى من ذلك الفصلِ الدِّراسيِّ الأوَّل، كانت كلُّ زيارةٍ من نُعمانَ لشقَّتهم تزيدُها يقينًا بأنَّ هذا الشابَّ، رغم مَلامِحِ الحياءِ الرِّيفيِّ التي لا تزالُ مطبوعةً على تصرُّفاته، يُخفي بين ضلوعِه قلبًا يتَّقِدُ حبًّا للمعرفة، وشغفًا بالكتبِ والكتابةِ قلَّما رأتْ مثلَه.

كانت تُشجِّعُهُ، وتُكرِّرُ على مَسامِعِهِ، كلَّما جلَسَا في زاويةِ الغرفةِ التي أحبَّاها معًا، أنَّ عليه أنْ يُنمِّيَ هوايتَهُ، لا على نحوٍ عشوائيٍّ، بل بأسلوبٍ أكاديميٍّ رصينٍ، يليقُ بموهبةٍ تنمو في صمتٍ وتنتظرُ من يُنصِتُ لندائِها.

وذات مساءٍ، ألقى السَّيِّدُ أحمدُ، وقد أنهى لتوِّه اجتماعًا عبر الهاتف مع بيروت، نظرةً على نُعمان وقال له بنبرةٍ فيها مَزجٌ من الجدِّ والأمل:
" لِمَ لا تُسجِّلُ في مَعهدٍ يُدرِّسُ الرَّسمَ الهندسيَّ؟ دورةٌ مُكثَّفةٌ تُعيدُ لك بعضًا من حُلمِكَ القديم، وتُساعِدُني في عملي في آنٍ معًا".

تبادلت مُنى ونُعمانُ نظراتٍ سريعةً لم تَخلُ من فهمٍ صامتٍ، ثم عقَّبت هي، وهي تُقلِّب بين يديها كُرّاسَتَها الجامعيَّة:
ــ " بالفعل، سيكونُ ذلكَ رائعًا، فالهندسةُ لا تُناقضُ الأدب، بل هما توأمانِ لو تدري، يُكمِّلُ أحدُهُما الآخر".

منذُ ذلكَ اليوم، لم يَكدْ يمرُّ يومٌ دونَ أنْ يزورَ نُعمانُ شقَّتَهم، سواءٌ أكان السَّيِّدُ أحمدُ في البيتِ، أو كان في لُبنانَ يُتابِعُ أعمالَهُ من مكتَبِهِ الخاصّ، ذلكَ الذي خَصَّصَهُ ليكونَ مُختبرَ أحلامِه الهندسيَّة، وغرفةَ عزلِه حين تضيقُ به الدنيا.

وكانتْ خالةُ مُنى، التي تسكنُ معهم، تُوفِّرُ الجوَّ المُناسبَ لتلكَ اللقاءات، بصمتِها الموزون، وابتساماتها التي لا تُفارقُ وجهَها، فوجودُها الدائمُ أضفى على اللقاءاتِ دفئًا مُستقرًّا وأمانًا مستترًا، يجعلُ من زياراتِ نُعمان شيئًا طبيعيًّا في نسيجِ حياتهم الجديدة، لا يُثيرُ في نفوسِ أحدٍ تساؤلًا أو ارتيابًا.

وهكذا، تَشابكتْ أيّامُهم على مهلٍ، بين أوراقِ الجامعة، وخُططِ المشاريع، وصوتِ الأقلامِ وهي تخطُّ الحُلُمَ ما بين كِتابٍ ومَسْطَرة.

بَعدَ سَهرةٍ طَويلَةٍ مِنَ الحِوارِ مَعَ مُنَى وَوَالِدِهَا، امتَدَّتْ حَتّى مَوعِدِ مَا قَبلِ الفَجرِ، ذَهَبَ كُلٌّ إِلَى غُرفَتِهِ لِيَنَامَ، أَمَّا نُعمَانُ فَكَانَ النَّومُ عَصِيّاً عَلَى عينَيهِ، فَخَرَجَ إِلَى الشَّارِعِ يَتَمَشَّى، لَم يكُن يَدرِي أَينَ يَسِير، إلى أَن وَجَدَ نَفسَه أَمَامَ أُولَى حَافِلاتِ الصَّبَاحِ العَائِدَةِ إِلَى بَلَدَتِهِ. فَرَكِبَ فِيهَا، لَا هَرَبًا مِنْ دِمَشْقَ، بَلْ بَحْثًا عَنْ أَرْضٍ يُمكِنُ أَنْ تُعِيدَ تَشْكِيلَ جُذُورِهِ، لَا جُدْرَانِهِ؛ وَعَنْ أَجْوِبَةٍ مُؤَجَّلَةٍ ظَلَّتْ تَتَرَدَّدُ فِي دَاخِلِهِ دُونَ اكْتِمَالٍ.

كَانَتِ السَّهرَةُ بِكُلِّ مَا حَوتهُ قَد انتَهَت قَبلَ قَلِيل، لَكِنَّهَا لَم تَزَل تَقُدُّ عَلَيهِ نَومَهُ، أَسْئِلَةٌ وَأَجوِبَةٌ تُحَاوِرُ ذَاتَهُ، فِي صَمِيمِ اَلْعَقِيدَةِ، لَا بُوصفِهَا تَقْلِيدًا مَوْرُوثًا، بَلْ وَعْيًا حُرًّا يُحَاوِرُ اَلْمَجْهُولَ؛ وَفِي اَلنِّظَامِ اَلسِّيَاسِيِّ، لَا كَوَاقِعٍ مَفْرُوضٍ، بَلْ كَقَيْدٍ يَتَسَلَّلُ إِلَى اَلْمَعْنَى وَالْحُرِّيَّةِ وَالْمَصِيرِ، وَيَدفَعُ إِلَى الخَوفِ وَالرَّهبَةِ.

لَمْ تَكُنِ اَلدَّارُ قَدِ اِسْتَيْقَظَتْ بَعْدُ، حِينَ وَصَلَ إِلَى اَلبَابِ اَلْخَارِجِيِّ اَلْمُؤَلَّفِ مِنْ دُرْفَتَيْنِ تُغْلَقَانِ وَتُفْتَحَانِ بِخِفَّةٍ، دُونَ حَاجَةٍ إِلَى مِفْتَاحٍ. هُنَاكَ، أَمَامَ اَلْعَتَبَةِ، تَمَدَّدَتْ كَالْعَادَةِ، تِلْكَ اَلكَلْبَةُ السَّوْدَاءُ.

كَانَ قَدْ رَبَّاهَا صَغِيرَةً، تَتبَعُهُ إِلَى اَلْحَقْلِ، وَتَتَسَلَّلُ خَلْفَهُ إِلَى المَدْرَسَةِ، حَتَّى صَارَ اَسْمُهَا - فِي لِسَانِ الجَمِيعِ هُنَا - مُقْتَرِنًا بِهِ. كَبِرَتْ مَعَهُ، وَكَأَنَّهَا افْتَرَشَتْ زَمَنَهُ فِي طُرُقَاتِ اَلرِّيفِ وَخَلْفَ أَسْوَارِ اَلْبَيْتِ. مَرِضَتْ مَرَّةً، وَظَنُّوا أَنَّهَا تَحْتَضِرُ. أَشْرَفَ عَلَى طَعَامِهَا بِنَفسِهِ، وَوَضَعَ لَهَا خُبْزًا مَغْمُوسًا بِمَغْلِيِّ بُزُورِ اَلْكَتَّانِ. عَادَتْ تَمْشِي بَعْدَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ، وَظَلَّتْ تُرَاوِغُ مَوْتَهَا بِصَبْرٍ، كَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَنتَظِرَهُ.

وَهَا هِيَ، بَعْدَ غِيَابٍ، تَسْبِقُهُ بِأَنْفِهَا إِلَى نَفْسِهِ. لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ بَعْدُ، لَكِنَّهَا اَنْتَصَبَتْ فَجْأَةً وَانْطَلَقَتْ نَحْوَهُ كَمَنْ يَشُمُّ طَيفَ اَلْقُدُومِ. لَمْ تَنْبَحْ، لَمْ تَلْهَثْ، بَلْ وَقَفَتْ أَمَامَهُ وَضَعَتْ رَأْسَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ، كَمَا لَوْ أَنَّهَا تَسْتَقْبِلُ وَطَنًا كَانَ ضَالًّا.

تَسَلَّلَ إِلَى سَاحَةِ اَلبَيْتِ اَلْإِسْمَنْتِيَّةِ كَمَنْ يَعْتَذِرُ مِنْ أَشْجَارِهَا اَلْعَتِيقَةِ عَنْ تَأَخُّرِهِ إِلَى مَوْعِدِ اَلفَجْرِ. كَانَتْ أَوْرَاقُ شَجَرَةِ الزَّيْتُونِ مَبْلُولَةً بِالنَّدَى، وَتَتَدَلَّى كَأَصَابِعَ جَدَّتِهِ، وَكَأَنَّهَا تُشِيرُ إِلَى السَّمَاءِ.

بَدَا لَهُ اَلبَيْتُ كَمَا تَرَكَهُ فِي آخِرِ مَرَّةٍ؛ لَكِنَّهُ أَحَسَّهُ أَصْغَرَ، كَأَنَّ اَلزَّمَانَ قَدْ شَرِبَ مِنهُ عَامًا أَو مَا يَزِيدُ عَنِ العَامِ، وَتَرَكَهُ نَاقِصًا لِبَعْضِ اَلْحَنِينِ.

اِقْتَرَبَ مِنْ اَلْمَغْسَلَةِ فِي بَاحَةِ اَلدَّارِ، وَغَسَلَ يَدَيْهِ وَوَجْهَهُ. لَمْ يَكُنْ يَدْرِي أَنَّ أُمَّهُ تُرَاقِبُهُ عَنْ قُرْبٍ مِن نَافِذَةِ غُرْفَةِ اَلتَّنُّورِ، تَلُفُّ وَشَاحَها اَلصُّوفِيَّ حَوْلَ كَتِفَيْهَا، وَتُعِدُّ شَيْئًا عَلَى نَارٍ هَادِئَةٍ. حِينَ رَأَتْهُ وَاقِفًا يَتَوَضَّأُ، لَمْ تَقُلْ شَيْئًا فِي اَلبِدَايَةِ. فَقَطْ نَظَرَتْ إِلَيهِ طَوِيلًا، نَظْرَةً تُشْبِهُ اَلاِحْتِضَانَ. وَمَا إِنْ أَنْهَى وُضُوءَهُ، حَتَّى قَالَتْ، بِصَوْتٍ خَفِيفٍ كَأَنَّهَا تَكَلِّمُ نَفْسَهَا: " صَباحُ الخيرِ يا بُني".

التفَتَ نَحوَها، مُتَفَاجِئًا بِوُجُودِها فِي ذَٰلِكَ اَلوَقتِ اَلمُبَكِّرِ، وَرَدَّ:

- **" صَباحُ النُّورِ يَا أُمِّي".**

- **" ظَنَنْتُكَ لَنْ تَعُودَ هَذَا اَلشِّتَاء".**
اِقْتَرَبَ مِنْهَا، قَبَّلَ يَدَهَا بِخُشُوعٍ صَامِتٍ، وَأَخَذَتْهُ إِلَى صَدرِهَا تَضُمُّهُ بِحَنَانٍ، ثُمَّ اِسْتَأْذَنَهَا:

- **" أُصَلِّي اَلفَجْرَ قَبلَ أن تُشرِقَ الشَّمسُ وَأَعُودُ".**
وَبَعْدَ أَنْ أَدَّى صَلاتَهُ فِي اَلزَّاوِيَةِ اَلتَّقْلِيدِيَّةِ اَلَّتِي اعْتَادَهَا بِغُرفَتِهِ، عَادَ بِخُطًى وَادِعَةٍ لِيَجْلِسَ إِلَى جَانِبِهَا. بَدَا كَطِفْلٍ عَادَ مِنْ دَهْشَةٍ بَعِيدَةٍ، ثُمَّ قَالَ، وَهُوَ يُحَدِّقُ فِي تَفَاصِيلِ وَجْهِهَا الَّتِي يَعْرِفُهَا أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهِ:

- **" اِشْتَقْتُ إِلَيْكِ يَا أُمِّي... نَعَمْ، كَم اِشْتَقْتُ! ....**
هُدُوءُكِ... اِسْتِيقَاظُكِ قَبْلَ اَلْجَمِيعِ... حَتَّى صَمْتُكِ... اِشْتَقْتُ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا اَلبَيْتِ".
أَجَالَتْ نَظَرَهَا فِي مَلَامِحِهِ. كَانَ أَكْثَرَ هُدُوءً، لَكِنَّ ذَلِكَ اَلبَرِيقَ الَّذِي طَالَمَا وَسَمَ عَيْنَيْهِ، قَدْ خَفَّ قَلِيلًا.
صَبَّتْ لَهُ اَلشَاي، وَجَلَسَتْ تُرَاقِبُهُ فِي صَمْتٍ.
شَرِبَا بَعْضَ الرَّشَفَاتِ، ثُمَّ قَطَعَتْ اَلهُدُوءَ بِسُؤَالٍ بَدَا أَنَّهُ ظَلَّ مُعلَّقًا مُنْذُ عَامٍ:

- **" أَلَمْ تَقُلْ إِنَّكَ سَتَدْخُلُ كُلِّيَّةَ الهِنْدَسَةِ؟ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ مُهَنْدِسًا، تَبنِي بُيُوتًا لِلفُقَرَاء وتَصنَعُ اَلْجَمَالَ فِي أَمَاكِنِهِم. مَاذَا حَدَثَ؟"**
تَرَدَّدَ، وَأَطَالَ اَلنَّظَرَ فِي اَلبُخَارِ المتَّصَاعِدِ مِنْ فُوهَةِ اَلكُوبِ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ:

- **" لَمْ أُغَيِّرْ حُلْمِي... فَقَطْ... وَجَدْتُنِي أُفَتِّشُ عَنْهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ. مَكَانٍ اِسْمُهُ "كُلِّيَّةُ اَلْآدَابِ"!**
اِبْتَسَمَ، كَأَنَّهُ يُقِرُّ وَيُبَرِّرُ فِي آنٍ مَعًا:

- **" أَرَدْتُ أَنْ أَفْهَمَ اَلْحِكَايَاتِ يَا أُمِّي، قَبْلَ أَنْ أَبدَأَ بِتَجْمِيلِ جُدْرَانِهَا".**
سَكَتَتْ لُوهْلَةٍ، كَأَنَّهَا تُقَلِّبُ اَلمَعْنَى فِي ذِهْنِهَا. ثُمَّ هَمَسَتْ، دُونَ أَنْ تُخْفِي مَا فِي صَوْتِهَا مِنْ قَلَقٍ أُمومِيٍّ:

- **" اَلْحِكَايَاتُ لَا تُطْعِمُ خُبْزًا، وَلَا تَبنِي بُيُوتاً يَا وَلَدِي".**
أَطْرَقَ بِرَأْسِهِ لَحْظَةً، ثُمَّ رَفَعَهُ قَائِلًا:

- **" وَلَا اَلْعِمَارَاتُ، يَا أُمِّي... إِنْ كَانَتْ بِلَا رُوحٍ".**
تَأَمَّلَتْهُ طَوِيلًا، ثُمَّ اِبْتَسَمَتْ، وَهَزَّتْ رَأْسَهَا فِي مَزِيجٍ مِنَ اَلحَيْرَةِ وَالرِّضَا:

- **" كَلَامُكَ يُشْبِهُكَ... لَا يُفْهَمُ مِنَ اَلمَرَّةِ اَلأولَى".**
ضَحِكَ، وَقَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ فِيهِ مَا يُشْبِهُ اَلِاعْتِرَافَ:

- **" وَأَنَا... لَم أَعُد أَفهَمهُ، ولَا يُفْهِمُنِي أَحَدٌ أَصلًا، إِلَّا هُنَا".**
اِبْتَسَمَتْ، ثُمَّ مَدَّتْ يَدَهَا وَرَبَّتْ عَلَى كَتِفِهِ بِحَنَانٍ خَالِصٍ، يُشْبِهُ دُعَاءَ اَلْأُمَّهَاتِ:

- **" اَلْمُهِمُّ أَنْ تَعْرِفَ أَيْنَ تَمْشِي، حَتَّى لَوْ مَشَيْتَ وَحْدَكَ".**

فِي تِلْكَ اَللَّحظَةِ، أَحسَّ أَنَّ اَلبَيْتَ قَدِ اِتَّسعَ فَجْأَةً، وَأَنَّ اَلزَّمَنَ، رَغمَ شَغبِهِ اَلْمُعْتَادِ، قَدْ جَلَسَ إِلَى جَوَارِهِمَا أَيْضًا، وَأَحنَى رَأْسَهُ اِحْتِرَامًا.
هَدِيرُ اَلْعَصَافِيرِ فِي اَلْخَارِجِ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ زَقْزَقَةٍ، بَلْ جُوْقَةً كَامِلَةً مِنَ اَلرَّفرفةِ وَاَلتَّصَاعُدِ، كَأَنَّ اَلاَغْصَانَ نَفْسَهَا تُغَنِّي بِصَوْتٍ أَخْضَرَ حَيٍّ.
عَادَ إِلَى غُرْفَتِهِ، وَتَمَدَّدَ فَوْقَ سَرِيرِهِ اَلخَشَبِيِّ، يُطِيلُ اَلنَّظَرَ فِي سَقْفِ اَلغُرْفَةِ اَلطِّينِيَّةِ، اَلَّتِي، عَلَى تَوَاضُعِهَا، اِحْتَفَظَتْ بِحَرَارَةٍ لَا يُمكِنُ لِأَسمتِ اَلمَدِينَةِ أَنْ يُشَبِّهَهَا أَوْ يُمَاثِلَ دِفأَهَا.
كَانَ هَذَا اَلصَّبَاحُ، وَاحِدًا مِنْ تِلْكَ اَلصَّبَاحَاتِ اَلنَّادِرَةِ اَلَّتِي لَا يُطْلَبُ فِيهَا شَيْءٌ، وَلَا يُنْتَظَرُ مِنْهَا شَيْءٌ.
مُجَرَّدُ صَبَاحٍ مُفْتُوحٍ عَلَى اَلذِّكْرَى.
بَعْدَ استراحةٍ لِلَحظَاتٍ، نَزَلَ إِلَى سَاحَةِ اَلدَّارِ ثَانِيَةً، يُفتِّشُ عَنْ أُمِّهِ، فَوَجَدَهَا تُعِدُّ اَلحطْبَ قُرْبَ اَلتَّنُّورِ، تَعِدُّ اَلْعَجْنَ وَتَسْتَعِدُّ لِلْخُبْزِ.
أَمْسَكَ قِطعَةً مِنَ الحَطَبِ، وَحَدَّقَ فِيهَا كَأَنَّهَا ذَاكِرَةً صَغِيرَةٌ، فِيمَا عَيْنَاهُ اَلنِّصْفُ مُغْمَضَتَيْنِ تُنْصِتَانِ لِمُنَادَاةٍ بَعِيدَةٍ لَا تُقَالُ.
قَالَ وَهُوَ يُرَاقِبُهَا تُهَيِّئُ اَلتَّنُّورَ:

- " أَمَا زِلْتِ تَخْبِزِينَ عَلَى هَذَا اَلتَّنُّورِ؟"

أَجَابَتْ دُونَ أَنْ تَلْتَفِتْ، كَأَنَّهَا سَمِعَتْ صَوْتَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ:

- " لَنْ تَجِدَ فِي أَيِّ مَخْبَزٍ خُبْزًا يُشْبِهُ خُبْزَ أُمِّكَ... اِسْأَلْ أَيَّامَكَ يَا نُعمَانُ، كَمْ كُنتَ تَسبِقُنِي صَبَاحًا إِلَى هَذَا اَلتَّنُّورِ، تُعِدُّ اَلحَطَبَ، وَتُشْعِلُ اَلنَّارَ حَتَّى يُصَارَ جَمْرًا، ثُمَّ تَقِفُ بِجَانِبِي تُحْضِرُ أَقْرَاصَ اَلْعَجِينِ بِيَدَيْكَ اَلصَّغِيرَتَيْنِ".

ضَحِكَ، وَاقتَرَبَ مِنهَا بِخِفَّةٍ كَشَابٍّ يَعُودُ إِلَى لُعبَتِهِ القَدِيمَةِ:

- " وَمَا زِلتُ أَفعَلُ، يَا أُمِّي! فَإِنْ أَرَدتِ، سَأَقُومُ بِذَلِكَ عَنكِ اليَومَ... ارتَاحِي أَنتِ".

ضحكتْ، وهي تهمُّ برفعِ الغطاءِ عن العجينِ المُخمّر، وقالتْ بنبرةٍ مازحةٍ تُخبّئُ بين حروفها ألف ذكرى:

- " ومَن يضمنُ لي أنّكَ لن تنثرَ الطّحينَ على ثيابك، كما كنتَ تفعلُ في طفولتِك حينَ تُصرّ على دعكِ العجينِ بيدَيك الضّعيفتين؟"

قَالَ وَهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى قَفَّةِ اَلحَطَبِ بِثِقَةٍ طُفُولِيَّةٍ نَاضِجَةٍ:

- " آنَذَاكَ كُنتُ أَتَعَلَّمُ... أَمَّا اَلْآنَ، فَصِرتُ أُسْتَاذًا فِي إِشْعَالِ اَلنَّارِ، وَسَيِّدًا فِي قَلْبِ اَلرَّمَادِ".
تَبَادَلَا نَظرَاتٍ مَازِحَةً دَافِئَةً، ثُمَّ جَلَسَ إِلَى جَوَارِ اَلتَّنُّورِ يُرَاقِبُ اَللَّهَبَ يَتَصَاعَدُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَفِي عَيْنَيْهِ شَوْقٌ لَمْ يَبْرُدْ، كَأَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَستَعِيدَ، بِنَفْسِهِ، شَيْئًا مِنْ تِلْكَ اَلسَّنَوَاتِ اَلَّتِي مَرَّتْ بِخِفَّةٍ وَلَمْ تَسْتَأْذِنْ أَحَدًا.
كَانَ فِي صَوْتِهِ نَبْرَةُ مَن يَتَمَنَّى اَلبَقَاءَ، وَإِنْ لَمْ يَقُلْهَا،

وَكَانَتْ فِي حَرَكَاتِهِ رَغْبَةٌ دَفِينَةٌ بِالاِنْتِمَاءِ...
كَأَنَّ اَلْمَدِينَةَ لَمْ تَحْتَضِنْهُ كَمَا يَنْبَغِي، أَوْ لَمْ تَمْنَحْهُ غَيْرَ صَخَبٍ لَمْ يَفْهَمْهُ بَعْدُ.
كَانَ اَلْجَمْرُ فِي اَلتَّنُّورِ قَدْ بَدَأَ يُسَجَّرُ جَيِّدًا، وَرَاحَتْ رَائِحَةُ اَلخبزِ تَمْزِجُ بَيْنَ نُضْجِ اَلْعَجِينِ وَنَدَاوَةِ اَلصَّبَاحِ اَلْأُولَى، حَتَّى عَطَّرَتِ اَلمَكَانَ كُلَّهُ بِعِطْرٍ لَا يُصَاغُ إِلَّا بِذَاكِرَةِ اَلطِّينِ وَاَلْحَنِينَ.

حِينَ أَخَذَ مِنْهَا رَغِيفاً سَاخِنًا، وَرَاحَ يَأْكُلُ مِنهُ عَلَى مَهَلٍ، قَالَتْ، وَهِيَ تَغْمِزُهُ بِعَيْنٍ نِصْفُهَا دُعَابَةٌ وَنِصْفُهَا رَجَاءٌ:

- " **هَلْ سَتَبْقَى مَعَنَا هَذَا اَلاسْبُوعِ؟ أَمْ أَنَّ دِمَشْقَ لَا تَسْمَحُ لِأَحَدٍ أَنْ يُطِيلَ اَلغِيَابَ عَنْهَا؟**"
تَرَدَّدَ قَلِيلًا، ثُمَّ أَجَابَ:

- " **سَأبْقَى... مَا اِسْتَطَعْتُ. ثُمَّ... مَن يَدْرِي؟ رُبَّمَا عُدْتُ نِهَائِيًّا... فِي يَوْمٍ مَا**".
نَظَرَتْ إِلَيْهِ بِدَهْشَةٍ خَفِيفَةٍ، ثُمَّ سَرَحَتْ بِبَصَرِهَا بَعِيدًا، إِلَى مَكَانٍ لَا يَرَاهُ إِلَّا قَلْبُهَا، وَقَالَتْ بِصَوْتٍ كَأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بِئْرٍ قَدِيمٍ:

- " **لَا تَعُدْ... إِلَّا إِنْ كَانَ لَكَ حُلْمٌ هُنَا. اَلْحَنِينَ وَحْدَهُ لَا يَبْنِي حَيَاةً، يَا نُعْمَانُ**".
سَادَ بَيْنَهُمَا صَمْتٌ رَقِيقٌ، لَيْسَ كَالصَّمْتِ اَلْعَابِرِ، بَلْ ذَاكَ اَلَّذِي يَهْمِسُ فِي اَلقُلُوبِ دُونَ أَنْ يُقَالَ.
كلُّ شيءٍ في السّاحةِ بدا متناغمًا: رائحةُ الأرضِ المُبلّلة، يَختَلِطُ مَعَ رَائِحَةِ الخُبزِ المُتَصَاعِدِ، صوتُ أُمِّهِ الخافتُ وهي تُتمتمُ دعاءً قديمًا... وأشياءُ لا تُفسَّرُ إلّا في هذا البَيت، وهذاَ الفِناء، وهذه الطمأنينة.

حينَ امتلأ صدرُهُ بدفءِ الخُبزِ، وشيءٍ من سكينةٍ نادرةٍ لم يعرفْها في المدينة، عادَ نُعمانُ إلى غُرفتِهِ، كانَ في صدرِهِ شيءٌ من دفءِ الخُبزِ، وطمأنينةٌ خفيّةٌ لَم يألَفْها في المدينةِ. خلعَ معطفَهُ الصُّوفيَّ بِحركةٍ بطيئةٍ، كأنَّما يَنزِعُ عن كتفَيْهِ ما تراكمَ عليهما من شَوقٍ وأيّام، ثمَّ جلسَ على سريرِهِ الخشبيِّ، ومدَّ كفَّهُ يتحسَّسُ شرشفًا مطرَّزًا بِوُرودٍ قديمةٍ، كانت أُمُّهُ قد خاطتْهُ لهُ في عامِهِ الجامعيِّ الأوّل.

تمدَّدَ على الفراشِ، وأغمضَ عينيهِ. غيرَ أنَّ النَّومَ لم يأتِ. شيءٌ ما في داخلهِ بقيَ يقِظًا، يَنبِضُ تحتَ جلدِهِ كحُلمٍ قديمٍ راحَ يتململُ من صَمتِهِ، ويطرقُ أبوابَ الذّاكرةِ برفقٍ لا يخلو من إصرار.

ثمّةَ شيءٌ في الداخلِ ظلّ يوقِظهُ...
كَأنَّ حُلمًا نائمًا تحتَ جِلدِهِ بدأ يتحرّك، يطرُقُ أبوابَ الذّاكرةِ دونَ استئذان.

" هَل كُنتُ أهربُ حينَ اخترتُ الآدابَ بدلَ الفنون؟ ..... أمْ كُنتُ أبحثُ عن صوتي في النُّصوصِ لا في الألوان؟"

تمتمَ بالسُّؤالِ كأنّهُ يُفكّرُ بصوتٍ مسموع، بينما عيناهُ تحدّقانِ في سقفِ الغرفةِ الخشبيّ، وقد تسلّلتْ فيه تشقّقاتٌ دقيقةٌ تُشبهُ أوردةً غائرةً في جسدِ بيتٍ عتيق.

كانَ يظنُّ أنّ البُعدَ عن ضجيجِ المدينةِ سيمنحُهُ وضوحًا... لكنَّ البُعدَ، بدلاً من أنْ يُجِيب، راحَ يسألهُ مرّةً أخرى.

تذكّر قاعةَ الرّسمِ الأولى... كيفَ كانتْ رائحةُ الألوانِ تُسكِره، وكيفَ خذلتْهُ قدرتُهُ على الأداءِ الحركيِّ حينَ وقفَ يشرحُ فكرتَهُ عن الضّوءِ والظلّ.
تذكّرَ تلعثمَهُ أمامَ لجنةِ القُبول، التي أحبّتْ لوحتَهُ المرسومةَ بالرّصاص، لكنْ حينَ طُلِبَ منهُ أن يُجسِّدَ ما رسمَهُ في مشهدٍ حَقِيقِيٍّ، يُطَبِّقُهُ. وَتُنفِذُه طَالِبَةٌ مُتَمرّسَةٌ اقتَرحَتها اللّجنَةُ الفَاحِصَةُ كَي يُعِيدَ تَشكِيلَ لَوحَتِهِ مِن خِلَالِهَا فَيَتنَاغمُ المَشهَدُ وَاقِعاً مَعَ لَوحَتِهِ...

وَفَورَ أنْ بَدَأتْ زَمِيلَتُهُ تُهيّئُ نَفسَهَا لِتَنفِيذِ مَا سَيُشَكِلُهَا نُعمَانُ عَلَيهِ لِيَكتَمِلَ المَشهَدُ، وَبَدَأت تُخَفِفُ بَعضًا مِن مَلَابِسِهَا فَوقَ المِنَصَّة، تَجَمَّدَ فِي مَكَانِه. شَعَرَ أنَّ يَدَيهِ تَرتَجِفَانِ، وأنَ جِسَدَهُ سَيَخذلُه إِذَا مَا اقتَرَبَ مِنهَا، فَكَيفَ بِهِ إِذَا لَمَسَهَا، وأَنَ لسانَهُ سَينكفِئُ، فَمَا بِهِ مِن حَرَجٍ صَارَ لا يُحتمل، فَتَحجّجَ بألمٍ مُفاجِئٍ فِي مَعِدَتِهِ، وَغَادَرَ القَاعَةَ مُعتَذِرًا، قَبلَ أنْ يَتَحَوّلَ خَجَلُهُ إِلَى كَارِثَة.

رُبّما... لم يَكُنْ هروبًا مِنَ الحُلمِ، بَل مِنَ الحَرَجِ. كَمَا بَرَّرَ لِنَفسِهِ، أَو مِنَ العَجزِ الذِي خَافَ أنْ يُفسَّر فشلًا.

ولِمَ كَانَ قَد وافَقَ بَعدَهَا عَلَى اقتراحِ "مُنى"، حينَ قالت لهُ بهدوء، بَعدَ الحِوارِ الطويلِ الذي دارَ بينهما لاحقاَ:
" ربّما لا تحتاجُ إلى الألوانِ الآن... ربّما تحتاجُ إلى النّصوص، حيثُ تستطيعُ أنْ تقولَ كلَّ شيءٍ دونَ أنْ تنتظرَ إلى أحد".؟.؟

لكن...
هَلْ تكفي الكلماتُ وحدَها لِترميمِ الداخل؟
هَلْ يَكفي أنْ نقرأ الحياةَ، دونَ أنْ نرسمَها أو نعيشَها كاملةً؟

جلسَ أخيرًا، وأخرجَ من حقيبتِه مُدَوَنَةَ صغيرَة، دفتريَّةَ الشّكلِ والبُنيَة، كانَ قد بدأَ يدوّنُ فيه تأمّلاتِه الأولى مُنذَ فَصلِه الجامعيِّ الأوّل.

قلَّبَ صفحاتِه على مهل، ثمّ توقّفَ عندَ سطرٍ كُتبَ بخطٍّ متردّدٍ ذات مساء:

- " المدينةُ تُغريني، لكنّها لا تعترفُ بي. والرّيفُ يفهمُني، لكنّه لا يستطيعُ أنْ يأخذني كاملًا".

أغلقَ الدفترَ بِهدوء، وتمتمَ بصوتٍ لا يسمعهُ سواه:

- " أحتاجُ أنْ أكتبَ هذا الفصلَ من حياتي بيدي... لا أنْ أتركَهُ يُكتَبُ عنّي.

في الخارج، كانتْ أمُّهُ قد فرغتْ من الخُبزِ، غَسلتْ يديها، وجلستْ تحتَ شجرةِ الرّمان، تمسحُ عرقَ الجبينِ بطرفِ وشاحِها، تنتظرُ أنْ ينزلَ ابنُها من جديد.

لكنّه ظلَّ هناك...
وكأنه في الأعلى البعيد، ساكنًا كأثرٍ قديم، يُقلّبُ حياتَه كما تُقَلَّبُ صفحاتُ روايةٍ كُتِبت على عَجَل.

وفي الأسفلِ...
كانَ والدهُ قدِ استيقظَ توًّا، وصوتهُ الجهوريُّ يعلو بنداءِ رقيق:

- " نُعمان! يَا ابني... الفطور جاهز".

جلسَ الأب مع أسرته إلى مائدةِ الإفطارِ، يُقلبُ بين يديهِ رغيفًا ساخنًا، وينتظرُ أن ينضمَّ إليه ابنه، كأنّ بينهما وعدًا مؤجلًا لعامٍ، ولكن هل حان أن يُذكره به؟

ربّما الآن فقط... تبدأُ الفُصولُ الحقيقيّة.

نزلَ "نُعمان" بخطًى ثقيلةٍ، كمنْ يَحملُ على كتفَيه عبءَ حلمٍ لم يكتمل.
ألقى تحيّةَ الصباحِ بصوتٍ خفيض، وقبَّلَ يدَ والدهِ على عادتهِ، ثمّ جلسَ إلى المائدة.
لكنّه لم ينطقْ ببنتِ شَفَة.

كان كمنْ لهُ فمٌ يأكلُ، لكنْ لا لسانَ لهُ يحكي.
الأسرةُ حولَه تُجري أحاديثَها الصباحيّةَ بأريحيةٍ: يَسألُونَهُ كَيفَ خَطَرُوا عَلَى بَالِهِ! وَمَتَى عَادَا! ....
وَلِأَنَّهُ لَم يَكُن يَنتَبِهُ إِلَى تَسَاؤُلَاتِهِم فَلَم يُجِب، وَاستَمَرَّت بَينَهُم أَحَادِيثُ أُخرَى ....عن الطعام، وآخرُ عن قريبةٍ أنجبت، وثَالِثٌ عَن مَشَاكِلِ المدرسةِ ... كان موجودًا بينهم جسداً بِلَا رُوح، يَستَرِقُ اللُّقمَةَ، ويغيبُ عَنِ المَعنَى. رمقتهُ أُختهُ بِنَظرَةٍ خَاطِفَةٍ ثمّ هَمَسَت:

- " كَأَنَّ نُعمَانَ اليَومَ بِه شَيءٌ عَلَى غَيرِ العَادَةِ"...

لكنّه لم يُعلّق. ومَا إن أَنهَى طَعَامَهُ، حَتَّى مَسَحَ يَدَيه، وَاعتَذَرَ بِصَوتٍ خَافِتٍ:

- " اسمَحُوا لِي... يَجِبُ أَن أَعُودَ إِلَى الغُرفَةِ".

نَهَضَ مُسرِعًا، وعَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيهِ فِي عَالَمٍ آخَرٍ، كأنّهُ يُطارِدُ شيئًا انفلتَ منه.

هُنَاكَ، فِي غُرفَتِهِ، جَلَسَ عَلَى طَرَفِ السّرِيرِ، يُحدّقُ فِي الجِدَارِ، وَيُتَمتِمُ كَأَنّهُ يُحاكِمُ ذَاكِرَتَه :

- " أحقًّا كُنتُ أَهرُبُ حِينَ اختَرتُ كُلّيّةَ الآدَابِ بَدلًا مِنَ الفُنُونِ الجَمِيلَةِ؟ أَكُنتُ أَبحَثُ عَن صَوتِي بَينَ السُّطُورِ، لَا فِي الأقلامِ والأَلوَانِ؟ أَكَانَ ذَلكَ هُرُوبًا؟ أَمْ بَحثًا عَن مَسَاحَةٍ لَا تَتطلّبُ مِنِّي أَن أَرتَجِفَ، أَو أَخجَلَ أَمَامَ الآخَرِينَ؟"

حِينَ سَكَتَت نَفسُهُ سَادَ الصَّمتُ فِي الغُرفَةِ، لَكِنْ بِدَاخِلِهِ كَانَ ثَمّةَ صَخَبٌ لَا يُطَاق.
صَوتُ "مُنى" عَادَ إِلَيهِ، كَأنّهُ يُعادُ بثُّه مِن شَرِيطٍ مَحفُوظٍ فِي أَعمَاقٍ لَم تَنَم:

- " أَنتَ لَم تَهرُبْ مِنَ الفَنّ يَا نُعمَانُ ... أَنتَ هَرَبتَ مِن جَسَدِكَ".

هَزَّ رَأسَهُ، كَأنّهُ يرَاهَا الآنَ تقِفُ فِي الزّاوِيَةِ، تقُولُهَا بِعينَينِ لَا تقبَلَانِ المُجَامَلَةَ.

- " لَم أَكُنْ مُستَعِدًّا..."، هَمَسَ فِي دَاخِلِهِ،

- " لَم أَكُنْ أعرِفُ كَيفَ أَضَعُ جَسَدِي فِي قَلْبِ المَعنَى...
كُنتُ أَرسُمُ لِأنّي أُحِبُّ انكِسَارَاتِ الضّوءِ، لَا لِأَقِفَ أَمَامَ أَحَدٍ يُشَاهِدُ خَيبَتِي".

وَسَمِعَ صَوتَهَا ثَانِيَةً... تِلكَ النّبرَةُ التِي لَا تَترُكُ لَهُ مَنفذًا حِينَ يُحَاوِلُ التّمَلّصَ:

- " لَكِنّكَ رَسمتَ بِالأَبيَضِ وَالأَسودِ مَا لَا يَستَطِيعُ شَاعِرٌ أَن يَقُولَهُ... فَلِمَاذَا لَم تَبقَ هُنَاكَ؟"

- " لِأَنَّ اللّوحَةَ وَحدَهَا لَا تَحمِي صَاحِبَهَا..."، أَجَابَهَا بِصَمتٍ دَاخِلِيّ، "وَأنَا كُنتُ بِحَاجَةٍ إِلَى جِدَارٍ يُغَطِّي خَوفِي".

ثَمّ أَسنَدَ ظَهرَهُ إِلَى الحَائِطِ، وَأَغمَضَ عَينَيهِ.

- " كُلُّ شَيءٍ يُمكِنُ أَن يَكُونَ فَنًّا..."، تَمتَمَ، "حَتَّى الصَّمتُ... إِنْ كُتِبَ بِصِدقٍ".

فَتَحَ عَينَيْهِ عَلَى سَقفِ الغُرفَةِ الطِّينِيَّةِ، وَلَاحَظَ فِيهِ تَشقُّقَاتٍ صَغِيرَةٍ كَأنّهَا عُرُوقُ ذَاكِرَةٍ قَدِيمَةٍ شَقَّهَا الغِيَابُ. طَالَ صَمتُهُ، ثُمَّ تَنَفَّسَ بِبُطءٍ، كَأَنَّهُ يَختَبِرُ نَغمَةَ قَرَارٍ لَم يَكُن قَادِراً عَلَى أَن يَجعَلَهُ مُكتَمِلاً.

رُبّمَا كَانَ هُنَاكَ، فِي تِلكَ اللّحظَةِ، أوّلُ هُرُوبٍ مِنَ الحُلمِ. لَا مِن الحُلمِ نَفسِهِ، بَل مِنَ الحَرَجِ. مِن خَوفِهِ أن يَفضَحَ عَجزَهُ فِي عَالَمٍ يَتَطَلَّبُ مِن الجَسَدِ أَن يَنطِقَ كَمَا تَنطِقُ الرّيشَةُ. يَومَهَا، استَمَعَ إِلَى اقتِرَاحِ "مُنَى" أَن يَلتَحِقَ بِـ" "كُلّيّةِ الآدَابِ"، حَيثُ يُمكِنُ لَلكَلِمَاتِ أَن تَفعَلَ مَا لَا يَفعَلُهُ الجَسَدُ.

وَعَادَ لِيَتَذكّرَ: اللّحظَةَ التِي دَخلَ فِيهَا قَاعَةَ القبُولِ فِي كُلّيَةِ الفُنُونِ، يَحمِلُ لَوحَتَهُ بِقَلبٍ مُضطَرِبٍ، وَالرَّائِحَةُ الزّيتِيّةُ لِلأَلوَانِ تُسكِرَهُ كَمَا يُسكِرُ المَطَرُ حَوَاسَّ العَائِدِينَ إِلَى الطُّفُولَةِ. كَيفَ وَقَفَ أَمَامَ اللّجنَةِ، تَلَعثَمَ، نَظَرَ إِلَى الزّمِيلَةِ التِي سَتُشَارِكُهُ المُحَاكَاةَ، إِلَى عَينَيهَا، إِلَى مَلَامِحِهَا المَكشُوفَةِ، إِلَى كَتِفٍ عَارٍ .... رُبَّمَا... وَخَافَ.

قَالَت "مُنَى" يَومَهَا، وهُمَا يَسِيرَانِ فِي شَوَارِعِ المَدِينَةِ:

- " كَانَ يَكفِي أَن تَنظُرَ إِلَى اللّوحَةِ، لَا إِلَى جَسَدِ الفَتَاةِ. لِمَاذَا خَلَطتَ بَينَ الفِكرَةِ وَمَا بَينَ مَا أَظهَرَت تِلكَ الفَتَاةُ؟"

رَدَّ عَلَيهَا، مُحرَجًا:

- " لِأنّنِي لَم أَتَعَلّم بَعدُ كَيفَ أُفكّكُ الجَمَالَ دُونَ أَن أَرتَبِكَ أَمَامَهُ".

ضَحِكَتْ بِمَرَارَةٍ:

- " وَهَل الكَلِمَاتُ أَرحَمُ؟ أَلَيسَتِ القَصَائِدُ أَيضًا أَجسَادًا؟"

أطرقَ آنذاكَ، كَما يُطرقُ الآنَ.

- **" لَعلّي قَبلتُ بالأدَبِ لِأنّهُ لَا يُعرّينِي كَمَا تفعَلُ اَلألوَانُ. هُنَا، أَختَبِئُ خَلفَ الحُرُوفِ، وَأُعِيدُ ترتِيبَ خَيبَتِي فِي سَطرٍ، لَا فِي ارتِبَاكِ يَدِي".**

قَالَت مُنَى، وَالهَواءُ كَانَ بَارِداً تِلكَ اللَّيلَةِ:

- **" لَكِنَّ الأَدَبَ الحَقِيقِيَ لَن يَترُكَكَ تَتَوارَى بَينَ السُّطُورِ. سَيَطلُبُ مِنكَ أَن تُنزِلَ القِنَاعَ. أَن تَكتُبَ نَفسَكَ، لَا أَن تَتَخَفّى خَلفَهَا".**

- **" وَأنَا؟ هَل أَنَا مُستَعِدٌّ لِذَلِكَ؟"** تَسَاءَلَ فِي نَفسِهِ، وبقي السؤالُ معلّقًا في الغرفة، كالضوءِ الكَسيرِ في زواياها.

- **" وهل تكفي الكلماتُ لترميم الداخل؟ "** همسَ بها نُعمان، هذه المرّة بصوتٍ عالٍ.

كأنَّ الإجابةَ قد تأخّرت، أو كأنَّها كانت دومًا هناك، في عيني "منى"، وهي تقول له:

- **" الَّداخِلُ لَا يُرَمَّمُ بِالكَلِمَاتِ وَحدَهَا، بَل بِالحَقِيقَةِ. اكتُب، نُعمَان... لَكِن لَا تكذِب!".**

ظَلّ مُمَدَّدًا عَلَى السَّرِيرِ الخَشَبِيّ، وكَأنَّ الهَواءَ يَلفَحُ جَبِينَهُ بِنُعُومَةٍ خَفِيفَةٍ، لَكِنَّ صَدرَهُ كَانَ يَضِيقُ، كَأنّ الغُرفَة تَصغُر، ويَعلُو سَقفُهَا عليه كُلّمَا غَاصَ أَكثَرَ فِي ذَاكِرَتِهِ.

- **" لَم أَكُن مَرِيضًا يَا مُنَى، كَذَبتُ فَقَط لِأَهرُبَ. لَم يَكُن جَسَدِي يُطِيعُنِي... وَلَا نَظَرِي يَرحَمُنِي.**

وَسَمِعَ صَوتَهَا، حَيًّا فِي رَأَسِهِ، بِنَبرَتِها التِي تَعرِفُ كَيفَ تُنَقّبُ تَحتَ سِطحِ الكَلِمَاتِ:

- **" أَتَعرِفُ مَا مُشكَلَتُكَ؟ لَيسَت فِي الخَوفِ. بَل فِي أَنّكَ لَم تَكُن مُستَعِدًّا لِأَن تَرَى الجَمَالَ فِي جَسَدٍ حَيّ، دُونَ أَن يُربِكَكَ".**

صَمَتَ طَوِيلاً ثُمَّ أَجَابَهَا فِي سِرِّهِ، كَمَا لَو أَنّهَا قَابِعَةٌ هُنَاكَ إِلَى الجَانِبِ الآَخَرِ مِنَ الغُرفَةِ، وَتَارَةً، وَاقِفَةٌ عِندَ البَابِ مُغلَقَةً عَلَيهِ جَمِيعَ مَنَافِذِ الغُرفَةِ:

- **" لَم أَكُن أَعرِفُ كَيفَ أَنظُرُ دُونَ أَن أُرتُبِك. كَانَت تَرتَدِي كَنزَةً قُطنِيَّةً ضَيّقَةً، وَ بِنطَالاً يُظهِرُ تَفَاصِيلَهَا أَكثَرَ مِمَّا أَحتَمِلُ. لَم أَستَطِع أَن أَرَى " الشَّكلَ " كَمَا يُفتَرَضُ أَن أَرَاهُ فِي لَوحَتِي... رَأَيتُ الأُنثَى، وَفَقَدتُ القُدرَةَ عَلَى تَطوِيعِ هَذَا الجَسَدِ أَو تَطوِيعِهِ لِهَذِهِ اللَّوحَةِ التِي رَسَمتُهَا".**

- **" لَكِنَّهَا زَمِيلَة، يَا نُعمَان. لَم تُعَرّ نَفسَهَا. أَنتَ مَن عَرّاهَا فِي خَيالِك".**

- **" أَعلَمُ ذَلكَ... وَلَكِن لَا أَظُنُّ إِنَّكِ قَادِرَةٌ عَلَى أَن تَفهَمِينِي. لأَنّ الخَيَالَ لَا يُلجَمُ أَحيَانًا. وَأَنَا لَم أَتَعَلَّم كَيفَ أُنَظّمُ انفِعَالِي بَعدُ. كَنتُ كَمَن يَرَى الحَقِيقَةَ فَجَأَةً بِلَا غِلافٍ، فَكَيفَ وَأَنَا الذِي رَسَمَهَا وَالذِي أَعرِفُ كُنهَ شَخصِيَتِهَا."**

- " إذًا، لَو طُلبَ مِنكَ أَن ترسُم امرأَةً عَارِيَةً كَمَا فِي صُفُوفِ الفُنُونِ الأُخرَى، كُنتَ سَتَفِرّ إِلَى أَقرَبِ نَافِذَةٍ؟"

- " رُبّما... أَو ... لَا أَدرِي. لَكِن وَقتَهَا شَعَرتُ أَنَّنِي صَغِيرٌ جِدًّا أَمَامَ فِكرَةِ تَجسِيدِ لُغَةِ الجَسَدِ. وَكَأنّ اللّوحَةَ أَكبَرُ مِنِّي، وَالزَّمِيلَةُ أَكثَرُ مِن شَكلٍ وَخُطُوطٍ."

سَكَتَ قَلِيلًا. ثُمَّ تَمتَمَ فِي صَمتِهِ:

- " خِفتُ أَن أَفعَلَ فَأُخَالِفَ قَنَاعَاتِي، وَإِن لَم أَفعَل .. فَلَا أَدرِي مَا الَّذِي كَانَ سَيَحصُلُ؟ أَو مَاذَا سَيعتَبِرُونِي؟ أَو رُبَّمَا سَأَفضَحُ جَهلِي."

فجاءه صوت منى من جديد، كأنّها تبتسم بمكرٍ داخليّ:

- " إذًا، قبلت بالأدب لأنّك تستطيع أن تُلبس الجسدَ استعارة؟"

- " ليس تماما ... إنما لجزء منه نعم... أو على الأقل، أو لأن الكلمة تُخفي أكثر ممّا تُظهر. أو تُظهر ما أختاره أنا، لا ما يُفرض عليّ.

- " ما الجزء الذي كان جوابك منه نعم كما قلت؟"

- " تشجيعك ودعمك لي في هذا المجال"

- " وما الجزء الذي كان جوابك منه لا؟"

- " جهلي بقواعد اللغة"

- " ولكن أعلم أن درجاتك في الثانوية هي من أهلتك للدخول إلى قسم اللغة العربية، فكيف ذاك؟"

قُرِعَ البَابُ خَفِيفاً لِيَدخُلَ وَالِدُهُ وَيَقُولُ بِاستِعجَالٍ مستغرباً:

- **" لِمَ لَم تَبقَ مَعَنَا؟ ..... فَأنَا وَأُمكَ وَإِخوَتُكَ قَدِ اشتَقنَا لَكَ! .... أَنَا ذَاهِبٌ إِلَى عَمَلِي الآنَ، وَسَنَتَحَدَّثُ عِندَمَا أَعُودُ فِي المَسَاءِ....، إِذَا كُنتَ بِحَاجَةٍ إِلَى شَيءٍ تَعَالَ إِلَيَّ فِي الدُّكَانِ!."**

ثُمَّ أَردَفَ قَبلَ أَن يُغَادِرَ:

- " جَدُكَ يَنتَظِرُكَ فِي حَدِيقَةِ المَنزِلِ، يُرِيدُ أَن يَرَاكَ وَيَتَحَدَّثَ إِلَيكَ، وَمَعَهُ جَارُنَا، لَا تَتَأخَرَ عَلَيهِمَا فَقَد اشتَاقَا إِلَيكَ أَيضَاً..... السلام عليكم!" وَأَغلَقَ البَابَ خَلفَهُ بِهُدوءٍ.

كَانَتْ شَمْسُ الشِّتَاءِ قَدْ مَالَتْ نَحْوَ جَنُوبِ السَّمَاءِ بَعْدَ سَاعَاتٍ مِنْ شُرُوقِهَا، تُرْسِلُ أَشِعَّةً دَافِئَةً تُلَامِسُ الفَضَاءَ الدَّاخِلِيَّ لِحَدِيقَةٍ فَسِيحَةٍ فِي بَيْتِ الجَدِّ أَبِي مَحْمُود، فَتَنْسَابُ عَلَى أَغْصَانِ الجَوْزِ وَالمِشْمِشِ العَتِيقَةِ كَوِشَاحٍ مِنْ حَرِيرٍ شَاحِبٍ، تَعْبَثُ النَّسَائِمُ بِمَا تَبَقَّى مِنْ أَوْرَاقِهَا، فَتَتَرَنَّحُ بِهَا كَذِكْرَيَاتٍ أَبَتْ أَنْ تُفَارِقَ. وَحْدَهُ الزَّيْتُونُ العَتِيقُ بَقِيَ بِهَيْبَتِهِ، مُحَافِظًا عَلَى أَوْرَاقِهِ كَمَا يَحْفَظُ الشَّيْخُ وَقَارَهُ.

فِي رُكْنٍ مُتَوَاضِعٍ، جَلَسَ نُعْمَانُ، مُتَّكِئًا عَلَى وِسَادَةٍ قَشِّيَّةٍ، يُرَاقِبُ سُقُوطَ الضَّوْءِ عَلَى كَفِّ جَدِّهِ، الَّذِي كَانَ يُصْلِحُ سُبْحَتَهُ بَعْدَ أَنْ انْفَرَطَ عِقْدُهَا، كَمَنْ يُحَاوِلُ لَمْلَمَةَ مَا تَبَقَّى مِنْ نِظَامٍ قَدِيمٍ.

عَلَى جَانِبٍ آخَرَ، كَانَ الجَارُ أَبُو رَشِيدٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ خَشَبِيٍّ، يَسْنِدُ كَفَّهُ عَلَى عَصًا دَقِيقَةٍ، وَيُصْغِي بِهُدُوءٍ، كَمَنْ يَنْتَظِرُ مَا سَيَأْتِي بَعْدَ سُكُونِ الرِّيحِ.

قَالَ الجَدُّ أَبُو مَحْمُود، وَهُوَ يُحَدِّقُ فِي وَجْهِ نُعْمَانَ بِنَظْرَةٍ تَحْمِلُ مَا بَيْنَ الحَيْرَةِ وَالحَذَرِ، صَوْتُهُ يَخْرُجُ مُتَثَاقِلًا، كَأَنَّهُ يُنَقِّبُ فِي صَدْرِ الزَّمَانِ:

- " يَا بُنَيَّ... لَقَدْ تَرَكْنَا لَكَ الطَّرِيقَ لِتَقْرَأَ وَتَتَعَلَّمَ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، أَرَاكَ اليَوْمَ رَجُلًا. وَقَدْ آنَ لِلْوَقْتِ أَنْ أُحَدِّثَكَ حَدِيثَ رِجَالٍ، مَعَ أَنِّي، وَاللهِ، مَا تَعَوَّدْتُ مِثْلَ هَذَا الكَلَامِ لَا مَعَ أَوْلَادِي، وَلَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِمْ. كَانَ الحَدِيثُ بَيْنَنَا: افْعَلْ وَلَا تَفْعَلْ... ذَلِكَ مَا وَرِثْنَاهُ، وَعَلَيْهِ رَبَّيْنَا.

وَأَنْتَ... أَنْتَ تَعْلَمُ كَمْ أُحِبُّكَ، وَكَمْ كُنْتُ أَفْرَحُ وَأَنْتَ تَقْرَأُ لِي وَأَنْتَ صَغِيرٌ، وَكَيْفَ كَانَ صَدْرِي يَنْشَرِحُ بِكُلِّ حَرْفٍ تَلْفِظُهُ، وَلَكِنِّي... لَمْ أُظْهِرْ ذَلِكَ لَكَ، لِئَلَّا تَغْتَرَّ، وَ لِئَلَّا تَطْمَعَ.

وَلَكِنْ، مَا سَمِعْتُهُ مُؤَخَّرًا أَقْلَقَنِي... قِيلَ إِنَّكَ تُجَالِسُ الفَتَيَاتِ فِي الحَدَائِقِ، وَتَقْرَأُ كُتُبًا غَرِيبَةً، وَتَقُولُ: إِنَّ المَدِينَةَ عَلَّمَتْكَ النُّورَ. أَيُّ نُورٍ هَذَا، يَا نُعْمَانُ، الَّذِي يُبْعِدُكَ عَنَّا، حَتَّى عَنْ أُمِّكَ؟ أَلَيْسَ الحَيَاءُ، كَمَا قَالَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، 'شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ'؟ فَأَيْنَ حَيَاؤُكَ؟"

انْخَفَضَ رَأْسُ نُعْمَانَ بِهُدُوءٍ، كَمَنْ يُفَتِّشُ عَنْ كَلِمَاتٍ دُونَ جَدْوَى. ثُمَّ قَالَ، بِصَوْتٍ خَافِتٍ يَشُقُّ صَدْرَهُ شَقًّا:

- " لَا غُرْبَةَ، يَا جَدِّي... أَنَا... أُحَاوِلُ فَقَطْ أَنْ أَكُونَ ابْنًا بَارًّا. أُحَاوِلُ أَنْ أَفْهَمَ مَنْ أَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ذَاكَ العَالَمِ الَّذِي أَعِيشُهُ".

تَحَرَّكَ الجَارُ أَبُو رَشِيد، وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً خَفِيَّةً، كَمَنْ وَجَدَ ضَالَّتَهُ بَيْنَ سُطُورِ الحَدِيثِ. ثُمَّ قَالَ، وَفِي عَيْنَيْهِ بَرِيقُ إِدْرَاكٍ قَدِيمٍ:

- " أَنَا أَيْضًا سَمِعْتُ، يَا حَاجّ... وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ نُعْمَانَ لَا يُرِيدُ قَطْعَ جُذُورِهِ، إِنَّمَا يَبْحَثُ عَنْ لَوْنٍ خَاصٍّ لِظِلِّهِ. أَلَا تَذْكُرُ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: 'وَمَنْ لَا يُحِبُّ صُعُودَ الجِبَالِ... يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَرِ'؟"

تَوَقَّفَ لَحْظَةً، ثُمَّ تَابَعَ بِصَوْتٍ رَصِينٍ نَافِذٍ:

- " الزَّمَانُ تَغَيَّرَ، يَا أَبَا مَحْمُود... نَحْنُ كُنَّا نَرَى النِّسَاءَ ظِلًّا لَا يُمَسُّ، وَلَكِنَّ اللَّهَ قَالَ: 'وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا'... وَالسَّكَنُ، يَا صَدِيقِي، لَا يَأْتِي بِالْخَوْفِ، بَلْ بِالشَّرَاكَةِ".

هَزَّ الجَدُّ رَأْسَهُ بِبُطْءٍ، وَعَيْنَاهُ تَتَفَلَّتَانِ مِنْ ظِلِّ الذِّكْرَيَاتِ:

- " قَدْ كَانَ زَمَانُنَا بَسِيطًا، يَا أَبَا رَشِيد... لَا أَسْئِلَةَ، لَا وُجُوهٌ تُحَاوِرُ، وَلَا أَصْوَاتٌ تُجَادِلُ. كُنَّا نَصْمُتُ فِي حُضُورِ الكِبَارِ، وَلَا نَتَكَلَّمُ إِلا إِذَا طُلِبَ مِنَّا... وَهَذَا مَا عَنَاهُ الحَدِيثُ: 'مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ'".

وَكَأَنَّ حَاجِزًا انْكَسَرَ فِي نُعْمَان، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ بِصَوْتٍ مُمْتَلِئٍ بِمَا كَتَمَهُ طَوَالَ السِّنِينَ:

- " لَكِنِّي مَا زِلْتُ أُؤْمِنُ بِتِلْكَ الحُدُودِ، يَا جَدِّي... وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، مِنَ المَرَضِ مِنَ المَدرَسَةِ، مِنَ الاختلاطِ بِالمُجتَمَعِ، حَتَّى النِّسَاءَ... كَأَنَّ نَظْرَةً صَافِيَةً مِنْ فَتَاةٍ تَعْنِي خِيَانَةً لِلْقِيَمِ، أَوْ زَلَّةً فِي الطَّرِيقِ. كُنْتُ أَشْعُرُ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُسَمِّيَ مَا أَشْعُرُ بِهِ".

سَأَلَهُ جَدُّهُ، لا كَمَن يَسْتَفْهِمُ، بَلْ كَمَن يَسْتَنْكِرُ، وَفِي نَبْرَتِهِ خَلِيطٌ مِنَ الوَجَعِ وَالغَضَبِ:

- " وَمَعَ كُلِّ خَوفِنَا وَحِرْصِنَا عَلَيْكَ، تَذْهَبُ فَتَخْتَارُ مِهْنَةً غَرِيبَةً عَنَّا، غَرِيبَةً حَتّى فِي طَبِيعَتِهَا وَطَبِيعَةِ أَهْلِهَا: حِدَادَةُ البِيتُون! أَيُّ صَنْعَةٍ هَذِهِ الَّتِي لَا تُشْبِهُكَ، وَلَا تُشْبِهُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِكَ؟

تَقُولُ إِنَّكَ تُحِبُّ القِرَاءَةَ، فَتَتَعَلَّمُ مِنَ الكُتُبِ الجَدَلِ، لِتُجَادِلَ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ، فَتُدْخِلَ نَفْسَكَ السِّجْنَ... وَأَيُّ سِجْنٍ؟! السِّجْنُ السِّيَاسِيُّ!

ثُمَّ، وَبَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ، تَقُولُ لِي وَأَنْتَ تَرْفَعُ رَأْسَكَ، إِنَّكَ مَا زِلْتَ تُؤْمِنُ بِتِلْكَ الحُدُودِ؟! فَأَيُّ إِيمَانٍ هَذَا الَّذِي يَدْفَعُكَ إِلَى هَذِهِ النَّتَائِجِ؟! أَهَكَذَا يُصَاغُ الإِيمَانُ فِي لَهِيبِ الأَذَى؟ أَم تُرَى العُقُوبَةَ سَبِيلًا إِلَى اليَقِينِ؟ أَو مِنَ العَتَبَاتِ البَارِدَةِ لِلسُّجُونِ تُبْنَى القَنَاعَات؟ أَم أَنت تَسْتَدِلُّ بِالجُرْحِ عَلَى الطَّرِيقِ؟ أَمْ صِرْتَ تَرَى الضَّيَاعَ طَرِيقًا؟!"

سَكَتَ نُعْمَانُ قَلِيلًا، كَمَنْ يَتَذَوَّقُ كَلِمَاتِ جَدِّهِ كَمَرَارَةٍ قَدِيمَةٍ تَسْكُنُهُ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ، لا يُجَادِلُ، بَلْ يُفَكِّرُ وَيُفَسِّرُ:

- " يَا جَدِّي، لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ! وَلَسْتُ أَبْحَثُ عَنْ مَا يُشْبِهُكُمْ، وَلَا مَا يُشْبِهُنِي فِي المَاضِي، بَلْ مَا يُشْبِهُنِي فِيمَا أُرِيدُ أَنْ أَصِيرَ إِلَيْهِ. لَعَلَّ مِهْنَةَ حَدَّادِ البِيتُونِ تَظْهَرُ غَرِيبَةً، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ، فِي عَيْنِي، طَرِيقًا لِلكَسبِ السَّرِيعِ فَلَطَالَمَا كُنتُ أَبحَثُ عَن سَبَبٍ لِرِزقٍ يُساعِدُنِي عَلَى استِكمَالِ دِرَاسَتِي، وَأَنتَ تَعلَمُ ذَلِكَ جَيِّدًا! أَمَّا بِشَأنَ القِرَاءَةِ، فَلَمْ تَكُنْ لِكَيْ أُجَادِلَ، بَلْ لِكَيْ أَفْهَمَ، وَلَمْ أَدْخُلِ السِّجْنَ لِأَنِّي أَرَدْتُ ذَلِكَ، بَلْ لِأَنَّ الحَقَّ، فِي زَمَانِنا، أَصبَحَ جُنْحَةً. أَنَا لَا أُوْمِنُ بِتِلْكَ الحُدُودِ التِي وُضِعَت فِي طَرِيقِنَا كَحِجَارَةٍ لا لِتُرْسَمَ فَتُحَدِدَ الْأَرْضِ، بَل لِتُقَيِّدَ الخَلقَ، وَتَجعَلُهُم يَهرُبُونَ إِلَى الصَّمتِ وَالخَوفِ، أُوْمِنُ بِهَا كَمَعَانٍ أَوجَدَهَا الله لِتَجمَعُنَا، تَحمِينَا، تُرَبِّينَا عَلَى الحُرِّيَّةِ وَالكَرَامَةِ. وَإِنْ كَانَ ثَمَنُ هَذَا الإِيمَانِ غَالِيًا، فَهُوَ أَقَلُّ مِمَّا تَسْتَحِقُّهُ النُّفُوسُ الحَيَّةُ.

لَا أَقُولُ إِنِّي عَلَى صَوَابٍ، يَا جَدِّي، وَلَكِنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أَعِيشَ بِمَا لَا أُؤْمِنُ بِهِ..."

تَنَفَّسَ عَمِيقًا، وَأَضَافَ كَمَنْ يَنْهَارُ أَخِيرًا:

- " فِي الجَامِعَةِ، يَا جَدِّي، أَرَاهُمْ يَضْحَكُونَ، يُشَاهِدُونَ المُبَارَيَاتِ، يُجَادِلُونَ فِي أَغَانِي وَمُسَابَقَاتٍ، وَأَنَا؟ وَأَنَا أَقِفُ وَحِيدًا... أُفَكِّرُ فِي أَشْيَاءَ لَا تَضْحَكُهُمْ، وَلَا تَجْذِبُهُمْ... أَغْبِطُهُمْ أَحْيَانًا، وَأَسْتَهْزِئُ بِهِمْ أُخْرَى، لَكِنَّنِي أَفْهَمُ، فِي قَاعِ قَلْبِي، أَنَّهُمْ يُفَضِّلُونَ اللَّا مُبَالَاةَ، عَلَى أَنْ يُفَكِّرُوا فِي مَعْنَى العَدَالَةِ... أو فِي الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ، وَفِي مَنْ يُعَانِي، وَفِي العَالَمِ الَّذِي يُشْبِهُنِي... أَوْ يُشْبِهُ مَا أَخَافُ أَنْ أُصْبِحَهُ".

لَمَعَتْ عَيْنَا أَبِي رَشِيدٍ بِرِقَّةٍ خَفِيَّةٍ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتٍ كَانَ فِي هُدُوئِهِ مَا يُشْبِهُ الاِعْتِرَافَ:

- " لَيسَ ذَنْبَكَ، يَا نِعْمَانُ... لَقَدْ نَشَأْنَا جَمِيعًا فِي ظِلِّ خَوْفٍ يَسْرِي فِي العُرُوقِ. نَخَافُ من أَحلَامِنَا مِن رَغَبَاتِنَا، نَخَافُ أَنْ نَضْحَكَ مِنْ قَلْبِنَا، حَتَّى لَا تَتَرَصَّدَ ضِحْكَتَنَا عُيُونُ الحُسَّادِ وَأَطْمَاعُ المُتَرَبِّصِينَ، فَنَقُولُ إِثْرَ كُلِّ ضِحكَةٍ: (اللَّهُمَّ اِكفِنَا شَرَّ ضِحكَتِنَا). وَصَلَ بِنَا الأَمْرُ، يَا بُنَيَّ، إِلَى أَنْ نَخَافَ أَنْ نَكُونَ صَادِقِينَ مَعَ أَنْفُسِنَا".

هَمْهَمَ الجَدُّ أَبُو مَحْمُودٍ بِضِيقٍ، وَضَرَبَ بِعَصاً ~كَانَت إِلَى جِوارِهِ~ الأَرْضَ، كَمَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يُزِيلَ غُبَارَ الكَلِمَاتِ مِنْ سَمْعِهِ، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنَ الغَضَبِ:

- " لَكِنَّ الدِّينَ يُعَلِّمُنَا الحَلَالَ وَالحَرَامَ، لَا هَذِهِ الفَوْضَى فِي العُقُولِ وَالقُلُوبِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ : 'إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ'".

سَادَ صَمْتٌ قَصِيرٌ، ثُمَّ الْتَفَتَ نِعْمَانُ نَحْوَ جَدِّهِ، وَفِي عَيْنَيْهِ وَجَعٌ عَمِيقٌ كَأَنَّهُ يَتَشَظَّى فِي الصَّدْرِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ لَكِنَّهُ نَابِضٌ:

- " أَتَدْرِي، يَا جَدِّي... كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الصَّلَاةَ كَافِيَةٌ لِرَاحَةِ القَلْبِ، فَكَيْفَ يُصَلِّي قَلْبِي خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي اليَوْمِ، وَيَبْقَى مُضْطَرِبًا؟ أُحِبُّ اللهَ، وَأَخَافُهُ، وَلَكِنِّي لَا أَشْعُرُ أَنَّهُ يُحِبُّنِي وَأَنَا أَرْتَجِفُ مِنْهُ كَمَا أَرْتَجِفُ مِنْ سُلْطَةٍ جَبَّارَةٍ... أَلَمْ يَقُلْ فِي كِتَابِهِ:
(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ)؟
فَلِمَاذَا لَا أَشْعُرُ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ؟"

تَنَفَّسَ أَبُو رَشِيدٍ بِعُمْقٍ، كَأَنَّهُ يَسْتَعِيدُ مَشَاهِدَ قَدِيمَةً، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ دَافِئٍ:

- " مَعَكَ حَقٌّ، يَا نِعْمَانُ... تِلْكَ الأَسْئِلَةُ هِيَ الَّتِي كَبَّرَتْنَا قَبْلَ أَوَانِنَا. هِيَ الَّتِي بَقِيَتْ تَغْلِي دَاخِلَنَا، لَا يَسْكُنُهَا سُكُوتٌ وَلَا يُطْفِئُهَا جَوَابٌ. أَلَا تَذْكُرُ يَا حَاجّ؟"

وَاقْتَرَبَ مِنْ أُذُنِ أَبِي مَحْمُودٍ وَهَمَسَ، كَمَنْ يُفْشِي سِرًّا قَدِيمًا:

- " حَتَّى رَغَبَاتُنَا الَّتِي خِفْنَا أَنْ نَبُوحَ بِهَا... كَانَتْ جُزْءًا مِنْ إِنْسَانِيَّتِنَا".

ثُمَّ رَفَعَ وَجْهَهُ وَغَمَزَ نِعْمَانَ، وَقَالَ مُبْتَسِمًا بِإِشَارَةٍ ذَكِيَّةٍ:

- " أَمَا سَمِعْتُمْ عَنْ رَابِعَةَ العَدَوِيَّةِ؟ حِينَ قَالَتْ: 'أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ: حُبَّ الهَوَى، وَحُبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَ'؟... تَعْتَرِفُ أَنَّ الحُبَّ جَسَدٌ وَرُوحٌ مَعًا".

اِخْتَنَقَ صَوْتُ نِعْمَانَ لَحْظَةً، ثُمَّ تَمَالَكَ نَفْسَهُ وَقَالَ بِصَوْتٍ يَشُقُّ السُّكُونَ:

- " لَسْتُمْ أَنْتُمْ، وَلَا نَحْنُ، أَصْلَ الأَزْمَةِ، يَا جَدِّي... أَنْتُمْ وَنَحْنُ وَأَجْيَالٌ كَثِيرَةٌ حُمِّلَتْ فِي صُدُورِهَا خَوْفًا مُتَوَارَثًا".

ثُمَّ أَشَارَ بِيَدِهِ كَأَنَّهُ يَنْتَشِلُ ذِكْرَى مِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ، وَقَالَ بِصَوْتٍ يَرْتَفِعُ تَدْرِيجًا:

- " ذَلِكَ الخَوْفُ الَّذِي رَسَمَهُ (البَعْضُ)... وَصَوَّرُوا اللّهَ فِيهِ (إِلَهًا) لَا يَنْشَغِلُ إِلَّا بِعَذَابِ النَّاسِ فِي جَهَنَّمَ، وَبِالزَّجْرِ وَالعِقَابِ. ثُمَّ جَاءَتْ سُلْطَةٌ أَرَادَتْ أَنْ تُؤَمِّنَ تَأْيِيدَ الجَمِيعِ، وَلَوْ بِثَمَنِ هُرُوبِهِمْ إِلَى الصَّمْتِ، أَوْ بِانْشِغَالِهِمْ بِرَغِيفِ خُبْزٍ، لِكَيْ لَا يَتَبَقَّى لِأَحَدٍ وَقْتٌ فَيَحْلُمَ بِحُرِّيَّتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، وَلَا بِعَقْلِهِ الَّذِي كَرَّمَهُ اللّهُ بِهِ".

وَصَمَتَ قَلِيلًا، ثُمَّ تَابَعَ بِنَبْرَةٍ وَاثِقَةٍ:

- " لَا يَكُونُ الإِنسَانُ مُسْلِمًا حَقًّا حَتَّى يُصَدِّقَ بِمَا وَهَبَهُ الله وَمَنَحَهُ مِن حقوق فعليه أَنْ يَغْتَنِمَ هَذِهِ الحُقُوقَ فَيُفَكِّرَ، وَيَسْأَلَ، حَتَّى يَفْهَمَ. أَلَمْ تَقْرَؤُوا قَوْلَ اللّهِ تَعالَى في سورة الإسراء: الآية ٧٠

**(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)
هَذِهِ آيَةٌ تَضَعُ التَّكْرِيمَ قَبْلَ الخَوْفِ، وَتَجْعَلُ الكَرَامَةَ أَصْلًا فِي الإِنسَانِ، لَا الذُّلَّ، وَلَا الخُضُوعَ لِصُورَةِ إِلَهٍ غَاضِبٍ دَائِمًا... فَاللّهُ – فِي دِينِنَا – هُوَ الرَّحِيمُ، الكَرِيمُ، المُكَرِّمُ لِلْإِنسَانِ".**

وَاصَلَ نِعْمَانُ كَلَامَهُ، بِصَوْتٍ تَخَالَطُهُ نَبْرَةُ إِيمَانٍ مُتَأَلِّمٍ، وَتَلْمَعُ فِي عَيْنَيْهِ نَارُ السُّؤَالِ الَّذِي طَالَ كَتْمُهُ:

**- " أَلَمْ يَقُلِ اللّهُ - سُبْحَانَهُ - فِي كِتَابِهِ في سورة البقرة: الآية ٢٥٦
(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)؟
فَكَيْفَ نُرْهِبُ القُلُوبَ بِاسْمِ الدِّينِ؟ وَنُغْلِقُ عَلَى العُقُولِ أَبْوَابَهَا؟ هَذِهِ آيَةٌ تُقِرُّ الحُرِّيَّةَ فِي الإِيمَانِ، لَا تَفْرِضُهُ، بَلْ تُبَيِّنُ لِلرَّائِدِ طَرِيقَ الرُّشْدِ، وَتَتْرُكُ لَهُ خِيَارَ المَسِيرِ".**

أَطْرَقَ الجَمِيعُ، كَأَنَّ كَلِمَاتِهِ أَسْقَطَتْ سِتْرًا عَنْ مَعَانٍ خَافِيَةٍ .وَأَتْبَعَ نِعْمَانُ قَوْلَهُ بِهُدُوءٍ يَتَضَمَّنُ أَلَمَ التَّجَارِبِ:

**- " وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى في سورة الأنفال الآية ٢٢ : (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)
تَنْبِيهٌ وَاضِحٌ لِمَنْ يَعَطِّلُونَ نِعْمَةَ العَقْلِ، وَيَتَّبِعُونَ مَا لَا يُدْرِكُونَ، خَوْفًا، أَوْ تَقْلِيدًا. أَلَيْسَ هَذَا تَفْسِيرًا لِمَا كُنَّا نَفْعَلُهُ؟"**

هَزَّ أَبُو رَشِيدٍ رَأْسَهُ ببطء، كَأَنَّهُ يُقِرُّ بِذَنْبٍ قَدِيمٍ، ثُمَّ تَنَهَّدَ قَائِلًا:

- " نَعَمْ... كُنَّا نُصَلِّي، وَنُسَبِّحُ، وَنَبْكِي عِندَ ذِكْرِ العَذَابِ، لَكِنَّنَا نَادِرًا مَا ابْتَسَمْنَا لِرَحْمَتِهِ. كَأَنَّنَا نَخْشَاهُ أَكْثَرَ مِمَّا نُحِبُّهُ".

نَظَرَ نِعْمَانُ إِلَيْهِ بِتَرَحُّمٍ، وَقَالَ:

- "وَفِي كِتَابِهِ - سُبْحَانَهُ - جَاءَ أَيْضًا في سورة النساء الآية ٥٨:
(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)

فَهَلْ يُوجَدُ وَاضِحٌ بَعْدَ هَذَا؟ مِفْتَاحُ الحُكْمِ: العَدْلُ، لَا الخَوْفُ. الوَلَايَةُ أَمَانَةٌ، لَا تَسَلُّطٌ".

أَصْغَى الجَدُّ أَبُو مَحْمُودٍ بِانْتِبَاهٍ، وَإِذَا بِوَجْهِهِ يَلِينُ، كَأَنَّ صَخْرَةً تَفَتَّقَتْ فِي دَاخِلِهِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ السُّكُوتُ يُغَلِّفُ المَجْلِسَ كَسَحَابَةِ صَيْفٍ، تَوَقَّفَتْ الرِّيَاحُ، وَسَكَنَتِ الأَوْرَاقُ فِي زَوَايَا البَاحَةِ، كَأَنَّ الزَّمَانَ أَرَادَ لِكَلِمَاتِ نِعْمَانَ أَنْ تَصْدَحَ دُونَ مُقَاطَعَةٍ.

ثُمَّ تَسَلَّلَ صَوْتُ أَبِي رَشِيدٍ فِي خَفَرٍ، كَمَنْ يَسْأَلُ نَفْسَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُخَاطِبُ الآخَرِينَ:

- "... هَلْ كُنَّا نُحِبُّ اللَّهَ حَقًّا؟ أَمْ كُنَّا نَخْشَاهُ فَقَطْ؟"

ثُمَّ صَمَتَ لَحْظَةً، ثُمَّ أَضَافَ وَفِي صَوْتِهِ نَفَسٌ طَوِيلٌ مُثْقَلٌ:

- " كُنْتُ أَرْتَجِفُ كُلَّمَا سَمِعْتُ حَدِيثًا عَنِ العَذَابِ، وَأَبْكِي. أَمَّا عِنْدَمَا أَقْرَأُ عَنْ رَحْمَتِهِ، فَلَا أَبْتَسِم... وَهُنَا يَكْمُنُ الفَرْقُ".

وَطَلَبَ الإِذْنَ بِالرَّحِيلِ، فَقَدْ سَمِعَ صَوْتَ ابْنِهِ يُنَادِيهِ مِنْ خَلْفِ الجِدَارِ.
اِنْحَنَى أَبُو مَحْمُودٍ قَلِيلًا، وَأَسْنَدَ يَدَيْهِ إِلَى جِذْعِ شَجَرَةِ الزَّيْتُونِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ بِبُطْءٍ، وَعَيْنَاهُ تَسْبَحَانِ فِي فَضَاءٍ بَعِيدٍ:

- " لَعَلَّنَا نَسِينَا أَنَّ الحُبَّ لَا يُزَاحِمُ المَخَافَةَ، وَلَكِنَّهُ يُقَوِّمُهَا... مَنْ أَحَبَّ صَادِقًا، لَمْ يَخَفْ كَمَنْ هَرَبَ، بَلْ خَافَ كَمَنْ يَخْشَى أَنْ يُؤْذِيَ مَنْ يُحِبُّ".

اِقْتَرَبَتِ الجَدَّةُ أُمُّ مَحْمُودٍ الَّتِي كَانَتْ تَنْصِتُ إِلَى الحِوَارِ عَبْرَ نَافِذَةِ غُرْفَتِهَا، وَجَلَسَتْ إِلَى جِوَارِ زَوْجِهَا، وَهَمَسَتْ وَقَدْ لَمَعَتْ فِي عَيْنَيْهَا دُمُوعٌ رَقِيقَةٌ:

- " أَوَّلُ مَرَّةٍ أَسْمَعُ الدِّينَ يُرْوَى بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ... لَيْسَ كَتَخْوِيفِهِمْ لَنَا صِغَارًا".

أَشَارَ نِعْمَانُ بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا، وَأَجَابَ:

- " لِذَلِكَ كُنْتُ أَقُولُ: نَحْنُ نَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نَقْرَأَ النُّصُوصَ وَنَسْمَعَهَا، لَكِنْ بِقُلُوبٍ نَظِيفَةٍ، لَا بِعُقُولٍ تَسْتَخْدِمُهَا لِلتَّرْهِيبِ، أَوْ لِلسَّيْطَرَةِ".

قَالَت الجدة وهي تَفْرُكُ يَدَيْهَا ببطء:

- " كُنَّا نُرَدِّدُ الآيَاتِ كَمَا يُرَدِّدُ الطُّلابُ النَّشِيدَ، لَا نَسْتَوْقِفُهَا، لَا نُحَاوِرُهَا... وَرُبَّمَا لِذَلِكَ لَمْ تُغَيِّرْنَا".

صَمَتَ الكُلُّ بَعْدَ كَلِمَاتِهَا، كَأَنَّهُم يَتَذَكَّرُونَ صَلَوَاتٍ قَدِيمَةً أُدِّيَتْ خَوْفًا، وَدُمُوعًا هَطَلَتْ خَشْيَةً، دُونَ أَنْ يَسْأَلُوا: أَيْنَ المَحَبَّةُ؟ أَيْنَ الإِنْسَانُ فِي هَذَا كُلِّهِ؟

وَفَجْأَةً، قَطَعَ الصَّمْتَ صَوْتُ الرِّيحِ، يَسْرِي فِي البَاحَةِ كَنَفَسٍ عَمِيقٍ، فَتَحَرَّكَتِ الأَوْرَاقُ، وَهَمَسَتِ الأَغْصَانُ، كَأَنَّهَا تُصَادِقُ عَلَى مَا قِيلَ.

أَمَّا نِعْمَانُ، فَنَظَرَ فِي عُيُونِهِم، وَقَالَ :

- " لَا نُرِيدُ دِينًا يُرْهِبُنَا، وَلَا يُبْقِينَا صِغَارًا نَبْكِي فِي زَوَايَا الخَوْفِ. نُرِيدُ دِينًا يُنْبِتُنَا. يَجْعَلُنَا نَفْهَمُ، نَسْتَعِيدُ قَامَتَنَا، وَنَمْشِي فِي الحَيَاةِ وَنَظَرُنَا نَحوَ السَّمَاءِ، لَا نَخْتَبِي عَلَى التُّرَابِ".

أمّا الجد أبو محمود، فقد ظلّ صامتًا للحظة، ثم تنحنح وقال بصوتٍ خافت، وكأنه يكلم نفسه أكثر من الآخرين:

- " رُبَّمَا قَسَوْنَا عَلَيْكُمْ، وَقَسَوْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا. خِفْنَا عَلَيْكُم فَزِدْنَا عَلَيْكُم... وَمَا سَأَلْنَا: هَلْ كَانَ ذَلِكَ حُبًّا، أَمْ هَلْ كَانَ خَوْفًا مِنْ غَضَبٍ تَخَيَّلْنَاهُ أَكْبَرَ مِنْ رَحْمَةِ مَنْ خَلَقَنَا؟"

نظر إليه نعمان، وقد وَقَعَ صوته في أعماقه وقع الجرح القديم، فقال بلين :

- " وَنَحْنُ، يَا جَدِّي، مَا جِئْنَا لِنُحَاكِمَكُمْ، بَلْ لِنَفْهَمَ سَوِيًّا، وَلِنَغْفِرَ. أَنتُمْ كَانَتْ لَكُمْ زَمَانَاتُكُمْ، وَلَنَا الحَقُّ أَنْ نَبْنِيَ زَمَانَنَا".

هنا هدأت أنفاس الجمع، وكأن الهواء تجدد في صدورهم. وكأنّ الكلمات قد أزاحت عنهم شيئًا من الغبار العالق في صدورهم منذ زمن بعيد. ,وصل صوت المؤذن يعلن وقت صلاة الظهر، وهدأت الأصوات من حولهم. وذهب كل منهم إلى صلاته.

فِي المَسَاءِ، مَضَى نُعْمَانُ إِلَى زِيَارَةِ صَدِيقِهِ القَدِيمِ، بَعْدَ طُولِ اِنْقِطَاعٍ. لَمْ تَكُنِ الأَبْوَابُ فَقَطْ هِيَ مَا فَصَلَتْ بَيْنَهُمَا طِيلَةَ تِلْكَ الفَتْرَةِ مُنْذُ بَدَايَةِ هَذَا العَامِ الدِّرَاسِيِّ، بَلْ ثَمَّةَ أَشْيَاءُ أُخْرَى كَالزَّمَنِ، وَالمَشَاغِلِ، وَكَلِمَةٌ لَمْ تُقَلْ.

اِسْتَقْبَلَهُ صَدِيقُهُ بِعِنَاقٍ سَرِيعٍ، وَمَلَامِحَ مُتْعَبَةٍ حَاوَلَ أَنْ يُخْفِيَهَا بِبَسْمَةٍ وَاجِبَةٍ. جَلَسَا فِي غُرْفَةٍ تَعْبَقُ بِرَائِحَةِ القَهْوَةِ وَالمَسَاءِ وَالشَّكْوَى.

قَالَ نُعْمَانُ وَهُوَ يُمَرِّرُ نَظْرَهُ عَلَى المَكَانِ:

- " كَأَنَّ شَيْئًا تَغَيَّرَ هُنَا... أَهُوَ المَكَانُ، أَمْ أَنْتَ؟"

ضَحِكَ صَدِيقُهُ ضَحْكَةً قَصِيرَةً، كَأَنَّهَا مُجَرَّدُ زَفْرَةٍ:

- " المَكَانُ لَمْ يَتَغَيَّرْ، لَكِنَّ البَيْتَ بِلَا دِفْءٍ لَا يُقَالُ عَنْهُ بَيْتٌ. بَيْنِي وَبَيْنَهَا... جِدَارٌ لَا يُرَى، لَكِنَّهُ يَحْجُزُ عَنِّي الهَوَاءَ."

سَكَتَ نُعْمَانُ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ بِهُدُوءٍ:

- " لَا أُجِيدُ النَّصِيحَةَ، وَلَكِنِّي أُجِيدُ السَّمْعَ. حَدِّثْنِي، إِنْ شِئْتَ."

تَنَفَّسَ صَدِيقُهُ بِعُمْقٍ، نَظَرَ إِلَى البَعِيدِ، حَيْثُ لَا شَيْءَ سِوَى جِدَارٍ بَاهِتٍ، وَقَالَ:

- " كَثِيرٌ مِنَ الكَلَامِ تَرَاكَمَ فِي القَلْبِ يَا نُعْمَان... سَنَةٌ مِنَ الرَّغْبَةِ فِي أَنْ أُفْهَمَ، لَا أَنْ أُحَاسَبَ، أَنْ أُحَبَّ كَمَا أَنَا، لَا كَمَا يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ. سَأُخْبِرُكَ لَكِن.. بَعدَ أَن أَطمَئِنَ عَنكَ"

ثُمَّ اِلْتَفَتَ إِلَيْهِ فَجْأَةً، وَقَدْ بَدَتْ فِي عَيْنَيْهِ لَمْعَةُ اِسْتِغْرَابٍ:

- " لَكِنْ قَبْلَ أَنْ أَنْسَى... كُنْتَ قَدْ أَخْبَرْتَنِي أَنَّكَ تَقَدَّمْتَ إِلَى كُلِّيَّةِ الفُنُونِ الجَمِيلَةِ! مَاذَا حَصَلَ بَعدَ ذَلِكَ؟"

ابتسم نُعمانُ، ومَدَّ يدَهُ نحو فنجانِ القهوةِ، وقالَ بهدوءٍ فيه شيءٌ من المفاجأة:

- " لَقَدْ تَقَدَّمْتُ إِلَيْهَا، نَعَم... وَاجْتَزْتُ بِدَايَةَ الاختِبَارِ إِلَى مِحْنَةَ، وَتَوَقَّعتُ القبُولَ فِيهَا عَلَى أَن أُتَابِعَ فِيمَا بَعدُ فِي قِسْمِ هَنْدَسَةِ الدِّيكُورِ. لَكِنَّنِي فَاجَأْتُ الجَمِيعَ كَمَا فَاجَأْتُ نَفْسِي... سَجَّلْتُ فِي قِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ.".

شهقَ صديقه بدهشةٍ صادقة:

- " اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ؟! نُعمان! أَنتَ؟!".

- ضحكَ نُعمانُ بِمَرَحٍ خافتٍ:

- " نَعَم... لُغَتُنَا يا صَاحِبِي. لَا لأُصْبِحَ مُعَلِّمًا فَقَط، بَلْ لِأَفْهَمَ الحُرُوفَ الَّتِي تُشَكِّلُنَا، وَالكَلِمَاتِ الَّتِي نَقُولُهَا وَلَا نَفْهَمُهَا، وَتِلْكَ الَّتِي نَخَافُ أَنْ نَقُولَهَا.".

قالَ الصَّديقُ وهو يَضربُ كفًّا بكفٍّ بدهشةٍ ظاهرة:

- " غَيْرُ مَعْقُول!" .... " نُعمانُ الَّذي كانَ يَتُوقُ أَنْ يُصبِحَ مُهندسًا... ثم يتنازل ليَتَحَوَّلُ هكَذا عن أَحْلَامِهِ؟! لَا، لَا أُصَدِّق!".

ابتسمَ نُعمانُ بِخَفَرٍ، كأنَّ الذِّكرى ما زالت تَحرِقُ أطرافَ القلب، ثمّ قال:

- " الحَقِيقَةُ يا صَاحِبِي، أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمْتُ لِكُلِّيَّةِ الفُنُونِ الجَمِيلَةِ، زَارَنِي أَحَدُ أَسَاتِذَتِي القُدَامَى فِي البَيْتِ لِيُبَارِكَ لِي نَجَاحِي فِي الثَّانَوِيَّةِ العَامَّةِ... سَأَلَنِي وَقَدْ تَوَقَّفَ عِنْدَ بَابِ الغُرْفَةِ: (بِمَ تُفَكِّرُ بَعْدَهَا؟)".

قاطَعَهُ صديقُهُ بِلهفةٍ:

- " وماذا أجبتَه؟"

تابع نعمان:

- " أَخْبَرْتُهُ... وَفِي يَدِي رَسْمَةٌ كُنْتُ أُعِدُّهَا بِالرَّصَاصِ لِآخُذَهَا مَعِي بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ إِلَى المُقَابَلَةِ الَّتِي كُنْتُ قَدْ حَصَلْتُ عَلَى موعِدِهَا قَبلَ شَهْرٍ، وَانْتَظَرْتُهَا بِشَوْقٍ كَادَ يَخْتَنِقُ فِي صَدْرِي.".

قالَ الصديقُ وهو يَميلُ نحوه متحفِّزًا:

- " أَسْرِعْ! أَكْمِلْ سَرِيعًا!" .. "لِمَ تُعْطِينِي الكَلِمَاتِ عَلَى قَطَرَاتٍ؟".

ضحكَ نُعمانُ بِمَسْحَةِ أَسًى وقال:

- " نَعَمْ، سَأُتَابِعُ مَعَكَ... لَكِنْ كَانَ لا بُدَّ مِنْ تَمْهِيدٍ، لِكَيْ تَفْهَمَ مَا قَالَهُ لِي هَذَا الأُسْتَاذُ الفَاضِل."

" فَهِمْتُ، فَهِمْتُ..."

قالها الصديقُ وهو يُلوِّحُ بيده:

- "تَابِع!" .

وتابع نعمان:

- " عِنْدَمَا شَاهَدَ الرَّسْمَةَ، وَعَلِمَ أَنَّنِي سَأَدْخُلُ هَذَا المَجَالَ، انْتَفَضَ غَاضِبًا، ثُمَّ أَخَذَنِي مَعَهُ إِلَى أَحَدِ أَصْدِقَائِهِ مِنَ الفُقَهَاءِ المَشَايِخِ... وَهُنَاكَ، بَعْدَ أَنْ رَوَى الأستاذ لَهُ عَنِ الكُلِّيَّةِ وَمَا فِيهَا، اسْتَشَاطَ ذَلِكَ الشَّيْخُ غَضَبًا."

سأل الصديق وقد عَقَدَ حاجِبَيه:

- " ماذا قال؟!"

أجابه نعمان :

- " تَسَارَعَتِ الكَلِمَاتُ عَلَى لِسَانِهِ... حَدَّثَنِي عَنِ الرُّسُومِ، وَالعُرْيِ، وَمَا يُنْحَتُ وَيُعْرَضُ فِي الكُلِّيَّةِ، ثُمَّ خَتَمَ كَلامَهُ بِجُمْلَةٍ سَقَطَتْ عَلَيَّ كَالصَّخْرَةِ: (أَتُرِيدُ أَنْ تَسْتَبْدِلَ دُنْيَاكَ بِآخِرَتِكَ؟ إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ، فَأَنْتَ أَدْرَى بِمَصِيرِكَ، وَإِلَّا فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْدِلَ فَوْرًا عَنْ هَذَا القَرَارِ)." .

سأله صديقه بصدمةٍ حادّةٍ:

- " أَوَ لِهَذَا السَّبَبِ تَخَلَّيْتَ عَنْ أَحْلَامِكَ؟!".

فَأَجَابَ نُعمانُ بِثِقَلٍ:

- " لَا أَبَدًا! لَمْ أَتَخَلَّ عَنْهَا... بَلْ ذَهَبْتُ إِلَى الكُلِّيَّةِ، وَكَانَتْ مُنَى بِصُحْبَتِي فِي ذَلِكَ اليَوْمِ.".

سأله صديقه :

- "حَسَنًا... وَمَا الَّذِي جَرَى؟".

هُنا، أَطْبَقَ الصَّمْتُ قَلِيلًا، كَأَنَّ نُعمانَ يُفَتِّشُ عَنِ الكَلِمَاتِ فِي رُكْنٍ قَدِيمٍ مِنْ ذَاكِرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ:

- " آهٍ... مِمَّا جَرَى... هَا قَد عَادَتْ لِي الذِّكْرَى مِن جَدِيدٍ... قَاعَةُ الرَّسْمِ الأُولَى... كَانَتْ رَائِحَةُ الأَلْوَانِ تُسْكِرُنِي، كَأَنَّهَا نَشْوَةٌ فِي مَسَامِي. وَلَكِنْ... خَذَلَنِي جَسَدِي عِنْدَمَا طُلِبَ مِنِّي أَنْ أَشْرَحَ فِكْرَتِي عَنِ الضَّوْءِ وَالظِّلِّ. تَلَعْثَمْتُ أَمَامَ لَجْنَةِ القُبُولِ، رَغْمَ أَنَّهُمْ أَحَبُّوا لَوْحَتِي، وَقَدْ رَسَمْتُهَا بِالرَّصَاصِ... وَلَكِنْ... طُلِبَ مِنِّي أَنْ أُمَثِّلَ المَشْهَدَ الَّذِي رَسَمْتُهُ، بِالمُشَارَكَةِ مَعَ طَالِبَةٍ مَاهِرَةٍ اقْتَرَحَتْهَا عَلَيَّ اللَّجْنَةُ... وَمَا إِنْ بَدَأَتْ الزَّمِيلَةُ تُهَيِّئُ نَفْسَهَا لِتَأْدِيَةِ الدَّوْرِ، وَتُزِيلُ بَعْضَ مَلَابِسِهَا عَلَى المِنَصَّةِ... حَتَّى تَجَمَّدْتُ فِي مَكَانِي. شَعَرْتُ بِالْعَرَقِ يَتَفَصَّدُ مِنْ جَبِينِي، وَبِخَجَلٍ لَا يُحْتَمَل... تَحَجَّجْتُ بِأَلَمٍ مُفَاجِئٍ فِي مَعِدَتِي، وَغَادَرْتُ القَاعَةَ مُعْتَذِرًا... قَدْ يَكُونُ مَا فَعَلْتُهُ لَيْسَ هُرُوبًا مِنَ الحُلْمِ... بَلْ مِنَ الحَرَجِ. مِنْ عَجْزٍ خِفْتُ أَنْ يُفَسَّرَ فَشَلًا."

صَمَتَ نُعمانُ لحظةً، كأنّه يستجمعُ بقايا مشهدٍ قديمٍ تكسّر في داخله، ثمّ تنهّدَ وقال:

- " خَرَجْتُ مِنَ القَاعَةِ وَأَنَا أُخَفِّفُ خُطَايَ، كَمَنْ يُخْفِي جُرْحًا لا يُرِيدُ أَنْ يُرَاهُ أَحَدٌ. وَكَانَتْ *هِيَ* هُنَاكَ...".

سأله الصديقُ وهو يُحدِّقُ فيه بعينين اتّسعتا قلقًا:

- " مَن؟ منى؟"

أجاب نعمان صديقه:

- " نعم، منى..."

وتحدث بأشبه إلى الصمت:

- " وَجَدَتْنِي جَالِسًا عَلَى دَرَجِ الرِّوَاقِ، أَطْوِي وَجْهِي بَيْنَ يَدَيَّ كَمَنْ يُخْفِي خَيْبَتَهُ... لَمْ تَقُلْ شَيْئًا فِي البِدَايَةِ، جَلَسَتْ بِهُدُوءٍ قُرْبِي، كَأَنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ الصَّمْتَ أَحْيَانًا أَحَنُّ مِنْ كُلِّ الكَلِمَاتِ. ثُمَّ سَأَلَتْنِي وَبِصَوْتٍ خَفِيفٍ كَهَمْسِ شُجَيْرَةٍ تَهْتَزُّ فِي الرِّيحِ: (نُعمان... ماذا حدث؟)" . لَمْ أُجِبْهَا مُبَاشَرَةً ، سَكَتَت لحظةً، ثم تابعت بنبرةٍ خافتةٍ ، فأَخْبَرْتُهَا فَقَطْ أَنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُكْمِلَ... فَنَظَرَتْ إِلَيَّ نَظْرَةً... أَحْسَسْتُ كَأَنَّهَا تَقُولُ: " لَا بَأْسَ، أَحْتَفِظْ بِحُلْمِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَعِيدَهُ." ثُمَّ قَالَتْ، وَكُنتُ أَسْمَعُ فِي كَلِمَاتِهَا ذَاتَ الحَنَانِ الَّذِي كَانَتْ أُمِّي تُخَاطِبُنِي بِهِ فِي صِغَرِي: (نُعمان... لَسْتَ مُضْطَرًّا لِتُثْبِتَ شَيْئًا لِأَحَد... لَا لِهُمْ، وَلَا لِنَفْسِكَ... إِنْ كُنْتَ تُحِبُّ مَا تَفْعَلُ، فَسَتَجِدُ طَرِيقًا يَلِيقُ بِكَ وَبِقَلْبِكَ). وَقَفَتْ، ثُمَّ مَدَّتْ لِي يَدَهَا... وَقَالَتْ: (تَعَالَ، نَشْرَبْ شَايًا عَلَى سُورِ الحَلَمِ)."

ضحكَ الصديقُ بخفّةٍ، ثم قال:

- " شَايٌ عَلَى سُورِ الحُلْمِ؟! هَذِهِ مِنَى حَقًّا... كَلِمَاتُهَا دَفْءٌ فِي وَقْتِ الْبَرْدِ."

ابتسمَ نُعمانُ وهو يومئ برأسه، ثمّ قال:

- " نَعَم... وَمُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ، لَمْ يَتَبَخَّرِ الحُلْمُ، بَلْ تَحَوَّلَ... وَقَدْ تَجِدُهُ الْآنَ مُخْتَبِئًا بَيْنَ سُطُورِ قَصِيدَةٍ، أَوْ فِي تَفْصِيلَةِ عِبَارَةٍ... فِي جُمَلٍ أَصِيغُهَا بِعِنَايَةٍ، كَأَنَّهَا لَوْحَةٌ لَا تُرَى، بَلْ تُشْعَر."

قال الصديقُ وهو يُرَبِّتُ على كَتِفِهِ بحنوٍّ لَمْ يَخْفَ على أحدٍ:

- " إِذًا... لَمْ تَخُنِ الحُلْمَ، بَلْ صَغْتَهُ من جديدٍ، عَلَى مِقْيَاسِ قَلْبِكَ... لكن قُلْ لي، ماذا كان رَأْيُها في النِّهايةِ؟".

ابتسمَ نُعمانُ كأنّ الذِّكرى وَقَفَتْ على عَتَبةِ قلبِهِ تُطِلُّ، ثمّ قال:

- " تابَعْنا السَّيْرَ مَعًا، خُطانا تَكادُ تُساوِي نَبْضَنا، حتّى وَصَلْنا إلى زاويةٍ خفيّةٍ مِن مَقْهى «الرَّوضَةِ» العَتيق... جَلَسْنا هناك، حَيْثُ الكَراسِيُّ الخَشَبيَّةُ المُتآكِلَةُ تُحيطُ بِطاوِلاتٍ لَمَّاعَةٍ كأنّها تُصقَلُ بذكرياتِ العابرين. كانَ مَساءً صَيفيًّا دِمَشْقِيًّا يَحْفَظُ نَفَسَ العائدين... وكأنّ المدينةَ ذاتَها قد دَبَّرَتْ لَنا ذلك اللِّقاءَ فِي لحظةِ صَفاءٍ نادِرَة.".

ثمّ سَكَتَ لحظةً، وكأنّه يُنْصِتُ لِوَقْعِ تِلكَ الخُطى القديمة". تابع بعدها:

- "الصَّمْتُ حَضَرَ بيننا أَوَّلَ الأمر، لا لأنّنا كنا نبدو كغريبين، بل لأنّ الحنينَ حينَ يَفيضُ... يُسْكِتُ اللِّسان. على الطاولةِ بينَنا فنجانانِ من القهوةِ المُرَّة، وقطعةُ حَلْوى نَسِيناها، أو تناسَيْنَاهَا."

ثم استأنف حديثه، ونبرة صوته تُكملُ ما لم تقله الكلمات:

- "قالتْ «مُنَى» وهي تُمسِكُ فنجانَها بكلتا يديها كأنّها تُدَفِّئُ روحَها: ـ «تَتَذَكَّر؟... كان صباحًا نديًّا، والسماءُ تُطِلُّ علينا من شُرْفَتِها الرماديَّة... كنتَ تَرْتَجِفُ، دون أن تَقُولَ شيئًا.» نظرتُ إليها طويلًا، ثمّ قُلتُ بصَوْتٍ خافت: ـ «لم أكنْ أعلمُ يومها، إنْ كُنتُ أرتجفُ من البردِ... أم من نَفْسِي.» ابتسمَت ابتسامةً خافتةً، كان فيها من الحزنِ ما يُشبهُ ضوءً يَنبُتُ في زاويةِ ذاكرة: ـ «وأنا... لم أُرِدْ أن أُسْرِفَ في السُّؤال. خِفْتُ أن تبتعدَ أكثر. كانتْ عيناكَ... تَتَحدَّثانِ وحدَهُما.» ، أطرَقْتُ برأسي لحظةً، ثمّ قلتُ كمن يَبوحُ بما كتمَ طويلًا: ـ «كنتُ خائفًا... خائفًا أن يُظَنَّ أنّني فاشل، خائفًا من نَظَرَاتِ اللجنة، من زَميلتي، من جَسدي، من اللحظةِ ذاتها... لكنَّ أكثرَ ما أخافني... أن أَنْظُرَ في عَيْنَيْكِ ولا أَجِدَ فيهما احْتِرامَكِ لي.» فأنزلَتْ نَظرَها إلى قاعِ الفِنجانِ كأنّها تُفَتِّشُ عن جملةٍ نسيتْ قولَها، ثمّ همست: ـ «احْتِرامي؟ لم يُغادِرْكَ يومًا. كانَ يَكْبُرُ، كلّما رأيتُكَ تَسيرُ فِي طريقٍ تختارُه، حتى لو ظَنَّهُ الآخرونَ هُروبًا.»

قاطعَ الصَّديقُ الحديثَ بلهفةٍ لا تخفى:

- " وبعد ذلك؟ ماذا حدث؟ أرجوك أسرِع!"

هَزَّ نُعمانُ رَأسَهُ بخفةٍ، وقال:

- " قالت منى، وهي تُحَدِّقُ في عَيْنَيَّ، بصوتٍ فيه من الثِّقَةِ ما يَسْبِقُ أيَّ تردُّد: ـ «دعنا نَتَكَلَّمْ بوُضوحٍ، وبجُرْأَةٍ، وبِصراحَةٍ لا تَخْشَى أن تَنكشَ الجُرح.» أشرتُ لها برأسي أنْ تابعي، وأنا أرتشفُ ما تبقّى من قهوتي، فقالت باندفاعٍ كأنّها كانت تنتظر هذه اللحظة: ـ «أنتَ لم تَهربْ مِن لجنةِ القُبول، نُعمان... أنتَ هربتَ من نفسِك.» أطرقتُ لحظةً... ثم رفعتُ عيني إليها كمن يُسَلِّمُ سِلاحَه ويعترف: ـ «أعلم.»

شرد نُعمان، وهو يمرّر أنامله على حافة الفنجان كمن يفتّش في داخله عن معنى، ثم تابع :

- " فقلت لها : لأنّي لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهَا تَمَامًا... كُنتُ أَظُنُّ أَنّنِي فَشِلْتُ، فَقَطْ... فَشِلْتُ." هزّت منى رأسها ببطءٍ، وفي عينيها تَفَهُّمٌ يشبه المواساة، ثمّ همست: ـ "الْفَشَلُ أَنْ لا تَجْرُؤَ حَتّى عَلَى الاعْتِرَافِ بِأَنَّكَ ارْتَبَكْتَ... ذَلِكَ طَبِيعِيٌّ، مَعَ حِوَارِ الْجَسَدِ، وَحُضُورِهِ... إِنَّهُ مُرْبِكٌ دَائِمًا لِمَنْ لَمْ يُعَلَّمْ كَيْفَ يَرَاهُ بِبَرَاءَةٍ." ثمّ التمعت عيناها بنبرةٍ جريئة، وأردفت: ـ "أو كَيْفَ يَتَعَامَلُ مَعَهُ خَارِجَ نِدَاءِ الْغَرِيزَةِ." صمتت لحظةً، كأنّها تراقب رجع المعنى وهو يتردّد في أرجاء الذاكرة. ثم قالت بصوتٍ خافتٍ: ـ "كُنْتُ هُنَاكَ... أَتَذَكَّرُ وَجْهَكَ حِينَ خَرَجْتَ مِنْ قَاعَةِ الْقُبُولِ. كَأَنَّكَ عُدْتَ مِنْ مَعْرَكَةٍ، خَاسِرًا كُلَّ شَيْءٍ." .هزَزتَ رأسي بأسى، وقلت: ـ "بَلْ كُنْتُ سَأُصْبِحُ خَاسِرًا، مُنَى. كُنْتُ سَأَخْسَرُ نَفْسِي... وَمَا كُنْتُ لِأَعُودَ وَأَثِقَ بِهَا مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ." ، أشاحت وجهها نحو الحديقة، حيث أوراق اللَّيْلَكِ

تتمايلُ بهدوءٍ، وسألت: ـ "وَهَلْ... الآن، بَعْدَ كُلِّ هَذَا، تَثِقُ بِهَا؟" ، تنهّدت ببطءٍ، وأنا أختار كلماتي من قاع الوجدان: ـ "أَتَعْلَمِينَ مَتَى بَدَأْتُ أَثِقُ بِهَا؟ حِينَ سَأَكْتُبُ عَنْ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ، دُونَ أَنْ أُخْفِيهِ، وَدُونَ أَنْ أُدِينَ نَفْسِي فِيهِ." ، رَفعَت حَاجِبَهَا قليلاً، وسَأَلَت بِاهتِمَامٍ صَادِقٍ: ـ "وَهَلْ سَتَكتبُ عَنِ الْفَتَاةِ؟" ، قلت، وأنا أبتسم ابتسامةً خفيفةً فيها عتاب لنفسٍ سابقة: ـ "لاَ... عَنْهَا لاَ. بَلْ عَنِّي، وَأَنَا أَرَاهَا... عَنِ الصَّدْمَةِ، وَعَنْ عَيْنَيَّ، لَا جَسَدِهَا." ، أومأت منى كأنّها تفهم تمامًا، ثم قالت: ـ "إِذَنْ... بَدَأْتَ تَرْسُمُ بِالْكَلِمَاتِ أَخِيرًا." ، ابتسمت وقلت: ـ "نَعم... وَاكْتَشَفْتُ أَنَّنِي كُنْتُ أَحْتَاجُ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى، لِأَفْهَمَ هَذَا الْعَالَمَ. رُبَّمَا كُنْتُ فَنَّانًا، مِنْ نَوْعٍ آخَر." مدّت يدها نحوي ببطءٍ، وكأنّها تختبر خَفقَانًا قديمًا، ثمّ وَضَعَتْها برفقٍ فوق يدي، وقالت: ـ "لَا تَهْرُبْ مُجَدَّدًا، يَا نُعْمَان... الْفَنُّ لَا يُخْتَزَلُ بِيَدٍ تَرْسُمُ، بَلْ بِعَيْنٍ لَا تَخَافُ أَنْ تَرَى." ، سكتت... وسَكَتَت هي أيضًا. غيرَ أنّ شيئًا في داخلنا كان قد بدأ يهدأ، كأنّ ذلك الحرج القديم، الذي ظلّ مُختبئًا في زاويةٍ مُظلمةٍ من الذّاكرة، قد خرج أخيرًا، وجلس بيننا على الطاولة، يحتسي قهوته، ويبتسم.

في هذه اللحظة، التفت إليه الصديق فجأةً، وقال بنبرةٍ فيها شيءٌ من العجلة:

ـ " وَبَعْدَ ذَلِكَ؟ مَاذَا حَدَثَ؟ أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ!"

ضحك نُعمان، وأجاب:

ـ " بَعْدَ ذَلِكَ... كُنَّا ليلةَ أمسِ فِي غُرْفَةٍ فِي بَيْتِ «مُنَى»، فِي الطَّابِقِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبِنَاءِ الَّذِي اشْتَرَاهُ وَالِدُهَا وَجُهِّزَ حَدِيثًا... غُرْفَةٌ أَضَافَتْ عَلَيْهَا «مُنَى» مَا كَانَتْ تَحْلُمُ بِهِ. الْجُدْرَانُ مُغَطَّاةٌ بِكُتُبٍ، وَبِلَوْحَاتٍ صَغِيرَةٍ رَسَمَتْهَا فِي سَنَوَاتِ دِرَاسَتِهَا، وَالْأَضْوَاءُ خَافِتَةٌ، تَتَوَزَّعُ مِنْ مِصْبَاحٍ جَانِبِيٍّ وَتِلْفَازٍ صَامِتٍ دَائِمًا. أَمْضَيْنَا بَعْضَ الْوَقْتِ نَتَحَادَثُ عَنْ كُتُبٍ وَأَفْلَامٍ وَمَوَاقِفَ، ثُمَّ خَفتَ كُلُّ شَيْءٍ... لَمْ تَبْقَ سِوَى نَظَرَاتٍ مُتَقَاطِعَةٍ، وَسُؤَالٍ ظَلَّ مُعَلَّقًا بَيْنَ السُّطُورِ."، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْفِي نَبْرَةَ التَّرَقُّبِ فِي صَوْتِي، وَأَنَا أُقَلِّبُ بَصَرَهُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، حِينَ سَأَلَنِي بِوُدٍّ لَمْ يَخْلُ مِنْ لَمْحَةِ عَتَبٍ رَصِينَةٍ:

" لَمْ تُخْبِرْنِي مِنْ قَبْلُ، يَا بُنَيَّ، لِمَاذَا لَمْ تُتِمَّ طَرِيقَكَ إِلَى الفُنُونِ الجَمِيلَةِ؟ أَظُنُّهَا كَانَتْ لِتَلِيقَ بِكَ كَثِيرًا... أَكْثَرَ حَتَّى مِنَ الأَدَبِ." ، تَبَادَلْتُ وَمُنَى نَظْرَةً خَاطِفَةً، كَأَنَّهَا نَبْرَةُ إِنْذَارٍ تَسْبِقُ نَقْلَةً فِي مَجْرَى الحَدِيثِ، ثُمَّ قُلْتُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ، لَكِنَّهُ حَازِمٌ وَمُسْتَقِرٌ: ـ "لَسْتُ وَاثِقًا، يَا عَمِّي، إِنْ كُنْتُ قَدْ تَرَكْتُ كُلِّيَّةَ الفُنُون حُبًّا... أَمْ هَرَبًا."، رَفَعَ الْوَالِدُ حَاجِبَيْهِ بِنُوعٍ مِنَ الدَّهْشَةِ، فِي حِينِ وَضَعَتْ مُنَى كَفَّهَا عَلَى خَدِّهَا، ثُمَّ قَالَتْ دُونَ أَنْ تُحَاوِلَ تَلْمِيعَ الحَقِيقَةِ: ـ "بَلْ هُوَ هَرَبٌ، يَا أَبِي."، صَمَتُّ لَحْظَةً. نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِ وَالِدِهَا، ثُمَّ إِلَيْهَا، وَأَطْرَقْتُ كَمَنْ يَغْرِفُ ذِكْرَى قَدِيمَةً مِنْ بِئْرٍ نَسِيَ صَدَاهُ: ـ "نَعم... هَرَبْتُ. هَرَبْتُ مِنْ... مِنْ جَسَدِي... وَمِنْ جَسَدٍ آخَر. مِنَ الخَوْفِ، وَالارْتِبَاكِ. مِنْ مَشْهَدٍ لَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أَعِيشُهُ، وَلا كَيْفَ أَتَجَاوَزُهُ." ، شَدَّ وَالِدُ مُنَى أَطْرَافَ أَكْمَامِهِ الصُّوفِيَّةِ بِهُدُوءٍ، وَقَالَ بِنَبْرَةٍ أَقْرَبَ إِلَى التَّفْسِيرِ مِنَ الْحُكْمِ: ـ "تَقْصِدُ مَا جَرَى فِي امْتِحَانِ القُبُولِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟" ، أَجَبْتُهُ بِهَزَّةِ رَأْسٍ وَكَلِمَاتٍ خَفِيفَةٍ: ـ "نَعَم. المَوْقِفُ حِينَ طُلِبَ مِنِّي أَنْ أُجَسِّدَ فِكْرَةَ اللَّوْحَةِ مَعَ زَمِيلَةٍ لَا أَعْرِفُهَا. نَاقَشْتُ المَوْضُوعَ مَعَ مُنَى سَابِقًا." قَالَتْ مُنَى بِصَوْتٍ دَافِئٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَتَبِ وَشَيْءٌ مِنَ الرِّفْقِ:

، "وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ نُعِيدَ النِّقَاشَ فِيهِ، لِنَرَى مَا يَخْطُرُ لِوَالِدِي." ، تَنَهَّدْتُ قَبْلَ أَنْ أُتَابِعَ: ـ "كُنْتُ قَدْ رَسَمْتُ فَتَاةً جَالِسَةً قُرْبَ النَّافِذَةِ، يَتَسَلَّلُ الضِّيَاءُ نَاعِمًا إِلَى كَتِفِهَا العَارِي، لِيَخُطَّ عَلَى مسامات جِلْدِهَا خُدُودًا مِنْ نُورٍ وَظِلٍّ. لَمْ أَسْعَ إِلَى إِثَارَةِ أَيِّ لُغْزٍ جَسَدِيٍّ، بَلْ كُنْتُ أُحَاوِلُ، بِقَلَقِ الفَنَّانِ، أَنْ أُجَسِّدَ بِالرَّصَاصِ مَا تَفْعَلُهُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ عِنْدَمَا تَمُرُّ بِزُجَاجِ النَّافِذَةِ، وَتَتَقَاطَعُ مَعَ ظِلِّ نَبْتَةٍ، ثُمَّ تَنْكَسِرُ عَلَى انْحِنَاءَةِ العُنُقِ، وَتَلْتَفُّ عَلَى انْسِيَابِ اليَدِ نَحْوَ الضَّوْءِ، فَيَتَشَكَّلُ خَيَالٌ كَأَنَّهُ مِرْآةٌ لِمَا يُمكِنُ لأَيٍّ أن يَصِفَهُ أو لأيٍ آخَرَ بما لا يمكن أن يُقَال.

لَمْ أَكُنْ أَرَاهَا سِوَى لَوْحَةٍ بَسِيطَةٍ، بَرِيئَةِ القَصْدِ وَالنِّيَّةِ، ولكِنَّهَا، عَلَى غَيْرِ تَوَقُّعٍ، أَثَارَتِ الدَّهْشَةَ فِي عُيُونِ أَعْضَاءِ اللَّجْنَةِ. وَبَيْنَ نَظَرَاتِ الإِعْجَابِ وَهَمْهَمَاتِ التَّسَاؤُلِ، طَلَبُوا مِنِّي أَنْ أُقَدِّمَ شَرْحًا تَجْسِيدِيًّا لِمَا قَصَدْتُ، بَعْدَ أَنْ عَجَزْتُ عَنِ الإِفْصَاحِ عَنْ رُؤْيَتِي لِتِلْكَ التَّدَاخُلَاتِ المُعَقَّدَةِ بَيْنَ النُّورِ وَالظِّلِّ.

عِنْدَ ذَلِكَ، تَقَدَّمَ رَئِيسُ اللَّجْنَةِ، رَجُلٌ وَقُورٌ كَثِيرُ الصَّمْتِ والتَّأَمُلِ، وَنَادَى إِحْدَى الدَّارِسَاتِ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ. قَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى اللَّوْحَةِ: "تَمَعَّنِي فِيهَا، ثُمَّ ضَعِي جِسْمَكِ تَحْتَ تَصَرُّفِ الزَّمِيلِ... لِيُعِيدَ تَشْكِيلَكِ حسبَ الرُّؤْيَا التِي يُرِيدُهَا عَلَى المِنَصَّةِ، وَفْقَ الزَّاوِيَةِ وَالإِضَاءَةِ الَّتِي يَخْتَارُهَا".

بُهِتَتِ الفَتَاةُ لِوَهْلَةٍ، ثُمَّ هَزَّتْ رَأْسَهَا بِهُدُوءٍ مُتَرَدِّدٍ، وَتَقَدَّمَتْ إِلَى المِنَصَّةِ. كَانَ صَمْتُ القَاعَةِ آنَذَاكَ يُشْبِهُ صَمْتَ المَرَايَا حِينَ تَنْعَكِسُ فِيهَا صُورَةٌ لَا تُشْبِهُ سِوَى النَّفْسِ.

وَفِيمَا كُنْتُ أَضَعُ خُطُوطَ الإِضَاءَةِ، وَأُشِيرُ إِلَى مَوْقِفِ اليَدِ وَاتِّجَاهِ الرَّأْسِ، كَانَ بَعْضُ الحُضُورِ يَتَنَفَّسُ بِصُعُوبَةٍ، كَأَنَّ مَا يَجْرِي أَمَامَهُمْ لَيسَ سِوَى مَشْهَدٍ سِرِّيٍّ يُكْشَفُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ. حَتَّى أَحَدُ أَعْضَاءِ اللَّجْنَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ طَاعِنٌ فِي العُمْرِ، هَمَسَ لِمَنْ إِلَى جَانِبِهِ: "كَمْ هُوَ صَعْبٌ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْ نُقْطَةِ ضَوْءٍ دُونَ أَنْ تَكْشِفَ عَنْ كَامِلِ الظِّلِّ"!

أَمَّا أَنَا، فَكُنْتُ أُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ فَقَط: كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْفَنِّ أَنْ يُنْقِذَنَا حِينَ تَعْجزُ الكَلِمَاتُ؟

وَاقْتَرَبَتْ هِيَ لِتُؤَدِّيَ الدَّوْرَ معي، قلت لها : (ما أريده منك هنا هو تشكيل لوحة شعرية بامتياز، مشهد بصري حسي تنسجم فيه ظلال الضوء وهمس العتمة، قميص منزلق عن الكتف والطابع الكلاسيكي بالفحم/الرماد فقط (أبيض وأسود) وأريد الاضاءة أن تصلح تمامًا لأن تتحوّل معك إلى عمل فني بالفحم والرصاص يجمع بين النعومة والدراما.

وشرحت المشهد العام للحضور بأن فتاة تجلس في هدوء قرب نافذة كبيرة، عارية الكتف، تستقبل أشعة الشمس التي تنساب برقة من خلال زجاج النافذة .لا تنظر إلى الخارج، بل يتجه نظرها إلى الداخل إلى يدها الممدودة، إلى شيء لا تراه العين.

يجب أن تظهر بالإضاءة على أنها بالفحم والرصاص:

- الضوء يتسلل من النافذة، فيصيب كتفها العاري بخفة، مرسومًا بخطوط ناعمة من الرصاص.
- على الكتف، تظهر الحدود المتداخلة بين النور والظل، كأن الجلد مرسوم ببراعة الضوء نفسه.
- أشعة الشمس لا تنزل مباشرة، بل تمر أولًا من خلال زجاج، وتتقاطع مع ظل نبتة قريبة، فيتكوّن على عنق الفتاة شكل مكسور من الظل والضوء، وكأن الطبيعة ترسم تعقيداتها على الجسد.
- اليد الممدودة نحو الضوء، ترتسم عليها الظلال كأنها مرآة للداخل، تعكس ما لا يُقال.

وفي الخلفية والجو العام:

- النافذة تظهر بجانبها نبتة كبيرة الأوراق، ظلها يسقط بتفاصيل دقيقة على الجدار وعلى جسد الفتاة.
- جو اللوحة سرّي، كأن من ينظر إليها يقتحم لحظة خفية، تُرى للمرة الأولى.
- التباين العالي بين الفحم الثقيل في الظلال، والرصاص الرقيق في الإضاءات، يُجسّد تلك "التداخلات المعقّدة "بين الضوء والظلال.)

شَعَرْتُ للحظة أَنَّنِي... أَعْجَزُ. رُبَّمَا لرؤيتي وَجْهَهَا، أو انْفِعَالَهَا، أو لما لم ير غيري ما رَأَيْتُه أنا فَقَطْ... كَتِفًا يَمتَدُّ عَارِيًا لِيَطُوفَ بِجَسَدِي. فَظَنَنْتُ أَنَّنِي ارْتَكَبْتُ خَطِيئَةً، أو سأرتكبها... فَفَرَرْتُ." ، أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ كَأَنَّنِي أُسَلِّمُ لِلذِّكْرَى، فَسَمِعْتُهَا تَقُولُ بِصَوْتٍ كَانَ يُشْبِهُ هَمْسَ حَقِيقَةٍ: - "كُنْتَ تَقُولُ إِنَّكَ تَعْرِفُ الأَجْسَادَ فِي الكُتُبِ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَتَعَلَّمْ أَنْ تَرَاهَا فِي الحَيَاةِ." ، فَتَحْتُ عَيْنَيَّ. نَظَرْتُ إِلَيْهَا. مَلَامِحُهَا كَانَتْ هَادِئَةً، لَكِنَّ عَيْنَيْهَا تَقُولَانِ أَكْثَرَ مِمَّا يُقَالُ. قُلْتُ بِصِدْقٍ: - "لَمْ أَكُنْ مُعَدًّا لِذَلِكَ، مُنَى. لَمْ أَتَعَلَّمْ أَنْ أَرَى الجَسَدَ كَحُضُورٍ، لَا كَغِوَايَةٍ. كَانَ الأَمْرُ أَكْثَرَ مِنْ رَسْمٍ، كَانَ انْكِشَافًا، وَلَمْ أَكُنْ مُسْتَعِدًّا لَهُ." ، وَضَعَ الأَبُ فِنْجَانَهُ الفَارِغَ عَلَى الطَّاوِلَةِ، ثُمَّ قَالَ بِنَبْرَةٍ تَسْتَخْرِجُ الْخِبْرَةَ مِنْ صَمْتِ السِّنِينَ: - "بَلْ لَمْ تَكُنْ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ تُظْهِرَ نَفْسَكَ عَارِيًا أَمَامَ الوَاقِعِ. الفَنُّ لَا يَكْفِيهِ أَنْ تَرَى، يا نعمان... بَلْ أَنْ تَنْظُرَ بِقَلْبٍ لَا يَخْجَلُ مِنَ الرُّؤْيَا." ، سَادَ صَمْتٌ خَفِيفٌ كَأَنَّهُ يَفْسَحُ مَجَالًا لِتَرَسُّبِ كَلِمَاتِهِ فِي نَفْسِي. ثُمَّ قُلْتُ بِنَبْرَةٍ تَفْهَمُ الْآنَ مَا لَمْ تَفْهَمْهُ قَبْلَ أَيَّامٍ: - "أَظُنُّنِي سَأَتَفَهَّمُ ذَلِكَ... لَكِنْ بَعْدَ أَعْوَامٍ. حِينَ أَكْتُبُ عَنِ المَوْقِفِ، لَنْ أَلُومَهَا، وَلَا اللَّجْنَةَ. بَلْ سَأُعَاتِبُ ذَلِكَ الفَتَى الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ كَيْفَ يَتَنَفَّسُ أَمَامَ امْرَأَةٍ." ، ضَحِكَتْ مُنَى بِخِفَّةٍ، وَقَالَتْ بِعُذُوبَةٍ: - "وَلَا تَزَالُ تَتَعَلَّمُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟" ابْتَسَمْتُ، وَأَجَبْتُهَا: - "بِفَضْلِكِ." ، رَبَّتَ الْوَالِدُ عَلَى كَتِفِي، وَقَالَ وَفِي عَيْنَيْهِ نُورٌ دَافِئٌ: - "نَحْنُ لَا نَخْجَلُ مِنَ البِدَايَاتِ، يَا نُعْمَان... فَقَطْ مِنَ البَقَاءِ فِيهَا."

قالَ الصَّديقُ، وهو يُقَلِّبُ كفَّهُ بتساؤلٍ مُندهِشاً:

"وَبعدَ ذٰلِكَ؟"

ابتسم نعمان ، ثمَّ مالَ نَحوهُ بِشيءٍ من الحنين:

"بَعدَ ذٰلِكَ، يا صاحِبي، اقترحَتْ مُنى أن أَرْسُمَ بالكَلِماتِ عِوَضًا عن الألْوان، فَسَجَّلْتُ مَعَها في كُلِّيَّةِ الآداب." .

قطَّبَ الصديق حاجبَيْه وقالَ بنبرةٍ تُخفي الدَّهشةَ خلفَ طرافةٍ وديعة:

"وَلٰكِن، كَيْفَ قُبِلتَ في قِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة، وأنتَ حامِلٌ شهادةً ثانَوِيَّةً عِلميَّة؟!".

" صَحيحٌ، يا صَديقي..." قالها، ثمَّ تابَع كَمَن يَسْتَعِيدُ فَصْلًا من قِصَّةٍ قَديمةٍ لا تَبْلَى:

" عندما ذهبتُ إلى كُلِّيَّةِ الفُنونِ لأَسْحَبَ أوراقي، كانت مُنى مَعي.".

ضَحِكَ الصَّديقُ، وهزَّ رأسَهُ بخُفَّةٍ وقالَ مازِحًا:

" وَما الفَرْق؟! أَتُرِيدُ أَنْ تَقُولَ إِنَّهُم قَبِلُوكَ لِأَنَّهَا كانتْ مَعَكَ؟!".

هَزَ نعمان رأسه نافِيًا، وابتسامةٌ صغيرةٌ على شَفَتَيْه:

" لا، أَبداً... ليسَ كذٰلك! لكن، في طريقِ عَوْدتِنا، أَخَذَتْ مُنى تُقَلِّبُ في جَدْوَلِ عَلاماتي، ثمَّ فَجأة، تَوَقَّفَتْ وصَمَتَتْ لحظةً، كأنَّها لمَحَتْ شيئًا عَجيبًا.". نَظرتُ إليها مُسْتَفْهِمًا: – "ما بِكِ؟"، رَفَعَتْ ساعِدَها ونَظَرَتْ إلى ساعَةِ يدِها، ثمَّ أَشارَتْ إلى أوَّلِ سيّارةٍ أُجْرَةٍ تَقْتَرِب، وَصَعِدْنا. وما إنْ أَجْلَسَتْ ظِلَّها في المَقْعَدِ حتى قالتْ لِلسائقِ بِحَزم: – "إلى كُلِّيَّةِ الآداب، من فضلك!" ، سَأَلْتُها بِنَبْرَةٍ لا تَخْلو من القَلَق: – "ما الأمْر؟" ، فَالتفتَتْ نَحوي وقالت: – "أَلَمْ تَقُلْ هذا الصَّباح إنَّهُ ينبغي أن تَبحثَ عن مَقْعَدٍ شاغِرٍ لِتُتابِعَ دِراستَكَ؟" ، قُلتُ: "نَعَم." ، فقالت، وعيناها تُومِضانِ بِفِكْرةٍ واثِقَة: – "لَكَ في شَهادَتِكَ العِلميَّة سبعٌ وثلاثونَ دَرجَةً من أصلِ أَربعينَ في مادَّةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة!" ، قُلتُ مُتَحَيِّرًا: – "وَماذا يعني ذلك؟" ، قالت وهي تُدَقِّقُ في وجهي كمن يُهْديني نافذةً: – "يَعني أَنَّهُ يُمكِنُكَ أن تُسَجِّلَ مُباشَرَةً في قِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة دونَ أن تَتَقَدَّمَ إلى المُفاضَلة العامّة. لقد فاتَ وَقْتُها وصَدَرَت نَتائِجُها، وقد قُبِلتُ أَنا بِمُوجَبِها... فما رَأيُكَ يا أُستاذ نُعمان؟!" ، قُلتُ، وأنا أَسْتَدْرِكُ ذُهُولي بالدُّعاءِ: – "عَسى أَنْ يَكُونَ كُلُّ شَيءٍ لِلْخَيْر." ، ومَضَيْنا إلى كُلِّيَّةِ الآداب. كانتِ السّاعةُ تُقارِبُ الثّانيةَ عَشْرَةَ ظُهرًا. أَمْسَكَتْ بِيَدِي، وركضْنا مَعًا، كأنّنا نُلاحِقُ قَدَرًا مُخْتَبِئًا وراءَ النّوافذ. وعندَ نافذةِ شُؤونِ الطُّلاب، قَدَّمْتُ أوراقي، وسَدَّدْتُ الرُّسومَ وثَمَنَ الكُتُب. وفي ذاتِ اليوم، حَضَرْنا مَعًا أُولى مُحاضَراتِ الأدبِ الجاهليّ. تَنَفَّسْتُ عَميقًا، وكأنّني أَسْتَقْبِلُ مَصيري الجديد، ثمَّ هَمَسْتُ لِنَفْسي: (رُبَّما لم أَكنْ يومًا صانِعَ لَوْحاتٍ... لكنَّني، مُنذُ هذا الصَّباح، سأَكْتُبُها بالكَلِمات.) ، ثمَّ نَظَرْتُ إليها، وقلتُ في داخلي، دونَ أَنْ أُحرِّكَ شَفَتَيّ:

(كُنْتِ دومًا... دونَ أن تَدْري... الغَيمةَ التي تَسيرُ فوقَ حُروفي.)

تَنَهَّدَ الصَّديقُ بإعْجابٍ لا يخلو من الدَّهشة، ثمَّ قالَ مُتأمِّلًا:

" صَحيحٌ ... إنّكَ حَظِيتَ بفتاةٍ... لكنّها بِألفِ رَجُل.".

في تلك الليلة، حين عاد نُعمان إلى غرفته، جلسَ على طرف السرير، يفتّش في فوضى أفكاره كما يفتّش المرء عن مفتاح ضائع في جيب معطف قديم.

– " هل كنت صادقًا تمامًا؟

- " هل بحت بما في القلب؟

- " هل غيّر ذلك الحديث شيئًا فيّ؟

بدأ يُراجع المشهدَ كلّه كمن يعيد مشاهدة فيلمٍ يخصّه وحده.

– " "هل قلتُ ما كان ينبغي قوله؟ أم قلتُ ما أراد أن يسمعه؟"

لم تكن كلُّ الكلمات التي خرجت منه خفيفة، لكنّها كانت ضرورية.

– " الهروب؟ هل هو وصمة؟ أم غريزة نجاة؟"

- " هل كان يمكنني أن أتمالك نفسي في قاعة القبول؟ أن أتحرّر من قيد الخجل والخوف والتربية المُغلقة؟"

- " هل منى كانت فقط ملاذًا آمنًا، أم كانت مرآتي حين فقدتُ صورتي في عيني؟"

ثم حدّث نفسه:

- " ربما كنتُ يومًا خائفًا من الجسد، لا لأنه فاحش، بل لأنه هش. كهشّتي أنا."

- " كنت أظنّ أن الفنّ لوحة... فإذا به انكشاف. وكنت أظن أني حرّ... فإذا بي أرتجف."

- " لكن، حين بدأت أكتب، بدأتُ أفهم."

كان يرى الآن أن ما جرى لم يكن فشلًا، بل بداية لوعي أعمق:

- " لم أرتبك من الجسد الأنثوي، بل من جهلي بحدوده، وبحدودي. من ذلك الطفل في داخلي الذي لم يتعلّم أن يرى المرأة ككائن، لا كمصدر ارتباك."

- " كان امتحان القبول مجازًا عن قبولي لذاتي... وكنتُ، في حينه، غير جاهز."

ثم تنهّد وقال بصوتٍ خافتٍ، يكاد لا يسمعه سوى جدران الغرفة:

- " أنا لا أندم. أنا أفهم. وهذا يكفيني الآن."

- " في ذلك اليوم، حين ارتبكتُ أمام زميلتي، لم يكن جسدُها وحده من أربكني... بل كلّ الأصوات القديمة التي سكنتْ داخلي.

صوت الأستاذ أحمد، الذي نظر إليّه ذات مرّة بعينين لامعتين وقال:
ـ "الفنُّ مسؤولية، لا انحراف... وأنت ابن بيئة لا ترضى إلّا بالظاهر".

وصوت الشيخ، وهو يطرق الطاولة بقوة:
ـ "أترغب أن تُبدِّل دنياك بآخرتك؟ أتترك الحياء وتدخل درب المجون؟"!

كأنّ كلّ ما قيل له من قبلُ قد نهض من رماده تلك اللحظة... أمام الضوء المنسكب على كتف زميلته، أمام طلب اللجنة بأن يشرح لوحته جسديًا... لم يكن هو، بل كان حفنةً من التحذيرات والوصايا والخوف.

لكن...
هل كان خوفه من "الخطيئة"؟ أم من أن يكون "ضعيفًا"؟

هل كان يهرب من فتنة الجسد؟
أم من الحقيقة: إنه مازال لا يعرف كيف يرى الجسد... دون أن يربطه بالخطيئة؟

- " أنا لم أخترع هذا الرعب. تربيتُ عليه. تشكّل في داخلي كالجُرح الذي يلتئم على عوجٍ. كنتُ أؤمن أن الطهر في الهرب، لا في الفهم. أن الحياء في التغاضي، لا في النظر النقي".

لكن منى قالت شيئًا... شيءٌ لم يفارقه:

ـ "من لم يُعلَّم كيف يرى الجسد ببراءة، سيراه دومًا كتهديد".

ربما آن له أن يعيد ترتيب مفاهيمه... لا ليهدم إيمانه، بل ليطهّره من رهابٍ لا يشبه الله، من تديّنٍ ورثته دون تمحيص.

ـ " الشيخ لم يكن يكرهني. والأستاذ لم يكن يضلّلني.
لكن كليهما كانا ابنَي بيئةٍ لا تعرف كيف تنظر إلى الجمال... دون أن تضع بينه وبين العين ستار الخوف، والآن... أنا لا أريد أن أعيش مكمومَ الرؤية، أريد أن أنظر... أن أفهم... أن أحبَّ الجمالَ كما خُلق، لا كما خِفتُه".

عاد والدُ نُعمانَ مساءً، تناول عشاءه بصمت، ثم جلس قرب المدفأة، يُحدّق في الجمر كأنّ وهجه يحمل سؤالًا قديمًا ظلّ بلا جواب.

دخل نُعمان الغرفة حاملًا فنجانين من القهوة، ووضع أحدهما أمام والده.
قال الأب، دون أن يرفع عينيه عن الجمر:

ـ " كنتُ أراكَ تحسبُ الزوايا بدقّة، وتبني البيوت من ورق وكأنها ستصمد في الزلزال... ظننتُك ستصبح مهندسًا يُشيِّد الأحلام".

جلس نُعمان بجواره، وصوته يجيء وفيه ظلُّ اعتذار:

ـ " كان ذلك حلمي، نعم... لكن الطريق إليه ضاق، ولم يتّسع لي. جربتُ هندسة الديكور بعدها، حاولتُ أن أُقنع نفسي أنني لا أزال أُعمّر شيئًا... لكنّ القلب لم يطمئن، يا أبي".

رفع الأب عينيه هذه المرة، وفي نظراته شيء بين الحزن والعَتب:

ـ " وهل رضيتَ أن تبتعد؟ أم أنك قلتَ لنفسك: ما لم أبلغه، لم يكن لي؟"

تنفّس نُعمان بعمق، ثم قال بهدوء:

ـ " لم أعد أُطارد ما لا يشبهني. اخترتُ أن أبدأ منّي، لا من حلم تكسّر. دخلتُ قسم اللغة العربية، ووجدتني هناك. رأيتُ كيف يمكن للكلمة أن تبني بيتًا لا يسقط، أن تفتح نافذة في جدارٍ لا نافذة فيه. منى قالت لي ذات مساء: «اللغة لا تقلّ عن العمارة، فقط أدواتها أعمق». وأنا... صدّقتها".

ظلّ الأب صامتًا لحظة، ثم قال بصوتٍ خفيض:

ـ " كنتُ غاضبًا، نعم... لا لأنك لم تدخل الهندسة، بل لأنني شعرتُ أنّك تراجعتَ قبل أن تُجرِّب. خفتُ أن تكون كسرتَ جناحك بيدك".

قال نُعمان، وعيناه تشعّان بمزيج من الحنين والصدق:

ـ " لم أكسره... بل شكّلتُه من جديد. ذاك الجناح صار قلمًا، لا مسطرة. لم أعد أبني جدرانًا من إسمنت، بل من المعنى. أكتب لأصلح ما لم أستطع أن أبنيه في الواقع".

ابتسم الأب بخفة، حرّك فنجانه قليلًا، ثم قال:

ـ " وهل تصالحتَ مع ذاك الفتى الذي كان يرفع عينيه إلى كليّة الهندسة كمن يحدّق في جبل؟"

أجاب نُعمان، وهو يُلقي نظرةً عبر النافذة حيث المطر يهمس على الزجاج:

ـ " ليس تمامًا... لكنني أكتب له. وأقرأ له كل مساء، كأنني أقول له: لم تذهب سُدًى".

همس الأب، وكأنّه يعترف بأمرٍ أخفاه طويلًا:

ـ " ربّما لم أفهمك آنذاك... لكنني اليومَ فخورٌ بك. لأنك لم تَبنِ جسرًا على الورق فقط، بل عبرت به نحو نفسك".

في تلك اللحظة، أحسَّ نُعمان أنّه لم يعُد يكتبُ ليُرضي حلمًا قديمًا، ولا ليُداوي خيبة، بل ليُرى كما هو: إنسانٌ أعاد ترسيم حدود ذاته بعدما ضاعت عليه خرائط الطريق.

وفيما كان صوت المطر يُوشوش للنافذة، دلفت الأم إلى الغرفة، تمسح يديها بمنديلٍ قماشيّ، وعيناها تترصّدان وجهي الرجلَين.

قالت بنبرةٍ لا تخلو من الجديّة:
ـ " سمعتكما تتحدثان... إذًا، حسمتَ أمرك يا نُعمان؟"

أجابها، وقد اعتدل في جلسته:
ـ " نعم، يا أمّي. سجّلتُ في قسم اللغة العربية".

تقدّمت خطوة، وجلست على الطرف المقابل، وحدّقت فيه بنظرةٍ ثابتة، ثم قالت:
ـ "هل تراكَ تهرب من الحلم كلّما ضاقت بك الطريق؟ أو تُراكَ تتخفّى خلف الكلمة لتُبرّر التراجع؟"

تدخّل الأب، وقد رقّ صوته:
ـ " دعيه يُكمل. قد يكون ما حسبناه تراجعًا هو بحثٌ عن الطريق الأصوب".

ردّت بسرعةٍ فيها شيءٌ من القلق المكبوت:
ـ "أنا لا أُعارضه لأنّه اختار الأدب... بل لأني أخاف عليه من الضياع. الحياةُ ليست نصًّا جميلاً، يا نُعمان، تُحرّره متى شئت. هي واقعٌ، يتطلّب حرفةً، ومهنة، وسندًا".

نظر إليها نُعمانُ بهدوء، وقال:
ـ "وأنا لا أهرب، يا أمّي. لكنني تعلّمتُ أنّ الحلم الذي لا يتّسع لقامتي، قد لا يكون لي. كنتُ أظنّ أنّني إن لم أكن مهندسًا، فلن أكون شيئًا. ثمّ أدركتُ أنّ الهويّة لا تُختزل في مهنة، بل في أثر".

صمتت لحظة، كأنّها تزنُ كلماته. ثم قالت:
ـ "لكنّك غيّرت الطريق مرارًا. من الهندسة إلى التصميم، ثم إلى الأدب... والقلق في قلبي لا يتبدّد بسهولة. أخشى أن تُضيّع عُمرك وأنت تُبدّل الواجهات، دون أن تبني بيتًا واحدًا تسكنه".

هنا ابتسم الأب، ووضع يده على يدها بلطف:
ـ "لكنه بنى شيئًا... بنى نفسَه. وأنا أراه اليوم أكثر نُضجًا، لا أقلّ تصميمًا. ليس المهم أن يبني الجسور بين الضفاف، بل أن يُقيم جسرًا بينه وبين روحه".

خفضت الأمُّ عينيها للحظة، ثم رفعت بصرها إلى نُعمان، وقالت بصوتٍ أهدأ، وإن بقيت فيه نبرة الحذر:

ـ " إن كنتَ وجدتَ نفسك هناك... فثبّت قدمك. لا تترك هذا الطريق كما تركت سواه. ولتعلمْ أن الكلمة مسؤولية، كالمباني تمامًا، تسقطُ إن لم تُؤسَّس على الصدق".

أومأ نُعمان برأسه، وفي عينيه بريقٌ امتنانٍ عميق، وقال:

ـ " أعدكما... هذه المرة لن أرجع. لن أبدّل الحلم، بل سأُعمّقه".

في اليومِ التّالي، أكمَلَا واجباتِهما الدِّراسيَّةَ في صمتٍ مُطمئن، كأنّ بينَهما اتفاقًا غير منطوقٍ على أن تكونَ المعرفةُ هي السِّياجَ الحامي لكلّ ما ينمو بينهما.
وبَعدَ العَشاء، جلَسَا على شُرفةِ البيتِ يحتسيانِ الشّايَ بصُحبةِ المساءِ، وكانَ الخريفُ قد أسدلَ على دمشقَ وشاحًا من سُكونٍ ذهبيّ، لا يُسمَعُ فيه إلّا همسُ الأوراقِ الذّابلةِ وهي تَلامِسُ الإسفلتَ كاعتذارٍ ناعمٍ تأخَّرَ عن موعدِه.

قرَّبَت مُنى فِنجانَ الشّايِ من شَفَتَيها، ونظرت إليه بعينٍ ناعسةٍ لم تُطفئها الأسئلةُ، وقالت بصوتٍ يكادُ يهمس:

ـ "أفكَّرتَ كثيرًا بما دارَ بينكَ وبينَ أهلكَ... وصديقِكَ ذاكَ اليوم؟"

أومأَ نُعمانُ برأسِه، ثم قال، وصوتُه يُلامِسُ صدى كانَ لا يزالُ يتردَّدُ في داخله:

ـ "كثيرًا... أكثرَ ممَّا ينبغي. كأنَّ الحديثَ لم ينتهِ هناك، بل بدأَ بداخلي بعدَه".

لم تُجِب مُنى، بل نظرت إليه طويلًا، وكأنّها تُصغي لِما سيقولُه قبلَ أن ينطقَه.

تابعَ نُعمان، وكأنّه يَستدرجُ ما ظلَّ حبيسًا فيه لسنوات:

ـ "كنتُ أظنُّ أنَّني تجاوزتُ تلكَ اللحظة... لحظةَ الارتباكِ في قاعةِ الفنون. لكن بعدَ حديثي معكِ ومع والدِك، أدركتُ أني لم أكن صادقًا تمامًا مع نفسي".

أمالتْ رأسَها قليلاً، ثم سألَت بلُطفٍ يشبه لَمسَةَ يدٍ على جرحٍ قديم:

ـ "بِمَ تحديدًا؟"

أجاب، وصوتُهُ يحملُ صِدقًا نَضجَ تحتَ وطأةِ الأسئلة:

**ـ "كنتُ أقولُ دائمًا إنني انسحبتُ لأنني لم أكن مستعدًّا. لكنّ الحقيقةَ الأعمق... أنني لم أكن مُتصالحًا مع ذاتي. لم أكن أعلمُ كيف أكونُ حرًّا دونَ أن أشعرَ بالذنب، ولا كيف أُعبّرُ عن موهبتي دونَ أن أرتبكَ أمامَ جسدٍ... أو نظرةٍ... أو فكرة.
لم أكن أعرفُ كيف أكونُ رجلًا يرى المرأةَ لا كخطرٍ... بل كرفيقةِ حضور".**

أطرَقَتْ مُنى رأسَها لحظةً، ثم قالت، كأنّها تُخاطِبُ الصّوتَ الّذي قال أكثر ممّا يُقال:

ـ "وهل تغيّر شيءٌ الآن؟"

نظرَ إليها نُعمانُ طويلًا، بعينَيْنِ لا تزالُ فيهما آثارُ شتاءٍ مضى، ثم قال بهدوءٍ خالطه ضوءُ اعترافٍ:

ـ "نعم... تغيّر. لأنني كتبتُ. لأنني رويتُ.
لا لأنني تجاوزتُ الحرجَ، بل لأنني منحتهُ اسمًا، وقلتُ له: اجلس. أنا أراك".

سادَ صمتٌ قصيرٌ، لم يَكسره إلّا همسُ شجرةِ النّارنجِ القريبةِ، تُحرِّكُ أوراقَها كما لو كانت تُؤيِّدُ ما قيل.

قالتْ مُنى بعدها، بنبرةٍ دافئةٍ تَشُوبُها لمعةُ اختبارٍ صغير:

ـ "وكيفَ ترى الآن... مُنى؟
الفتاة؟ أم الغُموض؟"

ابتسمَ نُعمان، ثم مدَّ يدَهُ إلى دفترِها برِقّةٍ تُشبه أوّلَ سطرٍ يُكتَبُ دونَ خوف، وقال:

ـ "أراكِ... كما أنتِ. ولا أريدُ أن أهربَ هذه المرّة".

فقالت، وهي تضغطُ على كفّها بلُطفٍ يشبه الحنان حين يُفاجئ الحُبَّ:

ـ "ولا حاجةَ لأن تهرُب...
نحنُ نَكتُبُ معًا هذه المرّة... لا نُمتحَن".

رفعت مُنى عينيها ببطءٍ، باسمةً بخجلٍ لا يخلو من عَتبٍ دافئ:

ـ "وأنا؟
كنتُ أُراقِب... فقط، وأتعلّمُ منكَ كيف يُمكنُ أن نخسرَ الطريقَ الّذي نُحبُّه، دون أن نخسرَ أنفسَنا".

نظرَ نُعمانُ إلى الخارج، حيثُ الأوراقُ تتساقطُ بصمتٍ على الأرصفةِ الرّطبة، وقال:

ـ "رُبّما... لو لم يحدُث ما حدَث، لما عرفتُكِ كما أعرفُكِ الآن،
ولا كتبتُ ما كتبت...
ولا كنتُ أنا".

وقفتْ مُنى، وبدأت تَجمعُ وشاحَها من فوقِ المقعدِ، ثم قالت وهي تُلقي عليه نظرةً جانبيّةً:

ـ "كلُّ شيءٍ حدث، كانَ مُقدّمةً لهذهِ اللّحظة...
فلا تندم.
اكتُبْها، كما تليقُ بنا".

وقفَ نُعمان، واقتربَ من النّافذةِ، ثم قال بعد لحظةِ صمتٍ راقبَ فيها الغيوم:

ـ "جُزءٌ كبيرٌ من الموضوعِ...
يتعلّقُ بكِ، وبارتداءِ الملابسِ التي أصبحتِ تُلزمينَ نفسَكِ بها منذُ أن بدأنا الحديثَ سويًّا... وبدأنا نَجلِسُ طويلًا ونتحدّثُ في مواضيعَ كثيرة".

استدارتْ مُنى نحوه، حاجباها انعقدا، ونظرت إليه بحدَّةٍ لطيفة:

ـ "وما بِحِجابي؟
ألم يُعجبك؟"

كانا قد أنهيا حديثًا دافئًا، تشابكت فيه الأرواح أكثر من الأيدي، حين فاجأها نُعمان بسؤالٍ بدا كأنّه يُمهِّد لشيءٍ أكبر:

- " أَنَا ما قَصَدتُ شيئًا سَيِّئًا... ولَكِن، أُريدُ أَن أَسأَلَكِ أوّلًا: لِمَ قُمتِ بارتداءِ هٰذهِ الملابِسِ الَّتِي لم تَكُوني تَرتَدِينَهَا مِن قَبْلُ؟"

رفعت منى حاجبَيْها، وهمست بنبرةٍ خافتة، تُخفي خلفها عتبًا:

- " أَلَا تَعرِفُ الجَوَاب؟ أَم أَنَّكَ تُحَاوِلُ التَّغَافُل؟"

أطرقَ نُعمان برأسه لحظة، ثم قال بصوتٍ هادئ:

- " بَلى... أَعرِفُه. وَلكنِّي كُنتُ أُحَاوِلُ أَن أَجِدَ مدخلًا لهذا الحديث، دون أن أُربِكَك".

- " ثُمَّ مَاذَا؟ "، قالتها منى بعينين نصف مغمضتَيْن، كأنها تنتظر الحقيقة لا المقدمات.

- " ثُمَّ... أَسأَلُكِ: هَل أنتِ مُقتَنِعةٌ فعلًا بارتداءِ هٰذهِ الملابِس؟ أَم أَنَّكِ تَرتَدِينَهَا من أَجْلِي فَقَط؟"

نظرت إليه نظرةً طويلةً كأنّها تفتّش في دواخلِه عن النوايا، ثم قالت بنبرةٍ لم تخلُ من الصدق:

- " لا أُخفيكَ سِرًّا... في البِدايةِ، نَعَم، ارتَدَيْتُهَا من أَجلِك. لم أَكُن مُقتنِعةً بِهَا حينها، لٰكِنِّي ضَغَطتُ على نَفسِي، فقط لأتمكّن من الجُلوسِ مَعَك، والحديثِ إليكَ وجهًا لوجه. كُنتُ أَخشى أَنْ تُشيحَ بوجهِك عنِّي... ومع الأَيَّام، صَارَت عَادَةً".

هزَّ نُعمان رأسه ببطء، ثم قال بنبرةٍ جادّة:

- " المُهِمُّ الآن... هَل أَنتِ مُقتنِعةٌ بِهَا، أَم ما زِلتِ تَرتَدِينَهَا لِنفسِ الأَسْبَاب؟"

ابتسمت منى ابتسامةً صغيرة، ثم همست:

- " يُمكِنكَ أَن تَقول... إِنِّي ما زِلتُ أَرتدِيهَا لكِلا الأَمرَيْنِ مَعًا".

- " أَم أَنَّ هُنَاكَ سببًا ثَالِثًا؟ "، قالها وهو يُحدّق في عينيها.

- " وماذا تُرِيدُ أَنْ تَقول؟ مَا هُوَ هٰذَا السَّبَبُ الَّذِي تَظُنُّ أَنِّي أُخفيه؟"

تنفّس نُعمان عميقًا، وقال:

- **" لا أَعلَم... ولكنِّي كُنتُ فِي زِيارةٍ أَمسِ لِأَحَدِ أَصدقائِي المُقرّبين. وَكانَت بَيْنَهُ وَبينَ زَوجَتِهِ مَشكِلَةٌ كَادت أَن تُوصِلَ بَيْنَهُمَا إِلَى الطَّلاق".**

شهقت منى بخفّة:

- **" يَا لَطِيف... وَما هِيَ هٰذِهِ المَشكِلَة؟"**

- **" حينما قرعت باب صديقي، كان وزوجته فِي المَطبَخِ وَ قد ارتَفَعَ صَوتُهُما... تَجَادَلَا بِشِدَّةٍ حتى كدت أغادر قبل أن يفتح الباب أَمَامِي".**

- **" وَالمُسبِّب؟"**

- **" عندما سألته قال: بسبب الحِجَاب!... نَعَم، الحِجَاب الَّذِي تَرتَدِيهِ زَوجَتُه".**

- **" كَيفَ ذٰلِك؟ "**، سألت منى بدهشةٍ صادقة.

- **" صَديقي يَدَّعِي أَنَّ زَوجَتَهُ تَرتدِي الحِجَاب، لا لِقَنَاعَةٍ دِينِيَّة، بَل لأنَّ شعرَها فَوضَوِيٌّ دَائِمًا، وَهِي تَجِدُ فِي الحِجَابِ حَلًّا أَسهلَ مِن أَن تَعتَنِي بِمَظهَرِهَا... فَهُوَ يُغطِّيه لَأنها لا تُرِيدُ الاهتمامَ بِهِ".**

- **" وَبِمَاذَا تُلَمِّح؟ "**، قالتها منى فجأة، وعيناها تضيقان.

- **" أَنا؟ أُحَاوِلُ فَقط أَن أَفهَمَ مَوقِفَكِ مِن الحِجَاب، وَأَن أَسمَعَ رَأيكِ بِصِدق".**

رفعت منى رأسها ببطء، كأنها لم تصدّق ما سمعته لتوّها، ثم قالت، بصوتٍ قَطَعَ السكون:

- **" وَهَل تَظُنُّ أَنِّي أَرتَدِي الحِجَابَ لأَنَّنِي لا أَهتَمُّ بِمَظهَرِي؟" !**

ثم صمتت لحظة، كأنها تنتظر أن يعتذر، لكنه ظلّ واقفًا مكانه، فتابعت، وهذه المرّة بصوتٍ أعلى، متّقدٍ بحرارة الجرح:

- **" إِليكَ عَنِّي! لا تُخاطِبني بَعدَ الآن، ولا تَتَّصِل بي، ولا حَتّى بِوالِدي. مِن هٰذِهِ اللَّحظَة... لِيَذهَب كُلٌّ مِنّا فِي طَرِيقٍ".**

ثم التفتت، رفعت وشاحها بصمتٍ، وخرجت من المكان، تاركةً خلفها شرفةً خريفيّةً ساكنة... ووجهًا مصعوقًا ما زال يحدّق في ارتباكِ أوراقِ النارنج وكأنها تستعد للسقوط.

وَقَفَ «نُعمَان» في مكانه كأنَّ الأرضَ التي كانت تَحمِلُهُ فجأةً أَغلَقَتْ عليه دروبَها.
تَجَهَّمَ وَجهُ السماء كَسَحابةٍ نيسانيَّةٍ غاضِبَة، وَتَرَكَتْهُ وَراءَها يَتَأَمَّلُ خُطَاهَا وَهي تغادرُ إِلَى غُرْفَتِهَا دُونَ أَنْ تَلْتَفِت.

أَغْلَقَتِ البابَ خلفَها بِنَفَسٍ مَقْمُوع، أَمَّا هو، فَبَقِيَ واقفًا كَتِمثالٍ من ذُهُول،
لا يَدْرِي ما الذي جَرَى،

ولا ما الذي قالَهُ،
ولا كيفَ تَحوَّلَ الكلامُ الَّذِي نَبَعَ من وَدَاعَتِه إلى سَهْمٍ غَرَسَ فِي قلبِهَا الغَضَب.

أَخَذَ يَسْأَلُ نَفْسَهُ بِصَمْتٍ يَخْتَلِطُ فِيهِ الصَّوْتُ وَالصَّدَى:
ـ "ماذا فَعَلْتُ؟ أَكانَ فِي سُؤَالِي إهَانَة؟ أَمْ فِي استفهامي مَا يُوجِعُهَا؟"
تَطَلَّعَ إِلَى السَّقفِ، ثم نَظَرَ إلى الممرّ، ثمّ التَفَتَ خَلْفَهُ كَمَنْ يَبْحَثُ عَن خَارِطَةٍ لِطَرِيقٍ فَقَدَهُ.

ـ "أَأَطْرُقُ بابَها؟ أَأَقُولُ لَهَا: " **لَمْ أَقْصِدْ؟"** أَمْ أَنْسَحِبُ كَمَا يَفْعَلُ الجُبَنَاء؟ أَمْ أَعودُ إِلَى بَيْتِ أَهْلِي، الذين وَعَدْتُهُمْ أَنْ أَفْعَلَ فِي نِهَايَةِ هَذَا الأُسْبُوع؟"

مَرَّتِ السَّاعَاتُ، وَكَأَنَّ الزَّمَانَ تَجَمَّدَ فِي عَيْنَيْهِ، كَأَنَّ لَحْظَةَ رَحِيلِهَا قَطَعَتْ وَتَرًا خَفِيًّا فِي نَفْسِهِ، فَمَا عَادَ يَسْمَعُ غَيْرَ ضَجِيجِ صَمْتِهِ، وَلا يَرَى غَيْرَ خَيَالِهَا وَهِيَ تَسِيرُ مُبْتَعِدَةً، وَعَيْنَاهَا تَشْتَعِلانِ بِشَيْءٍ لَمْ يَفْهَمْهُ. جَلَسَ عَلَى الدَّرَجِ، ثُمَّ نَهَضَ، ثُمَّ مَشَى، ثُمَّ تَوَقَّفَ، ثُمَّ مَشَى مَرَّةً أُخْرَى، كَمَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يُضَيِّعَ نَفْسَهُ عَنْ نَفْسِهِ. وَفِي كُلِّ خُطْوَةٍ، كَانَ صَدَى صَوْتِهَا يُطَارِدُهُ:
ـ "ارْتَدَيْتُهُ مِنْ أَجْلِكَ... ثُمَّ صَارَ عَادَةً".

تِلْكَ الْعِبَارَةُ كَانَتْ كَجُمْلَةٍ تُخْفِي فِي بَاطِنِهَا قِصَّةً، فَهَلْ كَانَ هُوَ النُّورَ الَّذِي أَضَاءَ لَهَا دَرْبًا؟
أَمْ الظِّلَّ الَّذِي تَسَلَّلَ إِلَى أَلْوَانِهَا فَأَطْفَأَهَا؟ هَلْ كَانَ مِرْآةً صَافِيَةً، أَمْ زَوَايَا مُتَكَسِّرَةً شَوَّهَتْ صُورَتَهَا؟

لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أَنْ عَرَفَهَا، أَخَذَ قَلَمَهُ وَوَرَقَهُ، وَلَمْ يَكْتُبْ عَنْهَا، بَلْ كَتَبَ لَهَا...

وَصَارَ كُلُّ حَرْفٍ فِي رِسَالَتِهِ كَأَنَّهُ نُقْطَةُ ضَوْءٍ فِي عَتْمَةِ اللَّيْلِ.
كَتَبَ:
"لَمْ أَفْهَمْكِ، وَلَكِنِّي لَمْ أُرِدْ أَنْ أُوجِعَكِ.
إِنْ كُنْتُ سَبَبْتُ لَكِ أَلَمًا، فَإِنِّي أَلَمْتُ نَفْسِي مِثْلَكِ، وَالصَّمْتُ الَّذِي يَسْكُنُنِي الآنَ هُوَ أَشَدُّ مِنْ كُلِّ صَوْتٍ"...

ثُمَّ تَوَقَّفَ عَنْ الكِتَابَة،
كَأَنَّ قَلْبَهُ يَهْمِسُ لَهُ:
ـ "هَلْ تَكُونُ هَذِهِ نِهَايَةَ الحُلْم؟ أَمْ فَصْلًا جَدِيدًا... عَلَى أَعْتَابِهِ يَنْبَثِقُ النُّورُ مِنْ جَدِيد؟"

أَكْتُبُ لَكِ نَثْرًا، لأَوَّلِ مَرَّةٍ... كأنّي أَخُونُ الشِّعْرَ الذي عَهِدْتِني أكتبه،
لكنَّ الكلماتِ اليومَ لا تَنْصَاعُ للقافية،
ولا تُريد أن ترقصَ فوقَ البحور،
بل تهوي مثلي... ثقيلةً، واجمةً، مُرتبكة.

لم أَفْهَمْ ما جَرَى،
ولا أَدَّعِي أَنَّني على صواب،

لكنّي أُقِرُّ أنَّ في صوتِكِ ما كسرَ شيئًا في قلبي،
وفي وجهِكِ لحظةَ الرَّحيلِ... ما أَخَذَ ملامِحَ السُّكونِ من العالمِ وتركني أرتجف.

لَمْ أَتَعَمَّدْ أن أُخْطِئ،
ولَمْ أَقْصِدْ أنْ أُوجِعَكِ،
وإنْ فَعَلْتُ، فلأنَّنا في مَواسمِ القُرْبِ نَخْفِقُ أكثر.
كنتُ أبحثُ عن جملةٍ تُرضيكِ،
فخرجتْ مني كلمةٌ غبيَّة... كأنّها سَهْمٌ أَصَابَكِ دونَ أنْ أراه.

حينها أرادها رسالةً حقيقيَّة...

لم يُرِدْها مجرَّدَ ورقةٍ مُخَطَّطةٍ بكلماتٍ مُستعجلة، ولا تمرينًا على الكتابةِ في غيابِ من تُكْتَبُ لها، بل أرادها اعتذارًا حقيقيًّا، رسالةً تشبهُهُ حين يصفو، ويُشبهها حين تُحزنُها التفاصيل.

رتَّب كلماته كما يَرتِّب المزارعُ أغصان النبتات حديثة الانبات، ثم انتظر اللحظةَ التي يَصفو فيها والدُها من عناء عمله.

حين جلسا، شرحَ له ما جرى، وما لم يستطع قولَه لها.

ضحكَ والدُ "مُنَى" حتى غاصَت نواجذُه في ضوءِ المساءِ الرَّقيق، وصفَّقَ على كتف "نُعمان" ضربةً خفيفةً وكأنَّه يُجامِلهُ، ثم انتزع الورقةَ منهُ، وقامَ بخفَّةٍ لا تشبه سنَّه.

تقدَّم نحو غرفةِ ابنتهِ، وطرقَ البابَ ثلاثَ طرَقاتٍ خفيفة، كما كان يفعلُ حين كانت صغيرة.

صوتُه الهامسُ بالاستئذان، فتحَ في قلبها بابًا من الذاكرة. وحين أذِنَت، اندفعت إليه باكيةً، كأنَّها لم تَكْبُرْ بعد.

ارتمت في حضنهِ كما كانت تفعل في الطفولة، وتدفَّقت الدموعُ على خديها، لا لشيءٍ واضح، بل لأنَّها استعادت دفءَ الأمانِ القديم.

استمعَ إليها طويلًا، تاركًا ما رواه نُعمان على هامش الحديث، ثم انفجر ضاحكًا من جديد، ضحكةً مفعمةً لا تزال تحتفظُ بنفس النغمة القديمة، تلك التي كانت تُفرحها يومًا وتشبع احساسها بالأمان.

وما إن انتهت، حتى نهض من جوارها، ووضع الرسالة قرب وسادتها دون أن تنتبه، ثم غادر الغرفةَ وأغلق الباب برفق.

وفي الخارج، أوفى بوعده لابنته، فأخذ يُوبِّخ نُعمان بنبرةٍ صارمةٍ مصطنعة، لم تخفَ ابتسامتُهُ من بينِ كلماتها، وكأنَّه يُشاركهُ سرًّا لم يُقَلْ بعد.

في الداخل، هدأ روعُ "مُنَى"، وجلسَت تستعيد أنفاسَها. وحين التفتت لتعيد ترتيب وسادتها، لمحت ورقةً لم تَرَها من قبل.

مدَّت يدَها نحوها بتردُّد، فوجدت الطيَّة مختلفةً... منظمةً، مهذَّبةً، كما لم تَعهده يكتب.

فكَّت الطيَّةَ برفق، وتأمَّلت السطرَ الأول:

مُنَى،

توقَّفت لحظة، وكأنَّ اسمَها قد خرج لتوِّه من فمِه لا من قلمه.

مرَّت أناملها على الحروف، كأنَّها تتحسَّس نبضًا فيها، ثم قرأت:

أَكْتُبُ لَكِ نَثْرًا، لأَوَّلِ مَرَّةٍ... كأنِّي أَخُونُ الشِّعْرَ الذي عَهِدْتِني أَكْتُبُه،
لكنَّ الكلماتِ اليومَ لا تَنْصَاعُ للقافية،
ولا تُريدُ أنْ تَرقصَ فوقَ البحور،
بل تَهْوِي مِثْلِي... ثَقِيلَةً، وَاجِمَةً، مُرْتَبِكَة.

هنا شهقت "مُنَى" بخفوت، وكأنَّه التقطَ تمامًا حالَ قلبها.

تابعت تقرأ بشغفٍ ممزوجٍ بالخوف:

لَمْ أَفْهَمْ ما جَرَى،
ولا أَدَّعِي أَنَّنِي على صواب،
لكنِّي أُقِرُّ أَنَّ في صوتِكِ ما كَسَرَ شيئًا في قلبي،
وفي وجهِكِ لحظةَ الرَّحيلِ... مَا أَخَذَ ملامِحَ السُّكونِ من العالمِ وتركني أرتجف.

رفعت نظرها عن الورقة، وتنهَّدت كأنها تعود من سفرٍ داخليّ، ثم أكملت، بشيءٍ من البطء:

لَمْ أَتَعَمَّدْ أَنْ أُخْطِئ،
ولَمْ أَقْصِدْ أَنْ أُوجِعَكِ،
وَإِنْ فَعَلْتُ، فَلأَنَّنَا في مَواسِمِ القُرْبِ نُخْفِقُ أكثر.
كُنْتُ أَبْحَثُ عن جُملةٍ تُرْضِيكِ،
فَخَرَجَتْ مِنِّي كلمةٌ غَبِيَّة... كأنَّها سَهْمٌ أَصَابَكِ دونَ أنْ أَرَاه.

لمعت عيناها فجأةً، وتلفَّتت حولها كمن يخشى أن يكون هذا النصّ قد سُرِّب من قلبها لا من قلبه، ثم قرأت:

أَنَا آسِفٌ لأَنَّنِي لَمْ أَفْهَم،
لأَنِّي لَمْ أَسْأَلْكِ قبلَ أَنْ تَذْهَبِي:
"هَلْ أَنْتِ بِخَيْر؟"

أَنَا آسِفٌ لأَنِّي وَقَفْتُ كالأَبْلَهِ على الرَّصِيفِ البَارِد،
وَلَمْ أَلْحَقْ بِكِ...
أَنَا آسِفٌ، لا لأَنِّي أَخْطَأْتُ فَقط،
بَلْ لأَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَجْمَلَ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَحِقِّيه.

هنا شهقت منى ثانيةً، وارتجفت يدها.

تابعت، وصوت قلبها أعلى من صوت الكلمات:

مُنَى،
إِنْ كَانَ مَا بَيْنَنَا قَدْ أَغْلَقَ بَابَهُ،
فَسَأبْقَى على العَتَبَةِ،
أَسْتَمِعُ لِلرِّيح،
وأُصَادِقُ الصَّمْتَ،
وأُرَتِّبُ جُمَلَ اعتِذَارِي حَتَّى تُشْبِهَكِ،
رَقِيقَةً، صَادِقَة، وبَعِيدَةً... كَمَا أَنْتِ.

انتهت السطور، لكن شيئًا في داخلها لم ينتهِ.

ضمَّت الورقةَ إلى صدرها لحظةً، كأنَّها تحتضن الدفءَ الذي ضاع منها ذات مساء.

ثم همست، بصوتٍ بالكاد يُسمَع، بلا خوفٍ أن يكون أحدٌ في الجوار:

- " أخيرًا... كتبَ لِي، لا عنِّي".

رَكَضَتْ بخِفَّةٍ كعصفورٍ فَزِعٍ نَحْوَ البابِ... فَتَحَتْهُ بِهُدُوءٍ، وَأَلْقَتْ نَظْرَةً خاطِفَةً إلى الرِّواقِ الخارجيّ، وحينَ لَمْ تَجِدْهُ واقِفًا هناك، أَغْلَقَتِ البابَ خَلْفَها بِصَمْتٍ بَارِدٍ، كَأَنَّهَا تُغْلِقُ فَصْلًا مِنْ عُمْرِهَا، لا تُرِيدُ لَهُ أَنْ يُفْتَحَ مَرَّةً أُخْرَى. تَسَلَّلَ ظِلُّهَا الْمُتَرَدِّدُ إلى الغُرْفَةِ كَطَيْفٍ جَرِيحٍ، وَبِحَرَكَةٍ خَفِيَّةٍ، أَلْقَتِ الرِّسَالَةَ على الْكُرْسِيِّ بِلا اكْتِرَاث، كَأَنَّهَا تَنْفُضُ عَنْ كَاهِلِهَا ثِقْلَ مَا دَارَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ "نُعْمَان"، ثِقْلًا يَتَجَسَّدُ فِي كَلِمَاتٍ عَاجِزَةٍ وَنَظَرَاتٍ لَمْ تُقَلْ. وَمَا إِنِ اسْتَدَارَتْ نَحْوَ النَّافِذَةِ، حَتَّى بَلَغَ بَصَرُهَا طَرَفَ زُجَاجِها، فَرَأَتْ شَيْئًا غَرِيبًا... رِسَالَةً أُخْرَى، مُغَلَّفَةً بِوَرَقٍ مُلَوَّنٍ، تَتَرَبَّصُ بِهَا كَفَصْلٍ ثَانٍ لِلْحِكَايَةِ.

خَطَتْ خُطْوَةً وَاحِدَةً بِتَرَدُّد، ثُمَّ أَطَلَّتْ مِنْ خَلْفِ الزُّجَاجِ، تَفَحَّصَتِ الْحَدِيقَةَ بِعَيْنَيْنِ تَسْتَجِيبَانِ لِرَجَفَةِ الْقَلْبِ، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا... لا أَحَدَ سِوَى نَفْسِهَا تَنْعَكِسُ عَلَى الزُّجَاجِ كَسُؤَالٍ مُبْهَم.

مَدَّتْ يَدَهَا وَأَخَذَتِ الظَّرْف،
شَقَّتْهُ بِسُرْعَةٍ، كَمَنْ يَفْتَحُ جُرْحًا لِيَرَى مَا تَحْتَهُ،

وَبِرِقَّةٍ مُفَاجِئَةٍ، أَخَذَتْ تَقْرَأ...

تَمْشِي الْهُوَيْنَى وَقَلْبِي خَلْفَهَا وَلِهُ
كَأَنَّهَا الشَّمْسُ فِي إِشْرَاقِهَا سَكَنِي
مُنَى، أَيَا رُوحَ حُلْمٍ، قَدْ تَرَكْتِ دَمِي
يَرِقُّ سُؤَالُكِ حِينًا، وَحِينًا يُؤْرِقُنِي
رَكِبْتِ بَحْرًا، فَبَاتَ الْحُزْنُ يَسْأَلُنِي
هَلْ تَعْلَمِينَ إِذَا مَا الْبُعْدُ ضَيَّعَنِي؟
قَدْ كُنْتِ لَوَّحْتِ، وَالْآفَاقُ صَامِتَةٌ،
أَمَا نَظَرْتِ مَا فِي الْمُقْلَتَيْنِ مِنْ وَهَنِ؟
تَرَكْتِ هَمْسًا، وَلَكِنْ كَانَ يُعْجِلُنِي
خَطْوُ الْفِرَاقِ، وَضَاعَ الْحَرْفُ بِالْمِحَنِ
أَمَا لِبَاسُكِ، فَغَيْرُ مَا أَلْفَيْتُهُ زَمَنًا،
فَهَلْ تَعَافَتْ، أَمِ الْأَيَّامُ تَخْدَعُنِي؟
فَإِنْ رَجَعْتِ، وَقَلْبِي بَعْدُ مُشْتَعِلٌ،
سَأَسْأَلُ الرُّوحَ: مَا أَخْفَيْتِ مِنْ وَزَمَنِي؟
مِنِّي السَّلَامُ، وَإِنْ غَابَتْ خُطَاكِ غَدًا،
فَالْوُدُّ بَيْنَ الضُّلُوعِ الْحُمْرِ لَمْ يَهُنِ
مَا كُنْتُ أَطْلُبُ مِنْ دُنْيَاكِ غَيْرَ نَدَى،
يَمْحِي جَفَاءَ اللَّيَالِي حِينَ تُوجِعُنِي
لَكِنَّكِ الرِّيحُ، لَا تَهْوِينَ مُنْتَظِمًا،
وَلَا تَعُودِينَ إِذَا شَطَّتْ بِكِ سُفُنِي

ثمّ، وعلى غير عادتها،
وَضَعَتِ القَصِيدَةَ فوق وَسَادَتِهَا،
وَضَمَّتْهَا إِلَى صَدْرِهَا،
وَأَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا،
وَاسْتَسْلَمَتْ لِأبحارٍ من أحْلَامٍ عَمِيقَة.

استيقظَ في الصّباحِ الباكرِ السّيّدُ أحمد، وقرعَ بابَ غرفةِ نعمان، ودعاهُ ليُساعدهُ في إعدادِ طعامِ الإفطار.

فأتمَّ نعمانُ الآيةَ التي كانَ يقرؤُها، ووضعَ المُصحفَ في مكانِه في المكتبة، ثمّ التحقَ بالسّيّدِ أحمد يُعاونُه.

ونادى بصوتٍ هادئٍ على منى، وهو قريبٌ من بابِ غرفتها، دون أن يقرعَه.

فالتحقتْ بهما، وساعدتهما في إحضارِ ما تمَّ تجهيزهُ إلى طاولةِ المائدة، دون أن تنبسَ ببنتِ شفة.

فقالَ لها والدُها:

ـ "هل تُفضّلين البيضَ مسلوقًا أم مقليًا اليوم؟"

فَصمَتَتْ لَحْظَةً، كَأنَّها تَسْتَجْمِعُ قُوّةً خَفِيَّة،

ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا، وَقَالَتْ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، نَقِيٍّ، يَخْرُجُ مِنْ عُمْقٍ طَالَ كَبْتُهُ:

ـ "لَنْ أَرْتَدِيَ الحِجَابَ بَعْدَ الآن...

وَسَأَلْبَسُ مَا يَحْلُو لِي مِنَ الثِّيَابِ،

مِنْ أَجْلِي أَنَا، لَا مِنْ أَجْلِ أَحَد"!

لَمْ تَتَوَقَّفْ عَيْنَاهُ عِنْدَ مَلَامِحِ ثَوْرَتِهَا،

وَلَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أَدْنَى انْزِعَاجٍ،

بَلْ قَالَ بِهُدُوءٍ يَجْمَعُ فِيهِ مَا بَيْنَ قَبُولِ الأَبِ وَتَفَهُّمِ الصَّدِيق:

ـ "حَسَنًا... لَا مُشْكِلَةَ. أَنْتِ تَعْرِفِينَ رَأْيِي فِي هٰذَا الْمَوْضُوع".

ثُمَّ جلس الجميع حول مائدة الافطار سَادَ خلاله صَمْتٌ طويل، كَأَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ قِيلَتْ كَانَتْ تَفْتَحُ بَابًا فِي الرِّيح...

وظلَّ الفطورُ ساخنًا، واليومُ في بدايتِه،

وهي، للمرّةِ الأولى، تشعرُ أنّها جلستْ إلى الطاولةِ وظهرُها مستقيمٌ.

في بيتِ السَّيِّدِ أحمد – بعدَ شهرين من بدء الدراسة في الجامعة

كانَ المساءُ قد استوى على هُدوئهِ الأليف، واكتملت جلسةُ الشرفةِ بعد العشاءِ بلمّةٍ دافئةٍ: السَّيِّدُ أحمدُ منهمكٌ في إعداد الشاي، ومنى تتابع بعض أعمال الترتيب في المطبخ المفتوح إلى الصالة، فيما كانَ نُعمانُ يحضر ما تبقى من صحون المائدة إلى المطبخ، ولسان حاله يتحدث كأنَّهُ ينتظر أن يبدأ أحدهما حوارًا أو سؤالاً ، أو ربما يريد أن يعرض مشكلة تخصه ويعاني منها في الجامعة.

انتبهتْ منى إلى غرقه في الشرود فسألته، بنبرةٍ مشاغبةٍ يختلطُ فيها الفضولُ بالعِتابِ الهادئِ:

ـ "لماذا لم تُخبرني عن حفلكَ الذي أقمته في دُوما بعدَ نجاحِك في الثانوية؟"

– " ومن أخبرك؟"

– " سَمِعتُ بعضَ التفاصيلِ من خلال بعض حديثك سابقاً مع الحاج أبي محمود... لكنكَ لم تروِ لي أنتَ شيئًا".

ارتبكَ نُعمانُ لحظةً، ثمَّ قالَ وهو ينقلُ نظرَهُ بين منى ووالدِها:

ـ " ظننتُ أنّ الأمرَ قد لا يعنيكَ كثيرًا... أو أنّكَ لن تري فيه ما أراهُ أنا".

- " وكيف تظن أن شيئاً كهذا لا يعنيني؟"

- " قُبيلَ نهايةِ الصيفِ السابق، كنتُ قد أنهيتُ عملاً شاقًّا في ورشةِ حديدٍ، وعندما لم يبقَ وقتٌ كافٍ لبدءِ ورشةٍ جديدةٍ قبلَ افتتاحِ المدرسة، عَرَضَ عليَّ أحدُ أقاربِ والدي، وكان يعملُ في شركةِ (سادكوب) – شركةِ النفطِ والتوزيعِ في سوريا – أن ألتحقَ بها بعقدِ مياومةٍ مؤقّت.

وافقتُ بلا تردُّد. لم أشأ أن أقضيَ ما تبقّى من العطلةِ في البيتِ دونَ عملٍ. وهناك، تعرّفتُ إلى خمسةٍ من الموظفين جَمَعَتْني بهم غرفةٌ واحدةٌ ومهامّ يوميّةٌ. كانوا مختلفي الأعمار، لكنّ شيئًا بيننا كان يجعلُ المسافاتِ تتلاشى. صاروا زملاء، ثم أصدقاء، ثم أشبهَ بالأُخُوَّة.

في المساءِ، كُنّا نتبادلُ الزياراتِ، وفي العُطلِ نخرجُ إلى نُزهاتٍ على ضفافِ بَرَدَى أو بينَ بساتينِ الغوطة. وكان مِن بينِهم شابٌّ قريبٌ من سِنِّي تقريبًا، اسمه حسن شتيوي... صوتهُ عذبٌ، أقربُ إلى صوت المطرب عبدِ الحليم حافظ، إذا غنّى سَكَتَ من حولَه. ومعهُ عدنان المُغير، رجلٌ أربعينيٌّ وقور، يُجيدُ العزفَ على العود، ويمتلكُ صوتًا دافئًا يليقُ بفرقةِ المنشدِ الشهير حمزة شكور، والتي كان أحدَ أعضائها البارزين.

في كلِّ لقاءٍ لنا، كنّا نُعدُّ الطّعامَ سويًّا، نأكلُ، ثم نُنصتُ بشغفٍ لعزفِ عدنان، وغناءِ حسن، أو نُشارِكُهم بأصواتنا المتواضعة كأنّنا فرقةٌ صغيرةٌ تُمارسُ الحُلمَ في الظلّ.

لم تنتهِ صداقتنا بانتهاءِ عملي في الشركة. بل بقيتِ الزياراتُ والمحبّة، حتى بعد أن عدتُ إلى مقاعدِ المدرسة.

وذاتَ مساءٍ، وبعدَ صدورِ نتائجِ الثانويةِ العامّة، جاءوني مُهنّئين... حسن، وعدنان، وبقيّةُ الأصدقاء. قالَ حسنُ بحماسٍ: (" يا رجل! لا بُدّ أن نُقيمَ لك حفلاً يليقُ بهذا النجاح! وسأغنّي أنا، وعدنان سيعزف، ونحنُ نُرتّبُ الباقي"!)

وافقتُ، واقترحتُ إقامةَ الحفلِ في حديقةِ بيتِ جَدّي. فذهبتُ إليه واستأذنتُه بلُطفٍ.

ويا للمفاجأة... وافقَ!

جَدّي، الذي طالما حرَّمَ الغناء، وافق! كانت سعادتي لا توصف.

بدأتُ التّحضير: أنرتُ الحديقةَ بخطوطِ الزّينةِ والمصابيحِ الملوّنة، استأجرتُ كراسيَّ وطاولات، رتّبتُها بدقّة، ونصبتُ منصّةً خشبيّةً صغيرةً أمامَ الأشجار، ستكونُ ساحةَ الغناءِ والعزفِ لزملائي.

دعوتُ الجميع: أعمامي، أخوالي، الجيران، الأصدقاء... وراحت أُمّي تصنعُ الحلوياتِ كأنّها تصنعُ الفرحَ بيديها.

وقبلَ موعدِ الحفلِ بثلاثِ ساعات، جاءَ حسن... لم يكن وحدَه. سيّارتانِ مُكتظّتانِ بالرجالِ والآلاتِ الموسيقيّة. أكثرُ من خمسةَ عشرَ ضيفًا!

اقتربَ مني بخفّةٍ وقال: (" هؤلاءِ أصدقائي كنت واحد منهم في هذه الفِرقَة إلى زمن قريب... ويجبُ أن تُطعِمَهم أوّلًا").

شهقتُ بدهشةٍ مكتومة، لكنّي رحّبتُ بهم وأدخلتُهم غرفتي، ثم أسرعتُ إلى والدتي، وجدّتي، ونساءِ العائلةِ أستجدي مساعدتَهنّ في إعدادِ وليمةٍ تُليقُ بالعددِ الجديد.

أعدّتِ النسوةُ الطعامَ بسرعةٍ مدهشة، وقدّمنا الغداءَ على طاولاتٍ جمعناها في الحديقة، تبعهُ حلوى وفواكه وشاي... ثمّ أعدنا ترتيبَ المكان، وبعد مغيبِ الشمسِ وقفنا جميعًا لصّلاة المغرب.

وبعد الصلاة... انطلقَ الحفل.

خرجتِ الآلاتُ من السيّاراتِ تباعًا: عود، ناي، كمان، طبل، دفّ، ومكبّراتُ صوتٍ صغيرةٌ... وبدأتِ الفرقةُ الغناء.

كانت الأصواتُ تملأُ المكانَ بالبَهجة، والوجوهُ تتلألأ كأنّها نجومُ ليلٍ دافئ.

اقتربتِ الساعةُ من الثانيةَ عشرةَ والنصف ليلًا، حين ناداني جَدّي وقالَ بهدوء : ("يكفي يا ولدي... الجيرانُ لهم علينا حق، ويجب أن نحترم وقت راحتهم، وقد حان وقت ذهاب الجميع إلى النوم".)

شكرتُ حسن، وودّعتُ أعضاءَ الفرقة، ولم أنسَ أن أُقبّلَ يدَي جَدّي وجدّتي امتنانًا.

في اليومِ التالي، زارني حسن.

قالَ بصوتٍ فيه شيءٌ من التردُّد: ("الحفلُ كان رائعًا... لكنّه كلّفَ كثيرًا. دفعتُ ثلاثمئةِ ليرة، وأحتاجُ ثلاثمئةً أخرى").

نظرتُ إليه بصمتٍ لحظةً، ثمّ قلت: ("لم نكن اتفقنا على هذا يا حسن... لكن لا بأس. شكرًا لك، وهذه ستمئة ليرة، لكَ كلّها".) وناولتهُ المبلغ، وانصرفَ راضيًا.

لكنّ شيئاً داخليًّا بعدَ أسبوعين، حينما زارني عدنان. عكّرَ هدوئي. حين جلسَ بصمتٍ، ثم قال فجأة: ("حسن نصبَ عليك، يا نُعمان. اتّفقَ مع الفرقةِ من خلفِ ظهرك، وقالَ لهم إنك ستقدّمُ طعامًا فاخرًا، وضيافةً لا مثيلَ لها... أرادَ أن يُسلّيهم، وأن يجدَ من يدفعُ الثمن").

لم أُجبه فورًا. قلبي انقبضَ، ثم انفرجَ بشيءٍ من الأسى. زرت حسن في بيتهِ بعدها، مرارًا... لكنّه لم يظهر. اختفى، كما تختفي بعضُ الصداقاتِ حين يُطالُها الظلّ. لكنّي لم أكن غاضبًا. لكونه أدخلَ البهجةَ إلى قلوبِنا، حتى دون أن يقصد. وأنا أُفضّلُ أن أكونَ مظلومًا ألفَ مرّة، ولا أظلمَ أحدًا مرّة واحدة".

– " ولماذا لم تدعنا إلى هذا الحفل؟ أو تدع والدي على الأقل؟" سألته منى

– " لأن علاقتي معكما كانت في بدايتها أو ربما كانت متأزمة بعض الشيء، ولأن الحفل كان يطبع عليه الطابع الشعبي لذلك لم اجد ان أدعوكما او أدعو والدك وحده وان كان جميع من حضر من الرجال ممن كانوا قد سمعوا شيئاً عن علاقتي معكم سالني عن حضور ذلك الرجل الجديد من اجل أن يتعرفوا عليه ، وكذلك روت لي امي عن عدد النسوة اللاتي جلسن خلف النوافذ يستمعن الى الاغاني الجميلة، وبعضهن ممن كن يسترقن النظر من خلف النوافذ ليرين مجريات الحفل او بعضا منها ، ويعدن ليسألنها عما اذا كانت منى ستحضر قريبا حتى يتعرفن عليها عن قريب. "

ـ " كأسُ شايٍ، يا منى... أظنُّ أنَّهُ وقتُه". قال والدها ثم تابع باستغراب:

- " لَمْ تَقلْ شَيْئًا طِوَالَ العَشَاءِ، وَلوْلَا سُؤَالُ مُنَى عَنِ الحَفْلِ، لَمَا كُنَّا سَمِعْنَا لَكَ صَوْتًا اليَوْمَ.

رَفَعَ نُعْمَانُ نَظَرَهُ بِبُطْءٍ، كَمَنْ يُزِيحُ غِطَاءً ثَقِيلًا عَنْ قَلْبِه، وَهَمَسَ بِنَبْرَةٍ مُرْتَجِفَةٍ، كَأَنَّهُ يَتَلَفَّظُ بِحُكْمٍ عَلَى نَفْسِه:

– " نَعَم... رُبَّمَا... وَمَعَ ذَلِكَ، مَعَكِ حَقٌّ يَا عَمِّي. ذَلِكَ لِأَنَّنِي أَشْعُرُ أَنَّنِي... أُشْبِهُ مَنْ يَكُونُ عَلَى حَافَّةِ الهَزِيمَةِ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْتَرِفَ بِهَا."

كَانَتْ يَدَاهُ مُتَشَابِكَتَيْنِ، كَمَنْ قُيِّدَتْ رَغْمًا عَنْهُ، وَنَظَرَتْ مُنَى إِلَيْهِ بِعَيْنَيْنِ فَاضَتَا بِالذُّهُولِ، تَسْأَلُهُ وَمَلَامِحُهَا تَتَغَيَّرُ:

– " مِنْ أَيْنَ جَاءَكَ هَذَا الإِحْسَاسُ؟"

تَنَهَّدَ نُعْمَانُ، وَكَأَنَّهُ يَنْبِشُ فِي ذَاكِرَةٍ تَثْقُلُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

– " كُنْتُ أَحْسِبُ نَفْسِي مُتَفَوِّقًا فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ. وَخُصُوصًا بَعْدَمَا نَبَّهْتِنِي أَنْتِ إِلَى تِلْكَ العَلَامَةِ الَّتِي حَصَلْتُ عَلَيْهَا فِي الثَّانَوِيَّةِ العَامَّةِ... العَلَامَةِ الَّتِي سَمَحَتْ لِي، أَوْ أَعْطَتْنِي الفُرْصَةَ، لِلتَّسْجِيلِ المُبَاشِرِ فِي قِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ."

أَمَالَتْ مُنَى رَأْسَهَا بِلُطْفٍ، كَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَجْلِي خَيْطَ حَقِيقَةٍ:

– " وَأَنْتَ حَقًّا مُتَفَوِّقٌ، لَكِنْ... مِنْ أَيْنَ أَتَى لَكَ هَذَا الشُّعُورُ؟"

صَمَتَ لَحظَةً، ثُمَّ تَكَلَّمَ كَمَنْ يُسَلِّمُ بِخَيْبَتِهِ:

– " لَا أُرِيدُ أَنْ أُجَامِلَكِ، فَأَكْذِبَ عَلَيْكِ... وَلَا عَلَى نَفْسِي. مَضَى شَهْرَانِ عَلَى بَدْءِ دِرَاسَتِنَا الجَامِعِيَّةِ، وَلَكِنِّي... مَا زِلْتُ، حَتَّى الآنَ، أُوَاظِبُ عَلَى الحُضُورِ الصَّبَاحِيِّ مَعَكِ، وَفِي المَسَاءِ... أَذْهَبُ خِلْسَةً لِمُحَاضَرَاتِ الأُسْتَاذِ عَاصِم بَيْطَار."

رَفَعَتْ مُنَى حَاجِبَيْهَا بِدَهْشَةٍ، وَقَالَتْ بِنَبْرَةٍ فِيهَا نَفَاذُ بَصِيرَةٍ:

– " وَمَا الَّذِي يَدْعُوكَ لِحُضُورِ مُحَاضَرَاتِ النَّحْوِ المَسَائِيَّةِ؟"

ثُمَّ تَوَقَّفَتْ لَحْظَةً، وَأَضَافَتْ بِغُصَّةٍ لَمْ تُخْفِهَا نَبْرَتُهَا:

– " أَمْ تَرَانِي... غَائِبَةً عَنْكَ، وَهُنَاكَ مَنْ شَدَّكَ إِلَيْهِ؟"

فَارْتَبَكَ نُعْمَانُ، وَرَفَعَ كَفَّيْهِ كَمَنْ يُقْسِمُ:

– " مَعَاذَ اللهِ! لَا يَذْهَبْ فِكْرُكِ بَعِيدًا، يَا مُنَى! مَا هِيَ إِلَّا المَادَّةُ... مَادَّةُ النَّحْوِ، الَّتِي يُدَرِّسُهَا الأُسْتَاذُ عَاصِم."

عَادَتْ مُنَى لِتَسْأَلَهُ بِصَوْتٍ أَلْيَن، وَلَكِنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى القَلَقِ:

– " وَمَا بَالُ مَادَّةِ النَّحْوِ؟"

كَأَنَّ نُعْمَانَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَدْ فَكَّ قَيْدًا غَلَّ يَدَيْهِ، أَوْ أَلْقَى حِمْلًا ظَلَّ يُثْقِلُ كَاهِلَهُ، فَقَالَ دُونَ مُقَدِّمَاتٍ:

– " لَا أَفْهَمُهَا مُطْلَقًا. حَتَّى إِنِّي، وَأَنَا أُصْغِي لِشَرْحِ الأُسْتَاذِ عَاصِم، أَشْعُرُ كَأَنَّنِي أَسْمَعُ طَلَاسِمَ، لَا صِلَةَ لِي بِهَا، وَلَا أُفَكِّرُ أَنَّهَا مِنْ لُغَةٍ زَعَمْتُ يَوْمًا أَنَّنِي أَتْقِنُهَا."

لَمْ تَمْلِكْ مُنَى إِلَّا أَنْ ضَحِكَتْ، وَضَحِكَتْ طَوِيلًا، وَفِي عَيْنَيْهَا بَرِيقُ سُخْرِيَةٍ مَغْمُورٍ بِالمَحَبَّةِ، ثُمَّ قَالَتْ:

– " وَلِمَاذَا قُمْنَا، أَنَا وَأَنْتَ، بِالتَّسْجِيلِ فِي قِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِنَتَعَلَّمَهَا؟ وَلِنَفْهَمَهَا؟ وَلِنُتْقِنَهَا؟"

أَجَابَهَا نُعْمَانُ بِصَوْتٍ مَخْمُورٍ بِالخَجَلِ:

– " بَلَى... وَلَكِنَّكِ تَفْهَمِينَ، وَأَجِدُكِ تُحَاوِرِينَ، وَتَسْأَلِينَ، وَتُشَارِكِينَ فِي الإِجَابَةِ كَذَلِكَ، أَمَّا أَنَا... فَأَخْشَى أَنْ يَنْظُرَ تِجَاهِي الأُسْتَاذُ عَاصِم عِنْدَمَا يَطْرَحُ سُؤَالًا عَلَى الطُّلَّابِ فِي المِدْرَجِ!"

فَقَالَتْ مُسْتَفْسِرَةً، بِنَبْرَةٍ رَزِينَةٍ:

– " وَهَلْ تَحْضُرُ مَسَاءً، لِكَيْ تَفْهَمَ مَا عَجَزْتَ عَنْ فَهْمِهِ صَبَاحًا؟"

فَهَزَّ رَأْسَهُ بِإِيمَاءَةٍ خَفِيفَةٍ، وَقَالَ فِي هَمْسٍ صَادِقٍ:

– " نَعَمْ."

صَمَتَتْ مُنَى بُرْهَةً، كَأَنَّهَا تُقَلِّبُ كَلِمَاتِهِ فِي قَلْبِهَا قَبْلَ أَنْ تَرُدَّ، ثُمَّ قَالَتْ وَصَوْتُهَا يَحْمِلُ خَلِيطًا مِنَ الرِّقَّةِ وَالحَزْمِ:

" نُعْمَان، أَنْتَ لَا تَنْقُصُكَ المَعْرِفَةُ، بَلِ الثِّقَةُ. تَخَافُ أَنْ تُخْطِئَ أَمَامَ الجَمِيعِ، فَتَلْزَمُ الصَّمْتَ، وَتَتَوَارَى فِي الزَّوَايَا. أَمَّا النَّحْوُ، فَلَيْسَ وَحْيًا يُتَلَقَّى، وَلَا طِلْسمًا يُفَكُّ، إِنَّهُ مِثْلُ اللُّغَةِ نَفْسِهَا... يُحِبُّ مَنْ يُقْبِلُ عَلَيْهِ بِقَلْبٍ طِفْلِيٍّ، لَا بِخَوْفِ المُذْنِبِ".

أَشَارَ نُعْمَانُ بِيَدَيْهِ فِي فَضَاءِ الغُرْفَةِ، كَأَنَّهُ يُجَسِّدُ تِلْكَ الرَّهْبَةَ الَّتِي يَصْنَعُهَا أَسَاتِذَةُ الجَامِعَةِ بِأَنْفُسِهِمْ فِي قُلُوبِ الطُّلَّابِ، وَقَالَ بِنَبْرَةٍ فِيهَا مَزِيجٌ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالاِسْتِنْكَارِ:

" أَلَا تَرَيْنَ، يَا مُنَى، أَنَّ أَسْهَلَ شَيْءٍ عَلَى بَعْضِ أُسَاتِذَةِ الجَامِعَةِ، أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ، وَبِلُغَةٍ تَقْذِيعِيَّةٍ صَارِمَةٍ: (أُخْرُجْ!)... فَقَطْ لِأَنَّ طَالِبًا أَخْطَأَ فِي نُطْقٍ أَوْ تَصْرِيفٍ نَحْوِيٍّ وَاحِدٍ، وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يُجِيبَ فِي المُحَاضَرَةِ؟"

ثُمَّ سَكَتَ، وَعَيْنَاهُ تُفْصِحَانِ عَنْ مَا لَا تُفْصِحُهُ اللُّغَةُ... خَوْفٌ قَدِيمٌ يَتَكَوَّنُ مِنْ صَمْتٍ وَتَرَقُّبٍ وَأَبْوَابٍ تُغْلَقُ دُونَ فُرَصٍ.

نَظَرَتْ إِلَيْهِ مُنَى طَوِيلاً، ثُمَّ أَجَابَتْ بِهُدُوءٍ يُخْفِي غَضَبًا دَافِئًا:

" نَحْنُ نَتَعَلَّمُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟"

" بَلَى!"، أَجَابَ بِسُرْعَةٍ، كَمَنْ يُمْسِكُ بِحَبْلِ نَجَاةٍ فِي لَحْظَةِ كغَرِيقٍ.

تَابَعَتْ هِيَ، وَصَوْتُهَا يَصِيرُ شَفَّافًا كَمِرْآةٍ:

" فَمَا الفَائِدَةُ إِذًا مِنْ تَعَلُّمِنَا لَهَا، إِنْ لَمْ يَكُنْ لِلأُسْتَاذِ أَنْ يَسْمَعَنَا وَنَحْنُ نُحَاوِلُ، نُخْطِئُ وَنُصِيبُ؟ أَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الحَدِيثُ وَالإِجَابَةُ تَطْبِيقًا عَمَلِيًّا لِمَا نَتَعَلَّمُهُ؟ أَمْ هِيَ مَعْرِفَةٌ مَخْزُونَةٌ تُقَالُ فِي أَوْقَاتِ الاِمْتِحَانِ وَتُطْوَى بَعْدَهَا الصَّفَحَاتُ؟"

تَفَاجَأَ نُعْمَانُ بِكَلِمَاتِهَا، وَفِي تَعْقِيبِهَا، خَيَّمَ صَمْتٌ قَصِيرٌ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَادِيًّا... كَانَ صَمْتًا يُشْبِهُ صَدًى يَتَرَدَّدُ فِي جُدْرَانِ نُفُوسٍ كَثِيرَةٍ، لَا فِي الغُرْفَةِ فَقَطْ.

وَهَزَّ رَأْسَهُ كَمَنْ تَلَقَّى لَطْمَةَ حَقٍّ مُبَاغِتَةٍ، وَقَالَ بِنَبْرَةٍ فِيهَا أَثَرُ مَا سَمِعَ:

" رُبَّمَا... رُبَّمَا كُنْتُ أَبْحَثُ فِي كُلِّ مَحَاضَرَةٍ عَنْ نَفْسِي، فَلَا أَجِدُنِي، فَأَعُودُ مُحَمَّلًا بِخَيْبَةٍ جَدِيدَةٍ. وَكُلَّمَا شَاهَدْتُكِ تَرْفَعِينَ يَدَكِ لِلسُّؤَالِ، أَوْ تُصَحِّحِينَ مَعْنًى، أَسْمَعُ فِي دَاخِلِي صَوْتًا يَهْمِسُ: أَنْظُرْ... هُنَاكَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ هُنَا... أَمَّا أَنْتَ، فَلَا".

اِقْتَرَبَتْ مُنَى مِنْهُ قَلِيلًا، وَوَضَعَتْ كَفَّهَا بِخِفَّةٍ عَلَى ظَهْرِ يَدِهِ، فَارْتَجَفَ، كَأَنَّمَا لَمَسَتْ جُرْحًا قَدِيمًا، وَقَالَتْ بِصَوْتٍ دَافِئٍ:

" ذَلِكَ الصَّوْتُ... كَاذِبٌ، وَخَائِفٌ مِثْلَكَ. وَإِنْ أَصْغَيْتَ لَهُ طَوِيلًا، سَيَصِيرُ صَوْتَكَ أَنْتَ، وَتَنْسَى كَيْفَ تَكُونُ".

أَطَالَ نُعْمَانُ النَّظَرَ فِي عَيْنَيْهَا، وَفِي قَلْبِهِ شَيْءٌ يَنْفَكُّ، وَهَمَسَ:

" أَتَعْلَمِينَ؟ لَوْ كَانَ لِكُلِّ شَكٍّ نَاصِحٌ مثلكِ، لَمَا ضَلَّتِ القُلُوبُ كَثِيرًا".

ثُمَّ ضَحِكَ نُعْمَانُ ضَحْكَةً خَفِيفَةً، تَذَبْذَبَتْ بَيْنَ وَجَلٍ يَخْفِقُ فِي الصَّدْرِ، وَتَوقٍ يُلَامِسُ طَرَفَ الحُلْمِ. لَمْ تَكُنْ ضَحْكَةَ سُرُورٍ، بَلْ ضَحْكَةَ مَنْ يُقْنِعُ نَفْسَهُ بِالْخُطْوَةِ وَهُوَ يَرْتَجِفُ.

قَالَ، وَصَوْتُهُ كَمَنْ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُخَاطِبُهَا:

" غَدًا... سَأَقْصِدُ الأُسْتَاذَ بَعْدَ المُحَاضَرَةِ، وَأَسْأَلُهُ سُؤَالًا... لِيُسَاعِدَنِي فِي إِيجَادِ خُطَّةٍ أَمْشِي عَلَيْهَا. لَا بُدَّ أَنَّهُ صَادَفَ كَثِيرِينَ مِمَّنْ هُمْ مِثْلِي... طُلَّابٌ جَاءُوا بِدَرَجَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فِي الفَرْعِ العِلْمِيِّ، وَلَكِنَّهُم، عِنْدَ البَدَايَةِ، تَخَبَّطُوا".

فَارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ مُنَى بَسْمَةٌ مِلْؤُهَا الطُّمَأْنِينَةُ، وَضَحِكَتْ بِلُطْفٍ، كَأَنَّهَا تَسْتَدْعِي النُّورَ فِي مَكَانٍ يُرِيدُ أَنْ يَظَلَّ مُعْتِمًا.

أَشَارَتْ بِإِصْبَعِهَا إِلَى صَدْرِهِ، الَّذِي بَدَأَ يَرْتَفِعُ وَيَهْبِطُ كَمَوجٍ خَفِيٍّ تَحْتَ رِيحِ خَجُولَةٍ، وَقَالَتْ بِصَوْتٍ يَشِي بِالْعَذْبِ وَالحَازِمِ فِي آنٍ:

" لَا تَكُنْ وَجِلًا مَعَ العِلْمِ، كُنْ صَادِقًا... فَقَطْ".

تَوَقَّفَ الزَّمَنُ لَحْظَةً... كَأَنَّ كَلِمَتَهَا لَمْ تَكُنْ نَصِيحَةً، بَلْ مِرْآةً رَأَى فِيهَا نُعْمَانُ نَفْسَهُ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ، لَا كَمَا يَخَافُ أَنْ يَكُونَ.

فِي صَبَاحِ اليَوْمِ التَّالِي، وَفِي خُطًى تَخْتَلِطُ فِيهَا العَزِيمَةُ بِالتَّرَدُّدِ، رَافَقَتْ مُنَى نُعْمَانَ إِلَى مَكْتَبِ الأُسْتَاذِ عَاصِمِ بِيطَارِ.

كُرْسِيٌّ جِلْدِيٌّ سَاكِنٌ، وَكُتُبٌ تَتَنَاثَرُ عَلَى الرُّفُوفِ كَأَنَّهَا تَهْمِسُ بِعِلْمٍ قَدِيمٍ، وَسَاعَةُ الحَائِطِ تُطْلِقُ نَبْرَةً مُنَظَّمَةً تُذَكِّرُ بِالْوَقْتِ... كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يُضَافِرُ المَكَانَ بِهَيْبَةٍ لَا تُخْفِي أَنَّهَا تُرْهِبُ القَادِمَ الجَدِيدَ.

طَرَقَ نُعْمَانُ البَابَ بِخَفَرٍ، فَأَذِنَ لَهُمَا الأُسْتَاذُ بِالدُّخُولِ، وَبَعْدَ تَحِيَّةٍ مُهَذَّبَةٍ، جَلَسَا أَمَامَهُ، ثُمَّ قَالَ نُعْمَانُ بِصَوْتٍ خَفِيٍّ، يَسْتَأْذِنُ بِهَا:

" أَعْتَذِرُ، أُسْتَاذِي، إِنْ سَمَحْتَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكَ بِاللَّهْجَةِ العَامِّيَّةِ... فَاللُّغَةُ، وَخُصُوصًا النَّحْوُ، تَصِيرُ عَلَيَّ أَثْقَلَ مِمَّا تَتَصَوَّرُ".

انْفَرَجَ وَجْهُ الأُسْتَاذِ عَاصِمِ، وَلَمْ تَبْدُ فِي عَيْنَيْهِ أَيَّةُ دَهْشَةٍ، بَلْ رَفَعَ نَظَّارَتَهُ قَلِيلًا وَقَالَ بِنَبْرَةٍ هَادِئَةٍ:

" كُلُّنَا مَرَرْنَا مِنْ هُنَا، يَا نُعْمَانُ. النَّحْوُ عَنِيدٌ فِي البِدَايَةِ، وَلَكِنَّهُ يُصَادِقُ مَنْ يَصْبِرُ عَلَيْهِ".

أَخَذَ نُعْمَانُ نَفَسًا عَمِيقًا، وَشَرَحَ لَهُ بِإِخْلَاصٍ كَيْفَ يَشْعُرُ بِالضَّيَاعِ فِي قَاعَاتِ الدِّرَاسَةِ، وَكَيْفَ يُصْغِي لِكَلِمَاتِ النَّحْوِ كَمَنْ يُصْغِي لِطَلَاسِمٍ تُتْلَى فِي لُغَةٍ غَرِيبَةٍ عَنْهُ.

صَمَتَ الأُسْتَاذُ قَلِيلًا، كَأَنَّهُ يُقَلِّبُ فِي ذَاكِرَتِهِ قِصَصًا شَبِيهَةً، ثُمَّ قَالَ:

" إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَتَعَلَّمَ بِجِدٍّ، وَتَتَفَوَّقَ، فَإِنَّنِي أَقْتَرِحُ عَلَيْكَ خُطَّةً مَجْدُولَةً... نَمْشِي فِيهَا مَعًا، خُطْوَةً فَخُطْوَةً. لَيْسَ الأَهَمُّ مَا حَصَلْتَ عَلَيْهِ فِي الثَّانَوِيَّةِ، بَلْ مَا تَسْعَى إِلَيْهِ الآنَ".

نَظَرَ نُعْمَانُ إِلَى مُنَى، فَوَجَدَ فِي عَيْنَيْهَا ضِيَاءً يُشْبِهُ ضَوْءَ صَبَاحٍ بَعْدَ لَيْلٍ طَوِيلٍ. أَمَّا هُوَ، فَلَمْ يَعُدْ يُحِسُّ بِالْوَجَلِ كَمَا كَانَ... بَلْ بِرَغْبَةٍ صَادِقَةٍ فِي أَنْ يَبْدَأَ.

فِي الأَيَّامِ التَّالِيَةِ، لَمْ يَكُنْ نُعْمَانُ ذَاتَ الطَّالِبِ الَّذِي كَانَ يَتَخَفَّى فِي زَوَايَا القَاعَةِ، يَتَجَنَّبُ أَنْ تَقَعَ عَيْنُ الأُسْتَاذِ عَلَيْهِ. بَلْ أَصْبَحَ يَجْلِسُ فِي الصُّفُوفِ الأَمَامِيَّةِ، وَقَلْبُهُ يَخْفِقُ، لَكِنْ بِرَجَاءٍ هَذِهِ المَرَّةِ، لَا بِخَوْفٍ.

عَلَّقَ الأُسْتَاذُ عَاصِم يَوْمًا، وَهُوَ يَسْتَعْرِضُ تَحْلِيلًا نَحْوِيًّا جَرِئًا قَدَّمَهُ نُعْمَان:

" أَنْتَ تَكْتُبُ كَمَنْ كَانَ يَخَافُ القَلَمَ، ثُمَّ صَارَ يُغَازِلُهُ"!

ضَحِكَ الطُّلَّابُ، وَاحْمَرَّ وَجْهُ نُعْمَان، لَكِنَّهُ لَمْ يُخْفِ ابْتِهَاجَهُ... فَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ يُشَارُ إِلَيْهِ فِي مَحضَرِ العِلْمِ كَمَنْ يَسْتَحِقُّ ذِكْرًا.

بَعْدَ المُحَاضَرَةِ، كَانَتْ مُنَى، وَقَدْ بَدَتْ فِي عَيْنَيْهَا مَسَرَّةٌ لَا تُخْفَى.

قَالَتْ وَهِيَ تَسِيرُ إِلَى جَانِبِهِ:

" أَرَأَيْتَ؟ كَانَ فِيكَ كُلُّ هَذَا، وَلَمْ تَرَهُ".

فَقَالَ وَهُوَ يَتَنَفَّسُ الصَّدْرَاءَ بَعْدَ مَشَقَّةٍ:

" كَأَنِّي أَكْتَشِفُ لُغَتِي مِنْ جَدِيد... كَأَنِّي أَتَعَلَّمُ كَيْفَ أَفْهَمُ نَفْسِي".

اِسْتَيْقَظَ والدُها مُبَكِّرًا كعادته، وَدَعَاهَا بِصَوْتٍ هادئٍ لِتَنَاوُلِ طَعَامِ الإفْطَارِ قَبْلَ أَنْ تَذْهَبَ إلى الْجَامِعَةِ. كانَ الصُّبْحُ نَضِرًا، تَنْسَابُ فِيهِ رَوَائِحُ الخُبْزِ الدَّافِئِ وَأَصْوَاتُ العَصَافِيرِ فِي الْبُسْتَانِ الصَّغِيرِ خَلْفَ الْبَيْتِ.

جَلَسَ بِهُدُوءٍ إِلَى الطَّاوِلَةِ، وَمَا إِنْ انْتَلَفَتْ كَلِمَاتُهُ حَتَّى مَالَ نَحْوَهَا بِوُدٍّ وَقَالَ، وَفِي صَوْتِهِ نَفَحَاتٌ مِنْ ذِكْرَيَاتٍ بَعِيدَة:

ـ "وَجَدْتُ مَعْهَدًا فِي دِمَشْقَ يُسَمَّى (*مَعْهَد الجُمْهُورِيَّة*)
يُدَرِّسُ فِيهِ أُسْتَاذٌ دُكْتُورٌ كَانَ زَمِيلِي حِينَ كُنَّا نَدْرُسُ فِي فَرَنْسَا.
تَحَدَّثْتُ إِلَيْهِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ دَوْرَةً مُكَثَّفَةً سَتَبْدَأُ غَدًا...
الدَّوَامُ ليس طَويلاً نِسْبِيًّا، حَوَالَي ثلاث سَاعَاتٍ مسائية يَوْمِيًّا،
لكن لا يَتَخَلَّلُهُ فَتَرَاتٌ لِلطَّعَامِ وَلا للاِسْتِرَاحَة.
أَمَّا الْمُدَّةُ فَسِتَّةُ أَشْهُرٍ فَقَط،
وَإِذَا رَغِبْتُمَا بِالْمَزِيدِ مِنَ التَّدْرِيبِ،
فَبِإِمْكَانِكُمَا الالْتِحَاقُ بِدَوْرَةٍ ثَانِيَةٍ مُمَاثِلَةٍ".

ثُمَّ مَالَ بِرَأْسِهِ قَلِيلًا نَحْوَ "مُنَى"، وَفِي عَيْنَيْهِ بَرِيقُ التَّشْجِيعِ، وَسَأَلَهَا بِابْتِسَامَةٍ أَلِيفَةٍ:

ـ "مَا رَأْيُكِ؟"

حَضَرَ "نُعمانُ" عَلَى صَوْتِهَا الْمُرْتَفِعِ الذي ناداه باستبشار وبهجة، كَأَنَّهُ اسْتُدْعِيَ مِنْ أَفْكَارِهِ خِلَالَ اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا.
نَظَرَ إِلَى السَّيِّدِ "أَحْمَد" وَرَفَعَ حَاجِبَيْهِ بِهُدُوءٍ، كَمَنْ يُخْفِي دَهْشَتَهُ السَّعِيدَةَ،
ثُمَّ قَالَ وَفِي صَوْتِهِ نَفَسٌ دَافِئٌ يُشْبِهُ ابْتِسَامَةً تَشُقُّ قَلْبًا طَالَمَا تَمَنَّى:

ـ "لَا مُشْكِلَةَ أَبَدًا... بَلْ، فِي الْحَقِيقَةِ، كُنْتُ أَحْلُمُ بِمِثْلِ هٰذَا النَّوْعِ مِنَ العَمَلِ وَالدِّرَاسَةِ.
وَقَدْ تَحَدَّثْتُ مَعَ "مُنَى" سَابِقًا عَنْ هٰذَا الْمَوْضُوعِ".

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْهَا، يَسْأَلُهَا أَوَّلًا بِعَيْنَيْهِ،
كَمَنْ يُقَدِّمُ لِقَلْبٍ آخَرَ حَقَّ الاخْتِيَارِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ كَلِمَاتُهُ:

ـ "مَا رَأْيُكِ، مُنَى؟"

صَمَتَتْ "مُنَى" لَحْظَةً، كَأَنَّ السُّؤَالَ جَعَلَهَا تَتَنَبَّهُ لِعُمْقِ الْخُطْوَةِ الَّتِي تَسِيرُ نَحْوَهَا،
ثُمَّ رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا نَحْوَ "نُعْمَان"، وَفِي نَظْرَتِهَا مَزِيجٌ مِنَ الْامْتِنَانِ وَالتَّوَجُّسِ، كَأَنَّهَا تَقُولُ فِي سِرِّهَا :
"أَتَفْهَمُنِي إِلَى هٰذَا الْحَدِّ؟"

وَبِصَوْتٍ خَفِيفٍ، لَكِنَّهُ مُمْتَلِئٌ بِالْقَرَارِ، نَطَقَتْ:

ـ "أُرِيدُ هٰذِهِ الْفُرْصَةَ، وَسَأَسْتَثْمِرُهَا عَلَى طَرِيقَتِي.
لَا أُرِيدُ أَنْ أُشْبِهَ أَحَدًا، وَلَا أَنْ أُرْضِيَ أَحَدًا... سِوَى نَفْسِي".

ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى وَالِدِهَا، وَفِي وَجْهِهَا ذَاكَ الضَّوْءُ الَّذِي يَلُوحُ فِي عَيْنَيْ فَتَاةٍ تَخْطُو أَوَّلَ خُطُوَاتِهَا نَحْوَ حُلْمٍ شُجَاعٍ:

ـ "سَأُشَارِكُ فِي الدَّوْرَةِ، وَسَأَخْتَارُ مَا أُرِيدُ أَنْ أَتَعَلَّمَهُ. وَإِذَا تَطَلَّبَ ذٰلِكَ تَغْيِيرًا، فَلْيَكُنْ".

تَبَادَلَ "نُعْمَانُ" وَ"السَّيِّدُ أَحْمَد" نَظْرَةً خَفِيَّةً، فِيهَا مَا يُشْبِهُ الِارْتِيَاحَ، وَشَيْءٌ آخَرَ كَانَ يَلُوحُ فِي الأُفُقِ: نُقْطَةُ بِدَايَةٍ جَدِيدَةٍ.

ـ "وأنا موافقة... بشرطٍ واحد".

نظرَ إليها والدُها وقد ارتسمتْ على وجهِه ملامحُ الاستفهام:

ـ "وما هو؟"

قالت ممازِحةً:
ـ "أن لا تُراقبَ رسوماتِنا، كما كنتَ تفعلُ مع لوحاتي حينَ كنتُ في المدرسةِ"!

ضحكَ الجميع، وانفرجَ الجوُّ بشيءٍ من الدعابةِ التي بدّدتْ رسميّةَ الحديث.

أخرجَ السيّد أحمدُ ورقةً من جيبِه، وناولَها لنُعمان:

ـ "إِذًا، عَلَيْكُمَا أَنْ تَكُونَا فِي الْمَعْهَدِ غَدًا، عِنْدَ السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ مَسَاءً. هٰذَا هُوَ الْعُنْوَانُ مَكْتُوبٌ فِي هٰذِهِ الْوَرَقَةِ، وَسَأَتَّصِلُ بِالأُسْتَاذِ لِأُخْبِرَهُ بِمَجِيئِكُمَا".

مَدَّ الْوَالِدُ الْوَرَقَةَ نَحْوَ "نُعْمَان"، فَأَخَذَهَا بِكِلْتَا يَدَيْهِ، كَمَنْ يَتَسَلَّمُ تَذْكِرَةً لِرِحْلَةٍ لَا يُدْرِكُ أَيْنَ تَنْتَهِي.

هَمَسَ بِامْتِنَانٍ خَفِيٍّ، وَفِي عَيْنَيْهِ نُقْطَةُ ضَوْءٍ بَدَتْ كَأَنَّهَا تَشِعُّ مِنْ أَعْمَاقِ فُؤَادِهِ:

ـ "شُكْرًا لَكُمْ... أَشْعُرُ أَنَّنِي عَلَى أَعْتَابِ تَجْرِبَةٍ جَدِيدَةٍ، فِيهَا مِنَ الْفَنِّ، كَمَا فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ".

فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ التَّالِي...

بَعْدَ أَنْ حضَرَا مُحاضَرَاتِهِمَا الصَّبَاحِيَّة، وَاسْتَرَاحَا قَلِيلًا بَعْدَ الْغَدَاءِ، كَانَتْ سَيَّارَةُ الأُجْرَةِ تَتَجَهَّمُ طَرِيق "حَيِّ المَزْرَعَةِ"، تَحْمِلُ فِي جَوْفِهَا حُلْمَيْنِ يَسِيرَانِ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ، كَأَنَّهُمَا نَبْتَتَا مِنْ تُرْبَةٍ وَاحِدَةٍ.

تَسَلَّلَ ضَوْءُ شَمْسِ كَانُونَ الثَّانِي ذَاتِ الغُيُومِ الثَّقِيلَةِ إِلَى أَرْصِفَةِ دِمَشْقَ القَدِيمَةِ، يُلَامِسُهَا بِرِقَّةِ مَنْ يُودِّعُ مَنْ يُحِبُّهُ قُبَيْلَ الغُرُوبِ.

كَانَ "نُعْمَانُ" يُحَدِّقُ مِنَ النَّافِذَةِ بِصَمْتٍ، وَعَلَى وَجْهِهِ مَا يُشْبِهُ خَلِيطًا مِنَ الحَيَاوَةِ وَالْتَرَقُّبِ، فَكَأَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يُخَزِّنَ فِي ذَاكِرَتِهِ مَا يَمُرُّ بِهِ الطَّرِيقُ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ مَا لَا يُعْرَفُ كَيْفَ يَكُونُ.

وَإِلَى جَانِبِهِ، كَانَتْ "مُنَى" تُقَلِّبُ فِي دَفْتَرٍ صَغِيرٍ، رَسَمَتْ عَلَيْهِ فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ مَخَطَّطًا بَدَائِيًّا لِبَيْتٍ ذِي طَابِقَيْنِ، يُشْبِهُ بَيْتًا مِنْ حُلْمٍ أَكْثَرَ مِمَّا يُشْبِهُ مَبْنًى عَلَى وَرَقٍ.

أَشَارَتْ إِلَى الرَّسْمِ بِإِصْبَعِهَا، وَقَالَتْ بِنَبْرَةٍ فِيهَا خَفَرٌ وَعَتَبٌ مَرِحٌ:

ـ "أَتَعْلَمُ، يَا نُعْمَان؟ فِي صِغَرِي، كُنْتُ أُعِيدُ تَرْتِيبَ أَثَاثِ غُرْفَتِي فِي خَيَالِي عَشْرَ مَرَّاتٍ قَبْلَ أَنْ أَطْلُبَ مِنْ وَالِدِي تَغْيِيرَ مَوْقِعِ السَّرِيرِ."

اِبْتَسَمَ "نُعْمَانُ"، وَهَمَسَ بِتَعَاطُفٍ خَفِيٍّ:

ـ "إِذَنْ... كَانَتِ الْمُهَنْدِسَةُ الصَّغِيرَةُ فِيكِ تُقَاوِمُ بِصَمْتٍ، مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ."

ضَحِكَتْ "مُنَى" بِهُدُوءٍ، وَقَالَتْ، وَفِي صَوْتِهَا لَمْعَةُ دُعَابَةٍ:

ـ "وَأَنْتَ؟ مَنْ كَانَ يَسْكُنُ فِيكَ؟"

أَطَالَ "نُعْمَانُ" النَّظَرَ قَلِيلًا نَحْوَ نِهَايَةِ الشَّارِعِ، ثُمَّ تَنَهَّدَ كَمَنْ يَنْبُشُ ذَاكِرَةً لَمْ يُجَرِّبْهَا مِنْ قَبْلُ:

ـ "رُبَّمَا... طِفْلٌ كَانَ يَحْلُمُ بِبَيْتٍ لَهُ شُرْفَةٌ تُطِلُّ عَلَى نَهْرٍ... دُونَ أَنْ يُطْرَدَ مِنْهَا."

سَكَتَتْ "مُنَى" لَحْظَةً، كَأَنَّهَا قَرَأَتْ مَا لَمْ يُقَلْ، ثُمَّ مَسَحَتْ عَلَى يَدِهِ بِخِفَّةٍ، وَفِي صَوْتِهَا نَبْضُ وَعْدٍ:

ـ "سَنَرْسُمُ لَكَ شُرْفَةً... تَلِيقُ بِحُلْمِكَ."

تَوَقَّفَتِ السَّيَّارَةُ أَمَامَ مَبْنَى "مَعْهَدِ الجُمْهُورِيَّةِ"، بِنَائِهِ الأَبْيَضِ القَدِيمِ، وَأَشْجَارِ السَّرْوِ الَّتِي تُطَوِّقُهُ بِهَيْبَةٍ صَامِتَةٍ.

عِنْدَ الْمَدْخَلِ، كَانَتْ لَافِتَةٌ خَشَبِيَّةٌ كُتِبَ عَلَيْهَا بِخَطٍّ أَنِيقٍ:

"مَعْهَدُ الجُمْهُورِيَّةِ."

دَخَلَا سَوِيًّا، وَفِي خَطَوَاتِهِمَا ذَاكَ المَزِيجُ مِنَ الحَذَرِ وَالحُلْمِ.

فِي مَكْتَبِ التَّسْجِيلِ، استقبلهما رَجُلٌ مُتَبَسِّمٌ، يُقَلِّبُ بَعْضَ المِلَفَّاتِ وَهُوَ يَقُولُ:

ـ "أَنْتُمَا الطَّالِبَانِ الجُدُد اللَّذَانِ أَرْسَلَهُمَا الأُسْتَاذُ أَحْمَد، صَحِيح؟"

أَوْمَأَ "نُعْمَانُ" بِسُرْعَةٍ، وَقَالَ وَهُوَ يُقَدِّمُ نَفْسَيهُمَا:

ـ "نَعَمْ، هٰذِهِ مُنَى، وَأَنَا نُعْمَان."

بعد تسجيل البيانات، ضغط على زر جرس صغير إلى مكتبه

نظرتْ منى إلى نُعمان وغمزَتْ همسًا:

ـ "يعني ممنوع نرسم قلوباً على الهامش"!

ضحكَ بخفّةٍ، ثم أردف بنبرةٍ واثقة:

ـ "ولا حتى شُرفاتٍ على شكلِ أجنحةِ طيرٍ".

وحضر شاب يرتدي زي المعهد وطلب أن يرافقاه إلى القاعة المخصصة لهما.

صعدا الدّرجاتِ معًا. كان في الرواق عبقُ طبشورٍ قديمٍ، مختلطٍ برائحةِ خشبِ الألواحِ الهندسيّة. طلابٌ وموظفون يتنقّلون بصمتٍ شبهِ رسمي، وهدوءٌ يكاد يُشبهُ صالاتِ المكتبات.

في قاعةِ المحاضرات، جلسا قربَ بعضِهما، وضَعَتْ منى دفترَها على الطاولةِ، وأخرجَ نُعمانُ قلمًا رصاصيًّا داكنًا، كأنَّهُ يُعلنُ بدايةَ مرحلةٍ جديدة.

دخلَ الدكتور رياض، ببدلتِه الرماديّة، ونظّارتِه ذاتِ الإطارِ المعدنيِّ. وقفَ أمامَ اللوحِ، ونظرَ إلى الطلاب، ثمّ قال بصوتٍ جهوريّ:

ـ "أهلاً بكم في دورتِكم المكثّفة في التصميمِ المعماريّ. هنا، لا نرسمُ جدرانًا فقط، بل نُعيدُ صياغةَ المعنى بين الضوءِ والظلِّ، بينَ الفكرةِ والانحرافِ المدروس".

تبادلت منى ونُعمان نظرةً سريعة، كأنّ شيئًا في كلامه مسَّ فيهما وترًا عميقًا.

قال نُعمان هامسًا:

ـ "أشعرُ أنني أخيرًا وصلتُ إلى ورشةٍ سأتعلّمُ فيها كيف أُهندسُ أحلامي".

همستْ منى، وعيناها تلمعان:

ـ "ونحنُ سنكونُ فريقًا... أليس كذلك؟"

أجابَ بابتسامةٍ:

ـ "بلى، فريقٌ... يرسمُ، ويعيش".

مَضى شهرٌ كاملٌ منذُ أن باشرَ نُعمانُ ومُنَى دورتَهما في الرَّسمِ الهندسيِّ والمعماريِّ،

وخَصَّصَ السَّيِّدُ أَحْمَدُ لِنُعمانَ جَناحًا مُنفَصِلًا في المَنْزِلِ، كانَ عِبارَةً عن غُرْفَةِ نَوْمٍ تَحْتَوي مَكْتَبَةً بَسيطَةً، ومَكْتَبًا لِلدِّراسَةِ، وَطاوِلَةً خاصَّةً لِتَنْفيذِ الرُّسومِ الهَنْدَسِيَّةِ الَّتي يُكَلِّفُهُ بِها السَّيِّدُ أَحْمَدُ، إلى جانِبِ سَريرٍ لِلنَّوْمِ، وَخِزانَةٍ خَشَبِيَّةٍ لِلمَلابِسِ، مُلْحَقٍ بِه حَمّامٌ وَمَطْبَخٌ صَغيرٌ، فَكانَ يَجِدُ في هذا كُلَّ ما يُيَسِّرُ لَهُ عَمَلَهُ وَدِراسَتَهُ، وَأَوْقاتاً لِلمُطالَعَةِ وَالانْفِرادِ بِنَفْسِهِ.

كانا يُواصِلانِ التَّعلُّمَ بِشغفٍ يومًا بعد يوم، تحتَ سقفِ "معهد الجمهوريّة"، في صالةٍ تعجُّ بالمساطرِ المِعمارية، ونماذجِ الأبنيةِ التي وُلِدَت على أوراقٍ بيضاءَ قبل أن تحيا في الواقع.

وفيما كانتِ الأيّامُ تمضي سريعًا، تُقلِّبُ صفحاتِ التقويمِ بأصابعِ الربيعِ الأولى، عادَت الجامِعةُ تفتحُ أبوابَها من جديد. مَقاعدُ الدراسةِ، ودفاترُ المُحاضرات، وأروقةُ الكليّة التي اشتاقتْ لأقدامِ الطُّلاب، عادت لتخفقَ بالحياة.

ذاتَ مساءٍ، وبينما كانا يجلسانِ معًا في الزّاوية المعتادة من مكتبةِ ببيتِ والدِها، رفعتْ مُنَى عينيها عن دفترِ الملاحظاتِ، وقالت بنبرةٍ هادئةٍ، كأنّها تُخاطبُ فكرةً فكّرت فيها طويلًا:

ـ « نُعمان... ماذا لو تابعْتَ أنتَ وحدكَ في الدَّورة، وأنا أعودُ لحضورِ المحاضراتِ في الجامعة؟»

رمشَ نُعمانُ بدهشةٍ، وحدّقَ فيها للحظةٍ، قبل أن يضعَ القلمَ جانبًا ويقول بصوتٍ خفيضٍ:

ـ « تتوقّفينَ عن الدورة؟ لِمَ؟ أَلَمْ تَقولي إنّها تُرضي فيكِ جانبًا كنتِ تجهلينه؟»

أجابتْ وهي تُمرّرُ أصابعَها على طرفِ صفحةٍ رُسِمَ عليها مخطّطٌ لدرجٍ حلزونيّ:

ـ « بلى... وأنا ما زلتُ أحبُّها. لكنّ الدّوامَ في المعهدِ طويلٌ وشاق، ومحاضراتُ الكليّة بدأت تشتد صعوبة، لا أُريدُ أن أُهملَ إحداهما على حسابِ الأخرى. أنتَ تُحبُّ هذا النوعَ من الدراسةِ أكثر، وقد تكونُ بحاجةٍ له أكثرَ مني الآن... ما رأيك؟»

صمتَ نُعمانُ قليلًا، تأمّلَ تعبيرَ وجهِها الهادئ، ثمّ قالَ بنبرةٍ أقرب إلى الشّكر منها إلى القبول:

ـ « أَخشى أن أُفوّتَ عليكِ شيئًا جميلاً... لكنّكِ على حق. يُمكنني أن أُتابعَ، وأُنقلَ لكِ ما أستطيعُ مساءً. وربّما نُحاولُ تصميمَ بعضِ التمارينِ معًا هنا، كأننا ما زلنا على نفسِ المقعد».

ابتسمتْ، وقالتْ وهي تُدوِّن في هامشِ الصفحة:

ـ « هذا أفضلُ توزيعٍ ممكن... وسأُعتمدُ عليكَ كمصدرٍ موثوق»!

ضحكَ نُعمانُ بخفّةٍ، ثمّ أضاف:

ـ « لكنْ لي شَرْط».

رفعتْ حاجبَها باستغرابٍ لطيف:

ـ « شَرط؟ ما هو؟»

قال مبتسمًا، وهو يُنصتُ إلى صوتِ رياحِ تشرينَ وهي تحرِّكُ ستائرَ النّافذة:

ـ « أنْ تَسمحي لي، عندما نُعيدُ رسمَ كلّ تفصيلٍ، أن أضعَ نافذةً صغيرةً تُطِلُّ على قلبِكِ... حتى لا تغيبَ عنّي التفاصيلُ الجميلة».

ضحكتْ منى، ثمّ همست:

ـ «وافقتُ... على الشَّرطِ، وعلى أن أكونَ نافذةَ النُّورِ في دُروسِك».

وبدآ منذ تلك الليلةِ نظامًا جديدًا:

في الصّباح، يذهبان معاً إلى مدرّجاتِ الجامعةِ، يصغيان إلى المحاضرات، ويُسجِّلان ما يُدركانه من تفاصيلِ "الأدبِ الاسلامي" و"البلاغة" و"النحو" و باقي المواد الدراسية."
وهو يُكمِلُ الدّورةَ في المساء بتفانٍ، يُدوِّن الملاحظاتِ، يلتقطُ الصُّورَ، ويجمعُ ما استطاعَ من الأمثلةِ.
وهي،

وفي المساءِ، يعودانِ إلى الزّاويةِ ذاتِها... على طاولةِ الخشبِ العتيقِ، وتحتَ ضوءِ المصباحِ الأصفر، يلتقي العِلمُ بالفنِّ، وتندمجُ الكلماتُ بالخطوط، وتُعاد صياغةُ المعرفةِ كما لو كانت لوحةً تُرسَمُ بقلبينِ اثنين

في صَباحِ سبتٍ رماديِّ الظِّلالِ، يخرجَ نُعمانُ من بيتِه مبكرًا، يُرافقُهُ صَمتُ الأزقّةِ المُبلّلةِ بندى آذار، ودفءُ فنجانِ القهوةِ الذي أعدّته له والدتُه وهمستْ له بدعائها المعتاد:

- "اللّهُ يفتحها بِوَجهك يا بُنَيَّ..."

وفي السّاعة الثامنةِ تمامًا، كان يَجلسُ على المقعدِ الخشبيِّ وإلى جواره منى، في القاعةِ الرابعة في كلية الآداب

وفي الخامسة مساءً يجلس منفرداً على المقعدِ الخشبيِّ في قاعةِ الرَّسمِ الكبرى في "معهد الجمهوريّة"، محاطًا بأصواتِ الأقلامِ وهي تنحتُ خطوطَها الأولى فوق الورقِ السميك، وبهمهماتِ الطلابِ وهم يُقلّبونَ بين المساطرِ والقياسات.

رفعَ رأسَهُ فجأةً حين سألَهُ الأستاذُ ذو اللّكنةِ الثقيلة:

- "Numan... quel est le centre visuel dans cette élévation؟"

أجابَ نُعمانُ بثقةٍ بعد لحظةِ صمتٍ:

- "المركزُ البصريُّ هو البوّابةُ المُقوّسةُ في منتصفِ الجدارِ الأماميّ، وقد حافظتْ على تناسقِها مع خطِّ الظلّ في واجهةِ الزاويةِ اليمنى."

أومأ الأستاذُ برأسه مُعجبًا، وقال:

- "Très bien, continuez."

وفي السّاعةِ الثامنةِ مساءً، حينما بدأ الظلّامُ يمتدُّ فوق أرصفةِ الشّام، كانَ نُعمانُ يُغلقُ دفترَهُ ويخرجُ من المعهدِ مُتّجهًا نحوَ بيتِ السيّد أحمد.

في غرفةِ المكتبةِ الدّافئةِ، كانت "مُنى" تَنتظرهُ وقد فرغتْ لتوّها من إعدادِ إبريقِ شايٍ أخضرٍ بالنعناع.

قالت وهي تُشير إلى دفتَرها المفتوح:

- "في محاضرةِ اليوم، ناقشنا النّقلة في بناءِ القصيدةِ الاسلاميّة... من الطّلل إلى الحِكمة. وسألنا الدكتور عن بيتِ زهير بن أبي سُلمى:

ومَن لا يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ... يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بِمَنسمِ.

فتحدّثنا عن الحنكةِ السياسيةِ في الشّعر... هل قرأتَ شيئًا عن هذا؟"

جلسَ نُعمانُ على الكرسيِّ المقابلِ، وضعَ حقيبتَهُ جانبًا، وقال:

ـ "صادفَ أن تحدّثنا اليوم عن تصميمِ الأبنيةِ الحكوميةِ، وعن كيفيّةِ إبرازِ الهيبةِ عبرَ التّكوينِ البصريّ... فخطرتْ لي تلك الأبياتُ أثناء الشّرح."

أومأتْ منى، وقالت ضاحكةً:

ـ "إذًا... نُعمان يدمجُ زهيرًا بابنِ جنّي، وأبو تمام بخطِّ الواجهةِ! هذا إنجاز!"

أجابها مبتسمًا:

ـ "أتعلمين؟ كلّما رسمتُ واجهةً، تذكّرتُ معلّقةً... وكلّما قرأتُ قصيدةً، رأيتُ نافذةً تُفتحُ على العالَم."

ثمّ جلسا، وراحا يُراجعان معًا تمارين اليوم. كانت منى تُدوّن ما يقوله، وتسأله عن نوعِ الظلالِ المُناسبةِ لزوايا الضوء في الرسمة، في حين كان هو يسألها عن مفهومِ النّقلةِ الموضوعيةِ في المقدماتِ الطللية.

وفي آخرِ الجلسة، ساد صمتٌ خفيفٌ، فقال نُعمان بصوتٍ خافتٍ:

ـ "منى... لا أدري إنْ كنتِ تشعرينَ بما أشعرُ به... لكنّني أكتشفُ شيئًا جديدًا عن ذاتي كلّما جلسنا هنا."

أجابتْ وهي تَنظرُ في دفترِ ملاحظاتها:

ـ "بل أشعر، يا نُعمان... وأظنُّ أنّنا معًا... لا ندرسُ فحسب، بل نُعيدُ ترتيبَ الحياةِ من جديد."

وَفِي أَحَدِ أَمَاسِي الربيعِ الأُخيرة، عَادَ نُعمَانُ مُتْعَبًا، يَحمِلُ بِيَدِهِ لُفَافَةً طَوِيلَةً مِنَ الْأَوْرَاقِ الْمَسْطُورَةِ بِأَقْلَامِ الرَّصَاصِ، وَفِي عَيْنَيْهِ نُقْطَةُ ضَوْءٍ تُشْبِهُ خَيَالًا لِفَجْرٍ قَادِمٍ.

اِسْتَقْبَلَتْهُ "مُنَى" فِي غُرْفَةِ الدِّرَاسَةِ الَّتِي جَعَلَهَا السَّيِّدُ "أَحْمَد" خَاصَّةً لَهُمَا، كَانَتْ الغُرْفَةُ تَفُوحُ بِرَائِحَةِ الكُتُبِ الْقَدِيمَةِ وَالْقَهْوَةِ السَّاخِنَةِ، وَيَتَدَلَّى مِنْ سَقْفِهَا مِصْبَاحٌ نَحَاسِيٌّ يَنْثُرُ نُورَهُ عَلَى الْمَكْتَبِ الْوَسِيعِ.

قَالَ نُعْمَانُ وَهُوَ يَفْرُدُ الْمُخَطَّطَ عَلَى الطَّاوِلَةِ:

ـ "أَنْظُرِي، هَذَا الْمَشْرُوعُ الَّذِي طَلَبَهُ مِنَّا الْمُهَنْدِسُ فِي الْمَعْهَدِ... أَرَادَنَا أَنْ نُخَطِّطَ نَمُوذَجًا لِمَكْتَبَةٍ عَامَّةٍ، تَجْمَعُ بَيْنَ الْوَظِيفَةِ وَالْجَمَالِ، وَقَدْ بَدَأْتُ بِمَسَاحَاتٍ دَاخِلِيَّةٍ تُشْبِهُ ذَاكَ الْفَضَاءَ الَّذِي نَجْلِسُ فِيهِ الآنَ."

نَظَرَتْ "مُنَى" إِلَى الْمُخَطَّطِ بِاهْتِمَامٍ، وَأَشَارَتْ إِلَى تَفَاصِيلَ دَقِيقَةٍ:

ـ "وَهَذِهِ الْمَمَرَّاتُ الضَّيِّقَةُ؟ أَلَا تَظُنُّ أَنَّهَا قَدْ تُصْعِبُ حَرَكَةَ الزُّوَّارِ؟"

أَجَابَهَا بِثِقَةٍ وَصَبْرٍ:

ـ "لَا، هِيَ مَقْصُودَةٌ... لِأَنِّي أُرِيدُ لِكُلِّ زَائِرٍ أَنْ يَمُرَّ بِتَجْرِبَةٍ شِبْهُ خُلْوَةٍ، يُبْحِرُ فِيهَا نَحْوَ أَرْوِقَةِ الْمَعْرِفَةِ، كَمَنْ يَتَجَوَّلُ فِي ذَاكِرَتِهِ."

ضَحِكَتْ "مُنَى"، وَقَالَتْ وَهِيَ تَتَكِئُ عَلَى حَافَّةِ الْكُرْسِي:

ـ "وَأَنَا كُنْتُ أُفَكِّرُ فِي صَفٍّ طَوِيلٍ مِنَ النَّوَافِذِ تُطِلُّ عَلَى حَدِيقَةٍ، لِيَكُونَ الضَّوْءُ جُزْءًا مِنْ نَصِّ الْمَكَانِ، لَا مُجَرَّدَ إِضَاءَةٍ."

ـ "رَائِعٌ... عَلَيْنَا إِذًا أَنْ نَمْزِجَ نَصَّيْنَا، نُصِّي وَنَصَّكِ... فَنُصْبِحَ كَاتِبَيْنِ لِعِمَارَةٍ تُشْبِهُ الحُلْمَ."

سَكَتَا لَحْظَةً، كَأَنَّ الصَّمْتَ أَصْبَحَ جُزْءًا مِنَ الْمِهْنَةِ، ثُمَّ قَالَتْ "مُنَى":

ـ "نُعْمَان... كَمْ غَيَّرَتْنَا هَذِهِ التَّجْرِبَةُ. لَا أَتَحَدَّثُ عَنْ مِهْنَةٍ، بَلْ عَنْ شَيْءٍ أَعْمَقَ... صِرْنَا نَرَى الْمَكَانَ كَحَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ، وَالرَّسْمَ كَلُغَةٍ."

ـ "نَعَم... وَمِنَ الْجَيِّدِ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ أَفْهَمُكِ أَكْثَرَ، حِينَ تَتَحَدَّثِينَ عَنْ بُعْدٍ جَمَالِيٍّ، أَوْ تَضَعِينَ لَفْظَةً فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا قَصْدًا... لِتُحْدِثَ دَهْشَةً."

مَدَّتْ "مُنَى" يَدَهَا لِتُرَتِّبَ أَوْرَاقَ نُعْمَان، وَهَمَسَتْ:

ـ "عَلَيْنَا أَنْ نُنْجِزَ الْمَشْرُوعَ فِي الْمَوْعِدِ... لِنَجْعَلَ أُسْتَاذَكَ الْفَرَنْسِيَّ ذَاكَ يَبْتَسِمُ، وَلِنُخْبِرَ الْمَعْهَدَ أَنَّ فِي مِثْلِ هَذَا التَّعَاوُنِ... وِلَادَةُ نُصُوصٍ جَمَالِيَّةٍ تَفُوقُ الْمِقْيَاسَ."

كانَتِ القاعةُ مضاءةً بإضاءةٍ بيضاءَ ناعمةٍ، تنبعثُ من المصابيحِ المعلّقةِ على السقفِ المعدنيّ، فتنسكبُ فوقَ ألواحِ الرسمِ والطاولاتِ الطويلةِ كضوءِ قمرٍ شتويٍّ صافٍ. وقفَ نُعمانُ إلى جانبِ منى، يضبطُ ياقةَ قميصِه بتوتّرٍ خفيف، بينما كانت منى تمسحُ بقماشٍ قطنيٍّ آخرَ بقعةِ غبارٍ علقتْ على الزجاجِ الذي غطّى مجسّمَهما المُصغَّر.

كانَ المجسَّمُ أمامَهما – مشروعَهما المشترك – يُجسّدُ فكرةَ "الفضاءِ المتنقّلِ داخلَ البيتِ"، حيثُ تتكاملُ خطوطُ العمارةِ الكلاسيكيّةِ مع مفاهيمِ الانفتاحِ الحديثةِ، وتنتقلُ الفكرةُ بسلاسةٍ بينَ الممرّاتِ المُقنطرةِ وغُرَفِ الجلوسِ المفتوحةِ على ضوءِ الحديقةِ الداخليّة.

دَخَلَ الأستاذُ *لوسيان ڤييه*، رجلٌ ستّينيٌّ، أنيقُ الهيئةِ، متأنٍّ في خطواتِه، يحملُ بيدِه كُتيّبًا صغيرًا، ونظّارةً نصفَ طبيّةٍ. كانَ صديقًا قديمًا للسيدِ أحمد، وقد دُعِيَ اليومَ لتقييمِ مشاريعِ الدورةِ نظراً لخبرتِه الطويلةِ في تدريسِ العمارةِ الحديثةِ في جامعاتِ باريس.

اقتربَ ببطءٍ من طاولةِ المشروع، وألقى نظرةً أولى، صامتةً تماماً، ثمّ قال بنبرةٍ فرنسيّةٍ مشبعةٍ بالعربيةِ:

ـ «مَن صاحِبا هذا المشروع؟»

رفعَ نُعمانُ يدَه، وقالَ بِهدوءٍ:

ـ "نَحنُ، يا أستاذ... منى وأنا".

ابتسمَ لوسيان بخفّةٍ، وعدّلَ من وضعِ نظّارتِه، ثمّ أمالَ رأسَه نحو السيدِ أحمد الذي كان يراقبُ من الزاويةِ، وقالَ مازحاً:

ـ «أكُنْتَ تُخْفي طلابًا بهذهِ الموهبةِ عنا يا أحمد؟»

ضحكَ السيدُ أحمد، وأجاب:

ـ "هُم ليسوا طلابًا لديّ... بَعد، لكنّني أراقبُهم عن قُرب".

انحنى الأستاذُ الفرنسيُّ على المجسَّم، وأخذَ يُدقّقُ في الزوايا والتفاصيل، ينقِّلُ نظرَه بينَ خطوطِ الرسمِ، ونسبِ المقياس، وانسيابِ الضوءِ في مُخطّطِ الإضاءة.

ثمّ اعتدلَ في وقفته، ورفعَ حاجبَه الأيسر، وقال:

ـ «فكرةُ العُمقِ المُتعدّدِ في هذا المشروع... مُبْهِرة. مَن اقترحها؟»

تبادَلَ نُعمانُ ومنى نظرةً سريعةً، ثمّ قالت منى مبتسمةً:

ـ "كانتِ الفكرةُ المشتركةُ بيننا، لكنّ نُعمان هو مَن أصرَّ على تجربةِ مفهومِ الحيّزِ المفتوحِ الممتدّ داخل المنزل".

أومأ الأستاذُ بإعجابٍ:

ـ «ذكيٌّ... الحيّزُ في الهندسةِ ليس فقط ما يُبنى، بل ما يُشْعَرُ به... وقد نجحتما في أن تجعلا من هذا النموذج شيئًا يُشْعَرُ به«...

ثمّ أضاف، موجّهًا حديثَه إلى نُعمان:

ـ «هل درستَ العمارةَ من قبل؟«

تردّد نُعمانُ قليلًا، ثمّ أجاب:

ـ "كُنتُ أحلُمُ بها، ثمّ تغيّرَ المسارُ نحو الأدبِ... لكنّني الآنَ أُحاوِلُ أن أستعيدَ شيئًا من ذاكَ الحلمِ، برفقةِ منى".

رمقَ الأستاذُ فيه منى بنظرةٍ طويلةٍ، ثمّ قال:

ـ «عندما يلتقي الحُلمُ بالتصميم، وتلتقي المعرفةُ بالذائقة، يُولَدُ شيءٌ يشبه الفن... هذا العملُ، يا أحمد، ليسَ مشروعَ دورةٍ عاديًّا، بل مسودةُ موهبةٍ يمكن أن تُصقَل«.

تنحنحَ السيدُ أحمد وقالَ:

ـ "أترى يا نُعمان؟ هذه شهادةُ أحد كبار أساتذتي... فافخرْ بها".

ابتسمَ نُعمانُ بخجلٍ، وهمسَ وهو يُديرُ نظَرَه إلى منى:

ـ "لَوْلاها... لما تَجاسَرتُ أن أفتحَ علبةَ ألوانٍ، ولا أن أرسمَ فكرةً على ورقة".

ردّت منى بلهجةٍ واثقةٍ:

ـ "ولولاك... لما التزمتُ بتفصيلةٍ واحدةٍ من هذهِ، ولمَا عرفتُ كيفَ يُترجَمُ الحلمُ إلى شيءٍ ملموس".

فِي إِحْدَى الأَيامِ، وَبَعْدَ أَنْ انْتَهتْ مُحاضَرَةُ النَّحْوِ، ظَلَّ نُعْمانُ فِي مَكَانِهِ، وَبَدَا كَأَنَّ فِي صَدْرِهِ سُؤَالًا يَأْبَى أَنْ يَبْقَى فِي الظُّلُماتِ.

لَمْ يَخْرُجْ مَعَ الطُّلَّابِ، بَلِ الْتَفَتَ نَحْوَ الأُسْتَاذِ عَاصِمٍ وَقَالَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ، لَكِنَّهُ مَشْحُونٌ بِعَزْمٍ دَفِينٍ:

" أُسْتَاذِي، أَسْمَحْ لِي... هَلْ يُمْكِنُ أَنْ أَسْأَلَكَ سُؤَالًا خَارِجَ المُقَرَّرِ؟"

رَفَعَ الأُسْتَاذُ نَظَرَهُ، وَقَرَأَ فِي وَجْهِ نُعْمانَ تَوَقًّا لَا يَخْطِئُهُ المَعْنَى، فَقَالَ:

" فِي العِلْمِ، لَا يُوجَدُ شَيْءٌ خَارِجُ المُقَرَّرِ إِذَا كَانَ السُّؤَالُ صَادِقًا".

قَالَ نُعْمانُ:

" كُنْتُ أَتَفَكَّرُ... هَلِ النَّحْوُ مُجَرَّدُ قَوَاعِدَ لِكِتَابَةٍ صَحِيحَةٍ؟ أَمْ أَنَّهُ شَيْءٌ أَكْبَرُ؟ شَيْءٌ يُشْبِهُ خَرِيطَةَ أَنْفُسِنَا نَحْنُ العَرَبِ؟"

صَمَتَ الأُسْتَاذُ قَلِيلًا، كَأَنَّهُ سَمِعَ مَا كَانَ يَرْجُوهُ مُنْذُ سِنِينَ، ثُمَّ قَالَ:

" يَا نُعْمانُ، النَّحْوُ لَيْسَ لُغَةً فَحَسْب... إِنَّهُ مِرآةُ العَقْلِ وَخَارِطَةُ التَّفْكِيرِ. إِذَا تَعَلَّمْتَ أَنْ تُنَظِّمَ جُمْلَةً، فَقَدْ تَعَلَّمْتَ أَنْ تُنَظِّمَ فِكْرَكَ، وَإِذَا أَجَدْتَ فَهْمَ الإِعْرَابِ، فَأَنْتَ تَفْهَمُ كَيْفَ تَقِفُ الكَلِمَةُ فِي مَكَانِهَا، كَمَا يَجِبُ أَنْ يَقِفَ الإِنْسَانُ فِي زَمَانِهِ".

كَانَتْ مُنَى تَسْتَمِعُ وَهِيَ تَسْنُدُ ظَهْرَهَا إِلَى جَانِبِ الطَّاوِلَةِ، وَعَيْنَاهَا تَلْمَعَانِ بِفَخْرٍ، كَأَنَّهَا تَرَى نُعْمَانًا يُولَدُ مِنْ جَدِيدٍ.

تَسَاءَلَ نُعْمَانُ:

" وَلِمَاذَا لَا يُقَالُ لَنَا هَذَا فِي البِدَايَةِ؟ لِمَاذَا نَتَعَامَلُ مَعَ النَّحْوِ كَعِقَابٍ؟"

أَجَابَهُ الأُسْتَاذُ:

" لِأَنَّ كَثِيرِينَ يُعَلِّمُونَ اللُّغَةَ كَمَنْ يُعَلِّمُ جَسَدًا دُونَ رُوحٍ. أَمَّا أَنْتَ، فَقَدْ بَدَأْتَ تَسْمَعُ نَبْضَهَا".

كَانَتِ القَاعَةُ نِصْفَ مُمْتَلِئَةٍ، وَالأُسْتَاذُ عَاصِمٍ يُرَتِّبُ أَوْرَاقَهُ عَلَى الطَّاوِلَةِ، وقبل أن يغادرَّ نَظَرَ إِلَى الطُّلَّابِ وَقَالَ بِصَوْتِهِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الجِدِّ وَالفُكَاهَةِ:

" سَنَقُومُ الْيَوْمَ بِتَجْرِبَةٍ صَغِيرَةٍ... سَأُعْطِيكُمْ جُمْلَةً مِنَ الحَيَاةِ، لا مِنَ الكِتَابِ، وَمَنْ يُعْرِبُهَا بِعُمْقٍ، فَلَهُ عِنْدِي قلم".

تَضَاحَكَ البَعْضُ، وَارْتَفَعَتِ الهَمْهَمَاتُ.

كُتِبَتِ الجُمْلَةُ عَلَى السَّبُّورَةِ:

"تَسْكُتُ الْحَقِيقَةُ أَحْيَانًا، لِكَيْ لا تُرْهِقَ القَلْبَ الضَّعِيفَ".

نَظَرَ نُعْمَانُ إِلَى الجُمْلَةِ كَمَنْ يُحَاوِلُ فَكَّ شِيفْرَةٍ عَاطِفِيَّةٍ، أَمَّا مُنَى، فَأَمْسَكَتْ قَلَمَهَا وَكَبَحَتِ ابْتِسَامَةً، ثُمَّ رَفَعَتْ يَدَهَا بِخِفَّةٍ.

قَالَ الأُسْتَاذُ:

" تَفَضَّلِي يَا مُنَى، أَنْقِذِينَا مِنْ هَذِهِ الجُمْلَةِ المُرْهِقَةِ".

بَدَأَتْ تَقُولُ:

" تَسْكُتُ: فِعْلٌ مُضَارِعٌ مَرْفُوعٌ وَعَلامَةُ رَفْعِهِ الضَّمَّةُ الظَّاهِرَةُ.
الْحَقِيقَةُ: فَاعِلٌ مَرْفُوعٌ، وَهِيَ العَاقِلَةُ السَّاكِتَةُ، لا المَسْكُوتُ عَنْهَا.
أَحْيَانًا: ظَرْفُ زَمَانٍ نَصْبٌ، يُشِيرُ إِلَى تَقَلُّبِ الوَقْتِ وَخِيَانَةِ اللَّحْظَةِ.
لِكَيْ: لامُ التَّعْلِيلِ، وَكَيْ تُفِيدُ السَّبَبَ، وَهِيَ أَدَاةُ رِقَّةٍ، لَيْسَتْ قَسْوَةً.
تُرْهِقَ: فِعْلٌ مُضَارِعٌ مَنْصُوبٌ بِلِكَيْ، وَعَلَامَةُ نَصْبِهِ الفَتْحَةُ.
القَلْبَ: مَفْعُولٌ بِهِ أَوَّلٌ.
الضَّعِيفَ: نَعْتٌ مَنْصُوبٌ".

صَمَتَتْ، ثُمَّ أَضَافَتْ:

" وَكُلُّهُ لِيُقَالَ: الحَقِيقَةُ تُؤْثِرُ الرَّحْمَةَ عَلَى الفَضْحِ".

صَفَّقَ الطُّلَّابُ، وَهَمَسَ نُعْمَانُ فِي نَفْسِهِ:

" يَا لَهَا... لَا تُعْرِبُ كَلِمَاتٍ، بَلْ تَكْشِفُ نَفْسًا".

كَانَ المَسَاءُ يُلْقِي بِظِلِّهِ عَلَى نَوَافِذِ بَيْتِ مُنَى، وَفِي الزَّاوِيَةِ هُنَاكَ، تُشْعِلُ مِصْبَاحًا صَغِيرًا يُنِيرُ كُتُبَ اللُّغَةِ وَوَرَقَاتِ التَّمَارِينِ الَّتِي تَمُوجُ بِالْأَلْوَانِ وَالمُلاحَظَاتِ.

جَلَسَ نُعْمَان أَمَامَهَا، يَشْرَبُ الشَّايَ بِحَذَرٍ، كَأَنَّهُ يَخْشَى أَنْ تَسْقُطَ مِنْهُ كَلِمَةٌ خَاطِئَةٌ فِي مَحْضَرِهَا.

قَالَتْ وَهِيَ تُقَلِّبُ دَفْتَرَهَا:

" تَمْرِينُ اليَوْمِ يَخْتَلِفُ... سَأَضَعُ أَمَامَكَ جُمْلَةً، وَنُحَاوِلُ مَعًا أَنْ نُسْقِطَ مِنْهَا كَلِمَةً، ثُمَّ نُعِيدُ بِنَاءَهَا نَحْوِيًّا وَمَعْنَوِيًّا... كَأَنَّنَا نُرَمِّمُ قَصِيدَةً مَشْرُوخَةً".

تَأَمَّلَ نُعْمَانُ الفِكْرَةَ وَقَالَ بِتَرَدُّدٍ لَطِيفٍ:

" وَإِذَا خَرَّبْتُ القَصِيدَةَ كُلَّهَا؟"

ضَحِكَتْ، وَقَالَتْ:

" أُعِيدُ بِنَاءَهَا مَعَكَ... لَسْتَ وَحْدَكَ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ".

كَتَبَتْ عَلَى وَرَقَةٍ:

"يَصْنَعُ الإِنسَانُ مَجْدَهُ بِالصَّبْرِ وَالْمَعْرِفَةِ".

قَالَتْ:

" لِنُسْقِطِ (المعرفة)... مَا الَّذِي يَحْدُثُ؟"

صَمَتَ نُعْمَانُ، ثُمَّ قَالَ:

" يُصْبِحُ المَجْدُ لِمَنْ يَصْبِرُ، لا لِمَنْ يَعْرِفُ، وَهُنَا يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: (يَصْنَعُ الإِنسَانُ مَجْدَهُ بِالصَّبْرِ وَالبَصِيرَةِ)... كَتَبْدِيلٍ لَطِيفٍ".

قَالَتْ وَعَيْنَاهَا تَشُعَّانِ بِالإِعْجَابِ:

" ذَكِيٌّ جِدًّا... أَنْتَ لا تُجِيدُ الإِعْرَابَ فَقَط، بَلْ تَجِيدُ أَنْ تُفَكِّرَ مِثْلَ لُغَوِيٍّ حَيّ".

تَلَمَّسَ نُعْمَانُ صَدْرَهُ، وَقَالَ نِصْفَ هَازِلٍ نِصْفَ جَادٍّ:

" إِذَنْ... لا بَأْسَ أَنْ تَطْمَئِنَّ عَلَيَّ، يَا أُسْتَاذَةَ مُنَى".

فَأَجَابَتْهُ وَهِيَ تُنَاوِلُهُ كُوبَ شَايٍ جَدِيدٍ:

" فَقَطْ إِذَا وَعَدْتَنِي أَنْ تَسْقِيَنِي قَهْوَةَ الإِعْرَابِ، بعد المُحَاضَرَةِ القَادِمَةِ".

وَضَحِكَا... وَالضَّوْءُ يُرَافِقُهُمَا فِي لَيْلِ التَّعَلُّمِ وَالمَعْرِفَةِ.

في صَباحٍ دافِئٍ من صَباحاتِ الجَامِعَةِ، دَخَلَ نُعمانُ ومُنى المَدرَّجَ الرابِعَ، لَكِنَّ هذِهِ المَرَّةَ، لَم يَكُن يَزحفُ في الظِّلِّ كما اعتادَ. كانَ في خُطوتِه شَيءٌ جَديدٌ... شَيءٌ لا يُشبهُ خُطواتِ الأمسِ.
جلس و مُنى في الصَّفِّ الأوَّلِ، كعادَتِهما، وبِنَظرةٍ خاطِفَةٍ نَحوَه، رَمَقَتْهُ بِعَينَينِ تَقولانِ: "أَرِهِم مَن تَكونُ".
دَخَلَ الأُستاذُ عاصِمُ بَيطارٌ، نَثَرَ نَظَراتِهِ كعادَتِهِ في وُجوهِ الطُّلابِ، ثمّ وَقَفَ خَلفَ المَنصَّةِ، وقالَ

بِصَوتِهِ الجَهوريِّ الصارِمِ:

"مَن مِنكُم يَتَبَرَّعُ اليَومَ بِإعْرابِ هذِهِ الجُملةِ؟"

كَتَبَ على اللَّوحِ:

"إنَّ النَّجاحَ لا يُهْدى، بَلْ يُنْتَزَعُ انْتِزاعًا".

سادَ الصَّمتُ... وتَراخَت بَعضُ الرُّؤوسِ، وانْخَفَضَت عُيونٌ إلى دَفاتِرِها، كَأَنَّ الكَلِمَةَ سَهْمٌ.

لَكِنَّ نُعمانَ... رَفَعَ يَدهُ.

ارْتَفَعَ حاجِبا الأُستاذِ، وأَشارَ إليهِ دونَ تَعليقٍ. وَقَفَ نُعمانُ بِبُطءٍ، وكلُّ خُطوةٍ نَحوَ السَّبُّورَةِ كانَ يَسمَعُ فيها صَوْتَ قَلبِهِ يُعْرِبُ عَنْ تَوَتُّرِهِ... لَكِنَّه تَذَكَّرَ كَلِماتِ مُنى:

"كُن صادِقًا مَعَ العِلمِ...".

وَقَفَ بِثَباتٍ أَمامَ الجُملةِ، وقالَ:

" إنَّ: حرفُ توكيدٍ ونصبٍ".

ثم التفت إلى الأستاذ، كأنه يطلب الإذن أن يُكمل، فأشار له أن تابع.

" النَّجاحَ: اسمُ إنَّ منصوبٌ، وعلامةُ نصبِه الفتحة".

" لَا: حرفُ نفيٍ".

" يُهدى: فعلٌ مضارعٌ مبنيٌّ للمجهول مرفوع، والفاعلُ ضمير مستتر تقديره هو".

بدأت بعض الرؤوس تلتفت نحوه... لم يكن ذلك الطالب المتردّد الذي يتهرّب من الأسئلة.

" بَلْ: حرفُ عطفٍ وإضرابٍ".

" يُنتَزَعُ: فعلٌ مضارعٌ مبنيٌّ للمجهول مرفوع".

" انتزاعًا: مفعول مطلق مؤكِّدٌ للفعل لأنه مصدرٌ وهو منصوبٌ بالفتحة الظاهرة على آخره".

أَنهى، وَصَمَتَ... نَظَرَ الأُستاذُ إلَيهِ نَظرةً طَويلةً.

ثُمَّ قالَ، بِبُطءٍ:

"جَيِّدٌ، يا نُعمانُ... بَلْ أَفضَلُ مِن قَبلِ".

وانطَلَقَت ضَحكَةٌ خافتةٌ مِن مُنى، وَهي تُخفي وَجهَها خَلفَ كِراسَتِها.

رَجَعَ إلَى مَكانِهِ، لا يَحِسُّ أَنَّه يَمشي عَلَى الأَرضِ، بَلْ عَلَى سَطْرٍ مِن أَبياتِ نَصرٍ.

هَمَسَ لَهُ زَميلٌ بِجانِبِهِ:

"مَن دَرَّبَكَ؟"

فَأَجابَهُ نُعمانُ، وَهُوَ يَنظُرُ حَيثُ مَقعَدُ مُنى:

"النَّحو... حِينَ يَكونُ عَلَى أَمْهَرِ الأَساتِذَةِ، يُصبِحُ مَفهُوماً".

بَعدَ مُرورِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِن مُتابَعَةِ مُنى ونُعمانَ ليلًا نَهارًا جادِّينَ في سَبيلِ تَنفيذِ الخُطَّةِ المَرسومَةِ مِن قَبلِ أُستاذِ مادَّةِ النَّحوِ.
كَتَبَ الأُستاذُ عَلَى السَّبُّورَةِ بيتًا مِنَ الشِّعرِ وَطَلَبَ مِنَ الجَميعِ إِعرابَهُ إِعْرابَ مُفرَداتٍ وجُمَلٍ عَلَى وَرَقَةٍ مُفرَدَةٍ، إِعْرابًا دَقيقًا وَمُفَصَّلًا، مَعَ ذِكرِ كُلِّ قاعِدَةٍ إِعرابِيَّةٍ تَرِدُّ أَوْ يَنطَبِقُ عَلَيها مِثالٌ في هذا البَيتِ، وَالشَّاهِدُ عَلَى هذهِ القاعِدَةِ مِنَ الشِّعرِ الجاهِلِيِّ أَوِ القُرآنِ الكَريمِ.
عَلَى أَنْ يَكتُبَ كُلُّ طالبٍ اِسمَهُ في رَأسِ الوَرَقَةِ، لِأَنَّ الإِجابَةَ الصَّحيحَةَ وَالدَّقيقَةَ وَالكامِلَةَ، مُنذُ هذا اليَومِ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِن هذهِ الأَوراقِ سَتُمنَحُ صاحِبَها عَلامَةً وَاحِدَةً مِن أَصلِ ٢٠ دَرَجَةً في حَلْقَةِ البَحثِ المقرَّرَةِ لِهذَا العَامِ:

إِعْرابُ البَيتِ إِعْرابُ مُفرَداتٍ وَجُمَلٍ:
قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

كَتَبَ الجَميعُ، وَبعدَ مضْيِ الوَقتِ سَلَّمُوا أَوراقَهُم. وَعِندَما خَرَجُوا مِنَ المَدرجِ بَدَأت تَدورُ بَينَهُم الحِواراتُ وَالتَّساؤُلاتُ......

فَهذَا يَقولُ: "**قِفا: فِعلُ أَمرٍ مَبنِيٌّ عَلَى السُّكونِ، وَالوَاوُ ضَميرٌ مُستَتِرٌ في مَحلِّ رَفعٍ نائِبِ فاعِلٍ، مَعناهُ "قِفُوا"**". وَآخَرٌ يُصَحِّحُ: "**قِفا: فِعلُ أَمرٍ مَبنِيٌّ عَلَى حَذفِ النونِ**".
وَأُخرَى تَسأَلُ: "**كَيفَ أَعربتَ بَينَ؟**" لِتُجِيبَ زَميلَتُها: "**بَينَ: حَرفُ جَرٍّ يُجرُّ الاسمَ الَّذي بَعدَهُ.**"
وَتَرُدُّ تِلكَ: "**بَلْ هِيَ ظَرفُ مَكانٍ مَنصوبَ.................. .**"
وَهكَذا دَامَ حِوارٌ طَويلٌ وَتَفاعُلٌ بَينَ مُؤيِّدٍ وَمُخالِفٍ مِنَ الطُّلابِ، حَتى حَضَرَ الأُستاذُ عاصِمُ يَومَ مَوعِدِ المُحاضَرةِ التَّالِيَةِ لِمادَّةِ النَّحوِ، يَحمِلُ بِيَدِهِ الأَوراقَ وَقَد قَرَأَها جَميعًا، فَرَفَعَ الطُّلابُ أَيدِيَهُم لِلسُّؤالِ وَالاِستِفسارِ، لَكِنَّ الأُستاذَ أَخرَجَ وَرَقَةً وَاحِدَةً مِن بَينِ الأَوراقِ وَقَرَأَ عَلَى مَهَلٍ مِنها، بَعدَ أَن طَلَبَ مِنَ الجَميعِ أَن يَكتُبوا عَنهُ حَرْفِيًا.
وَعِندَما اِنتَهى مِنَ القِراءَةِ، أَضافَ:

- " لَن أُعلِنَ عَن اِسمِ صاحِبِ الوَرَقَةِ الَّتي حَمَلَت وَحدَها الإِجابَةَ الَّتي اِنْتَظَرْتُها، لِكَي لا يَغتَرَّ بِنَفسِهِ، فَهذِهِ العَلامَةُ الأُولى مِن عِشرينَ".
وَبَدَأَتِ الوُجوهُ تَنظُرُ إِلَى بَعضِها البَعضِ، أَيُّهُم هُوَ صاحِبُ هذِهِ الإِجابَةِ، لَكِنَّ صاحِبَ الإِجابَةِ ظَلَّ صامِتًا، لَم يَعرِفْهُ إِلّا أُستاذُهُ وَمَن كانَ قَد تحاور معها فيمَ كَتَبَ كل منهما.

كَانَتْ مادّةُ الأدبِ الجاهليِّ من أكثرِ الموادِّ إثارةً لاهتمامِ الطّلّابِ في السنةِ الأولى من الدراسةِ الجامعيّة، لا سيّما وأنَّ الأستاذَ الدكتور وهب رُوميّة، بعذوبةِ صوتهِ ورصانةِ فكرِهِ، كان يتولّى تدريسَها. وقد اعتمد كتابَهُ الشّهير "الرِّحلة في الأدبِ الجاهليّ "مقرَّرًا أساسِيًّا، لا يُدرَسُ فحسب، بل يُعاشُ بكلِّ ما فيهِ من رؤًى وتجارب.

في إحدى الجلساتِ المسائيّة، وبينما كانت مُنَى تُقلِّبُ صفحاتِ الكتابِ ببطءٍ كأنّها تُنقّبُ عن سرٍّ دفين، قالت وهي ترفعُ عينيها إلى نُعمان:

ـ أتعلم؟ كأنّ هذا الكتابَ لا يتحدَّثُ عن شعراءَ في الصّحراءِ، بل عنَّا نحن... عنِّي وعنك.

ابتسمَ نُعمان وهو يُقَلِّبُ دفترَ ملاحظاتهِ:

ـ ربّما لأنّنا نحنُ أيضًا في رِحلةٍ... رِحلةٌ من نوعٍ آخر، لا نعرفُ بعدُ متى تبدأُ ومتى تنتهي.

كان كتابُ الدكتور وهب رُوميّة أكثرَ من دراسةٍ أدبيّة؛ لقد بدا كأنّهُ بوابةٌ سِرّيّة تُفْتَحُ على عالمٍ كاملٍ من الشِّعرِ والوجود. منذ الصفحاتِ الأولى، أعلنَ المؤلِّف أنّ الرِّحلةَ في الأدبِ الجاهليِّ ليست مجرَّدَ انتقالٍ من مكانٍ إلى آخر، بل هي تجربةٌ إنسانيّةٌ شاملةٌ، تتجسّدُ في النّصوصِ بوصفِها نمطًا من أنماطِ الوجودِ الشِّعريّ والفكريّ.

في أحد الأحاديث بينهما، بعد أن أنهيا مراجعةَ الفصلِ الأوّل، همست مُنى وهي تُدوِّن عبارةً في دفترِها:

ـ "الرِّحلة ليست مكانًا، بل سؤالٌ يُسافِرُ فينا"... هذه العبارةُ وحدَها تستحقُّ كتابًا كاملًا.

أجابها نُعمان، وهو يُقَرِّبُ نظّارته من عينيه:

ـ أو تستحقُّ أن نكتبَ بها عن نفسِنا، إنْ تجرّأنا!

توزّعت محاورُ الكتاب على عدَّةِ فصولٍ، تناولَ أوّلها مفهومَ الرِّحلةِ في الأدبِ الجاهليّ، حيثُ رأى الدكتور رُوميّة أنّ الرِّحلةَ لم تكن خيارًا للعربيّ القديم، بل ضرورةً فَرضَها واقعُ الصحراءِ القاسي. ورغم بدايتِها الماديّة، كانت دائمًا ما تنزاحُ نحوَ الرمزِ والمعنى :الوجود، التّيه، البحث، التحدّي، والانتصار على المصير.

أمّا الفصلُ الثاني، فقد خصَّصه لأنواعِ الرحلاتِ في الشِّعر الجاهليّ، بدءًا من الرِّحلة الذاتيّة التي تتجلّى في الوقوفِ على الأطلالِ والتّأمُّل، إلى رِحلةِ العاشقِ في طلبِ المحبوبة، إلى رِحلاتِ الصيدِ والحرب وما تحملهُ من فخرٍ ومهارةٍ وشجاعة.

أطالت مُنَى النّظرَ إلى مشهدٍ مصوّرٍ في الكتابِ لجملٍ يسيرُ في الصّحراء وحيدًا، وقالت:

ـ هل كان عنترةُ يشعرُ بالوحدةِ حقًّا، أم كانت عبلةُ ترافقُهُ في كلّ غزوةٍ بقلبهِ؟

ـ ربّما كان يقاتلُ من أجلِ أن يرى عينيها في عيونِ الأعداء... وربّما كان يهربُ من ضعفِه، كما نهربُ نحن من أشياءَ لا نجرؤُ على تسميتِها.

في الفصولِ اللاحقة، راح الدكتور رومِيّة يُفكّكُ البنيةَ الجماليّةَ والفكريّةَ للرّحلة، مُعتَمدًا منهجًا تأويليًّا فلسفيًّا، يُقاربُ القصيدةَ بوصفِها كائنًا حيًّا يَسري فيهِ المعنى، ويُفكِّر. كان يرى أنّ الرّحلةَ في الشّعرِ الجاهليّ ليست حدثًا، بل بنية رمزيّة تعبّرُ عن الانشطارِ بين الثّباتِ والحركة، بين الذّاتِ والعالم، بين الحنينِ والمصير.

توقّف نُعمان عند صفحةٍ تحلّلُ معلقة طَرَفَة بن العبد، وقال:

ـ لعلّ هذا ما يجعلُ الشِّعرَ الجاهليّ خالدًا... بساطتهُ المزعومة تخفي أعماقًا لا قرارَ لها.

أجابت مُنَى وهي تشيرُ إلى الهامش:

ـ تمامًا. هنا كتب: "الشاعر لا يصفُ المكان، بل يَسكُنه." أليس هذا ما نفعلهُ حين نقرأ؟ نحن نسكنُ القصيدة.

حين اقتربَ موعدُ الامتحان، كان نعمان ومُنى قد حفِظا العشراتِ من الأبياتِ والمقاطع، يستشهدانِ بها، ويستعرضانِ تحليلاتهما في جلساتٍ خاصّةٍ داخل غرفة نعمان في المنزل، أو في مقصفِ الكلية، أو على درجِ القاعةِ المزدحمة.

وفي الامتحانِ النهائيّ، طُلب من الطلّاب أن يختاروا بين موضوعين، فاختار نعمان أن يكتبَ عن الرّحلةِ في شِعرِ عنترة العبسيّ، الفارسِ العاشقِ الذي كان يهدي انتصاراتهِ لعبلة، بينما اختارت مُنَى أن تكتب عن رِحلاتِ امرئ القيس في معلّقاتِه، بين الأطلالِ والصّيدِ والتّيهِ والمطر.

بعد أسبوعٍ من إعلانِ النتائج، كانا يجلسان على مقعدٍ خشبيٍّ في الحديقةِ الخلفيّة للمعهد، قالت مُنَى وهي تُمسكُ الورقة:

ـ لقد حصلنا على درجةِ الامتياز... كلانا!

ضحك نُعمان وهو يُقلِّبُ دفترَه:

ـ يبدو أنَّنا اجتزنا أولى رِحلاتنا بنجاح.

نظرت إليه مليًّا وقالت:

ـ بل بدأتِ الرحلةُ الآن.

المكان :غرفة الدراسة في الجناح المخصص لنعمان من بيت السيّد أحمد.
الزمان :مساء خريفي، بعد انتهاء امتحانات الدورة الثانية التي تنتهي عادة في شهر أيلول من كل عام.
الجو :دافئ، تعبق الغرفة برائحة الكتب والمطر، ومصباح خافت ينشر ضوءً ذهبيًّا فوق وجهي نعمان ومنى الجالسين على طرفي الطاولة الخشبية، التي اعتادا المذاكرة عليها.
الوضع النفسي :ارتخاء بعد توتّر الامتحانات، وانفتاح على الحوار بعد صمتٍ طويل.

منى، وقد أغلقت دفتر الملاحظات بعد أن كتبت بعضاً مما ارتسم شعاعاً وامضاً في ذاكرتها، ونظرت إليه بعينين تلمعان ببريقٍ غير معتاد:
ـ " نُعمانٍ... انتهت الدورة الامتحانية الثانية، وأنتَ أصررتَ أن نؤجّل تقديم الأدب الجاهلي. هل كنت محقًّا؟ أم أنك فقط كنتَ تحتاجُ وقتًا أطول مع القصائد؟"

ـ "كُنتُ أحتاجُ وقتًا أطولَ، نعم... لكنْ ليسَ لأفهمَ القصائدَ فقط، بَلْ لِيَفْهَمَ كلٌّ مِنَّا نفسَهُ، ويُعطيَها وقتًا، وهُوَ يَقرأُ شِعرًا مثلَ هذا، شِعرًا يَحتاجُ إلى جُملةٍ مِنَ المعارفِ والإمكاناتِ التي لا بُدَّ منها".

أمالتْ منى رأسَها قليلًا، ورفعتْ حاجبَيْها باستفهامٍ صادقٍ:

ـ "مِثل ماذا؟"

نظرَ نُعمانُ إليها، وعيناهُ تتقدانِ ببريقِ المتعةِ، كمن يتذكّرُ شيئًا ثمينًا، ثمّ قال:

ـ "مُنى... أَلَا تَذْكُرِينَ الدُّكتورةَ الفاضلةَ، الأستاذةَ عزيزة مريدن، التي دَرّسَتْنا مادّةَ المكتبةِ العربيّةِ؟"

هزّتْ رأسَها وهي تبتسمُ بارتياحٍ:

ـ "بلى، أذكرها جيِّدًا... ما بها؟"

أخذَ نفسًا عميقًا، كأنّه يستعيدُ معها طيفًا من تلكَ المحاضرات:

ـ "ألمْ تُلاحِظي كيفَ كانتْ، في كلِّ محاضرةٍ، تَعرِضُ علينا نَصًّا أدبيًّا صغيرًا، وربّما لا يتجاوزُ السُّطورَ؟ لكنّنا لكُنّها تدعونا لنَغوصَ فيهِ حتى ينتهي الوقتُ، ولا نُدرِكُ كيفَ مرَّ... كانتْ تُقرِّئُنا النصَّ أدبيًّا، على الرّغمِ من أنَّ الدُّكتور وهب هو مَن يُدرِّسُ الأدب ...وتُفتِّحه لغويًّا، كأنّها تُكملُ عن الأستاذِ عاصم في القواعد ...ثمّ تُطلُّ علينا منهُ بإضاءةٍ فكريّةٍ عميقة، كأنّها تستعيدُ دروسَ الدكتور أسعد أحمد علي من كتابهِ «فنّ الحياة"...»

توسّعتْ عينا منى دهشةً، فتَلَقَّفتْ منهُ الخيط:

ـ "والبديع؟ هل كانت تطرقُهُ أيضًا؟"

ـ "بَلَى... كأنّها تَستحضرُ الدكتور محمد علي سلطاني في البديع ...ولا تَنسَيْ العَروض، إنْ كانَ النصُّ شِعرًا، فإنّها تُلَمِّحُ إلى موسيقاهُ، كما كان يفعلُ أستاذُ موسيقى الشِّعر ...حتّى إنّها كانت تُوقظُ في النَّصِّ ما فيهِ من رائحةِ التَّاريخ، دونَ أنْ تَخرجَ عن صَفِّ المعنى".

سكتَ لحظةً، ثمّ أكملَ، وهو يمرّر يده على الغلافِ برفقٍ:

ـ "حينها فَهِمتُ يا منى، أنَّ النصَّ الأدبيَّ، سواءٌ أكانَ نثرًا أو شعرًا، لا يُقْرَأُ بعينٍ واحدة... بل يحتاجُ إلى عينٍ لغويَّةٍ، وأخرى أدبيَّةٍ، وثالثةٍ فكريَّةٍ، ورابعةٍ موسيقيَّةٍ... كأنّكَ تحتاجُ إلى مجلسِ خُبراءِ كي تُقْرِأَ بيتًا واحدًا قراءةً تُشبِهُ الحقيقة".

أطرقتْ منى مفكّرة، ثمّ قالت بصوتٍ خافتٍ وفيه شيءٌ من اللومِ العذب:

ـ "فَهِمتُ الآن لِمَ كنتَ حريصًا على أن يكونَ امتحانُ الأدب الجاهليّ آخرَ ما نُقدّمُه... لكن، لِمَ لَمْ تُنبّهْني إلى هذا من قبل؟"

ضحكَ نُعمانُ، وأشاحَ ببصرِه عنها بدلالٍ، كأنّه يُخفي نواياه:

ـ "لأنَّكِ لا تحتاجينَ إلى تنبيه، يا منى... لقد أبليتِ بلاءً أحسنَ مني في كثيرٍ من الموادِّ الامتحانيّة... أفلَا تَدَعينِي أَتَفَوّقُ عليكِ، ولو مرَّةً واحدة؟"

أطلقتْ منى ضحكةً قصيرةً، فيها مزيجٌ من الفخر والمودَّة:

ـ "أراكَ الآن قد فهمتَ معنى الرحلةِ في الأدبِ... وربّما الرحلةَ في الحياةِ أيضًا، يا نُعمان".

منى، تضع كفّها تحت خدِّها، وتنظر إليه بشيءٍ من الدهشة:
ـ "ولذلك تبدو وكأنَّكَ كنتَ تُسافرُ معهم، أولئك الشُّعراء؟"

نعمان، يُومئ برأسه:
ـ "تمامًا... شعرتُ أني أركض خلف عبلة كما عنترة، وأنّي أجرُّ خطايَ فوق أطلالٍ لا أعرفها... كأنّ كلَّ بيتٍ من الشعر كان مرآةً لحالةٍ مررتُ بها. هل تذكرين كم مرةً كنتُ أُعيد قراءة وصف الناقة، لا لأنّني أريد حفظه، بل لأنّه صار رمزًا لِما أُحاول حمله من تعبٍ، ومن حُلم،

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ؟
أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ؟

يفتتح عنترة معلقته بهذا التساؤل البلاغي الذي يستبطن التحدي، فكأنه يقول :*هل بقي شيء من معاني الغزل والوقوف على الأطلال لم يتطرق له الشعراء؟*
وهذا الأسلوب يُبرز الزهو بقدرته الشعرية، مع نَفَسٍ من التواضع الظاهري، وكأنه يعترف أن السُّبُل قد سُبِق إليها.

السؤال هنا إنكاري، يستخدمه ليُمهّد لدخوله الساحة الأدبية بقوة.

في قوله "مترَدَّم": صورة جميلة تعني الموضع المهلهل المتهدِّم، أي الموضع الذي تكررت عليه الوقفات من الشعراء، وهو كناية عن كثرة ما قيل.

توهم: فيها تشكيك في الإدراك، وكأن الآثار القديمة لم تعد واضحة، صورة تدل على اندثار الزمان والمكان.

يا دارَ عَبلَةَ بِالجَواءِ تَكَلَّمي
وَعِمي صَباحاً دارَ عَبلَةَ وَاسلَمي

يُخاطب "دار عبلة" كما لو كانت كائناً حياً، يستنطقها ويحييها. وهذا ليس لأنه من التقاليد الشعرية الجاهلية فقط، لأنه يُضيف إليه لمسة عاطفية نابعة من ولهه بعبلة، ومحبته العميقة لها، فيجمع بين الأسلوب التقليدي والتجربة الذاتية الخاصة.

"تكلّمي: استعارة مكنية، شبَّه الدار بإنسان ينطق.

عِمي صباحاً: وإن كانت تحية جاهلية تعني "صباح الخير"، لكنها تنمّ عن علاقة حنين ودفء بالمكان.

التكرار في "دار عبلة": يعكس شدة التعلّق والهيام."

منى، تبتسمُ بهدوء، ثمّ تقول بصوتٍ أشبه بالهمس:
ـ "أنا أيضًا شعرتُ أن امرأَ القيس كان يُشبهني في بعضِ وجوهِهِ... في تردده، في رحلاته في الصحراءِ، وبين الشوقِ والحيرةِ، وبين المطرِ والانتظارِ. لكنّني في الامتحان، لم أكتبْ عنه كما تُكتَبُ التقارير، بل كأنني كنتُ أكتبُ رسالةً طويلةً له".

نعمان، يُضيّق عينيه بشيءٍ من الفضول:
ـ "وكأنّكِ تُعاتبينه؟"

منى، تضحك وتُومئ:
ـ "نعم، وأحيانًا أواسيه. قلتُ له في الختام: إنّ الشعرَ لا يُنقذنا من التيهِ، لكنه يُعطينا خريطةً لنفهمَ كيف ضَعْنَا فيه".

نعمان، وقد اتّكأ على الطاولة واقترب قليلًا، بصوتٍ أقرب إلى البوح:
ـ "أنا كتبتُ عن عنترة... عن رحلته لا كفارسٍ فقط، بل كمُحبٍّ يُقاتل ليُهدي النصر لامرأةٍ لم تمنحه يومًا اعترافًا واضحًا بحبّها".

منى، وقد شدّها ما قاله، تميلُ نحوه قليلًا:
ـ "هل كنتَ تتحدّثُ عن عبلة... حقاً؟"

نعمان، يبتسمُ من دون إجابة، ينظرُ إلى البخار المتصاعد من فنجان القهوة، ثمّ يقول:
ـ "في كلّ رحلةٍ هناك وجهة، وفي كلّ وجهةٍ احتمالُ خُذلان... لكنّي قرّرتُ أن أكتبَ عن الحبّ، حتى لو انتهى في الصحراء".

منى، تميلُ إلى الخلف وتضعُ يدها على قلبها، كأنّها تلمس أثر كلماته في داخلها، ثمّ تقول بصدقٍ:
ـ "وهل تعلم؟ حين قرأتُ إجابتك بعد أن عرضتها عليّ، شعرتُ أنّك كتبتَ عن رجلٍ كان يعبرُ الصحراء حافيًا، لا ليصل، بل لئلّا يتوقّف".

نعمان، ينظر إليها طويلاً، ويهمس:
ـ "أحيانًا، لا نملكُ أن نصلَ... لكن نملك أن نواصل".

منى، تُمسك بكفّه بلطف، وتقول بعينين دافئتين:
ـ "أعتقد أنّنا لم نقدّم امتحان الأدب منفردين... بل قدّمناه معًا، كتابةً وشعورًا، على مدار أشهر. والعلامةُ التي نلناها كانت مستحقّة... لأننا فهمنا الشعر لا بعقلنا فقط، بل بقلوبنا".

صوت السيّد أحمد، من خلف الباب، بعد طرقٍ خفيف:
ـ "منى؟"

منى، تنظر إلى نعمان، ثم تنهضُ وتفتح الباب لأبيها، تقول له برفقٍ:
ـ "أبي... كُنّا نتحدّث عن امتحان الأدب الجاهلي... وعن الرحلة في القصيدة الجاهلية".

السيّد أحمد، يدخل الغرفة وهو يُربّت على كتف نعمان ويبتسم:
ـ "جميلٌ... لكن لا تنسوا أن بعض الرحلات تحتاجُ إلى دليلٍ حكيم".

نعمان، يضحك بخجلٍ ويقول:
ـ "وأنا أظنّ أنّنا وجدنا خير دليل لنا، ليس فقط في الشعرِ... وإنما في الحياة، وجدناه في أقربِ النَّاس لنا".

التفتَ السّيِّدُ أحمدُ إلى نُعمانَ ومنى، وقد لمعتْ في عينيه فكرةٌ أرادَ مشاركتَهما إيّاها.

قالَ بهدوءِ من يُخطّطُ لشيءٍ محبّب:

ـ "مادُمتُما قد أنهيتُما امتحاناتِكما، ولديكما مُتّسعٌ من الوقتِ قبلَ بدءِ العامِ الجديدِ... فأنا، في الحقيقةِ، بحاجةٍ إلى مَن يُساعدُني في إنجازِ بعضِ الرسومِ الهندسيّةِ. فما رأيكما؟"

التفتَ نُعمانُ نحوه بانتباه، بينما رفعتْ منى عينيها عن المفكّرةِ التي بين يديها، وقد ارتسمتْ على وجهِها لمحةُ فضول.

أردف السيّد أحمد، وهو يُخرجُ ورقةً صغيرةً من محفظتِه: **"هذا هو الكروكي!"**

اعْتادَ الجَميعُ أَنْ تَجْرِيَ بَيْنَهُمْ حِواراتٌ وَنِقاشاتٌ مُطَوَّلَةٌ في مَجالاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ عَلى المُسْتَوى الشَّخْصِيِّ، وَفي الثَّقافَةِ العامَّةِ، وَالخِبْراتِ المُكْتَسَبَةِ، في أَوْقاتِ الفَراغِ أَوِ السَّهَراتِ الجَماعِيَّةِ.

يُخْبِرُهُم نُعْمانُ، خِلالَ تِلْكَ السَّنَواتِ الثَّلاثِ الَّتي جَمَعَتْهُم عَلى التَّعاوُنِ وَالمَحَبَّةِ وَالصِّدْقِ، عَنْ حَياتِهِ. تارَةً عَنْ طُفولَتِهِ، وَتارَةً عَنْ مَراحِلِ دِراسَتِهِ، وَأَحْيانًا عَنْ عَمَلِهِ، وَكَثيرًا عَنْ هِوايَةِ المُطالَعَةِ الَّتي أَدْمَنَها حَتّى صارَتْ جُزْءًا مِنْهُ.

كانَ نُعْمانُ قَدِ الْتَحَقَ بِدَوْرَةٍ سَريعَةٍ في الرَّسْمِ الهَنْدَسِيِّ وَالمِعْمارِيِّ، ما أَهَّلَهُ لِتَقْديمِ العَوْنِ في إِنْجازِ الرُّسومِ الفَنِّيَّةِ المُرْتَبِطَةِ بِمَشاريعِ مَكْتَبِ السَّيِّدِ أَحْمَد، ذاكَ المَكْتَبُ الَّذي يُديرُ مِنْهُ أَعْمالَهُ المُمْتَدَّةَ إِلى لُبْنانَ، وَهُوَ في دِمَشْقَ.

وَرُغْمَ انْفِصالِ جَناحِ نُعْمانَ، إِلّا أَنَّ الأَمْسِيّاتِ وَالصَّباحاتِ كانَتْ تَجْمَعُهُمْ عَلى مائِدَةِ الإِفْطارِ وَالعَشاءِ، تَليها سَهَراتٌ تَطولُ أَحْيانًا في نِقاشٍ أَوْ حِوارٍ أَوْ ذِكْرَياتٍ دافِئَةٍ.

قالَ نُعْمانُ ذاتَ لَيْلَةٍ جَمَعَتْهُ بِمُنى وَوالِدِها:

" سَأُخْبِرُكُم عَنْ فَتْرَةٍ مِنْ حَياتي بِالتَّفْصِيلِ المُمِلِّ، لَكِنْ أَرْجُو أَلّا أَكُونَ مُمِلًّا فِي سَرْدِ قِصَّتي".

قاطَعَتْهُ مُنى بِلَهْفَةٍ:
" وَأَنَا لَطالَمَا انْتَظَرْتُ مِنْكَ أَنْ تَفْتَحَ لَنَا قَلْبَكَ، حَتّى نَعِيشَ مَعَكَ أَدَقَّ تَفَاصِيلِ حَياتِكَ... تَحَدَّثْ وَأَعِدُكَ أَلّا أُقاطِعَكَ أَبَدًا، لَكِنْ لا تَبْدَأْ حَتَّى أُحْضِرَ مَا نَحْتاجُ إِلَيْهِ وَنَحْنُ نَسْتَمْتِعُ بِالاسْتِماعِ إِلى حَدِيثِكَ".

وَعِنْدَ عَوْدَتِهَا، قَالَ وَهُوَ يَبْتَسِمُ، وَيُشِيحُ بِنَظَرِهِ نَحْوَ النَّافِذَةِ، كَأَنَّهُ يَسْتَعِيدُ شَرِيطًا بَعِيدًا مِنَ الطُّفُولَةِ:
" لَيْسَ فِي حَيَاتِي شَيْءٌ مُمَيَّزٌ... سِوَى أُمِّي".

ثُمَّ صَمَتَ بُرْهَةً، وَقَدِ انْسَدَلَ صَوْتُهُ عَلَى الْكَلِمَاتِ كَمَا يَنْسَدِلُ الْمَطَرُ عَلَى زُجَاجِ نَافِذَةٍ شِتَائِيَّةٍ.

سَأَلَتْهُ مُنَى، وَهِيَ تُمِيلُ رَأْسَهَا نَحْوَهُ بِرِفْقٍ:
" أُمُّكَ؟... فِيمَ تَحْدِيدًا؟"

أَجَابَ بِنَبْرَةٍ دَافِئَةٍ كَمَنْ يَكْتُبُ رِسَالَةَ امْتِنَانٍ فِي دَفْتَرِ الْقَلْبِ:
" أُمِّي هِيَ السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَ وَالِدِي، بَلْ وَجَدِّي أَيْضًا، يُوَافِقَانِ عَلَى تَسْجِيلِي فِي الْمَدْرَسَةِ. لَوْلَاهَا، لَكُنْتُ الْيَوْمَ فِي مَكَانٍ آخَرَ... تَمَامًا".

كَانَ الأَبُ يُصْغِي بِخُشُوعٍ، عَاقِدًا يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فِيمَا بَدَا عَلَى وَجْهِهِ أَثَرُ ذِكْرَى قَدِيمَةٍ.

تَابَعَ نُعمَانُ، مُبْتَسِمًا كَمَنْ يُحَدِّثُ طِفْلًا دَاخِلَهُ:

" أَتَذَكَّرُ ذَلِكَ الْيَومَ الأَوَّلَ جَيِّدًا... يَوْمَ رَافَقَنِي أَبِي إِلَى الْمَدْرَسَةِ الابْتِدَائِيَّةِ. فَالْمَدْرَسَةُ لَمْ تَكُنْ تَبْعُدُ كَثِيرًا، رُبْعُ سَاعَةٍ مَشْيًا عَلَى الأَقْدَامِ، لَكِنَّ الطَّرِيقَ كَانَ آنَذَاكَ يَبْدُو أَطْوَلَ بِكَثِيرٍ... كَأَنِّي أَمْشِي إِلَى مَدِينَةِ الْحُلْمِ ذَاتِهَا".

ضَحِكَتْ مُنَى بِخُفُوتٍ وَقَالَتْ:

" وَهَلْ كُنْتَ مُتَحَمِّسًا لِذَلِكَ الْحَدِّ؟"

" كُنْتُ أَعُدُّ الأَيَّامَ، بَلِ السَّاعَاتِ، بِلَهْفَةٍ لَا تُوصَفُ. طَالَمَا مَرَرْتُ أَمَامَ بَابِهَا الْخَشَبِيِّ وَأَنَا أُحَدِّقُ فِيهِ كَأَنَّهُ بَوَّابَةُ سِرٍّ، أَتَمَنَّى فَقَطْ أَنْ يُفْتَحَ لِي يَوْمًا".

تَدَخَّلَ وَالِدُ مُنَى قَائِلًا وَهُوَ يُومِئُ بِرَأْسِهِ:

" أَكْثَرُ الأَحْلَامِ بَسَاطَةً فِي الطُّفُولَةِ... تَحْمِلُ أَعْمَقَ الْمَعَانِي حِينَ نُدْرِكُهَا لَاحِقًا".

أَوْمَأَ نُعمَانُ مُوَافِقًا، ثُمَّ أَرْدَفَ:

" كَانَ إِمَامُ الْمَسْجِدِ الْقَرِيبِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ، شَيْخًا جَلِيلًا، مِنْ أَصْدِقَاءِ جَدِّي، وَ هوَ من كَانَ وَالِدِي قَد تَتَلمَذَ عَلَى يَدَيهِ فِي حِفظِ آيَاتٍ من القُرآنِ الكَرِيم حين كَانَ فِي مِثلِ عُمرِي أَيضاً. لَا أَدْرِي تَمَامًا لِمَ تَعَلَّقْتُ بِهِ؟ ... فَقَد كُنْتُ أَتَرَقَّبُهُ كُلَّ مَسَاءٍ قَبْلَ الْمَغِيبِ، وَحِينَ يَمُرُّ أَمَامَ دُكَّانِ جَدِّي ذَاهِباً إِلَى المَسجِدِ، يُمْسِكُ بِيَدِي، وَنَذْهَبُ سَوِيًّا إِلَى الْمَسْجِدِ".

سألَت منى، وقد شَغفها المشهد:

" أوَلَم تكُن تخف؟ صَغِيرٌ، وَفِي طَرِيقٍ إلى أَو مِن مَسجِدٍ فِي لَيلٍ مُظلِمٍ، ودراسةِ القرآن؟"

أجابَ، وكأنّهُ يُنصتُ لصوتٍ قديمٍ داخله:

" لَمْ أَكُنْ أَخَافُ... كُنْتُ أَشْعُرُ أَنِّي أُؤَدِّي مَهمَّةً مُقَدَّسَةً. كُنَّا نُصَلِّي الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ، وَفِي الْوَقْتِ بَيْنَهُمَا نَتَعَلَّمُ تِلَاوَةَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَحِفْظَهَا غَيْبًا. كَانَ الشَّيْخُ يُصلِحُ نُطْقِي بِصَبْرٍ... وَيُعَلِّقُ بِيَدِهِ عَلَى كَتِفِي كَأَنَّهُ يَزْرَعُ فِيَّ شَيْئًا لَا يُرِيدُ لَهُ أَنْ يَزُولَ".

تَنَفَّسَ بِعُمقٍ، ثُمَّ أَضَافَ:

" وَعِنْدَ وُصُولِنَا، يُسَلِّمُنِي بِيَدِهِ إِلَى جَدِّي، وَيَقُولُ لَهُ تِلْكَ الْعِبَارَةَ الَّتِي لَنْ أَنْسَاهَا قَطُّ : *هَذِهِ أَمَانَتُكُمْ، رُدَّتْ إِلَيْكُمْ*".

عَمَّ الْمَكَانَ صَمْتٌ قَصِيرٌ، لَمْ يُقَاطِعْهُ أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَتْ مُنَى، بِنَبْرَةٍ مُتَهَدِّجَةٍ:

" كَمْ مِنْ أَمَانَاتٍ تُرَدُّ... وَلَكِنْ لَا تَعُودُ كَمَا كَانَتْ".

هَزَّ وَالِدُهَا رَأْسَهُ مُوَافِقًا، وَقَالَ بِهُدُوءٍ:

" وَلَكِنَّ أَمَانَةَ الْقَلْبِ... حِينَ تُحْفَظُ كَمَا حَفِظَهَا ذَلِكَ الشَّيْخُ، تُثْمِرُ رِجَالًا مِثْلَ نُعْمَانَ".

قَالَ نُعْمَانُ بِصَوْتٍ خَفِيضٍ، وَهُوَ يُقَلِّبُ ذِكْرَيَاتٍ لَمْ تَبْهَتْ رَغْمَ مُرُورِ السِّنِينَ:

" كُنْتُ أَسْمَعُ بَعْضَ الْحِوَارَاتِ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَ وَالِدِي وَجَدِّي، وَأَحْيَانًا بَيْنَ وَالِدِي وَأُمِّي... وَكَانَتْ كُلُّهَا تَدُورُ حَوْلِي، فَقَدْ كُنْتُ أَفْهَمُ شَيئاً مِنها، وَيمتَنِعُ كثير منها عَلَى فَهمِي".

رَفَعَتْ مُنَى حَاجِبَيْهَا بِاسْتِغْرَابٍ خَفِيفٍ، وَسَأَلَتْ:

"حَوْلَكَ؟ وَ بِمَ كَانُوا يَتَحَاوَرُونَ؟"

ابْتَسَمَ نُعْمَانُ ابْتِسَامَةً مَزِيجُهَا الْحَنِينُ وَالْوَجَعُ، ثُمَّ قَالَ:

" كَانَ جَدِّي يَرَى أَنَّ ذَهَابِي إِلَى الْمَسْجِدِ وَتَعَلُّمَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ يَكْفِينِي، وَيَقُولُ إِنِّي صَغِيرٌ عَلَى الْمَدْرَسَةِ، وَإِنَّ بُنْيَتِي ضَعِيفَةٌ، وَجَسَدِي لَا يَحْتَمِلُ بَرْدَ الشِّتَاءِ وَلَا حَرَّ الصَّيْفِ".

هَزَّ وَالِدُ مُنَى رَأْسَهُ بِتَعَاطُفٍ، وَقَالَ:

" ذَلِكَ جِيلٌ كَانَ يَخْشَى الْمَرَضَ أَكْثَرَ مِنَ الْجَهْلِ... وَرُبَّمَا عَنْ حَقٍّ أَحْيَانًا".

أَرْدَفَ نُعْمَانُ، وَكَأَنَّهُ يَشْرَحُ شَيْئًا عَايَشَهُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ:

" فِي الْحَقِيقَةِ... لَمْ يَكُنْ يَمْضِي شَهْرٌ دُونَ أَنْ أُمضِي أُسْبُوعًا أَوْ أَكْثَرَ طَرِيحَ الْفِرَاشِ.

حَرَارَةٌ مُرْتَفِعَةٌ تُدَاهِمُنِي فَجْأَةً، وَبُرُودَةٌ تَخْتَرِقُ عِظَامِي، حَتَّى أَرْتَجِفَ مِنْ أَطْرَافِي كَأَنِّي وَسْطَ عَاصِفَةٍ جَلِيدِيَّةٍ".

تَدَاخَلَ صَوْتُ مُنَى بِخُفُوتٍ قَلِقٍ:

" وَكَيْفَ كَانُوا يَتَعَامَلُونَ مَعَ تِلْكَ النَّوْبَاتِ؟"

أَجَابَ نُعْمَانُ وَهُوَ يُطَأْطِئُ رَأْسَهُ قَلِيلًا:

" فِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ وَالِدِي يُسْرِعُ بِي إِلَى الطَّبِيبِ، وَأَحْيَانًا كَانَتْ إِحْدَى قَرَابَاتِ أُمِّي، مِنْ أُولَئِكَ الْعَجَائِزِ الْحَكِيمَاتِ، تَأْتِي وَتَجْلِسُنِي عَلَى الْكُرْسِيِّ، ثُمَّ تُدْخِلُ سَبَّابَتَهَا الطَّوِيلَةَ وَالْخَشِنَةَ فِي حَلْقِي، وَتَضْغَطُ عَلَى لَوْزَتَيَّ وَاحِدَةً تِلْوَ الْأُخْرَى".

شَهِقَتْ مُنَى، وَقَالَتْ بِنُفُورٍ طُفُولِيٍّ:

" يَا إِلَهِي! هَلْ كَانَتْ تُؤْلِمُكَ؟"

ضَحِكَ نُعْمَانُ ضَحْكَةً قَصِيرَةً، ثُمَّ قَالَ:

" كَانَتْ تُؤْلِمُنِي طَبْعًا... وَلٰكِنَّهَا كَانَتْ تُخْرِجُ قَيْحًا غَرِيبًا، وَتَقُولُ لِي بِثِقَةٍ : *(هذا هُوَ السَّبَبُ فِي كُلِّ مَا تُعَانِيهِ)* ".

قَالَ وَالِدُ مُنَى، وَقَدِ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةٌ مُتَأَمِّلَةٌ:

" كَانَتِ الْأُمَّهَاتُ وَالْجَدَّاتُ يَعْرِفْنَ الْكَثِيرَ مِمَّا لَا يُدَرَّسُ فِي كُلِّيَّاتِ الطِّبِّ".

تَابَعَ نُعْمَانُ، بِنَبْرَةٍ أَشَدَّ حُزْنًا:

" أَحْيَانًا، كُنْتُ أُصَابُ بِالْحُمَّى فَجْأَةً، تَفْقِدُنِي وَعْيِي تَمَامًا... وَأَسْقُطُ أَرْضًا دُونَ مُقَدِّمَةٍ، كَأَنَّنِي شَمْعَةٌ أُطْفِئَتْ فِي لَمْحِ الْبَصَرِ".

سَادَ الصَّمْتُ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَتْ مُنَى، وَكَأَنَّهَا تُخَاطِبُ الطِّفْلَ الَّذِي كَانَهُ:

" يَا نُعْمَان... كَمْ كُنْتَ هَشًّا، وَكَمْ كُنْتَ قَوِيًّا أَيْضًا".

ابْتَسَمَ نُعْمَانُ ابْتِسَامَةً لَمْ تَصِلْ إِلَى عَيْنَيْهِ، وَقَالَ بِهُدُوءٍ:

" الْهَشَاشَةُ لَا تُلْغِي الْقُوَّةَ، يَا مُنَى... بَلْ قَدْ تَكُونُ طَرِيقَتَهَا الْخَاصَّةَ فِي الْبَقَاءِ".

قَالَ نُعْمَانُ، وَقَدْ بَدَا فِي صَوْتِهِ ظِلُّ ابْتِسَامَةٍ مَكْسُوَّةٍ بِالِامْتِنَانِ:

" أَمَّا أُمِّي... فَقَدْ كَانَتْ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ أَحَدٌ سِوَاهَا".

نظرتْ مُنى إليه في تأمُّلٍ صامت، وكأنّها تسمعُ الآن النبضَ الأوّلَ لحلمه القديم، بينما قال والدُها بنبرةٍ هادئة:

" تلك هي الأمُّ... قلبُها دائمًا أبصرُ من العيونِ كلّها".

تابعَ نُعمان، يُشكّل الحروف كما لو كان يعيد ترتيبَ ذاكرته أمامهم:

" كانت أمّي تُلحُّ دومًا على والدي:
يَنبغي أن نُسرعَ في تسجيلِ ولدِنا في المدرسة، لا يجوزُ أن يتأخّرَ أكثرَ. إنْ فاتَه هذا العامُ، ضاعَ عامٌ آخر، وسنظلُّ نُكرِّرُ المسألةَ كلَّ سنةٍ في موعدِ التسجيل، وسيبقى متأخّرًا عن أقرانِه" ...

سكتَ لحظة، كأنّ صوت أمّه في داخله قد عاد حيًّا، ثمّ تابع:

" وكانت تقول له أيضًا:
(أمضَينا عُمرَنا لا نقرأُ ولا نكتبُ، عُمیانًا في وضحِ النهارِ... ألا يستحقُّ أولادُنا أن يتعلَّموا؟ يتعلّموا و يُعلِّمونا الحياة . أن يصيروا مرآتنا إلى الحياة؟ الحياةُ ليست فقط طعامًا وشرابًا وأولادًا... بل فَهمٌ وتعلُّمٌ وارتقاء".

علّقَ والدُ منى وهو يهزُّ رأسه بإعجاب:

" أمّك كانت تفكّر كأنّها تُعلِّمُ المستقبلَ أن يكتبَ نفسَه".

وأردفت منى، وهي تُلقي بنظرةٍ جانبية على والدها:

" أُعجبتُ كثيرًا بجملتها تلك : *(ليتعلّموا و ليُعلِّمونا الحياة)* . كم تحملُ من عمق"!

أكمل نُعمان، وكأنّ ذاكرته تسترسل وحدَها:

" لكنّ أبي... كان متردّدًا، يُحبُّني حدَّ الخوفِ، ويخافُ عليّ حدَّ الشلل. كان كلُّ ما يخشاهُ أن أُصابَ بنوبةِ حُمّى في المدرسة، أو في الطريقِ إليها ... فمالَ إلى رأي جدّي، وتأرجحَ فيه ما يقاربُ العامين".

تنهّدَ ثم قال:

" ظلَّ يؤجّلُ تسجيلي مرّةً بحجّةِ إقناعِ نفسِه، وأُخرى لإقناعِ والده، وكان يظنُّ أنّه كلّما تأخّرتُ نضجتُ وتعافيتُ، وأنّ المدرسةَ ستكونُ أقلَّ قسوةً عليّ حينها".

سكتَ نُعمان لحظةً، ثم أضاءَ في عينيه شيءٌ من فخرٍ صامت، وأردف:

" لكنّ أُمّي كانت أذكى. اقترحتْ عليه أن أُتابعَ الذهابَ إلى المسجدِ كما يُحبُّ جدّي، وأتعلّمَ التلاوةَ والقرآنَ الكريمَ على يدِ الشيخ، حتى إذا ما أنهيتُ الختمةَ، يكونُ الأمرُ قد نضجَ طبيعيًّا في عيونِ الجميع".

سألت منى وقد أخذها الفضول:

" وهل وافقَ جدُّك؟"

أجاب نُعمان بنبرةٍ خفيفة:

" وافق! ... بل شعرَ أنّه انتصر".

ضحكوا معًا، ثمّ أردف نُعمان:

" أما خوفُهم من نوباتِ المرضِ، فقد أوجدتْ له أمّي حلًّا لطيفًا. طلبت من ابنِ خالتي أحمد، وكان يكبرني بعامينِ ونصفٍ، أن يُلازمني في المدرسة، وأن يرافقني في طريقِ العودة... وقد فعل".

قال والدُ منى، وقد بان التأثُّرُ في صوته:

" أمُّك كانت مدرسةً كاملةً في قلبِ امرأةٍ واحدة".

وأردفت مُنى، مبتسمةً في ودّ:

" ولو لم يكن في حياتك كلّها غيرُها، لكانت كافيةً لتجعلَ الحلمَ يستحقُّ أن يُكتَب".

قالَ نُعمانُ وهو يُقلِّبُ في ذاكرته كما لو كان يستعرضُ مشاهدَ من فيلمٍ قديم:

" تقبّلَ والدي اقتراحَ أمّي دونَ نقاشٍ، بدا كأنَّه ارتاحَ لفكرةٍ تُرضي الجميع، وأقنعَ بها جدّي أخيرًا، بعد طولِ ممانعةٍ وصمتٍ طويل".

أومأت مُنى برأسها بحنينٍ صامت، وسألت برفق:

" وهل كانت لحظة دخولِك المدرسة... كما تخيّلتها؟"

ابتسم نُعمان، بعينٍ يلمعُ فيها ظلُّ ذاك الطفلِ الخائف:

" كانت مزيجًا من الفرحِ والتوجُّس... دخلتُ المدرسةَ الابتدائيّةَ أخيرًا، وقد كانت في ذلك الوقت دارًا عربيّةً قديمةً، مستأجَرةً لتكونَ مقرًّا للدراسة، تتوسَّطُ باحتَها بحيرةٌ دائريةُ الشّكلِ، تتدفَّقُ مياهُها من نافورةٍ صغيرةٍ في المنتصف، تصدرُ خريرًا خافتًا يُشبهُ نَفَسًا باردًا في صدرِ النهار".

علّق والدُ مُنى بإعجاب:

" حتّى المدرسةُ لديكَ لها ملامحُ حيّة... أعرفُ هذا النمط من البيوتِ الدمشقيّةِ القديمة، جدرانٌ من اللبنِ والتبن، وسقوفٌ خشبيّة، لها رائحةُ الزمنِ إذا مشيتَ تحتها".

تابع نُعمان، متجاهلًا لحظةَ التوق التي دبّت في قلبه:

" أول مرّةٍ اجتزتُ ذلك البابَ الخشبيَّ الكبيرَ، شعرتُ أنّني أعبرُ نحو عالمٍ لا يشبهُ شيئًا مما عرفته. دخلنا غرفةَ المدير، وقدّمَ والدي أوراقي الثبوتيّةَ بيدٍ فيها بعضُ الرجفة. لكنّ المديرَ رفع حاجبَه قائلًا بصوتٍ حازم:

(لقد مضى وقتٌ طويلٌ على انتهاء التسجيلِ... لقد بدأت السنةُ منذ أشهر.)

نظر أبي إليه برجاءٍ صادق، ظلَّ يَطلُبُ مِنهُ بلُطفٍ أن يقبلَ بتسجيلي، وأنا أُراقِبُ المَشهَدَ بِعينَينِ تَملؤُهما اَلحَسرَةُ والرجاءُ ... كُنتُ أَرمقُ اَلمُدِيرَ بِنَظَرَاتٍ صَامِتَةٍ، كَأنّي أَرجُوهُ أن يُسَامِحَ أَبِي عَلَى هَذَا اَلتَأخِيرِ اَلذِي لَم يَكُن ذَنبهُ".

قَالَت مُنَى، وَهِيَ تَمسَحُ بِسبَابَتِهَا عَلَى حَدّ اَلطَاوِلَة:

" أَعرِفُ هَذَا اَلشُعُورِ... حِينَ يُكَافِحُ اَلكِبَارُ بِصَمتٍ لِتَأمِينِ مَقعَدٍ صَغِيرٍ فِي اَلعَالَمِ لِأَطفَالِهِم".

وَاصَلَ نُعمَانُ حَدِيثَهُ:

" وَفِيمَا كَانَ اَلتَوَتّرُ يَسُودُ اَلغُرفَةَ، دَخلَ أَحَدُ اَلمُعَلّمِينَ، أَلقَى اَلتَّحِيّةَ، وَطَلَبَ مِنَ اَلمُدِيرِ سِجِلًّا وَبِطَاقَةَ اِستِدعَاءٍ لِأَحَدِ اَلتَلَامِيذِ اَلكُسَالَى. ثُمَّ التَفتَ، وَكَأنّهُ تفَاجَأَ بِوجُودِ أَبِي، اِقتَرَبَ مِنهُ وَسَلَّمَ عَلَيهِ بِحَرَارَةٍ وَسَأَلَهُ عَن سَبَبِ حُضُورِهِ. رَدَّ أَبِي تَحِيّتَهُ، وَطَلَبَ مِنهُ أَن يُسَاعِدَهُ بِإِقنَاعِ اَلمُدِيرِ... فَدَارَ بَينَهُمَا حَدِيثٌ لَم نَسمَع مِنهُ سِوَى هَمَسَاتٍ خَافِتَةٍ".

هُنَا قَالَ وَالِدُ مُنَى:

" إِنَّهَا مُصَادَفَاتُ اَلقَدَرِ اَلَتِي تُغيِّرُ مَصَائِرَ كَامِلَةً".

قَالَ نُعمَان وَهُوَ يُومِئُ مُوَافِقًا:

" بِالفِعلِ... بَعدَ لَحَظَاتٍ، أَخَذَ اَلمُدِيرُ اَلأَورَاقَ مِن يَدِ أَبِي، ثُمَّ اقتَرَبَ مِنّي ذَلِكَ اَلمُعَلّمُ، أَمسَكَ بِيَدِي، وَقَالَ جَازِمَاً:

(أنا سَأَصطَحِبُ نُعمَانَ إِلى صَفِّي، وَسَأَتَكَفّلُ بِتَعوِيضِ مَا فَاتَهُ مِن دُرُوسٍ).

كُنتُ كَمَن تَلَقّى مِنحَةً سَمَاوِيَةً. عَرَفتُ فِيمَا بَعد أَنَّ ذَلِكَ اَلمُعَلّم كَانَ أَحَدَ أَقَارِبِ جَدّي لأُمّي، وأَنّ جَدّي وَجَدّتي كَانَا فِي تِلكَ اَللَحظَةِ فِي زِيارَتِنَا، كَعَادَتِهِمَا كُلَّ يَومِ اثنَين، اَلذِي يُعدُّ يومَ عُطلَةِ الحَلّاقِين... وكانت أُمّي قد أخبرتهما أنّ والدي ذهبَ بي إلى المدرسةِ، لكنها تخشى أن يُرفض المُدِيرُ تسجيلي بسبب تأخّرنا أو كِبرِ سنّي، فقد صَارَ أَقرَانِي فِي اَلصَّفِّ الثَّالِثِ أَو اَلرَابِعِ... أَمَا أَنَا، فَكُنتُ مَا أَزَالُ عَلى أَعتَابِ اَلصَّفِّ اَلأَوّلِ".

قالت مُنى، وهي ترفعُ بصرها نحوه متأثرة:

" ربّما كانت يدُ المعلّمِ تلك، أولَ يدٍ امتدّتْ لتفتحَ لك بابَ الحُلم"...

أجاب نُعمان بصوتٍ خفيضٍ يشوبه شيءٌ من العرفان:

" نعم... وربّما كانت تلك اليد، أوّلَ سطرٍ في قصّتي كلِّها".

قال نُعمان وهو يتركُ لحديثه أن يسيرَ على مهلٍ، كأنّه يسحبُ خيطًا من وشاحٍ قديمٍ:

" كان جدّي يعلمُ أن أحدَ أقاربهِ يُدرِّسُ في تلك المدرسة، فهرعَ على الفورِ إليها، كأنّ القلقَ الذي راودَه في بيتِنا قد تحوَّل إلى طاقةٍ لا تُطيقُ الجلوسَ، دخلَ المدرسةَ وسأل عن قريبه، ثم التقاهُ وتحدّث إليه بصوتٍ خفيضٍ، لا أعرفُ إن كان فيه عتابٌ أم استعجال".

سألت مُنى، وهي تتابعُ ملامح وجهه بتركيزٍ طفوليٍّ ناعم:

" هل كنتَ لا تزال في غرفةِ المدير حين وصلَ جدُّك؟"

أجاب نُعمان مومئًا:

" نعم، ولم أكن أعلمُ بقدومه... لحظاتٌ وظهر المعلّمُ نفسهُ في غرفةِ الإدارة، وقد بدا عليه شيءٌ من الدهشةِ حين رأى والدي، لكنّه لم يُطِل النظرات، بل أخذَ يدي وقال بلُطف:

تعالَ يا نُعمان، سأريكَ صفك...

غادرتُ معه، وأنا ما أزالُ أُحدّق في الأرضِ، كأنّي أسترقُ مشهدَ العالمِ الجديد من تحتِ قدمي. وبينما كنّا نمرُّ بجانب أحدِ الصفوف، سُمِعَ صوتُ بكاءٍ شديدٍ، حادٍّ كأنّه شقَّ جدارَ الصمتِ".

هنا قاطع والدُ مُنى متجهّمًا:

" بكاء؟! من تلميذٍ؟"

أومأ نُعمان ببطء:

" نعم... توقّفتُ عن السيرِ وحدّقتُ نحو مصدر الصوت... كان طفلٌ صغيرٌ يجلسُ على كرسيّ الخيزرانِ الذي عادةً ما يجلسُ عليه المعلمُ، واثنان من زملائه يُمسكانه بقوّةٍ، بينما يقفُ أمامه رجلٌ ضخمٌ، قويُّ البنيةِ، ينهالُ عليه ضربًا بعصا غليظةٍ على كفَّي قدميه... مشهدٌ لم يَمحُه الزمنُ، علمتُ لاحقًا أن ذلك الرجلَ كان معلّمَ الصف".

وضعت مُنى يدَها على صدرها، وقالت هامسة:

" يا إلهي... هذا تعذيبٌ، لا تعليم".

تابع نُعمان، وصوتُه منخفضٌ كأنّه يخشى أن يُوقظَ ألمَ الطفولةِ من مرقده:

" أفزعني المشهدُ... وجعل الدمَ يتجمّدُ في عروقي. سحبتُ يدي من قبضةِ المعلّمِ وهربتُ باكيًا، لا أدري إن كنتُ أركضُ أم أتعثّرُ... كلُّ ما أتذكّره أنّ دموعي كانت تتناثرُ من عينيّ كما لو أنّني صرتُ ينبوعًا من الخوف. صِحتُ بأعلى صوتي:

لا أريدُ المدرسةَ! لا أحبّها! أريدُ العودةَ إلى البيت!

رأيتُ جدّي واقفًا عند بابِ المدرسةِ الخشبيِّ، بدا كأنه سمعني من بُعدِ المسافةِ والمكانِ، فهرع نحوي. ووالدي، الذي كان خارجًا لتوّه من غرفةِ المدير، أسرعَ بدوره نحوي".

هزَّ والدُ مُنى رأسه حزنًا وقال:

" مشهدٌ كهذا قد يقتلُ الحُلمَ في مهده... لا عجبَ أن تبكي هكذا".

أكمل نُعمان:

" لحقَ بي المعلّمُ الذي كنتُ برفقته، أمسك بيدي من جديد، يُهدّئني، يربّت على ظهري، ويطلب من والدي وجدّي أن يُغادرا المدرسةَ بسرعةٍ، كأنّه أراد أن يفصلني عن صورة الرعبِ تلك، قبل أن تستقرَّ في داخلي إلى الأبد".

صمتَ لحظةً، ثم استأنف، والابتسامةُ تلوّحُ على حافةِ وجهه:

" لكنْ، وسطَ هذا الرُّعبِ الذي انتابني، لم أفلتْ يدي من حزامِ محفظتي... تلك المحفظةِ العتيقةِ التي اشترتها لي أُمّي قبل عامين، وأعدّتْ لي فيها كلَّ ما قد أحتاجه في يومي المدرسيّ الأول... كأنّني كنتُ أتشبّثُ بها بوصفِها آخرَ خيطٍ يربطني بأمّي... أو بالحُلم".

قالت مُنى، وعيناها تلمعان:

" المحفظةُ كانت ذاكرتك الآمنة... حنينك المتحرّك".

تابع نُعمان حديثه، وقد غمر صوته دفءٌ خافتٌ كأنّه يستدعي ظلًّا حنونًا من الماضي:

" أنهيتُ عامي الأوّل بتفوُّقٍ، لا عن عبقريّةٍ ولا حُبٍّ للدّرس، بل عن خوفٍ غائرٍ في القلب... كنتُ أتهيبُ كلَّ لحظةٍ من أن أُقصى، أن يُقالَ لي (<u>*أنتَ لا تصلح!*</u>) ،أو أن أكونَ، لا سمح الله، ذاك التلميذَ الذي يُطرَحُ على كرسيِّ الخيزرانِ وتُهوي عليه العصا... لقد حكيتُ لأُمّي عمّا رأيتُه في يومي الأول، عن خوفي الذي كان يُوقظُني من نومي كما لو كان حلمًا ينهشُ صدري، فأدركتْ أُمّي أن الحلَّ ليس في الهربِ، بل في أن أمضيَ في طريقي، لكن دون أن أكونَ وحدي".

سألت مُنى، وهي ترفع حاجبًا صغيرًا وقد بدت متأثرة:

" هل كانت أمّك تتابع دراستك بنفسها؟"

ابتسم نُعمان، وقال وهو يغالب ابتسامةً من نوعٍ آخر:

" كانت تُديرها كأنّها تُديرُ بيتًا من الطينِ على وشكِ الانهيار، بخفّةِ أناملٍ لا تُخطئُ موضعَ القشِّ بين الطين... وضعتْ لي من ذلك اليومِ خطةً لا تتغيّر، صارت طقسًا مقدّسًا نُمارسه كلَّ مساء".

قال والدُ مُنى، وقد بدا إعجابه واضحًا في نبرته:

" خطة؟ ما نوعها؟"

أجاب نُعمان، وعدّدها كما لو أنه يعودُ إلى تلك الأرضيةِ الباردةِ التي شكّلت ذاكرته المدرسيّة:

" أوّلًا، أخلعُ ثيابَ المدرسةِ، ثم نتوضّأ للصّلاة. بعد الصلاةِ، نتناول الغداء، ثم نغسلُ أيدينا وأفواهنا... ثم نتمددُ على الأرضِ، أنا وأمّي، بشكلٍ متوازٍ، أمامنا كتابٌ ودفتران. أمسكُ قلمي الرصاص، وهي تمسكُ بالمبراةِ، كأنّها تُبقي السلاحَ مشحوذًا.

ثم تبدأ المهامُّ، واحدةً تلو الأخرى، وكأنّنا في درسِ حياةٍ لا درسِ مدرسة:

- **المَهمّةُ الأولى : تهجئةُ وقراءةُ كلماتِ الدرسِ من الكتاب، كلمةً كلمةً، على طريقةِ إمامِ المسجدِ الذي كان يُعلّمُنا بين صلاتي المغربِ والعشاء... كانت أمّي تُقلّده في نبرتها، فأشعرُ أحيانًا أنّها تحفظُ القرآن، أو أنّني أنا أحفظُ قلبي معها.**

- **المَهمّةُ الثانية : قراءةُ الدرسِ مرّاتٍ عدّة، حتى يُصبحَ لساني مألوفًا للكلماتِ، لا يتعثّرُ ولا يخاف، كأنّي أُعيدُ للغةِ طمأنينتها.**
- **المَهمّةُ الثالثة : رسمُ الكلماتِ على الدفترِ الأوّل، مسودةٌ كنتُ أتمرّنُ فيها على أن أُحاكي رسمَ الكلمة كما وردَ في الكتاب، لا فرقَ بين النّقطةِ والنّقطة.**
- **المَهمّةُ الرابعة : كتابةُ ما أتقنته في دفترِ الوظائفِ، ذاك الذي سيطّلع عليه المعلّم، وكان بالنسبة إليّ نافذتي إلى العالَم الخارجي، نافذةٌ كنتُ أُحبّ أن تكونَ نظيفةً ومُضيئة".**

قالت مُنى، وقد لمعت في عينيها صورةٌ لأمٍّ تُراقب ابنها في صمتٍ محبّ:

" ما أروع هذا التفاني... أمّك لم تكن تُتابعك فحسب، كانت تُشكّلك"!

أومأ نُعمان، وواصل بصوته المنخفض:

" استمررتُ على هذا النّحو، يومًا بعد يوم، تحت إشرافِها الحاني، حتى غدوتُ قادرًا على إنجازِ واجباتي وحدي، دون خوفٍ من الخطأ، كأنّها زرعتْ فيّ ثقةً لم أعهدها من قبل... وكانت، رغم انشغالها بواجباتِ البيت، تُجري مقارنةً دقيقةً بين المسوّدةِ والكتاب، ثم تُنصت لتهجيتي، وتنبهني للفظِ الحروف، وتُعيد الاستماعَ لقراءتي كاملةً قبل أن تسمحَ لي بكتابة الدرسِ في دفتر المدرسة.

كنّا نستريحُ قليلًا، أحيانًا نشربُ الشاي، أو نضحكُ على كلمةٍ نطقتُها خطأً، ثم نعودُ للعملِ دون أن نشعر بثقلِه... وهكذا حتى نهايةِ عامي الثاني".

قال والدُ مُنى وهو يضع يده على ذقنه:

" واضحٌ أنّك نشأتَ على الحُبّ والنظامِ معًا... وهذا نادر".

أكمل نُعمان، وقد تلوّنت نبرته بشيءٍ من الفخرِ الطفولي:

" في الصفِّ الثالثِ، جلبتُ لأوّل مرةٍ من مكتبةِ المدرسةِ قصةً مصوّرة... قرأتُها على مسامعِ أمي، ثم جلستُ أشرحُ لإخوتي ما فهمتُه، وأريهم الصُّوَر المُلوّنة. كانت أُمّي تبتسمُ وتقول لي:

اقرأ لهم كما لو كنتَ حكواتي الحارة ...

ومنذ ذلك اليوم، صرتُ من روّادِ مكتبةِ المدرسةِ، وكان أستاذُ اللغةِ العربية يُساعدني في اختيارِ القصص، يُرشدني إلى ما يناسبني، ويُشجّعني على أن أعودَ بالكتابِ لا بالحقيبةِ فقط... لقد اكتشفتُ في القراءةِ شيئًا يُشبه الوطن، شيئًا لا يُخيف".

عند هذا الحدِّ من السَّرد، رفعت منى كفَّها برفقٍ، كأنّها تُوقِفُ موجةً متدافعةً من الصور، وقالت بصوتٍ خافتٍ، فيه شيءٌ من التردّد:

" لحظةً، نُعمان... هل يمكنُ أن تتوقّفَ قليلًا؟ هناك أمرٌ يُحيّرني"...

تطلّع إليها نُعمان باستغرابٍ لطيف، فأضافت تُحاول أن تجدَ الكلمات:

" بعضُ ما ترويه... طريقتك في وصفِ الأحداث وكأنّها كانت عادية، مألوفة، يُثيرُ لديّ استغرابًا... أشعرُ وكأنّ ثمّة ما هو ناقصٌ في الحكاية، شيءٌ لا يُقال مباشرةً".

ابتسم نُعمان، تلك الابتسامة التي تُشبه اعتذارًا هادئًا، ثم قال بنبرةٍ واثقةٍ وناعمة:

" ستفهمين، يا منى... كُلُّ ما بدا لكِ غامضًا الآن، سيتّضحُ حين تربطين بين الأحداث... الأمرُ يُشبه قراءةَ روايةٍ مترامية الفصول؛ لا يُمكن فهمُ فصلٍ منها وحده، لا بُدّ أن تَخيطِي السُّطورَ بالخيطِ الصّامتِ بينَها".

تدخّل والدُ منى، وقد بدا أنّه يستشعرُ عمقَ ما خلف الكلمات، وقال مبتسمًا:

" أمّا أنا... فأستطيع أن أتفهّمَه جيّدًا".

رمقته منى بنظرةٍ مازحة، ثم قالت وهي تهزُّ رأسَها برضًا:

" طالما أنّكما اتّفقتما، فلكَ أن تُتابع، نُعمان".

تنفّس نُعمان بعمقٍ، وكأنّه يغوصُ إلى قاعِ ذكرى جديدة، وقال:

" حصلتُ على وثيقةِ إتمامِ المرحلةِ الابتدائيّة... كانت ورقةً عاديةً في ظاهرِها، لكنّني كنتُ أراها جسرًا، أو قلْ: جناحين صغيرين لفتى يحلُمُ أن يُحلّق.

وما إن انتقلتُ إلى المرحلةِ الإعداديّة، حتّى أصبحتُ من روّادِ مكتبةِ المركزِ الثقافيِّ في البلدة... كنتُ أدخلُها كما يدخلُ العطشانُ إلى نبعٍ نقيٍّ، أنهلُ من كتبها ما أودُّ معرفتَه، أو تعلُّمَه، أو حتى مجرّد الاطلاعِ عليه. كنتُ أشعرُ وأنا أجلِسُ بين رفوفِها الخشبيّة، أنني أُصافحُ العالمَ من أطرافِ الكتبِ.

ورغمَ انغماسي بذلك، لم أغفلْ يومًا عن دراستي... كنتُ أتابعُ دروسي المدرسيّةَ بتركيزٍ واهتمامٍ كبيرَين، كأنّني أسابقُ شيئًا لا أراه، أو كأنّ وراءَ كلِّ سؤالٍ في الكتابِ بابًا أبحثُ عن مفتاحه".

قاطعه والدُ منى، وقد لمعتْ في عينيه بادرةُ إعجاب:

" مكتبةُ المركزِ الثقافيّ؟ لا أظنُّ كثيرين في مثل سنّك كانوا يعرفون طريقَها، دعك من ارتيادها"!

هزَّ نُعمان رأسه موافقًا، وقال بنبرةٍ يشوبها ظلُّ دهشة:

" نعم... لم تكن مألوفةً للكثيرين من أبناءِ البلدة، لكنّني كنتُ أشعرُ أنّها بيتي الآخر... ثم جاءتني المفاجأة، لا من الكتابِ هذه المرّة، بل من البيتِ ذاته".

قالت منى بفضولٍ وقد اقتربت قليلًا كأنّها تستعدُّ لالتقاطِ سرٍّ:

" مفاجأة؟ ماذا حدث؟"

أطرق نُعمان لحظةً، كأنّه يستحضرُ ذلك المشهدَ القديم، ثم قال بصوتٍ منخفض:

" بعد نجاحي في الصفِّ السادسِ، دعاني والدي إلى لقاءٍ مع جدّي... لم يكن أمرًا معتادًا، لم أكن أُستدعى عادةً إلى لقاءٍ كهذا. حينها، لم أفهم ما ينتظرُني، لكنّني شعرتُ من نبرةِ والدي، ومن سُكونِ البيت، أنّ ما سيُقالُ في ذلك اللقاء سيُغيّرُ مسارًا ما"...

سادَ صمتٌ قصير، وكان في صمتِ منى ووالدِها ما يُشبه الإصغاءَ العميقَ لأبوابٍ تُوشك أن تُفتَح...
" لم يطلِ الانتظارُ طويلًا حتّى بدأ جدّي الحديثَ بصوته الوقور، ذاك الذي يحملُ نبراتِ الحكمةِ حينًا، وظلالَ الحسمِ حينًا آخر، فقال وهو يُصلحُ وضعَ عِمامته فوق رأسه:

" يا بُنَيَّ، والدُكَ رجلٌ فقيرٌ، لا يقوى على تحمُّلِ أعباءِ الدِّراسةِ ونفقاتِها. لديه أبناءٌ آخرون غيرُك، وعليه أن يُؤمِّنَ لهم، كما أمَّنَ لك، ما استطاعَ إليه سبيلًا.

لقد كنتَ، لسنواتٍ، تُعينُني في الدُّكّانِ خلال عُطلتِك الصيفيّة، وكنتُ أُعطي أجرَك لوالدِك كي يشتري لك ثيابًا ودفاترَ وأقلامًا.

ولهذا... اقترحتُ عليه أن تعملَ معه، وتتعَلَّمَ مِهنةَ الحِلاقة. غير أنّ والدَك، يا ولدي، لا يُريدُ لك أن تذوقَ مرارةَ هذه الحِرفةِ الشّاقّةِ، قليلةِ العائدِ. ولذلك، ارتأينا أن نتحاوَرَ معك، لعلّنا نجدُ مهنةً تُعينُ بها نفسَك وأسرتَك."

لم يكن الحديثُ مفاجئًا، تمامًا كما توقّعتْه أمّي من قبل، وأشارت عليَّ أن أتهيّأ لساعةٍ كهذه. التفتُّ إليهما بوقارٍ، وقلتُ وأنا أشدُّ قامتي في جلستي، كأنّي أقدّمُ حُجّتي أمامَ محكمةٍ ناعمة:

" هل تأذنا لي أن أُقدّمَ اقتراحًا؟ خيارًا يُرضيني ويراعي ظروفَكما معًا؟"

رمقني جدّي بنظرةٍ يعلوها شيءٌ من الفضول، ثمّ مال إلى الوراء مبتسمًا:

" هاتِ ما عندَك، يا فتى".

قلتُ بثقةٍ تشوبها لمعةُ رجاءٍ:

" لديّ زميلٌ في المدرسة، سليم، ابنُ جارِنا. دعاني قبل يومين للعملِ معه... العملُ مُجزٍ، وأجرُه يغطي نفقاتي الشخصيّةَ لعامٍ كاملٍ، ويكفي حاجاتي المدرسيّة".

بدت الحماسةُ على ملامحِ أبي، فانحنى قليلًا وسألني بلهفةٍ:

" وما هو هذا العمل؟! ومن يكونُ زميلُك؟"!

أجبتُ ببساطةٍ ووضوحٍ:

" زميلي هو سليم، تعرفانه جيّدًا... أمّا العملُ، ففي ورشةِ بناء، كحدّادِ بيتون".

سكنت الغرفةُ لحظةً، قبل أن يقطّب والدي حاجبيه، وتلوحَ في نبرته غمامةُ قلق:

" حدّادُ بيتون؟! هذا العملُ شاقٌّ يا نُعمان... يتطلّبُ قوّةً جسديّةً كبيرة، وقدرةً على التحمُّل تحت حرِّ الشّمسِ ولسعاتِ الحديد. لا... لا أظنّه مناسبًا لك"!

نظرتُ إليه بعينين واثقتين، ثم قلتُ بإصرارٍ خافتٍ لا يخلو من الرجاء:

" دعوني أُجرِّب. فإن وجدتُني غيرَ قادرٍ على الاستمرار، أتركه. لكن في الوقتِ الحالي، لا أرى عملًا آخرَ يضمنُ لي كِفافَ دراستي، كما يفعلُ هذا".

لم تَقُل منى شيئًا، لكنّ وجهَها كان يرقبُ بانتباهٍ مزيجٍ من الإعجاب والحيرة، ثم التفتت إلى والدِها وكأنّها تسأله بعينيها :

" هل كنتَ لتمنعَه، لو كان ابنكَ؟"

لم يُجِبْ، لكنّه اكتفى بنظرةٍ عميقةٍ إلى نُعمان، كأنّه يرى فيه صبيًّا يُحاول أن يُصبح رجلًا قبل أوانه.
" بعدَ نقاشٍ هادئٍ دار بيننا، بقلوبٍ مفعمةٍ بالتفاهم، توصّلنا إلى اتّفاقٍ صامتٍ أكثرَ مما هو مُعلن. لم تكن هناك وعودٌ كبيرة، بل فقط نظراتٌ متبادلةٌ حملت في طيّاتها الموافقةَ والرضا.

ومع أوّلِ ضوءٍ من صباحِ اليومِ التالي، كنتُ قد بدأتُ عملي.

العملُ كان قاسيًا... نعم، قاسيًا على جسدِ صبيٍّ بالكادِ نجا من طفولتِه، لكنّي لأسبابٍ لا أزالُ أجهلُها حتى الآن قرّرتُ أن أحتفظَ بمرارته لنفسي. لا شكوى، لا تنهيدة، لا تلميح. كنتُ أعودُ في كلّ مساءٍ، وأغسلُ عن جسدي غبارَ الحديدِ وآثارَ العرقِ، ثم أدوّن أجرتي في دفترٍ صغير، تحت إشرافِ أمّي.

كانت أمّي تخبّئُ المالَ في ركنٍ سريٍّ من غرفتِنا الوحيدة، تلك التي منحَنا إيّاها جدّي، وكأنّها قطعةُ أملٍ صغيرة وسط ضيقِ الحياة. وكانَ بيني وبينها عهدٌ صامتٌ: هي تخبئ، وأنا أجمع... وكأنّنا ننسجُ معًا عباءةً دافئةً نلتحفُ بها مع أولِ أيامِ المدرسة".

توقّفَ نعمان لحظةً، كأنّه يستعيدُ مشهدًا من فيلمٍ قديم، ثم تابعَ بنبرةٍ أكثر حنوًّا:

" وفي إحدى الأمسيات، نظرتُ إلى وجهِ أمي، وقد بدت عليه علاماتُ التعب، فقلتُ لها بلطفٍ:

(أمّي، هل تحتاجين شيئًا؟ صار لديَّ ما يكفيني للعامِ الدراسيّ المقبل، ويمكنني الاستغناء عن أجرةِ الشهرِ القادمِ لأجلكِ.)"

قالت منى، وقد لمعت في عينيها دهشةٌ رقيقة:

" كنتَ تفكّر بهذه الطريقة وأنتَ في ذلك العُمر؟! هذا كثيرٌ على فتى صغير"...

ابتسمَ والدُها، وهزّ رأسه موافقًا:

" في مثل هذه البيوت، يكبرُ الأولادُ سريعًا يا منى... الحُلمُ وحده لا يكفي، لا بدّ من تعبٍ يُمهّدُ الطريق".

أكمل نعمان:

" ابتسمت أمي، ابتسامةً تشبهُ المطرَ حين يتهادى على غُصنٍ عطِش، ثم أحضرتِ النقودَ وعدّتها أمامي.

كنتُ أراقبُها، فإذا بالمبلغِ أقلَّ ممّا كنتُ قد سجّلتُه. لم أنبسْ ببنتِ شفة، لكنّها لحظتْ الترددَ في عيني، وسألتني برقةٍ لا تُشبهُ الاتّهامَ في شيء:

" هل أخذتَ شيئًا دونَ علمي؟"

أجبتها وأنا أُلوّحُ بيدي نافيًا:

" ما كنتُ لأفعل، ولا أعلم أصلًا أين تُخبئينه".

تغيّرت ملامحُها فجأة، وغرقتْ في صمتٍ ثقيلٍ ثم انهمرتْ دموعُها، دموعٌ صامتةٌ كأنّها تسقطُ في داخلي لا على وجهها.

اقتربتُ منها، ومسحتُ دموعَها بكفّي المرتجفة، وقلتُ بحرقةٍ:

" باللهِ عليكِ، يا أمّي، لا تُحمّلي قلبَك فوق طاقته! مالُ الدنيا كلّه، لا يُساوي دمعةً واحدةً من عينيكِ"!

أطرقَت منى رأسَها في صمت، وقد تأثّرتْ بالكلمات، ثم تمتمت:

" أتحمّلُ كلّ هذا وحدك؟"!

تابع نعمان:

" في اليومِ التالي، أنهيتُ عملي باكرًا، ومضيتُ إلى السوق، أبحثُ عن شيءٍ يطمئنُ قلبَ أمي، ويحفظُ تعبَنا.

اشتريتُ صندوقًا حديديًّا صغيرًا، له قفلٌ محكم. حين عدتُ إلى البيت، وكان خاليًا من الجميع، أسرعتُ إلى الحديقةِ الخلفيّة، وأحضرتُ سلّمًا، وأداةَ حفرٍ صغيرةً، ووعاءً.

أغلقتُ البابَ خلفي، وأسندتُ خزانةَ إخوتي الصغيرةَ إليه، ثم وضعتُ السلمَ تحت الفتحةِ العاليةِ في الجدارِ الجنوبي، تلكَ التي تدخلُ منها أشعةُ الشمسِ كأنّها خيطٌ من ذهبٍ معلقٌ بالسماء.

صعدتُ، وحفرتُ حفرةً تُناسب حجمَ الصندوق وسط أرضية النافذة، ثم وضعتُ فيه المالَ، مغلفًا بقماشٍ وجلدةٍ طرية، وردمتُ الحفرةَ بعناية.

أعدتُ كلَّ شيءٍ إلى مكانه، نزلتُ بهدوء، اغتسلتُ، وارتديتُ بيجامتي، وجلستُ إلى المائدةِ بانتظار عودةِ أمّي وإخوتي.

حين عادت، نظرتُ إليها بعينين تملؤهما ثقةٌ وامتنان، وأعطيتُها مفتاحًا للصندوق، واحتفظتُ بالآخر.

قلتُ لها، وكأنّي أُقدِّمُ هديّةً غالية:

" هكذا، إذا احتجتِ مالًا في غيابي، تجدينه دون حاجةٍ إلى الاستدانة من أحد".

نظرتْ إليّ طويلًا، ثم همستْ دون أن تنبسَ بكلمةٍ واحدة، فقط همسةٌ واحدةٌ خرجت من عينيها : الله يرضى عليك، يا ابني...

تابعتُ دراستي الإعداديّةَ بعزمٍ لم يَفْتُر، كأنَّ داخلي مشتعِلٌ بنارٍ هادئةٍ لا تنطفئ. اجتزتُ الصفّينِ السابعَ والثامنَ دون أن أخسرَ شيئًا من شغفي، أُوازنُ بينَ دفاترِ المدرسةِ، وكتبِ المطالعةِ، وشقاءِ العملِ الصيفيِّ الذي كانَ لي كجسرٍ أُعبرُ عليه نحو شيءٍ من الاستقلال.

كانَ ذلك العملُ الصيفيُّ رغمَ قسوته نَسغًا في عروقي، يُعينني على متابعةِ حُلُمي، ويمنحُني جرعةَ احترامٍ لذاتي. لم أكنْ أمدُّ يدي لأحد، بل كنتُ أمدُّ قلبي لما أُحبّ.

وحين حلَّ صيفُ الصفّ التاسعِ، الصيفُ الذي كنتُ أتهيّأ فيه لنيلِ شهادةِ الكفاءة، راودني شعورٌ غريب... شيءٌ يشبهُ النضجَ المبكّر، أو ربّما الرغبةَ في أن أُثبتَ لنفسي أنني أستطيعُ أن أختار.

عندها، اتفقتُ مع أحدِ زملائي في الورشةِ أن نتركَ العملَ كأجيرينِ تحت يدِ غيرنا، وأن نأخذَ على عاتقِنا تنفيذَ أعمالٍ لحسابِنا الخاصّ. عقدنا شراكةً بسيطة، شفهيّة، نقتسمُ فيها ما نكسبه مناصفةً: الجهدُ علينا، والرزقُ على الله.

قالت منى، وقد لمعت في عينيها ملامحُ الإعجاب:

" وهل وثقتَ به؟ أعني... لم تكن الشراكات دائمًا ناجحة"!

ابتسم نعمان وهو يومئ برأسه:

" كانت بيننا كِلْمة اتفاق... وتلكَ، يا منى، كانت أقوى من أيّ عقد".

استأنفَ حديثَه:

" مضتْ ثلاثُ عطلاتٍ صيفيّةٍ ونحن نعملُ بهذه الطريقة. نكدُّ ونتعبُ، ونتقاسمُ التعبَ كما نتقاسمُ الحُلُم... الحُلُمُ الذي كان يشبهُ قطعةَ خبزٍ ساخنة، نقضمُ منها سويًّا دون أن يشعرَ أحدُنا بالجوع وحده.

لكنْ، بعد أن اجتزتُ امتحانَ البكالوريا، شيءٌ ما داخلي طلبَ التوقّف. لم يكن تعبَ الجسدِ وحده، بل كان العقلُ أيضًا يطالبُ بهُدنةٍ صغيرة.

حينها، قرّرتُ أن أُهيّئ نفسي للمرحلةِ المقبلة: الجامعة. فتوقّفتُ عن مهنةِ الحدادة، تلك التي كانت تلونُ أيّامي بوهجِ الحديدِ ولهيبِ الشمس، وتتركُ على يديّ أثرًا لا يُمحى.

لحُسن الحظ، كنتُ قد ادّخرتُ ما يكفيني. كنتُ أُعدُّ العُدّة بصمت، تمامًا كما تُنقّبُ الجذورُ في الأرضِ قبل أن تُنبتَ الشجرة. اشتريتُ الكتبَ الجامعيّةَ، وكلَّ ما سأحتاجُه في سنواتِ الدراسةِ كلّها، دونَ أن أُرهقَ نفسي بمتاعبِ العملِ الصيفيّ من جديد."

قال السيد أحمد، وهو يُقاطعُه باستغرابٍ خفيّ:

" لحظة... قلتَ إنّ والدكَ كانَ فقيرًا للغاية، أليس كذلك؟ لكنّي علمتُ أنّ جدّكَ، والدَ والدكَ، كان ثريًّا جدًّا... وكنتم تسكنون معًا في بيتٍ واحد؟ بيت جدّك؟ فكيف لم يكن بمقدورِه أن يتكفّلَ بمصاريفِك، أو على الأقلّ بمصاريفِ دراستك؟"

ابتسم نعمان، تلك الابتسامة التي تتسلّل من مكانٍ بعيدٍ في القلب، ثم قال:

" سؤالٌ وجيه، يا عمّ أحمد... لكنّ الحقيقةَ غالبًا لا تُروى في سطرٍ واحد. نعم، كان جدّي ثريًّا، وكان البيتُ بيتَه، ونحنُ نسكنُ في جناحٍ صغيرٍ منه. لكنّ والدي... والدي كان رجلاً من نوعٍ آخر. لم يُحبَّ أن يُلقي همَّه على أحد، حتى ولو كان أباه. وربّما وهذا ما أدركتُه لاحقًا لم يكن بينهما وِفاقٌ كامل. أبي اختار أن يكونَ فقيرًا نزيهًا على أن يكون غنيًّا ذليلًا... وأنا احترمتُ هذا القرار، حتى حين أوجعني".

ساد صمتٌ قصير، كأنّ الكلمات نفسها أُصيبت برهبةِ المعنى، قبل أن تقول منى بصوتٍ خفيضٍ:

" أظنّني الآن أفهم أكثر... الحُلُمُ حين يُروى هكذا، لا يعودُ مجرّدَ فكرة، بل يصبحُ شخصًا نُحبّه".

قالَ نُعمان وهو يُحدِّق في المكانِ كأنّما يُعيدُ استحضارَ ذاكرةٍ تلبّست اللحظة:

" نعم... معكُم حقّ. لكنْ دعاني أروي لكُما حكايةً أخرى... واحدةً تبدأُ من عتبةِ الوعيِ نفسِه، حين بدأَت الحياةُ تَفْتحُ عينيها في داخلي".

أسند ظهرَه إلى المقعد، واسترسلَ بنبرةٍ أقربَ إلى السّرْد منها إلى الكلام:

" كانَ ذلكَ في ظهيرةِ يومٍ قائظٍ من صيفٍ بعيد... أدخلتني والدتي إلى الحمّام، تُغسلني برفقٍ يقطُرُ منه الحنان. كانتْ تمسحُ على جلدي الصغير بالماءِ والصابون، غير أنّ رغوةَ الصابونِ البيضاءَ،

حين انسابتْ على وجهي، تسلّلتْ إلى عينيّ... وأطلقتُ عندها صرخةً عاليةً، باكيةً، من شدّةِ الحرقة.

ما كانَ من أمّي إلّا أن أسرعتْ، تمسحُ وجهي بيديها المرتجفتَينِ عطفًا، وتُقبّلني كأنها تُريدُ أن تُطفئَ تلك اللذعةَ بشفتيها.

قالت منى، وقد اشتدّ في عينيها الوهج:

" يا إلهي... لا شيء يُشبه لمسةَ الأُمّ حين يكون الوجعُ في العين"!

ابتسم نُعمان، وتابع:

" بعد الحمّام، ألبستني ثيابًا صيفيّةً اختارتْ ألوانَها بعنايةٍ، كأنها كانت ترسمني بريشةِ ألوانٍ ناعمة. سروالٌ قصيرٌ، بلونِ أزهارِ شجرةٍ صغيرةٍ كانت قد نبتتْ قرب بابِ مطبخنا، يتّصلُ بحمّالتينِ رفيعتين، وحزامٍ بلونِ أوراقِ الشجرةِ ذاتها. أمّا القميصُ، فقد زُيِّن بأزرارٍ صيفيّةٍ صغيرة، تُخفي بعضها ربطةً عريضةً فاتحةَ اللون، كأنّ أمّي وضعتْ زهرةً على نافذةِ غرفةِ الطعام".

ضحك والد منى ضحكةً قصيرة، وقال:

" والله كأنّي أراها أمامي! أمّك كانت رسّامةً بالأقمشة"!

هزّ نعمان رأسَه موافقًا:

" بل كانت رسّامةً بالحبّ. حتى الحذاءُ... كانَ خفيفًا، ذا ساقٍ قصيرة، فيه عُقدتان صغيرتانِ على الجانبين، تُكملان هيئةً لا تُشبه الأطفالَ فحسب، بل تُشبه الصباحَ حينَ يضحك".

ثمّ تنفّس ببطءٍ، وعادَ إلى الحكاية:

" سكبتْ من زجاجةٍ صغيرةٍ قطراتٍ من عطرٍ خفيفٍ على كفّيها، ثمّ مرّرته على شعري وثيابي. عطستُ مرارًا، فضحكتْ ومسحتْ وجهي بقطعةِ قماشٍ ناعمةٍ كانت قد أعدّتْها سلفًا".

قالت منى بخفّة:

" واضح أنّك كنتَ طفلًا مدلّلًا يا نعمان"!

أجابها باسِمًا:

" في حضنِ أُمّي، كان العالمُ كلّه يتدلّلُ معي". وتابع:

" ثمّ حملتني إلى البابِ الخارجيّ، وقالت بصوتٍ مشبعٍ بالرقة:

(اِجْلِسْ هنا، وانتظرْ قليلاً... سيأتي من أرسلَه والدك ليأخذك إليه)

جلستُ على كرسيٍّ خشبيٍّ صغير، وضعتْه أُمّي بعنايةٍ أمامَ الباب، بينما كانت تراقبني من خلاله بعينَين مشوبتَينِ بالانتظار... عينينِ لا تزالان في الذاكرة، كما لو أنّهما لم تُغلِقا يومًا.

لم تمضِ دقائقُ قليلةٌ، حتّى توقّفت أمامي سيّارةُ والدي "الطويلة"، تلك التي كنتُ أراها كأنّها سفينةٌ من الخيال. ترجل السائق بخفّةٍ، وابتسم وهو يقول:

(معلّمتِي... نُعمان بأمانتي.)

ثمّ حملني بين ذراعيه، وأجلسني على كرسيٍّ خاصٍّ أعدّه والدي لي داخل السيارة، كأنّه يعرفُ أنّني سأنامُ بعد لحظات".

قال والد منى:

" واضح أنّ أباك كان يهيّئ لك المكانَ حتّى في تفاصيل السيارات"!

ضحك نعمان وقال:

" كان يعتبرني نُقطةَ الضوء الوحيدة في منتصفِ يومه الطويل ، انطلقت السيارة تشقّ الطريقَ بسلاسةٍ، ولم ألبثْ أن استسلمتُ للنوم. وعندما أفقت، وجدتُ نفسي بين ذراعي والدي، يمسحُ وجهي بيده المبلّلةِ بقليلٍ من الماء، يُداعبني كأنّي كنزُهُ الصغير.

كان متجرُ والدي يقعُ في قلبِ المدينة، في شارعِ الجلاء، قبالةَ الجامعِ الكبير. متجرٌ واسع، يعجُّ بالحركةِ والحياة. رأيتُ عمّالًا منشغلين بإنزالِ صناديقَ خشبيّةٍ ضخمةٍ من سيارةِ نقلٍ طويلة، يُصفّونها بانتظامٍ إلى جوارِ الجدارِ الأيمن.

وفي الداخل... كانت صفوفٌ من الأدوات وماكيناتِ الخياطةِ والتطريزِ بأحجامٍ مختلفة، جميعها تحملُ اسمًا واحدًا محفورًا بفخرٍ على هيكلِها. كأنّها تُنادي: (هذا المكانُ لنا... وهذا الولدُ سيَصيرُ شيئًا مهمًّا يومًا ما)".

قال نُعمان، وقد تلوّن صوته بشيءٍ من البهجة الدفينة، كأنّه يُزيح الستارَ عن مشهدٍ محفورٍ في الذاكرة:

" أتذكّرُ تمامًا تلكَ اللحظة... حينَ أجلسني والدي على كُرسيٍّ خشبيٍّ صغيرٍ، ورفعني لأكون فوق سطح مكتبه الكبير. كان الكرسيُّ يهتزُّ تحت جسدي النحيل، كأنّه لا يعرفُ بعدُ كيف يحملُني".

قالت منى مبتسمةً، تميلُ نحوه بجسدِها كما لو أنّها تُعيد ترتيبَ المشهدِ في خيالها:

" أجلِسَكَ على المكتب؟! كأنّه أرادكَ شريكًا صغيرًا منذ البدايات".

هزّ نُعمان رأسه موافقًا، وقال:

" ربّما كانَ يرى فيّ امتدادًا لحلمه. أمامي، وُضعَ هاتفٌ أسودُ، ذو قرصٍ دوّارٍ، بدا لي وقتها آلةً سحريّةً تُصدر طنينًا مُبهمًا. وإلى جواره، كانت هناك خزنةٌ حديديّةٌ ضخمةٌ، تُشبه الخيال... بدا لي وكأنّها صندوقُ أسرارٍ لا يُفتح إلّا بعين والدي".

أومأ والد منى، وقال متأمّلًا:

" في الخزنات الكبيرة، تسكن الأحلام الصغيرة أحيانًا".

تابع نعمان وهو يحدّق في نقطةٍ ما في الجدار، كأنّه يُعيد قراءة الزمن على وجهه:

" إلى يسار المكتب، كان ثمّةَ مكتبٌ أصغر، تغمرُهُ أوراقٌ مبعثرة، ودفاتر قديمة، وراءه جلسَ رجلٌ في سنِّ والدي، منهمكٌ في تدوينِ أرقامٍ على صفحاتٍ متآكلة، يُقلّبها بحرصٍ كأنّه يُعيد ترتيبَ ذاكرته".

" وبين المكتبين، كان ممرٌّ ضيّقٌ يسمحُ للحركةِ أن تنسابَ دون ضجيج. أمّا سيّارةُ والدي، فقد كانت مركونةً إلى الرصيف المجاور، فخمةً، جامدةً كأنّها تراقبُه هو أيضًا".

قالت منى هامسةً:

" كأنّ كلّ شيءٍ في المتجرِ كان يَنتظرُه، حتى الأشياء الجامدة"...

ابتسم نعمان، وأكمل بنبرةٍ هادئةٍ:

" راقبتُه وهو يتنقّلُ بخفّةٍ بين حديثٍ مع العمّال، وإشاراتٍ سريعةٍ يُبادلها مع الرجلِ الجالس إلى جواره، واتصالاتٍ يُجريها عبر الهاتفِ ذي القرصِ الدائريّ".

" كنتُ أتبعهُ بعينيّ، ألاحقُهُ في حركاته، وأُشير بين الحين والآخر نحو السيّارة، ظنًّا منّي أنّه سيلحظُني ويأخذني معه... لكنّ انشغالهُ كان كثيفًا، ساحقًا، فما لبثتُ أن غفوتُ مجدّدًا".

" وحين أفقت، وجدتُ نفسي في حضنِ أمّي، تضمّني إلى صدرها، تحملني عبر ممرٍّ معتمٍ نحو سريري، في غرفةٍ ساكنةٍ، مظلمةٍ، تفوحُ منها رائحةُ طُمأنينتها القديمة".

سادت لحظةُ صمتٍ بين الثلاثة، قبل أن يقول والد منى:

" جميلٌ كيفَ تصبح لحظاتُ الغياب الصغيرة... مدخلًا لذاكرةٍ لا تُنسى".

أومأ نُعمان، ثم قال:

" وذاتَ يومٍ، جاء شابٌّ بسيطٌ، يحملني بين ذراعَيه، ويخترق بي حاراتٍ ضيّقة، يردّد كلماتٍ لم تألفها أذنايَ، شيءٌ منها يشبه الأذان، وشيءٌ آخر كأنّه غناءٌ شعبيٌّ مجهول".

ضحكت منى وقالت:

" أهذا أوّلُ لقاءٍ لك مع الحارات؟"

أجابها:

" أوّلُ لقاءٍ مع الصغرِ حين يُقذَفُ إلى واقعٍ لم يعتدْه بعد". وتابع وهو يلتفت نحوها:

" بلغنا دُكّانًا صغيرًا. كانَ والدي واقفًا فيه، إلى جوارِ كُرسيٍّ مرتفعٍ، يجلسُ عليه رجلٌ أمامَ مرآةٍ واسعة. بيدِ والدي مقصٌّ ومشطٌ، فيما رجالٌ آخرون جلسوا على كراسيّ خشبيّة، ينتظرون دورهم".

قال والد منى بدهشة:

" هل كان والدك حَلّاقًا أم تاجراً؟"!

هزّ نعمان رأسه مبتسمًا:

" كان كلَّ شيء. تاجرًا، حلاقًا، صانعًا... لا لشيء، إلّا لئلّا أحتاجَ إلى أحدٍ حين أكبر".

" وضعني الشاب على كُرسيٍّ صغيرٍ بجوارِ طاولةٍ متواضعةٍ، عليها هاتفٌ قديمٌ بقرصٍ دوّارٍ، وإلى جواره بابورُ كازٍ عتيق، وإبريقان من الشاي، وصينيّةٌ مكتظةٌ بالكؤوسِ الزجاجيّة".

"تدورُ الأحاديث في المكان، تتخلّلها ضحكاتٌ خافتةٌ، وصمتٌ كثيفٌ، كأنّ الجميعَ يحتفظُ بأسرارٍ تحت قمصانه".

"وما إن يُنهي والدي قصَّ شعر أحد الزبائن، حتّى يُسرع الشاب نحوه، يلوّحُ بمنفضةٍ صغيرة، ويقولُ بصوتٍ اعتادَه المكان:

(نَعيمًا يا سيّدي!)

ثمّ يشرعُ في كنسِ الأرضِ من بقايا الشَّعرِ المقصوص".

"وكان الزبون، ما إن يرتدي سترته، حتّى يمدّ يدَه إلى جيبِه، فيُخرج منها قطعةً نقديّةً صغيرة، يضعُها في يدِ والدي، ثمّ يُعطي أُخرى للشاب المكافح".

سألت منى وقد بدا التأثّر في صوتها:

" هل كنتَ تشعرُ بالفخر؟ أم بالغرابة؟"

قال نُعمان هامسًا:

" كنتُ أشعرُ أنني أنتمي... إلى دكّانٍ، وإلى مقصّ، وإلى رجلٍ يصنعُ لي مجدًا صغيرًا، دون أن يَسأل إن كنتُ أفهم".

سكنت الجلسة لبرهة، كأنّها تتهيأ للعبور إلى طورٍ آخر.

كانت الكلمات التي نثرها نُعمان تحمل شيئًا من الغبار، ذاك الذي لا يتبدّد بسهولة، بل يترك على الروح أثرًا لا يُمحى.

التفت والدُ منى إليه، وعيناه تشعّان بوميضٍ غامض، كأنّ فكرة ما بدأت تكتمل في ذهنه.

قال بهدوءٍ مشوبٍ بالحذر:

" نعمان... هل تذكر اسم ذلك الرجل الذي كان يجلس خلف المكتب الآخر؟ ذاك الذي قلت إنه يُدوّن ويفرز الأوراق؟"

تردّد نعمان لحظة، ثم قال:

" نعم أعرفه جيداً! إنه (-----) لم أكن أفهم حينها من هو، لكنّه كان كثير الحديث مع والدي في الحسابات".

انفرجت شفتا الأب كمن وجد القطعة الأخيرة في صورةٍ مبعثرة، وقال ببطء، موجهًا كلامه لابنته:

" كنتُ أظنّ ذلك... كلّ شيءٍ تطابق. الاسم، الدور، وحتى طريقة الغياب".

رمشت منى بدهشة:

" ما الذي تعنيه يا أبي؟"

اعتدل في جلسته، ووضع كفّه على حافة الطاولة أمامه، كأنّه يستعدّ لإلقاء سرٍّ ظلّ حبيسَ صدره طويلًا.

" أعني أنّ والد نُعمان، لم يكن حلاقًاً من الأساس. كان أحد كبار تجّار البلد في سنواتٍ مضت... متجره في شارع الجلاء، في مدينة دوما، كان من أشهر تجار الأدوات المنزلية، وله تعاملات مع شركة كنت أعمل بها عندما كنت شاباً في بيروت، تعاملت معه .. نعم أذكر ذلك جيداً .. كنت أؤمن له سيارات النقل الكبيرة لتنقل له البضائع من بيروت إلى سورية".

التفت إلى نعمان، ثم أردف بصوتٍ أكثر خفوتًا:

" والمحاسبُ الذي ذكرتَه... (-----)، كان أحد أشهر من تورّطوا في عملياتِ سرقة ونصب. الرجل اختفى من البلاد فجأةً في نهاية الخمسينات، ومعه اختفت حسابات كاملة لم تُفلح المحكمة ولا الأجهزة الأمنيّة في تتبّعها".

شهقت منى:

" تُقْسم أنّه هو؟"!

قال أبوها مؤكدًا:

" بكلّ يقين. ما سمعته من نُعمان، على مدى جلساتنا الأخيرة، جعلني أربط بين الوقائع. كنتُ أسمع منه دون أن أقاطع، أحتفظ بكلّ تفصيلةٍ في ذهني، حتى اكتملت الصورة اليوم".

نظر إلى نعمان بعينٍ يملؤها التقدير والأسف معًا، وقال:

" والدك، يا بنيّ، لم يسقط لأنّه فشل، بل لأنّه طُعِن من أقرب من وثق بهم. لولا خيانة ذلك المحاسب، لبقي على رأس تجارته. لكنّه خسر كلَّ شيءٍ في لحظةٍ واحدة: رأس المال، الثقة، الحسابات... وتحول من دائنٍ إلى مدينٍ".

سكت قليلًا، ثم أضاف بنبرةٍ أكثر عمقًا:

" ولمّا لاحقته البنوكُ، لم يهرب... بل آثر أن يبقى، وأن يُسدّد دينه قرشًا بعد قرش. ومضى يشتري كرامته بمقصّ الحلاقة ومشطٍ صغير".

أخفض نعمان رأسه، وعيناه تُقاومان دمعةً حارّة، لم يدرِ إن كانت من الفخر أم من الحزن.

همست منى بصوتٍ مشوبٍ بالرقة:

" أبي... لماذا لم تخبرنا من قبل؟"

أجابها مبتسمًا بأسى:

" لأنّني لم أكن متيقّنًا. لكنّي الآن أعلم. أعلم أنّنا نجلس مع ابن رجلٍ صنع من يده سلّمًا ليصعد به فوق الجراح. لم ينتحب، ولم يشكُ، بل اختار أن يبدأ من جديد، في صمت، كما يفعل الكبارُ حين ينكسرون ولا ينهزمون".

مدّ يده نحو نعمان، ووضعها على كتفه بحنوٍّ بالغ:

" لقد أخفى عنك الكثير، يا بنيّ، لا خوفًا، بل كي لا تَحمل ما لم تُخلق له بعد".

ارتجفت شفتا نعمان، ولم يقل شيئًا... كان الصمت أبلغ.

أما منى، فقد نظرت إلى أبيها ونعمان نظرةً جديدة، فيها شيءٌ من الدهشة، وشيءٌ من الإجلال... وشيءٌ آخر لا اسم له، لكنّه كان واضحًا في عينيها تمام الوضوح.

أرادت منى، وقد لمحت الذهول يستبدُّ بالوجوه، أن تُعيد النبض إلى الجلسة، فابتسمت لنعمان برقةٍ وقالت:

" تابِع، يا نعمان... لعلَّ الحديث يُخفِّف عنّا وقع المفاجأة."

تنفّس نعمان ببطء، كأنّه يسترجع شيئًا بعيدًا وعزيزًا، ثم قال بصوتٍ كأنّه يُصغي إلى داخله:

" ذاتَ صيفٍ جديدٍ، بدأتُ أخرج إلى الباب الخارجيِّ خُفيةً عن أمّي، أتحيَّن لحظةً يأتيني فيها مَن يأخذ بيدي، ويقودني نحو والدي.

وحين يطولُ الانتظارُ، ولا أحد يجيء... كنتُ أتسلَّل وحدي، أخطو بتردُّدٍ، كأنّي أمشي في حلمٍ تائه."

أطرق برأسه لحظة، ثم تابع، وعيناه تلمعان:

" تحت وَقْعِ الحَرِّ اللاهبِ، كنتُ أستندُ إلى حجرٍ كبيرٍ أمام باب دارِ إحدى قريبات أمّي. لم يكن الحجرُ غريبًا، ولا الباب. كنتُ قد رافقتها إلى هناك مرّة، في زيارةٍ قصيرةٍ لا أذكر من تفاصيلها إلا وجهَها وهي تُضحِك النسوة في الليوان.

يُغالِبني النُّعاسُ من شِدَّةِ التَّعَب، فأغفو فوق ذاك الحجر، لا أدري كم مضى من الوقت... إلى أن تَجِيءَ يَدٌ دافئةٌ، تُوقِظُني بلُطف، فأراها نفس المرأة تحتضنني وتُدخلني دارها، تفرش لي أريكةً تحت ظلِّ شجرةِ تينٍ سامقةٍ، تمتدُّ أغصانُها داخل الفناء."

هنا، قالت منى، وقد أشفقت في صوتها حنانٌ لا يُخفى:

" كنتما فقراء إذن، لكنك تصف الفقر كأنّه حلمٌ جميل."

ابتسم نعمان ابتسامةً باهتة، ثم قال:

" لم أكن أعلم! معنى الفقر أم .. أكُنّا فقراء؟ أم لا؟ لكننا لم نكن مهزومين."

نظر والد منى إلى ابنته بإعجابٍ صامت، وكأنّه يقرأ في كلمات نعمان ما يتجاوز الحكاية.

وأكمل نعمان:

" أنامُ هناك ساعاتٍ طويلة، ثم أفتحُ عينيّ، وكأنّي ما غادرت بيتنا قط. كلّ شيءٍ كان يشبه ما أعرفه، سوى أنّ والدي لم يكن هناك...

وفي مساءٍ باردٍ، من نهايات الخريف الذي أعقب ذلك الصيف، كنتُ قد أتممتُ الرابعة. حضرت شاحنةٌ كبيرة، حملت سريري، وأثاثَ بيتنا، حتى أواني المطبخ لم تُترَك خلفها.

ركب والدي إلى جانب السائق، يحتضنُ والدتي، وأُختي الصغيرة، وأخي الرضيع الذي بالكاد تفتَّحت عيناه. دعوني لأجلس معهم في المقعد الأمامي، لكنّي أصررتُ على البقاء في الخلف، إلى جانب سريري."

هنا، قطب والد منى حاجبَيه قليلًا وسأل:

" كنتَ ترفض القُرب منهم؟"

هزّ نعمان رأسه وقال:

" كنتُ فقط أريد أن أبقى حيث أجد نفسي... داخل أشيائي الصغيرة، وفي عالمٍ أعرفه."

ثم أردف بصوتٍ خافت:

" لَفَّني أبي بلِحافٍ سميكٍ، خشيةَ بردِ الليل. أسندتُ رأسي إلى وسادتي الصغيرة، وغفوتُ على أنين ارتجاجِ السيارة.

وحين استفقتُ مع خيوط الفجر الأولى، وجدتُنا جميعًا نائمين في غرفةٍ غريبةٍ عن عيني وروحي.

تردَّدتُ في مغادرة فراشي، ظننتُ أنّني أحلم. مددتُ يدي إلى أُختي، أيقظتُها هامسًا:

' أين نحن؟' "

غمغمت بنعاس:
" لا لعلف..."
وعادت تغطُّ في النوم.

أدركتُ أن الجميع هنا... فاطمأن قلبي، وبقيتُ تحت لحافي، أراقب والدتي حين استيقظت وشرعت ترتّب بعض الأثاث المبثوث بعشوائية.

ناديتها بخفة:
" أمي، هل أساعدكِ في شيء؟"

التفتت إليَّ وهي تزفر تنهيدةً طويلةً، وقالت:
" لن تقدر على فعل شيء حتى يجهز بيتنا الجديد!"

تلفّتُّ حولي، وقد ملأتني الحيرة:
" أتقصدين أن هذا البيت المهترئ... سيكون بيتنا!؟"

ابتسمت ابتسامةً باهتة، وأجابتني بحزمٍ:
" بل هو بيتنا الجديد... فلا تُكثر الكلام، وعُد إلى النوم!"

ساد صمتٌ قصير، كأنّ الجدران نفسها تنصت.

قالت منى بصوتٍ منخفضٍ، وهي تنظر إلى والدها:

" تخيَّل يا أبي... أن يبدأ الإنسان رحلتَه من فوق حجر، ثم يستيقظ فجأةً في بيتٍ لا يعرفه."

همس والدها، كأنّما يكلم نفسه:

" ليست البيوتُ ما يضيع يا ابنتي... بل يقينُ الإنسان بمكانه في الدنيا."

نظر ثلاثتهم إلى بعضهم، وفي العيون مزيجٌ من الأسى والفخر، وفي القلب رعشةٌ خفيّةٌ لا تشبه شيئًا سوى ما يُقال حين يوقظك الحنين من حلمٍ قديم.

توقّفَ نُعمانُ عن السَّردِ حين أوشكَ صوتُهُ أن يَخونَه، وغمغمَ في داخلهِ خشيةَ أن ترى "مُنى" أو والدُها ارتجافَ دمعٍ كادَ أن يفيضَ من عينيهِ. تَجمَّدَ لحظَاتٍ، ثمّ التفتَ إليها قائلاً بصوتٍ خافتٍ يحملُ من التوقِ ما لا يُخفى:
" أمَا آنَ أوانُ حديثِكِ، يا مُنى؟"
قالها، وهو يُحاولُ أن يخفّف من ثقل اللحظة، لكنّه شعرَ بشيءٍ غريبٍ يعتصرُ قلبه، وكأنّ الكلمات قد توقّفت في حلقه.

أجابته "مُنى" بعد لحظة صمتٍ، وكأنَّها تتلمّس كلماتها في الهواء، ثمّ شرعتْ تتحدّث عن والدتها، وعن جديها لوالدتها، وكيف كان تعامل الجميع معهم. كانت تتحدَّث بإسهاب، وبلغةٍ تنبضُ بحبٍ عميقٍ وتقديرٍ، وذكرياتٍ لا تُمحى. استرسلتْ قائلة:
" أمي... لم تكن أمًّا فحسب. كانت عالَماً بأسره. كانت تُدرّسُ العربيّةَ في الجامعة، وتُحيي الشِّعرَ في قلوبِ الطُّلاب، وتجعَلُ النّحوَ يغنّي، والبلاغةَ تتدلّى من أطرافِ الجملِ مثلَ عناقيدِ ياسمينٍ في شُرفةٍ بيروتيّة".
ثمّ توقّفت لحظة، وكأنّ الكلمات تُثقِل لسانها، فأضافت بتنهيدةٍ عميقة:
" لكنّها، في البيت، كانت أمًّا كما ينبغي أن تكون... رقيقةً، حازمةً، رفيقةً، وعميقةَ الفِكرِ والخوفِ والحُبّ".

كانت عينا "مُنى" تغرقان في الحنين، فرفعتْ نظرها إلى السّقفِ، ثمّ عادتْ لتلتقي بعينيّ نُعمان، وابتسمت ابتسامةً شاحبة، كأنّها تزيل بها ضبابًا تراكم خلف جفنيها. ثمّ استأنفت حديثها بنبرةٍ تحملُ الكثيرَ من الذكريات المؤلمة، لكنها استجمعتْ قوتها، وقالت:
" عاملَتني كمشروعِها الأجمل، لا كطفلةٍ فقط، بل كصديقةٍ تُصغي وتُعلِّم. كأنثى تُربّي أُنثى أخرى على الحياة. لم تكن تُعاقب، بل تُحاور. كانت تقول لي دومًا: 'الحُريّةُ لا تُعطى يا مُنى... تُدرَّبُ عليها'".

كان لحديثها سحرٌ خاص، وقد احترقَ صمتُ نُعمان بين كلماتها. ازداد السكون ثقلاً، بينما كانت عيناها تغرُورقان بالدموع التي لم تَسقط بعد. لم تُستسلم، وقالت بصوتٍ متماسكٍ وفيه رجفةُ الفقدِ:
" حين ماتت... أحسستُ أنّ جزءًا من روحي سُحِبَ بلُطفٍ مؤلم، كأنّني فُصِلتُ عن نورٍ كنتُ أتنفّسه. كلُّ ما أنا عليه اليوم، هو امتدادٌ لها... أنا، في الحقيقة، لستُ سوى ظلٍّ دافئٍ لصوتِها، ونُسخةٍ باهتةٍ من قلبِها الكبير".

لم يُقاطعها نُعمان، بل أنصتَ في صمتٍ مطبقٍ، وكأنّ لسانه قد تجمّد أمام عمق معاناتها. كان يلتقط كلَّ كلمةٍ بعنايةٍ كما لو كانت سرًّا يُستمع إليه لأول مرّة. في عينيه، كان هناك وقارٌ غير معهود، بينما كان صدره يتّسع تدريجيًا لحجم الإدراك الجديد: أن يكونَ الإنسانُ أثرًا من حبٍ راحل.
قال في سرّه، متأمّلاً:
"ما أندر الذين يُربَّونَ بالمحبّةِ الخالصة، وما أطهر أولئك الذين يَحملونَ في قلوبِهم دفءَ الغائبين".

كانت "مُنى" قد أتمّت حديثها، وما زال السكون يملأ المكان. هو لم يَستطع أن يعبّر عن تأثير كلماتها، لكنّ عينيه قالتا ما عجز لسانه عن قوله.

نظرتْ إليه، ثمّ قالت بهدوءٍ أكثر:

" لم تكن أمي فقط. كانت مرآتي، دليلي، صديقتي، و... كانت تسبقني دائمًا بخطوة. تعرفُ ما أفكّر بهِ قبلَ أن أتفوّه. وبعد رحيلِها... كنتُ مضطرّةً أن أكون الأمّ. لكن... لمن؟ فقد أخذت أخي الصغيرَ معها، ذاكَ الذي كنّا نُحبّه... كأنّها لم تترك لي إلّا قطعةَ قماشٍ بالية، كنتُ أعتقدها مجرّدَ ذكرى، لكنّي أدركتُ لاحقًا... أنّها كانت (تصر حتى بعد رحيلها) على أن تُعلّمني بها القوّة".

أسندَ نُعمان ذقنهُ إلى كفّه، وقال بصوتٍ أشبهَ بهمسِ القلب:

" جميلٌ أن يُربّى الإنسانُ على هذا النّوع من الحُب... حُبٌّ يمنحهُ جناحين، وإن كسَرَ الموتُ أحدَهما، ظلّ يُحلّقُ بالآخر".

ثمّ سألها بعد تردّدٍ قصير:

" منى... هل تكتبين؟"

أجابت بدهشة:

" أكتب؟"

قال مبتسمًا:

" أقصد... هذا السّرد، طريقتكِ في الوصف، في الحنين، في استحضارها... إن دوّنتِ هذا، سيهتزُّ له الكثيرون".

لأوّلِ مرّة، ارتسمتْ على شفتيها ابتسامةٌ نقيّة، صافية، ليست مصطنعةً ولا بلهاء، بل تلك التي تُولد حين يُشعِركَ أحدٌ بقيمةٍ داخلكَ لم تكن تراها.

قالت:

" ربّما... ربّما سأبدأ بها. فهي أولى أن أُكتب عنها من أيِّ شيءٍ آخر".

نهضَ نُعمانُ بخفّةٍ إلى غرفةٍ جانبيّة، وعادَ بدفترٍ صغيرٍ مغلّفٍ بجلدٍ داكن، وقدّمه لها قائلاً:

" ابدئي بهذا، الآن".

تردّدتْ لحظة، ثمّ أخذتهُ من يده، دون كلمة، لكنّ عينيها قالتا الكثير... كانت لحظةً خافتة، لكنها، في قلبِ كلٍّ منهما، كانت بدايةً لشيءٍ جديد... شعورٍ لم يُعلنْ نفسَه بعد، لكنّه وُلد.

في الرُّكنِ المُقابِلِ، لم يَحتمِلِ السَّيِّدُ أَحْمَدُ ذَاكَ الكَمَّ مِنَ الصِّدْقِ وَالعَاطِفَةِ... فَانْسَحَبَ بِهُدُوءٍ، وَتَرَكَهُمَا يرْمِّمَانِ بَعْضًا مِمَّا أَفْسَدَهُ الزَّمَانُ عَلَيْهِمَا.
"أَمَّا السَّيِّدُ أَحْمَدُ، فَكَانَ يُشَارِكُهُمْ فِي كُلِّ أَمْسِيَةٍ شَيْئًا مِنْ اهْتِمَامَاتِهِ العِلْمِيَّةِ وَالمِهَنِيَّةِ، وَيَتْرُكُ لِمَلَامِحِهِ أَنْ تَبُوحَ عَنْ ذَاكَ الحُبِّ الكَبِيرِ الَّذِي احْتَلَّ حَيَاتَهُ، وَكَانَتْ مُنَىٰ أَجْمَلَ ثَمَارِهِ".
"وَكَانَتْ تَرَاوِدُ ذَاكِرَتَهُ دَوْمًا قِصَّةً، بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ تَخْتَصِرُ حَيَاتَهُ كُلَّهَا..."، سَيَرْوِيهَا لَهُمَا ذَاتَ يَوْمٍ، حِينَ يَأْتِي أَوَانُهَا، فَقَدْ وُلِدَ أَحْمَدُ فِي إِحْدَى الحَارَاتِ الضَّيِّقَةِ، حَيْثُ البُيُوتُ مُتَلَاصِقَةٌ كَأَسْرَارِ النَّاسِ، وَحَيْثُ الحُلْمُ لَا يُفْصِحُ عَنْ نَفْسِهِ إِلَّا هَمْسًا. كَانَ أَصْغَرَ إِخْوَتِهِ، يَحْمِلُ فِي عَيْنَيْهِ نَظْرَةً غَرِيبَةً، لَا تَشْبَهُ نَظَرَاتِ أَتْرَابِهِ. فِي طُفُولَتِهِ، لَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ كَثْرَةُ اللَّعِبِ، بَلْ كَانَ يُرَىٰ غَالِبًا تَحْتَ ضَوْءِ الفَانُوسِ، يَتَصَفَّحُ كِتَابًا مُسْتَعْمَلًا، يَرِقُّ أَوْرَاقَهُ كَأَنَّهُ يُلَامِسُ حُلْمًا هَشًّا.
كَانَ يَخْطُو إِلَىٰ المَدْرَسَةِ بِثِيَابِهِ المُهْتَرِئَةِ، لَكِنَّهُ يَعُودُ كُلَّ يَوْمٍ بِكَلِمَاتِ ثَنَاءٍ تُدَوَّنُ فِي دَفْتَرِهِ أَكْثَرَ مِمَّا تُقَالُ فِي الصَّفِّ. تَفَوُّقُهُ لَمْ يَكُنْ ضَجِيجًا، بَلْ دَأْبًا صَامِتًا، مُضِيئًا كَفَتِيلٍ فِي عَتْمَةِ الفَقْرِ. وَلِأَنَّ الحَيَاةَ لَمْ تَكُنْ تَفْرِشُ الأَرْضَ لِأَحْلَامِهِ بِالْيَاسَمِينِ، عَمِلَ أَحْمَدُ مُنْذُ الصِّغَرِ: يُوَزِّعُ الخُبْزَ، وَيَنْسَخُ الأَوْرَاقَ عَلَى الآلَةِ الكَاتِبَةِ فِي مَكْتَبٍ صَغِيرٍ، وَيُسَاعِدُ شَيْخًا ضَرِيرًا فِي تَرْتِيبِ مَكْتَبَتِهِ مُقَابِلَ سَاعَاتٍ مِنَ القِرَاءَةِ المَجَّانِيَّةِ.
وَبَيْنَ العَمَلِ وَالدِّرَاسَةِ، ارْتَفَعَ أَحْمَدُ كَقَنْدِيلٍ فِي لَيْلَةٍ رِيفِيَّةٍ مُعْتِمَةٍ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الثَّانَوِيَّةَ، صَارَ اسْمُهُ يَتَرَدَّدُ فِي المَدَارِسِ المُجَاوِرَةِ. وَمِنْحَةٌ دِرَاسِيَّةٌ كَانَتْ أُولَى بِشَائِرِ العَدَالَةِ فِي حَيَاتِهِ — مِنْحَةٌ حَمَلَتْهُ إِلَى فَرَنسا، إِلَى جَامِعَاتِهَا العَرِيقَةِ، وَهُنَاكَ... انْفَتَحَتْ أَمَامَهُ أَبْوَابٌ لَمْ يَكُنْ يَتَخَيَّلُهَا.

فِي إِحْدَى قَاعَاتِ المَكْتَبَاتِ، التَقَى بِهَا. كَانَتْ مَايَا، ابْنَةَ العَائِلَةِ الثَّرِيَّةِ، جَمِيلَةً لَا بِالتَّكَلُّفِ، بَلْ بِشَيْءٍ دَاخِلِيٍّ يُشْبِهُ الوُضُوحَ. كَانَتْ تَهْتَمُّ بِدِرَاسَتِهَا كَأَنَّهَا تُرَمِّمُ شَيْئًا هَشًّا فِي رُوحِهَا. هُوَ، الشَّابُّ القَادِمُ مِنْ حَيٍّ مُتَوَاضِعٍ، لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ شَيْئًا لِيُبْهِرَهَا سِوَى نُبُوغِهِ، وَصِدْقِ حَدِيثِهِ، وَنَظْرَةِ عَيْنَيْهِ الَّتِي تَقُولُ مَا لَا يُقَالُ.

تَعَارَفَا... ثُمَّ أَحَبَّا.

وَلَمْ يَكُنْ حُبُّهُمَا نَزْوَةَ صَيْفٍ فِي بَارِيس، بَلْ نَبْتَةً نَمَتْ بَيْنَ دَفَاتِرِ الدِّرَاسَةِ، وَفِي الزَّوَايَا الصَّامِتَةِ مِنَ المَكْتَبَةِ، وَعَلَى الأَرْصِفَةِ الَّتِي عَرَفَتْهُمَا قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَا نَفْسَيْهِمَا.

عَرَّفَتْهُ إِلَىٰ وَالِدِهَا، الرَّجُلِ الَّذِي لَا يَثِقُ إِلَّا بِمَنْ تُبَرْهِنُهُ الأَفْعَالُ. وَكَانَ أَحْمَدُ أَهْلًا لِذَٰلِكَ. فَحِينَ عَادَ إِلَىٰ بَيْرُوتَ، وَالْتَحَقَ بِشَرِكَةِ البِنَاءِ الَّتِي يَمْلِكُهَا وَالِدُهَا.

"وَيَا لَلْمُفَارَقَةِ... فَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الشَّرِكَةُ ذَاتَهَا الَّتِي مَنَحَتْهُ البَعْثَةَ لِمُتَابَعَةِ دِرَاسَتِهِ، دُونَ أَنْ يَدْرِي أَحَدُهُمَا أَنَّ خُيُوطَ القَدَرِ كَانَتْ تُنْسَجُ بِهُدُوءٍ مُنْذُ ذَٰلِكَ الحِينِ."

لَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ غَيَّرَ مَلَامِحَهَا. أَدْخَلَ إِلَيْهَا مَا اخْتَزَنَتْهُ رُوحُهُ مِنْ عِلْمٍ وَفَهْمٍ، وَتَابَعَ المَشَارِيعَ بِحَمَاسٍ نَادِرٍ، وَسَهِرَ عَلَىٰ التَّفَاصِيلِ كَأَنَّهُ يَبْنِي بَيْتًا لِأُمِّهِ.وفي كل ذلك، لم يكن ينسى مايا، بل كانت هي السبب، والرفيقة، والنور الذي يتّبعه. حُبُّه لها لم يكن كلمات، بل كان سلوكًا ملموسًا، اهتمامًا يوميًا، وفاءً لا يلين، وتفانيًا نادرًا مع والدها، الذي لم يمضِ وقت طويل حتى صار ينظر إليه ..."لا كمجرد شابٍ ملتزم ببنود منحة دراسية، بل كصهرٍ مستقبلي يُعوَّل عليه، ثم كابنٍ لم تلده يداه".

ذَاتِ مَسَاءٍ فِي مَشْهَدٍ يَجْمَعُ بَيْنَ "حَدِيثِ الشُّرُوقِ" وَبَيْنَ مُنَى وَأَبِيهَا،

كانت الشَّمْسُ تَطِلُّ بِبُطْءٍ مِنْ خَلْفِ التِّلَالِ، وَالسَّمَاءُ تَنارُ بِأَلْوَانٍ لَا تُسَمَّى. جَلَسَتْ مُنَى فِي الشُّرْفَةِ، تَتَأَمَّلُ صَمْتَ الأَشْجَارِ وَاسْتِيقَاظَ الكَوْنِ، فِيمَا كَانَ وَالِدُهَا يَقِفُ عِندَ الحَافَّةِ، يَحْتَسِي قَهْوَتَهُ بِصَمْتٍ يَعْرِفُهُ جَيِّدًا. لَمْ تَكُنْ لَحْظَةَ صَمْتٍ عَادِيَّةً... بَلْ كَأَنَّ بَيْنَهُما شَيْئًا يُرِيدُ أَنْ يُقَالَ.

قالت مُنَى، بِصَوْتٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ التَّرَدُّدِ وَشَيْءٌ مِنَ الفُضُولِ:

" بَابَا... كَمْ أُحِبُّكَ! وَأُحِبُّكَ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ عِندَمَا تُحَدِّثنِي عَنْ ماما؟"

استدار نَحْوَهَا، نَظَرَ فِي عَيْنَيْهَا، وَابْتَسَمَ... تِلْكَ الابْتِسَامَةُ الَّتِي لَا تُرَى عَلَى الشِّفَاهِ بَلْ تُحَسُّ فِي الأَعْمَاقِ.

" آه يا مُنَى! وَمَا الَّذِي لَا تَعْرِفِينَهِ عَنْهَا؟ أَمْ تُرِيدِينَ أَنْ تَعْرِفِي عَنْهَا شَيْئًا مُحَدَّدًا يَا بُنَيَّتِي؟"

" كُلَّ شَيْءٍ... لَكِنْ تَحْدِيدًا: كَيْفَ التَقَيْتُمَا؟ وَلِمَاذَا أَحْبَبْتُمَا بَعْضَكُمَا؟ وَمَا الَّذِي دَفَعَهَا لِتَخْتَارِكَ مِنْ بَيْنِ كُلِّ مَا كَانَ أَمَامَ عَيْنَيْهَا؟"

ضحكَ بِرِفْقٍ، ثُمَّ جَلَسَ قُبَالَتَهَا، وَوَضَعَ فِنْجَانَهُ عَلَى الطَّاوِلَةِ الصَّغِيرَةِ الخَشَبِيَّةِ، وَقَالَ:

" هِيَ لَمْ تَخْتَرْنِي مِنْ بَيْنِ الكُلِّ... وَأَنَا لَمْ أَخْتَرْهَا أَيْضًا، مَا كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا هُوَ الَّذِي اخْتَارَ، فَقَدْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ، كُنْتُ أَنَا نَفْسِي أُحَاوِلُ أَنْ أَفْهَمَهُ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ الأَسْرَعَ فِي فَهْمِهِ وَتَفْسِيرِهِ وَتَبْرِيرِهِ وَالأَسْرَعَ فِي وَضْعِهِ فِي حَيِّزِ التَّنْفِيذِ. رُبَّمَا كَانَ نُبُوغِي، رُبَّمَا كَانَ صِدْقِي، أَوْ رُبَّمَا... لِأَنِّي كُنْتُ فَقِيرًا، "لَكِنَّ فَقْرِي لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَيَّ، وَلَمْ يَقْدِرْ يَوْمًا أَنْ يَكْسِرَنِي."

صَمَتَ لَحْظَةً، وَعَيْنَاهُ تَسْرَحَانِ فِي البَعِيدِ كَأَنَّهُ يُحَادِثُ ظِلَّ مَاضٍ لَا يَزَالُ دَافِئًا فِي قَلْبِهِ.

" اِلتَقَيْتُهَا فِي مَكْتَبَةِ الجَامِعَةِ فِي بَارِيسَ. كُنتُ عَائِقًا بَيْنَ رُفُوفِ الكُتُبِ، أَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ أَوْ عُنْوَانٍ يَرْبِطُ الهَنْدَسَةَ بِالفَلْسَفَةِ، لَمَّا سَمِعْتُ صَوْتَهَا وَهِيَ تَسْأَلُ عَنْ كِتَابٍ يَرْبِطُ بَيْنَ آدَابِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ بِالفَلْسَفَةِ. ضَحِكْنَا مَعًا فَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّنِي أَدْرُسُ الهَنْدَسَةَ، وَعَرَفْتُ أَنَّهَا تَدْرُسُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ، "...لَكِنَّ كُلًّا مِنَّا كَانَ يَبْحَثُ عَنْ العُمْقِ البَعِيدِ فِي دِرَاسَتِهِ. وَتَعَارَفْنَا أَكْثَرَ حِينَ جَمَعَتْنَا لُغَةُ الوَطَنِ، وَجِرَاحُ الغُرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَلِدُ لُغَةً أُخْرَى بَيْنَنَا. كَانَتْ بِنْتَ بَيْتٍ كَبِيرٍ، غَنِيَّةً، لَكِنَّهَا كَانَتْ مِنْ دَاخِلِهَا تَحْمِلُ النَّقَاءَ وَالبَسَاطَةَ الَّتِي لَا تَعْرِفُ وَلَا تَغُرُّهَا المَظَاهِرُ."

" وَجَدْتُ نَفْسِي أُحِبُّهَا بِسُرْعَةٍ؟"

قالت مُنَى وَهِيَ تَمِيلُ بِرَأْسِهَا:

" لا، إنَّهُ ما كانَ حُبًّا مِنْ نَظْرَةٍ أُولَى... بَلْ كَانَ حُبًّا مِنْ أَوَّلِ احْتِرَامٍ. أَوَّلِ إِعْجَابٍ بِالاهْتِمَامِ، بِالْهُدُوءِ، بِشَغَفِ كُلٍّ مِنْكُمَا بِالدِّرَاسَةِ."

سَأَلَتْهُ بَعْدَ بُرْهَةِ صَمْتٍ:

" وَهِيَ؟ كَيفَ حَبَّتْكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَعرِفُ أَنَّكَ فَقِيرٌ؟"

تَرَاجَعَتْ مَلَامِحُهُ لِحَظَاتٍ، وَتَجَمَّعَتْ فِيهِ بُقَعَاتُ الزَّمَنِ التَّالِي، قَبلَ أَنْ يَرُدَّ بِصَوْتٍ هَادِئٍ، كَأَنَّمَا تَحتَ سَطْوَتِهِ مَزَجٌ بَيْنَ الحَنَانِ وَالْتَحَفُّزِ:

" كَانَتْ تَعْرِفُ. وَوَجَدتُ أَنَّهَا تُحِبُّنِي، دُونَ أَنْ يُصَرِّحَ بَعْضُنَا لِلْآخَرِ. قَالَتْ لِي مَرَّةً: 'أَنتَ غَنِيٌّ، لَكِنْ بِطَرِيقَتِكَ.'"

وَجَمَعَ صَوْتُهُ هَجِيرًا مِنْ حُبٍّ وَحِسٍّ عَمِيقٍ وَهُوَ يَتَابِعُ:

" غِنَايَ كَانَ نُبُوغِيَّ، وَكَلِمَتِي، وَقَلْبِي. وَقُدْرَتِي... وَهَذَا كَانَ كُلَّ شَيْءٍ."

سَكَتَ لِحَظَاتٍ، وَعَيْنَاهُ تَسْرَحَانِ فِي بَعِيدِ الذِّكْرَى، كَأَنَّهُ يَحْتَسِي لَحْظَاتٍ مَحفَّةٍ بِالرَّوْعَةِ، قَبْلَ أَنْ يُحَدِّثَ بِصَوْتٍ أَخْفَضَ:

" مُنَى... ماما كَانَتْ هِيَ حُلْمِي، وَأَنَا كُنتُ حُلْمَهَا. وَالتَقَى حُلْمَانَا مَعًا بِوُجُودِكِ أَنْتِ، فَيَوْمَ قُدُومِكِ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا، حَانَ هُوَ الْيَوْمُ الحَقِيقِيُّ الَّذِي أَثْمَرَ فِيهِ حُبُّنَا، وَهُوَ الحَقِيقَةُ الوَحِيدَةُ الَّتِي جَمَعَتْ هَذَيْنِ الحُلْمَيْنِ."

ابْتَسَمَتْ مُنَى، وَقَدْ بَلَّلَتْ عَيْنَاهَا بَعْضَ الضَّوْءِ الغَائِمِ. مَدَّتْ يَدَهَا نَحْوَ يَدِ أَبِيهَا، وَأَمْسَكَتْ بِهَا.

" وَأَنَا فَخُورَةٌ بِكُمَا. وَأَتَمَنَّى، إِذَا أَحْبَبْتُ يَوْمًا، أَنْ يَشْبِهَ حُبِّي حُبَّكُمَا."

عَلَتْ وَجْهَ أَحْمَدَ ابْتِسَامَةُ سَعَادَةٍ، وَوَضَعَ كَفَّهُ عَلَى رَأْسِهَا بِحَنَانٍ:

" وَإِذَا صَارَ، فَسَتَكُونِينَ أَذْكَى مِنَّا كُلِّنَا، لِأَنَّكِ ابْنَتُنَا، وَابْنَةُ حُبٍّ لَمْ نَخْشَهُ يَوْمًا، بَلْ آمَنَّا بِهِ حَتَّى النِّهَايَةِ."

صَمَتَتْ مُنَى لِحَظَاتٍ، وَفِي جَوٍّ سَاكِنٍ غَارِقٍ فِي ضِيَاءِ الذِّكْرَى، تَفَجَّرَتْ فِي قَلْبِهَا حُسْنَ الأَمَلِ وَفَخْرَ الحُبِّ.

في مساءٍ هادئٍ من أمسياتِ الخريف، حيث كانت الرياح تُداعب أوراق الأشجار المصفرة، جلسَ نُعمانُ ومُنَى إلى الطاولةِ الخشبيةِ في زاويةِ المكتبةِ الصغيرةِ. كانت الأضواءُ خافتةً، وكأنَّ الليلَ نفسه ينسجُ صمته بعنايةٍ. أمامهما كانت أوراقُ الملاحظاتِ مفتوحةً، وبين يديهما أكوابٌ من القهوة الداكنة التي تعبّر عن مزاجٍ متأمّلٍ، كما لو أنَّ كلَّ رشفةٍ تُصَفِّي الذهنَ وتُعِيدُ ترتيبَ الأفكار.

كان كلٌّ منهما يحملُ دفترًا خطَّ عليه رؤيتَه الخاصةَ لعملٍ روائيٍّ أثار إعجابهما: *"آنا كارِنينا"* لتولستوي. أدارَ نُعمانُ عينيه بحذرٍ بين الصفحاتِ، ثم بدأ وهو يُقلِّبُ الصفحاتِ ببطءٍ وتؤدةٍ:

" عَنوَنتُ ملاحظاتي ب:

" آنا كارِنينا"* تأليف: ليو تولستوي، النشر: عام ١٨٧٧، التصنيف: دراما اجتماعية – تحليلٌ نفسيٌّ داخل مجتمعٍ أرستقراطيٍّ روسيّ."

توقّف لحظةً، ثم تابع بصوته الواثق الذي يبعثُ على الاهتمام:

" تدور الروايةُ في فضاءٍ يموجُ بالتقاليدِ والرياء، وتتركّزُ على حكايةِ امرأةٍ متزوّجةٍ تُدعى آنا، تقعُ في غرامِ ضابطٍ وسيمٍ يُدعى فرونسكي، فتمضي معه في طريقٍ محفوفٍ بالعارِ والعُزلةِ... حتى نهايتِها التراجيدية تحت عجلاتِ القطار."

قاطعته منى بنبرةٍ دافئة، وكأنَّ كلماتها كانت حافزًا لفتح أفق جديد في الحديث:

" لكنّها ليست قصّة آنا وحدها، بل هي حكايةُ قلوبٍ متقاطعةٍ... أضفتُ ملحوظةً عن خطٍّ موازٍ لا يقلُّ أهمية: ليفين وكيتي. ليفين، تلكَ الشخصيةُ التي تقفُ كظلٍّ متأمّلٍ خلفَ كلِّ مشهد، رجلٌ يبحثُ عن المعنى وسطَ الضوضاءِ، يجدُ في كيتي مرافقةً تمسكُ بيده نحو صفاءِ الريف والإيمان."

أومأ نُعمانُ برأسه موافقًا، ثم استأنفَ بتركيزٍ وهو يوجه نظراته إلى صفحاته:

" في قراءتي، شعرتُ أنّ تولستوي لم يكتبْ عن *خيانة*... بل كتبَ عن مأساةِ روحٍ لا تجدُ مكانَها. آنا ليست خائنةً، بل إنسانةٌ مُمزَّقةٌ بين الواجبِ والعاطفةِ، بين أن تكونَ أُمًّا وزوجةً، أو أن تحيا كامرأةٍ تُحِبُّ."

وقفت منى، تناولت ورقتها، وأخذت تقرأ بتأمُّلٍ عميق، وكأنّ الكلمات تتسلل من بين شفتيها وتحمل معها عواطف مشبعة بالتعقيد:

" آنا امرأةٌ ذكيَّةٌ، آسِرَةُ الحضور، لا تليقُ بها الحياةُ الباردةُ التي فرضها عليها زواجُها من كارِنين. سعتْ خلفَ حُلمِ الحبِّ، ولكنّها دفعت ثمنَه: نُبذًا، وغيرةً، وانهيارًا نفسيًّا تدريجيًّا... حتى سقطت تحت القطار، كما يسقطُ من لا يجدُ مَخرجًا من بين القضبان."

رفع نُعمانُ إصبعه مشيرًا إلى صفحةٍ أخرى من دفتره، وأضاف بنبرةٍ متأملة:

" وأضفتُ تحليلاً عن فرونسكي... فارسُ الطبقةِ العليا، الذي ظنَّ أن الحبَّ نزهةٌ عاطفية، ثم ارتبكَ حين صارَ مسؤولًا عن حياةِ امرأةٍ نُبذتْ من أجلِه. لم يكن شريرًا، بل كان هشًّا، ضاعَ بين الشهوةِ والمجتمع، فخابَ وخابت معه آنا."

سكت الجميعُ للحظاتٍ، وكان المكانُ كأنّه يطفو على أصداء كلماتهم، وكأنّ الحكاية كانت تُروى أمامهم للمرة الأولى. كانت منى تتأمل في كلمات نُعمان، بينما كان والدها، الذي كان يستمع باهتمام، يغمض عينيه برهة، وكأنّ الجمال يكمن في استيعاب المعنى أكثر من مجرد طرحه. سألته منى بعد فترة صمت:

" أبي، هل تعتقد أنَّ آنا كانت تستطيع أن تجد طريقًا آخر؟ هل كانت تستطيع أن تعيش حياتها خارج هذا الصراع؟"

أجاب والدها، وقد بدا وكأنّه يزن كلماته بعناية، وهو يبتسم ابتسامةً مختلطةً بالتفكير العميق:

" ربما، ولكنَّ صراعها كان صراعًا إنسانيًا بحتًا... بين الخوف من المجهول، والجرأة على التغيير. قد تكون قد اختارت الطريقَ الذي يجعلها تواجه حظّها بنفسها، ولكنّ الحقيقة أنّها كانت تبحث عن شيءٍ أعمق، ولم تجد إلا الفجوة بين تطلعاتها وواقعها."

صمت الجميع، وحين كانت القهوة قد قاربت على الانتهاء، كانت عيونهم قد امتلأت بشيءٍ من التفاهم العميق، وكأنّ كلَّ كلمة قد أضاءت جانبًا خفيًّا في نفوسهم، لتزيدهم إدراكًا لحقيقة الحكاية المخبأة وراء السطور.ابتسمت منى، وأشارت بقلمها قائلة:

" أما زوجُها كارِنين، فكانَ البردُ ذاته... لا يُحِبُّ، لا يَكره، يزنُ الأمورَ بعينِ المجتمعِ لا القلب. عجزَ عن احتواءِ آنا، ولم يُنقذها يومَ استطاع، لكنه أيضًا لم يُدمّرها عن قصد."

ثم أضافا سويًّا، وهما ينظران إلى خلاصةٍ مشتركة:

الشخصية	الصِّفاتُ الأساسيَّة	الدورُ في المأساة
آنا	**عاطفيَّة، ذكيَّة، مأزومة**	**البطلة المأساويَّة الباحثة عن الحبِّ**
فرونسكي	**وسيم، عاطفي، مُتردِّد**	**عاشقٌ حائر، ضحيَّة السطحيةِ الاجتماعيَّة**
كارِنين	مُحافِظ، عقلانيّ، بارد	رمزُ سلطةِ المجتمعِ وتقاليده

ثم همست منى، كأنّها تستعيدُ نغمةً خفيَّةً من الرواية:

" ليفين كان شيئًا آخر... أقربَ إلى تولستوي نفسه. رجلٌ يسأل: "لماذا نحيا؟"، فيكتشفُ الجوابَ في زرعِ الأرضِ، وفي حبٍّ متواضعٍ، وإيمانٍ لا يحتاجُ إلى خطبٍ ولا كنائس."

سكتَ الاثنان لحظةً، تأمّلا خلالها خريطةَ الرموزِ التي شكّلاها سويًّا:

القطار :رمزٌ للقدرِ، للحداثةِ التي لا ترحم، وللشغفِ الذي يدهسُ كلَّ شيءٍ.

الريف مقابل المدينة :المدينةُ مكانُ الزيفِ والضجيج، والريفُ حقلُ الطمأنينةِ والصدق.

♺ الثنائيات المتقابلة:

المعنى	الثنائي
الحبُّ المُدمِّر × الحبُّ المُتَّزِن	آنا × كيتي
العاشقُ العاجز × الباحثُ الحكيم	فرونسكي × ليفين
التمزّق × الانسجام	المدينة × الريف
فقدانُ المعنى × الاكتشافُ الروحيّ	الانتحار × الإيمان

أغلقت منى دفترها، وقالت بهدوءٍ:

" ليست روايةَ خيانةٍ فقط... بل مرآةٌ واسعةٌ للروحِ الإنسانيَّة... كأن تولستوي يهمس :أن تحبَّ، معناه أن تمشي على حدِّ السيف... وأن تسأل: لماذا نحيا؟"

أجابها نُعمان بابتسامةٍ تأمُّلية:

" وعلى أعتابِ هذا السؤال، تبدأ كلُّ روايةٍ... وربّما تبدأ الحياة."

في زاويةٍ نائيةٍ من المقهى، حيثُ كانت شجرةُ جوزٍ عتيقةٌ تَبسُطُ ظلَّها كأنّها تحنو عليهما، جلسا متقابلَين، بينَهما فنجانانِ من القهوةِ لم تَبرُد بعد، وصمتٌ طيّعٌ يسمحُ للأسئلةِ أن تولدَ بلا عوائق. نظرت إليه مُنى بعينينِ نصفِ عاتبتين، نصفِ مازحتين، ثم سألت، وفي صوتِها ما يُشبهُ الرِّيشةَ وهي تختبرُ سطحَ الماء:

" وهل قرأتَ من هو تولستوي؟"

لم يُخطِئ نُعمانُ نبرةَ الامتحانِ الخفيفِ في سؤالِها، ولا تلكَ اللمعةَ المُشاغبةَ التي لم تكن تخفي إعجابًا خفيًّا، بل تفتحهُ كما تُفتَحُ نافذةٌ نحو الريح. ابتسم، ثم ارتشفَ رشفةً صغيرةً من قهوته، كأنّه يستدعي عبرها طيفًا بعيدًا، وقال بصوتٍ هادئٍ كأنّه يُزيحُ الستارَ عن مشهدٍ يُحبُّه:

" ليو تولستوي، أو بالحريّ *ليف نيكولايفيتش تولستوي*، ليس مجرّدَ كاتبٍ روسيٍّ عظيم... بل هو نَفَسٌ من أنفاسِ الأدبِ الإنسانيِّ كله. كأنّهُ رَجُلٌ كُتِبَ له أن يعيشَ أكثرَ من حياةٍ، في حياةٍ واحدةٍ."

أسند ظهرَه إلى الكرسيّ، وبدا كأنّه يُحدّثُها ويحدّثُ نفسَه في آنٍ، ثم تابعَ بنبرته التي تجمعُ بين الحماسةِ والسكينة:

" وُلِدَ عامَ ١٨٢٨م، وتُوفِّي في ١٩١٠م. كان روائيًّا، وفيلسوفًا، ومُصلحًا اجتماعيًّا. تمرَّد على طبقته الأرستقراطيّة، ونزلَ إلى الأرضِ يبحثُ عن البساطةِ والمعنى في العملِ اليدويِّ، في الترابِ، في العرقِ لا الياقاتِ. وفي آخرِ أيامهِ، تركَ ثروتهُ ومجدَه الأدبيّ، وغادرَ بيتَه سرًّا، وماتَ في محطّةِ قطارٍ نائيةٍ... كأنّهُ أرادَ أن يُغادِرَ الحياةَ بلا ألقابٍ، بلا ضجيجٍ، فقط بِقُربِ الأرض".

أحسّت منى برجفةٍ خفيفةٍ تمرُّ على جلدِ ذراعِها، لم تكن من البرد، بل من وقعِ السرد. همست وكأنها تستوضح:

" وهل كان سعيدًا، وهو يتركُ كلَّ ذلك؟"

أجابها دونَ تردُّد، بصوتٍ أخفض قليلاً:

" لا أدري... لكنّه بدا وكأنّه يُريدُ أن يموتَ في سلامٍ، لا في انتصار."

أخذَ نَفَسًا خفيفًا، وراحَ يُحرِّكُ أصابعه على طاولةِ الخشبِ، كأنّهُ يُنقِّبُ في درجٍ قديمٍ من الذكريات، ثم قال:

" أشهرُ أعماله؟ *الحربُ والسّلام*، تلك الملحمةُ التي تَصِفُ روسيا في زمنِ نابليون، و*آنا كارنينا*، الروايةُ التي جعلتني أكرهُ القطارَ قليلًا، و*البعث*، حيثُ أرادَ أن يُبعثَ هو نفسُه، لا فقط شخصياته. وله أيضًا قصصٌ قصيرةٌ مثل *موت إيفان إيليتش*، وكم *يعيشُ الإنسان*، و*الشيطان*"...

قاطعتهُ مُنى، وقد بانَ الفضولُ في صوتها كأنّه طفلٌ يركضُ خلف فراشة:

" وماذا أحببتَ أكثر؟ أيُّ عملٍ بقيَ فيك؟"

ابتسم ابتسامةً هادئةً، ونظر إليها كأنّه يعترف:

" ربما موت *إيفان* إيليتش ...لأنّه يُعلِّمنا أن نموتَ بصدقٍ، لا بإنكارٍ."

ثم عاد ينظر إليها مليًّا، بعينينِ تتحدّثانِ من غيرِ كلمات، وقال:

" لكنّ الأهمَّ، هو أنّه في أواخرِ عمره، آمنَ بشيءٍ أسماه (المسيحيّة الأخلاقيّة البسيطة) ...دعوةٌ إلى الزهد، واللاعنف، والعملِ باليد، ومقاومةِ الشرِّ بالخير. وقد أثّرَ بفكرِه ذاك على غاندي، ثم على مارتن لوثر كينغ. كتبَ أدبًا، ثم عاشَ دعوته، ثم مات كما عاش: في الهامش، لا في القصر".

مالَ برأسه قليلًا نحوها، وقد لانت ملامحُه بجرعةٍ من الدعابة، وختم:

" فهل تظنّينني قرأتُ ما يكفي يا عزيزتي؟ أم كنتِ تختبرينني؟"

ضحكت منى، وضحكتها كانت تُشبهُ المطرَ الأولَ في موسمٍ قاحل، رقراقةً، خفيفةً، صادقةً. ثم نظرت إليه، وقالت، وعيناها تتلألأُ بدهشةٍ راضية:

" بل قرأتَني، قبل أن تقرأَ لي، يا نُعمان..."

قالتْ مُنى، وهي تُقلّب بين أصابعها ملعقةً صغيرةً، كأنّها تُنقّب في ذاكرتِها:

" حَسَنًا، إذًا... فَهَلْ لكَ أَنْ تُذَكِّرَني بِأَهَمِّ الكُتّابِ الرُّوسِ العالَمِيِّين؟"

ابتسم نعمان لِسُؤالِها، كأنّهُ نداءٌ قديمٌ يعرفُهُ جيّدًا. نظر في عينيها، ثمَّ قال، وكأنّه يستعرضُ قاعةً فَخْمَةً من العظماء:

" بِكُلِّ سُرورٍ... فَهُم عالَمٌ لا يُملُّ من زيارَتِه".

أسند وجهَه إلى راحةِ يدِها، وأصغَتْ بكاملِها، فتابع:

" فيودور دوستويفسكي (١٨٢١–١٨٨١) " هو فيلسوفُ النفسِ المُعَذَّبة، وسيِّدُ الأسئلةِ الكبرى. كتبَ الجريمةَ والعِقابَ، والأخوةَ كارامازوف، والأبلهَ .لا أحدَ كما أظنُّ نَبَشَ في أعماقِ الإنسانِ كما فعل".

" ليو تولستوي (١٨٢٨–١٩١٠) الفيلسوفُ الرُّوائي، الذي نَثَرَ الفِكرَ والأخلاقَ في الأدب. من الحربِ والسَّلام إلى آنا كارنينا، ومرورًا بموتِ "إيفان إيليتش"، كانت روحُه تتقلّب بين الإيمانِ والتمرُّد، بين الزهدِ والتأمُّل".

" أنطون تشيخوف (١٨٦٠–١٩٠٤) " الطبيبُ الذي شَفَى بالكلماتِ جُروحًا صامتة. كتبَ بُستانَ الكرزِ والنُّورس ومئاتِ القصصِ القصيرة. ببساطتِه العميقةِ طرحَ أسئلتَنا نحن، دون أن يدَّعي الإجابة."

" نيقولاي غوغول (١٨٠٩–١٨٥٢) "أبُ السُّخريةِ السوداء. تخيَّلي أنّه كتبَ عن أنفٍ يفِرُّ من وجهِ صاحبه، وعن معطفٍ يُغيِّر مصيرًا. من النفوسِ الميتة إلى عبثِ الحياة، مزَجَ بين الخيالِ والوجع".

" إيفان تورغينيف (١٨١٨–١٨٨٣) " الرُّومانسيُّ الحزين، أكثرهم انفتاحًا على الغرب. في الآباءِ والبنون، سجّلَ صراعَ الأجيالِ كما لم يفعل أحد. كانَ شاعرًا حتّى حين يكتبُ نثرًا."

" ألكسندر بوشكين (١٧٩٩–١٨٣٧) " مؤسِّسُ الأدبِ الرُّوسيّ الحديث، شاعرٌ ومسرحيٌّ وناثر. أثرُهُ يسبقُ عُمرَه. يكفي أنْ تقرئي يفغيني أونيغين لتعرفي أنّهُ من منحَ الرُّوس لغتَهم الأدبيّةَ الحيَّة."

" ألكسندر سولجينيتسين (١٩١٨–٢٠٠٨) " الصوتُ الجريءُ في زمنِ الخوف. كتبَ يومًا في حياةِ إيفان دينيسوفيتش، وفضَحَ بجرأةٍ في أرخبيل غولاغ أهوالَ المعسكراتِ السوفيتية. وقد نالَ على ذلك جائزةَ نوبل للآداب."

رفع حاجبَيَّه قليلًا ثم أردف، كمن يُلخِّصُ قرنًا كاملًا في سطرٍ واحد:

" هؤلاءِ لم يكتبوا لِيُسلُّوا فقط، بل لِيَسألوا: لماذا نحيا؟ ولمن؟ وكيف نُحِبُّ ونحنُ مُثقلونَ بهذا العالم؟"

ابتسمتْ منى، ثم قالت برفق:

" أَتَعْلَم؟ لعلَّ هذا ما يجعلُ أدبهم يَبْقَى... لأنَّهُ يَسْأَلُنا، لا يُجيبُ عنَّا"

في مساءٍ لم يكنَ مساءً استثنائيًّا في دمشق، لكنّ بعضَ الأمسياتِ – وإن تشابهَتْ تفاصيلُها – تُخفي بينَ طيّاتِها ما لا يُقال، وتُسطِّرُ ما لا يُكتَب.

عادَ نُعمانُ من معهدِه، حيثُ يدرسُ الرَّسمَ الهندسيَّ والمعماريَّ، بخطواتٍ ثقيلةٍ، كأنَّ اليومَ علّقَ أثقالَه في كعبِ حذائِه. كانت رائحةُ الورقِ والحِبرِ ما تزالُ عالقةً بكفِّه، وصوتُ الدكتورِ المُهندسِ يُلاحقُه في ذهنِه، يُردِّدُ تعليماتٍ لا تنتهي، ومَهامًّا تَلتَهِمُ الوقتَ كحطبٍ في موقدِ الشتاءِ.

جلسَ في الصالة، والبيتُ غارقٌ في هدوءٍ ناعم، لا يُكسرهُ إلّا ضوءٌ أصفرُ خافتٌ، ينسكبُ من مصباحٍ قديمٍ في الزاوية، ويمنحُ الأشياءَ ظلًّا يشبهُ الذكرى.

تمدَّدَ على الأريكةِ، وأمسكَ بالروايةِ التي تركَها صباحًا على الطاولة: *أنا كارنينا*. فتحَ الصفحةَ حيثُ توقّفَ، وأخذَ يُقلِّبُ العباراتِ بعينيه، لا بعقلِه، كأنَّهُ يقرأُ صورًا معلّقةً على جدارِ الذاكرةِ، لا سطورًا على ورق.

في تلكَ اللحظةِ بالضبط، أطَلَّت *مُنى* من بابِ المطبخِ، تمسحُ يديها بطرفِ المِئزر. توقَّفَتْ حينَ رأت عينيه غارقتَينِ في الصفحات، لم تَقُل شيئًا، اقتربَتْ فقط، وجلسَتْ قريبةً منه، كأنّها تنتظرُه أن يُنهيَ جملةً... أو تنهيدة.

همسَت، بصوتٍ أقربَ إلى النَّفس، لا يُخاطبُه بل يُخاطبُ الروايةَ التي بينَ يديهِ:

" نُعمان... هل كنتَ ستتهربُ منّي لو كنتُ مثلَ *آنا كارنينا*؟"

رفعَ عينيهِ عنها ببطءٍ، كأنّهُ يعودُ من عالَمٍ بعيدٍ ما زالتْ ظلالُه تُحيطُه، ثمّ قال، وصوتُه يحملُ بقايا الحبرِ والرُّؤية:

" هجرَها مَن حولَها، يا مُنى... هي فقط لم تجدْ من يحتضنُ خوفَها."

اقتربَتْ أكثر، وتطلّعتْ إلى غلافِ الروايةِ بينَ يديهِ، كأنّها تُحاولُ أن تُمسكَ بخيطِ تلكَ المرأةِ الورقيّة:

" لكنَّها هربَتْ... من ابنِها، من زوجِها، من كُلِّ شيء. أما تظنُّ أنّها كانت أنانيّة؟"

تنفّسَ نُعمانُ ببطءٍ، كمن يُعيدُ ترتيبَ أفكارِه بينَ ضلعَيه، ثمّ قال:

" ربّما... لكنَّ الألمَ، أحيانًا، يجعلُ الأنانيّةَ تبدو كأنّها نَجاة. كانتْ تبحثُ عن دفءٍ لم تعرفْه، عن عينٍ تُراها، عن صوتٍ يُخاطبُها لا يُحاكمُها."

خفضَت *منى* رأسَها، وهمسُها اختلطَ بنبضِها، كأنّها تسألُ العالمَ لا نُعمان:

" وهل نحنُ النساءُ لا نُرى، إلّا إذا تمرّدنا؟"

في تلكَ اللحظة، أطلَّ والدُها من الممرِّ بصمتٍ خفيف، يحملُ بيدِهِ كوبَ شايٍ، توقّفَ عندَ البابِ، يتأمّلُ ما يدورُ، دونَ أن يقاطع. كان يصغي بعينَينِ تعرفانِ تمامًا أنّ الحديثَ ليس عن روايةٍ فحسب، بل عن شيءٍ أعمق.

نظرَ نُعمانُ في عينيها طويلًا، ووضعَ الروايةَ جانبًا، ثمّ قال بهدوءٍ مُمتزِجٍ بالصدق:

" لا... بل أظنُّ أنّ بعضَ المجتمعاتِ تُتقِنُ إغماضَ عينَيها عنكنّ، حتى تصرخنَ... وعندها فقط، تراكنّ كتهديدٍ، لا ككائنٍ يُريدُ أن يُحَب."

هزَّ والدُ *منى* رأسَه بتنهيدةٍ خفيفة، ثم جلسَ قبالتهما بصمتٍ. سألَها، وقد لاحظَ ارتعاشةً صغيرةً في صوتِها:

" تخافينَ من مصيرِها؟"

أجابتْ مُنى، وصوتُها يحملُ وجعًا شفيفًا:

" أجل، أخافُ منه... ليس لأنّها انتهتْ تحتَ القطار، بل لأنّها لم تجدْ من يُمسِكُ يدَها قبلَ أن تقفِز."

قال نُعمانُ، بنبرةٍ دافئةٍ، تمسحُ على قلبِها:

" لو كنتِ *آنا*، لكنتُ *ليفين* ...ذاكَ الذي يبقى، لا *فرونسكي* المُتعب من الحبِّ والعجز."

ابتسمَت *منى*، وفي ابتسامَتِها ظلُّ وجومٍ، كما لو أنّها تقرأُ نهايةَ كتابٍ وتخشاها، ثمّ قالت:

" إذن... اقرأني كما تقرأُ هذه الصفحات، لكن... لا تترك نهايتي مفتوحة."

مدَّ نُعمانُ يدَه نحو يدِها، بصمتٍ طويلٍ، ثمّ قال بصوتٍ يشبهُ المطرَ على زجاجٍ:

" الحبُّ لا يُكتَبُ بنهاية... نحنُ مَن يضعُ النُّقطةَ، أو يُبقيها معلّقةً."

تبادلَ الثلاثةُ نظراتٍ صامتةً، لكنّ الصمتَ لم يكن فراغًا. كان لحظةً مُمتلئةً بما لا يُقال، كما لو أنّ الجُملةَ التاليةَ قد انكتبت، لا بالحبرِ، ولا بالورقِ... بل من نظرةٍ، ونَفَسٍ، وقلبٍ يعرفُ أنَّ الحياةَ، مثلَ الرواياتِ العظيمة، لا تنتهي حين نُغلقُ الصفحة.

بينَما كانتِ النَّسائِمُ النّاعِمةُ تَتَسَلَّلُ عَبْرَ نافِذَةِ الغُرْفَةِ، وَيَشْحَبُ ضَوْءُ القَمَرِ حَزينًا بَيْنَ غَيْماتٍ مُتَفَرِّقاتٍ، وَتَقْبَعُ أَسْئِلَةٌ حَيْرَى مِنْ وُضُوحِ بَعْضِ التَّفاصيلِ، كانَ نُعمانُ يَنْسَحِبُ بِهُدُوءٍ إِلى غُرْفَتِهِ، بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ مُنى بِابْتِسامَةٍ خَفيفَةٍ.

أَغْلَقَ البابَ خَلْفَهُ، وَأَخَذَ نَفَسًا عَميقًا، وَكَأَنَّهُ يُفْضي إِلى نَفْسِهِ بِشَيْءٍ مِنَ السَّلامِ. جَلَسَ عَلَى حافَّةِ السَّريرِ، وَأَرْخى جَسَدَهُ المُتْعَبَ، مُحاوِلًا أَنْ يُفَرِّغَ عَقْلَهُ مِنْ تِلْكَ الأَفْكارِ الَّتي كانَتْ تَدُورُ طِوالَ الوَقْتِ في مُحيطِهِ، كَأَنَّها دَوّامَةٌ لا تَنْتَهي.

نُعمانُ في نَفْسِهِ:

" هَلْ كانَتْ كَلِماتُها تَعْني شَيْئًا آخَر؟"

ثُمَّ ابْتَسَمَ ابْتِسامَةً عابِرَةً:

" بِالطَّبْعِ... إِنَّها مُنى، لا تَتْرُكُني أَبَدًا دُونَ أَنْ تَذْرَعَ فِيَّ زَخَمًا مِنَ التَّساؤُلاتِ، وَكَأَنَّ حَديثَها يُثيرُ فِيَّ أُفُقًا جَديدًا لِلنَّظَرِ في كُلِّ شَيْءٍ."

أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ لَحْظَةً، وَعادَ يَتَذَكَّرُ حِوارَهُما عَنِ الكُتّابِ الرُّوسِ. تِلْكَ الأَسْماءُ الَّتي سَقَطَتْ مِثْلَ قَطَراتِ المَطَرِ في فِكْرِهِ، فَكانَ يَلْتَقِطُها واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ، ثُمَّ يُواصِلُ سِباحَتَهُ في أَعْماقِهِم. تَذَكَّرَ عِباراتِ تولستوي عَنِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَعِشْقِهِ لِفَهْمِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ. ثُمَّ تَساءَلَ في سِرِّهِ:

" هَلْ كانَ كُلُّ هؤُلاءِ يَبْحَثُونَ عَنِ نَفْسِ الجَوابِ الَّذي أَبْحَثُ عَنْهُ؟ هَلْ نَحْنُ جَميعًا نُحاوِلُ أَنْ نَحُلَّ لُغْزَ الحَياةِ بِنَكْهَةِ الأَدَبِ؟"

ثُمَّ تَذَكَّرَ كَلِماتِ مُنى، وَهِيَ تَسْأَلُهُ عَنِ الكُتّابِ الرُّوسِ. كانَ صَوْتُهُ في أُذُنِهِ الآنَ يُجيبُها، يَتَدَفَّقُ بِارْتِياحٍ عَلَى لِسانِهِ:

" الكُتّابُ الرُّوسُ لَمْ يَكْتُبُوا لِلتَّرْفيهِ فَقَط، بَلْ طَرَحُوا أَسْئِلَةَ الوُجودِ، أَسْئِلَةً تَخُصُّنا جَميعًا... نَحْنُ مَنْ يَقْرَؤُهُمْ، وَنَحْنُ مَنْ يَسْتَمِرُّ في البَحْثِ."

وَلَكِن... هَلْ كانَ صَوْتُهُ يُعَبِّرُ عَنْ قَناعَةٍ تامَّةٍ؟ أَمْ أَنَّهُ كانَ يَعْكِسُ صُورَةً مِثالِيَّةً عَنْ أَنْفُسِهِم، عَنْ شَخْصِيّاتِهِمِ الأَدَبِيَّةِ الَّتي أَصْبَحَتْ في نَظَرِهِ أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ أَسْماءٍ؟

عِنْدَما اسْتَلْقى عَلَى السَّريرِ، كانَ الضَّوْءُ الخافِتُ لِلْمِصْباحِ بِجانِبِهِ يُشَكِّلُ لِظِلالِهِ الرّاقِصَةِ عَلَى الجِدارِ أَشْكالًا غَريبَةً، وَكَأَنَّها تَسْرَحُ في أَفْكارٍ لَمْ تُكْتَبْ بَعْدُ. سَحَبَ غِطاءَ السَّريرِ عَلَيْهِ بِبُطْءٍ، وَشَعَرَ بِشَيْءٍ مِنَ الهُدُوءِ يَتَسَلَّلُ إِلى قَلْبِهِ، وَلَكِنَّ أَفْكارًا أُخْرى لا تَلْبَثُ أَنْ تَعودَ.

نُعمانُ في نَفْسِهِ:

" هَلْ سَأَظَلُّ دائِمًا في هَذا البَحْثِ المُسْتَمِرِّ؟"

تَنَهَّدَ، ثُمَّ أَكْمَلَ التَّفْكيرَ:

" هَلْ وَصَلْتُ إِلى مَرْحَلَةٍ أَصْبَحَ فيها الحُلْمُ أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ طُموحٍ؟ إِنَّهُ حاجَةٌ ماسَّةٌ، حاجَةٌ لأَنْ أَكُونَ أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ شابٍّ يَرْكُضُ خَلْفَ الحَياةِ... أُريدُ أَنْ أَفْهَمَ! أُريدُ أَنْ أَكُونَ... شَيْئًا آخَرَ، شَيْئًا أَفْضَلَ!"

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، صَوَّبَ نَظَرَهُ نَحْوَ سَقْفِ الغُرْفَةِ، حَيْثُ كانَتْ هُناكَ لَوْحَةٌ تُمَثِّلُ الغُروبَ عَلَى الجُدْرانِ، كَأَنَّها تُحاكي مَعالِمَ رِحْلَةٍ طَويلَةٍ كانَ قَدْ مَرَّ عَلَيْها. وَتَساءَلَ في سِرِّهِ:

" هَلْ هَذا هُوَ ما يَتَبَقَّى بَعْدَ أَنْ يَمُرَّ العُمْرُ؟ أَسْئِلَةٌ لا تَنْتَهي، وَلا أَجْوِبَةَ واضِحَة؟"

وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ أَنْ يَسْتَسْلِمَ لِلنَّوْمِ أَخيرًا، إِذْ تَلاشَى الأُفُقُ بِبُطْءٍ في رَأْسِهِ، وَتَرَكَتْ لَهُ الأَضْواءُ الباهِتَةُ عَلَى الجُدْرانِ ذُهولًا هادِئًا.

أَمَّا في غُرْفَةِ مُنى، فَكانَتْ تُطْفِئُ ضَوْءَ المِصْباحِ الخافِتِ بِجانِبِ سَريرِها، وَتَسْتَلْقي عَلَى الوِسادَةِ بَعْدَ يَوْمٍ طَويلٍ. كانَتْ أَفْكارُها تَتَنَقَّلُ بَيْنَ ما قالَهُ نُعمان، وَبَيْنَ الهَمَساتِ العَميقَةِ الَّتي عَكَسَتْ مَشاعِرَها تِجاهَ حَديثِهِ.

تَذَكَّرَتْ تَفاصيلَ تَعْبيراتِهِ حِينَما ذَكَرَ أَسْماءَ الكُتّابِ الرُّوسِ، تِلْكَ الَّتي جالَتْ في ذاكِرَتِها أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ. وَلَكِنْ، ما كانَ يُثيرُها أَكْثَرَ، هُوَ ذَلِكَ البَريقُ في عَيْنَيْهِ حِينَما تَحَدَّثَ عَنْ فَلْسَفاتِهِم.

مُنى في نَفْسِها:

" هَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ لِهَذا الشّابِّ كُلُّ هذِهِ الأَفْكارِ الَّتي تَحْتَفِظُ بِها ذاكِرَتُهُ؟"

ثُمَّ ابْتَسَمَتْ بِخَجَلٍ:

" رُبَّما كُنْتُ أُخْطِئُ في تَقْديرِهِ... إِنَّهُ أَكْثَرُ مِنْ مُجَرَّدِ شَخْصٍ طَموحٍ... إِنَّهُ إِنْسانٌ مَليءٌ بِالأَحْلامِ، يَعُجُّ بِأَفْكارٍ غَيْرِ مَأْلوفَةٍ."

تَذَكَّرَتْ ضِحْكَتَهُ حِينَما قالَتْ:

" الكُتّابُ الرُّوسُ لَمْ يَكْتُبُوا لِلتَّرْفيهِ فَقَط..."

وَكانَ صَوْتُهُ في أُذُنِها يُعيدُ نَفْسَ الكَلِماتِ، كَما لَوْ كانَتْ تَتَرَدَّدُ داخِلَ رَأْسِها. كانَتْ تَشْعُرُ بِأَنَّ حَديثَهُ عَنْهُم كانَ نَوْعًا مِنَ الهُروبِ إِلى عالَمٍ أَكْثَرَ اتِّساعًا، عالَمٍ بَعيدٍ عَنِ الأَجْواءِ اليَوْمِيَّةِ، وَلَكِنْ في ذاتِ الوَقْتِ، كانَ يَتَحَدَّثُ وَكَأَنَّما يُشيرُ إِلى نَفْسِهِ أَيْضًا.

مُنى في نَفْسِها:

" أَهُوَ حَقًّا يَبْحَثُ عَنْ نَفْسِهِ في الأَدَبِ كَما يَقولُ؟ أَمْ أَنَّهُ يُحاوِلُ أَنْ يَجِدَ مُبَرِّرًا لِكَيْ يَحْيا؟"

ابْتَسَمَتْ، ثُمَّ أَغْمَضَتْ عَيْنَيْها:

" رُبَّما... رُبَّما تَكُونُ إِجابَةُ كُلِّ شَيْءٍ في تِلْكَ الحُرُوفِ، في تِلْكَ الكُتُبِ..."

وَأَخِيرًا، راحَتْ تَتْرُكُ نَفْسَها لِلرّاحَةِ الَّتي طالَما كانَتْ تَنْتَظِرُها.

هَكَذا كانَ اللَّيْلُ يَنْسَحِبُ في هُدُوءٍ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما يَغْرَقُ في أَفْكارِهِ، كُلٌّ يَبْحَثُ عَنْ ذاتِهِ في الحُلْمِ، وَعَنْ سُبُلٍ جَديدَةٍ لِلْخُروجِ مِنْ دَوّامَةِ الحَياةِ، مُنْتَظِرًا فَجْرًا جَديدًا قَدْ يَأْتِي بِالإِجابَةِ.

في غرفته أغمضَ **نُعمانُ** عينيه، واستسلمَ للنومِ، لكنّه لم يغرقْ في سكونٍ تامٍّ، بل انفتحَ أمامهُ مشهدٌ غريبٌ، كأنّهُ واقفٌ على شُرفةٍ عاليةٍ تُطِلُّ على مدينةٍ مغمورةٍ بالضبابِ. كانَ كلُّ شيءٍ من حولِه رماديًّا، والناسُ يسيرونَ في دوائرَ متقاطعةٍ، لا ينظرُ أحدٌ إلى أحدٍ.
في يدِه كتابٌ مفتوحٌ، ولكنَّ الحروفَ كانت تنسابُ منهُ كالماءِ، تختفي، ثمّ تعود، ثمّ تتبعثرُ من جديدٍ.
حاولَ أن يقرأَ، أن يفهمَ، أن يُمسكَ بجملةٍ واحدةٍ، لكنَّ الصفحاتِ كانت تُقَلَّبُ من تلقاءِ نفسِها، بسرعةٍ تُربكُ البصرَ، كما لو أنّ الزّمنَ يُخاصمُ الفهمَ.

وفجأةً، ظهرتْ **مُنى** من بينِ الجموعِ، ترتدي وشاحًا أحمرَ، وتنظرُ إليه من بعيدٍ، دون أن تقتربَ.
أرادَ أن يُناديَها، لكنَّ صوتَه خذلَه، وأرادَ أن يركضَ نحوَها، غيرَ أنَّ قدميهِ غاصتا في الأرضِ، كأنّهما تَجَذَّرَتا في الخوفِ.

وبينما هو يُقاوِمُ، سمعَ صوتًا ناعمًا يأتي من خلفِه، يقولُ:
" لَيسَ كُلُّ مَن قرأَ، فَهِمَ... ولَيسَ كُلُّ مَن فَهِمَ، نَجا"...
التفتَ، فلم يَرَ أحدًا، بل رأى مرآةً كبيرةً تقفُ حيثُ كانَ الصوتُ، يرى فيها صورتَه تتشظّى إلى وجوهٍ عدّةٍ، بعضُها يُشبهُه، وبعضُها لا.

مدَّ يدَه إلى المرآةِ، فإذا بها تتشقّقُ، وتسقطُ به في هوّةٍ سحيقةٍ لا قعرَ لها، تتردّدُ فيها ذاتُ العبارةِ القديمةِ:
" أَأَنتَ تَبحثُ عن الحياةِ؟ أم تَهربُ منها؟"

وفي غرفةٍ أُخرى، كانَ السُّكونُ قد احتضنَ **مُنى**، وأغمضتْ عينيها بعدَ يومٍ ثقيلٍ، غيرَ أنَّ الحلمَ فَتَحَ لها بابًا آخرَ. رأتْ نفسَها تسيرُ في ممرٍّ طويلٍ تَحُفُّهُ الكُتبُ من الجانبينِ، كُتُبٌ مُعلّقةٌ في الهواءِ، تدورُ من حولِها كما تدورُ الكواكبُ في مداراتِها.
كلُّ كتابٍ كانَ ينفتحُ من تلقاءِ نفسهِ، وتخرجُ منهُ صورٌ مشعّةٌ :**تولستوي** يمشي وحيدًا في حقلٍ مُبلّلٍ

بالصّمتِ، **دوستويفسكي** يُحادثُ سَجّانًا في زنزانةٍ ضيّقةٍ، و**تشيخوف** يبتسمُ لطفلٍ مريضٍ بابتسامةٍ مائلةٍ نحوَ الحزنِ.

وفي نهايةِ الممرِّ، رأتْ **نُعمان** جالسًا تحتَ شجرةٍ عظيمةٍ، يَخطُّ شيئًا في دفترٍ صغيرٍ. بدا وجهُهُ هادئًا، وعيناهُ تلمعانِ كمن وجدَ ما كانَ يبحثُ عنه. اقتربتْ منه، وهمَّتْ أن تسألهُ عمّا يكتُبُ، لكنّه رفعَ عينيهِ إليها وقالَ بصوتٍ خافتٍ، رقيقٍ:
"الأسئلةُ لا تُجابُ بالكلماتِ وحدَها... أحيانًا نحتاجُ أن نَحياها".

ثمّ تلاشى، كما لو أنّهُ لم يكنْ، وبقيَ الدفترُ مفتوحًا على العُشبِ، فيه سطرٌ واحدٌ، كُتِبَ بخطٍّ يشبهُ خطَّها:
" رُبّما نَكتُبُ لِنُضيءَ الطريقَ لبعضِنا، لا لِنَعرِفَهُ تمامًا"...

وهكذا انسحبَ الليلُ برفقٍ، على جسدَيهما المُتعبَينِ، في حينِ ظلَّتْ أرواحُهما تُسافرُ في فضاءِ الحلمِ، حيثُ لا حدودَ بينَ المعنى والخيالِ، ولا فَصلَ بينَ الأدبِ والاعترافِ.
كلُّ منهما كانَ يغرقُ في تأمُّلاتِه، في رموزٍ تتراقصُ بينَ الحروفِ والظلالِ، باحثًا عن ذاتهِ في مرآةِ الآخرِ، منتظرًا فجراً قد يجيءُ يومًا، حامِلًا الجوابَ.

بينَ طَرفَي الليلِ والفجرِ، وفي تلكَ اللحظةِ الهشَّةِ التي يتأرجحُ فيها الوعيُ بينَ النومِ والصَّحوةِ، راودَ كلًّا من **نُعمانَ** و**مُنى** حلمٌ واحدٌ، كأنّ الروحَينِ قد اتَّحدتا في فضاءٍ لا يُشبهُ هذا العالَمَ، لا زمانَ لهُ ولا مكانَ، فقط حُضورٌ خالصٌ لظلّينِ يسيرانِ جنبًا إلى جنبٍ.

رأيا نفسَهُما في بُستانٍ غريبٍ، الأشجارُ فيه ناحلةُ الجذوعِ، عاليةُ الأغصانِ، أوراقُها تتدلّى كأنّها أسرارٌ لم تُكشَفْ بعد. كانَ الهواءُ نقيًّا إلى حدٍّ يُربكُ الحواسَّ، والضوءُ خافتًا كضوءِ صلاةٍ أولَ الفجرِ.
كانا يمشيانِ صامتَينِ، لا حاجةَ بينهما إلى الكلامِ، فكلُّ فكرةٍ في رأسِ أحدِهِما، كانت تنبضُ في قلبِ الآخرِ.
قالَت **مُنى** وهم يمرانِ تحتَ قوسٍ من الياسمينِ:
" كأنّنا جئنا إلى هذا المكانِ من قبلُ"...
فأجابَها **نُعمان** دونَ أن يلتفتَ:
"لأنّه الحلمُ الذي كنّا ننسُجهُ منذُ التقَينا"...

جلسا على صخرةٍ بيضاءَ تطلُّ على نهرٍ ساكنٍ، ماءُه يَفيضُ من الكتبِ المفتوحةِ، وكلُّ كتابٍ يحملُ عنوانًا مألوفًا، وكلّ صفحةٍ تَروي جزءًا من حكايتِهما.
حين مدّت **منى** يدَها نحوَ أحدِ الكتبِ، وجدتْ فيه سطورًا بخطِّ نعمان، كتبَ فيها:
" كنتُ أبحثُ عن ذاتي، فوجدتُها بينَ سُطورِ عينيكِ"...
فابتسمتْ، وكأنّها تعرفُ تمامًا ما سيقولُ، وأجابتْ بصوتٍ يشبهُ النسيمَ:
"وأنا كنتُ أركضُ خلفَ الحُلمِ، فاستدارَ إليّ وارتدى هيئتَك"...

ثمّ تغيّرَ المشهدُ فجأةً، ووجدا نفسَيهما في قطارٍ يمضي بهما في دروبٍ من ضبابٍ، لا يرى فيهما الراكبُ سوى ملامحَ الآخرِ. جلسا متقابلَينِ، لكنّ الزجاجَ العاكسَ خلفَ نُعمان كان يُظهرُ صورةً واحدةً لهما، كأنّهُما وجهانِ لمرآةٍ واحدةٍ، أو قصيدتانِ تُنشدُهما لغةٌ واحدةٌ لا تُقالُ، بل تُحَسُّ.
سألَها نُعمانُ وهم على حافةِ هذا الحلمِ المُرهَفِ:
" هل تَظنّينَ أنَّ الحُلمَ يَجمعُ الجسدَينِ كما يجمعُ الأرواحَ؟"
فأجابتْهُ دونَ تردُّدٍ:
" ربّما لا... ربّما الحلمُ لا يريدُ للأجسادِ أن تَتلاصقَ، بل أن تَتسامى، أن تَتلاقى في نقطةٍ أعمقَ من العناقِ"...

وفي لحظةٍ خاطفةٍ، التفتَتِ السّماءُ إلى لونِ الفجرِ، وبدأ النورُ يتسلّلُ رويدًا، يَمسحُ ظلالَ الحلمِ، ويُذيبُ ملامحَ المشهدِ كما تذوبُ الحروفُ في نهرِ النسيانِ.
فتحَ **نُعمانُ** عينيه ببطءٍ، وكانت الغرفةُ تُضيءُ شيئًا فشيئًا، وأولُ ما خطرَ في بالِه، هو أن يسجّلَ ما رآه، لكنَّهُ ابتسمَ، واكتفى بأنْ يتنفّسَ بعمقٍ.
وفي اللحظةِ نفسِها، كانت **مُنى** تفتحُ عينيها أيضًا، تحدِّقُ في السقفِ بثباتٍ، ثمّ وضعتْ يدَها على صدرِها، وكأنّها تتحسّسُ الحُلمَ لا يزالُ حيًّا ينبضُ هناك.

سألَ كلٌّ منهما في سرِّه:
" هل كانَ ذلكَ حُلمًا؟ أم أنّ أرواحَنا قد التقتْ حقًّا في مكانٍ آخر؟"
ولم يكنْ هناكَ جوابٌ.
لكنَّ شيئًا دافئًا كانَ يَسري في القلبِ، أشبهَ بيقينٍ لطيفٍ، يقولُ لهما:
" إنّ ما جَمعَهُ الحُلمُ، لا يُفرِّقُهُ الشكُّ"...

وهكذا استقبلَا الفجرَ، لا وهما ولا يقظةً كاملةً، بل بينَ بينَ، حيثُ يولدُ الحُبُّ الذي لا يطلبُ تملُّكًا، بل يكتفي بأنْ يكونَ حضورًا مُضيئًا، وحلمًا متكرّرًا في هيئةِ قلبَينِ منسجمَين.

حينَ تسلَّلَ أوّلُ شُعاعٍ للشّمسِ عبرَ نوافذِ البيتِ الممتد، كانت رائحةُ القهوةِ تفوحُ في أرجاءِ المطبخِ الصغيرِ، تحملُ معها وعدًا بلقاءٍ لا يُشبِهُ ما سبقه.
جلسَ **نُعمانُ** عند الطاولةِ الخشبيّةِ، وأمامه فنجانٌ بخارُه يصعدُ كأنّه يُدوِّنُ على صفحةِ الهواءِ ما لم يُقالْ بعد.
دخلتْ **مُنى** بخطًى هادئةٍ، عيناها مثقلتانِ بنومٍ خفيفٍ، لكنّ بريقًا غير مألوفٍ كانَ يشعُّ فيهما، كأنّ الليلَ لم يكنْ ليلًا عاديًّا. جلستْ قُبالتَهُ دونَ أن تتحدّثَ، واكتفتْ بابتسامةٍ حيِيَّةٍ تُشبهُ مطلعَ قصيدةٍ تنتظرُ من يُكمِلُها.

قالَ نُعمان، وعيناهُ لا تزالانِ مُعلَّقتينِ بضوءِ الصباحِ المنسكبِ على حافةِ الكوبِ:
" رأيتُنا معًا... في حلمٍ لا يُشبهُ الأحلامِ التي تمرُّ عابرةً. كنّا في مكانٍ غريبٍ، نُشبهُ فيه أنفسَنا، ولا نُشبهُها... كأنّنا نعيشُ خارجَ الزمنِ".

شهقت **مُنى** بصوتٍ خافتٍ، ووضعت يدَها على صدرِها، كأنّ كلماتهِ لامستْ شيئًا دفينًا داخلَها.
" بُستانٌ؟ وأشجارٌ تتدلّى كأنّها تُخفي شيئًا؟ ونهرٌ يفيضُ من الكتب؟"
سألتهُ وهي تَحدّقُ في عينيه بدهشةٍ عميقةٍ.

ابتسمَ **نُعمان**، وقالَ بذهولٍ:
" نَعم... نعم تمامًا. وكنتُ أكتبُ لكِ شيئًا في كتابٍ مفتوحٍ، وأنتِ... قرأتِه"!

أطرقت **مُنى** للحظةٍ، ثم رفعتْ نظرَها إليه، وعيناها تتلألآنِ بما لا يُمكنُ تسميتُه، وقالت بصوتٍ هامسٍ كأنّه يُخرِجُ سرًّا:
" لقد رأيتُه أيضًا يا نُعمان... كلَّ تفاصيلِه. كنتُ هناك، وأنتَ كنتَ تقولُ لي: الحُلمُ لا يريدُ للأجسادِ أن تَتلاصقَ، بل أن تَتسامى"...

سادَ بينهما صمتٌ طويلٌ، صمتٌ لا يُثقِلُ اللحظةَ، بل يُجلِّيها، كأنَّ الزمنَ وقفَ يستمعُ لما لا يُقال.

ثم همست **منى**، وهي تُقلّبُ فنجانَ القهوةِ بين يديها:
" هل يُمكنُ لروحَينِ أن تلتقيا في الحُلمِ بذاتِ الشكلِ، دونَ موعدٍ؟ هل يكونُ الحُلمُ رسالةً تتنقّلُ في الخفاءِ بين قلبَينِ؟"

أجابَها **نُعمان**، وعيناهُ تترقرقانِ بنورِ تأمُّلٍ عميقٍ:
" ربّما يكونُ ما رأيناهُ هو أكثرُ ما يقتربُ من الحقيقةِ، لأنّه نابعٌ منّا، لا من الخارجِ. وربّما نحتاجُ إلى الحُلمِ، كي نُفصحَ عمّا نخافُ أن نهمسَ به في اليقظةِ"...

ثم مالَ قليلًا نحوها، بصوتٍ منخفضٍ، لا يصلُ إلى أحدٍ غيرِها:
" كنتُ في الحُلمِ أبحثُ عن ذاتي... ووجدتُكِ".

أطرقت **مُنى**، وارتجفتْ شفتاها، وكأنّها تخشى أن تتكلمَ فيفسدَ الكلامُ سحرَ ما تشعرُ به.
قالت أخيرًا، بصدقٍ رقيقٍ:
" وأنا... كنتُ أركضُ وراءَ الأملِ، فوجدتُك تنتظرُني".

كانت القهوةُ تبردُ ببطءٍ، لكنّ حرارةَ الحضورِ بينَهما كانت تشتعلُ، لا حاجةَ لوالدِها هذه المرةِ، لا حضورَ آخرَ في هذا الصباحِ، سوى للحلمِ الذي تمدَّدَ على الطاولةِ بينَهما، يحرسُهُ الضوءُ، ويؤكّدُهُ صمتُ المكانِ.

وهكذا جلسا، يتبادلانِ الحلمَ كما لو كانا يرويانِ ذاكرةً مشتركةً، حديثًا لا حاجةَ فيهِ لشرحٍ أو تبريرٍ، فقط كلماتٌ تُشبهُ أغصانَ الياسمينِ حينَ تتشابكُ دونَ أن تُفكّر، لأنّها خُلقتْ لتتآلف.

في ذلكَ الصباحِ، لم تكنِ القهوةُ مجرّدَ شرابٍ، بل طقسًا سرّيًّا جمعَ بينَ منى ونُعمان، في لحظةٍ خارجةٍ عن كلّ ما اعتاداه، لحظةٍ لم تَشهدها العيونُ من قبل، لكنّ القلوبَ... عرفَتها.

استمرَّ الصمتُ بينهما للحظاتٍ أخرى، لكنَّ كلَّ كلمةٍ كانت تذوبُ في الهواءِ كما لو كانت تلمسُ شيئًا غامضًا في الأرواح، تنقلها الرياح الخفيفة عبر النوافذ المفتوحة. كانت **منى** تتأملُ في فنجانها، وكأنَّ السائلَ الأسودَ يُخبئُ لها أسرارًا جديدة. تخلّصتْ من أفكارها للحظة، ورفعتْ نظرها إلى **نعمان،** وكأنّها كانت قد أدركتْ شيئًا لم تدركه من قبل.

" أتعلم، نُعمان... ما رأيته في حلمك، ما شعرتهُ في تلك اللحظاتِ، كأنّه يُجسِّدُ ما كنّا نبحثُ عنه طوالَ الوقت. كما لو كان كلُّ شيءٍ واضحًا، لكنّه مُخبّأ في طيّاتِ الروحِ".

ابتسم **نعمان** برقةٍ، ثم أمسكَ بفنجانهِ، ينظرُ في السائلِ الذي يرقصُ ببطءٍ داخل الكوب، وكأنّه يُعبّرُ عن أفكارٍ شاردةٍ، وقال:
" هذا هو جمال الحُلم، يا منى... هو لا يمنحكِ إجابةً مباشرةً، بل يشبهُ الخيوطَ المتشابكةَ التي تُحاولُ فهمَ الصورةِ الأكبرِ".

وبعد لحظاتٍ من الصمتِ المملوءةِ بالثقلِ، أضاف **نعمان** قائلاً:
" لا أعتقدُ أنَّنا قادرون على إدراكِ كلِّ شيءٍ دفعةً واحدة... ربما لأنَّ الحُلم وحدهُ هو ما يستطيعُ أن يربطَ بينَ الحاضرِ والمستقبلِ".

نظرَتْ **منى** في عينيه بعمق، كأنَّها تبحثُ عن سرٍّ قد يكونُ مخفيًّا في معاني كلماته. تذكّرتْ كيف كانت تجلسُ في مكانٍ آخر، بعيدًا عن هذه اللحظة، وتستمعُ إليه كما لو كان يروي قصةً غريبةً، كانت قد مرّتْ في حياتها لكنّها نسيتْها.

" هل تعتقد أنّنا نعيشُ الحُلمَ؟ أم أنّنا نعيشُ الواقعَ بما يفرضه علينا؟ "سألته، وقد تكوّرتْ الأسئلةُ داخل عقلها كطائرٍ صغيرٍ يريدُ أن يطيرَ.

أجابها **نعمان** وهو يرفعُ نظره نحوها، ثمّ يبتسم ابتسامةً داكنةً، وكأنّه يتأملُ في عالمٍ أوسعَ من هذا المطبخ الذي يجمعُ بينهما الآن:
" أحيانًا، أعتقدُ أنّنا نعيشُ الحُلمَ أكثر مما نعيشُ الواقع. لأنَّ الحُلمَ يفتحُ لنا الأفقَ على الاحتمالاتِ... بينما يقيّدُنا الواقعُ بما هو مُحدّد".

اختلستْ **منى** نظرةً إلى الفنجانِ، ثم أومأتْ برأسها وكأنّها تعترفُ، في سرّها، بحقيقةٍ ما. كانت تسأله عن شيءٍ أبعدَ من الحلمِ، شيءٍ يخصُّها هي، ولكنّها لم تُردْ أن تُعلنهُ علنًا.

" أحيانًا أشعرُ أنّ الحلم هو الذي يمنحُني المعنى الذي أبحثُ عنه. ليس فقط في الأدبِ، بل في الحياةِ ذاتها ".قالت بصوتٍ رقيقٍ، وكأنَّها تخشى أن تُفرغَ مكنونَ قلبها.

كانت نظراتُهما تلتقي، تنسابُ الأفكارُ بينَهما كما لو كانت حروفًا غير مرئيةٍ، تتشكّلُ في الهواءِ. كان كلّ منهما يشعرُ بالضوءِ الجديد الذي بدأ يتسللُ إلى قلبه، كما لو أنَّ شيئًا جديدًا قد بدأ ينمو في داخلهما. شيءٌ يُشبهُ حلمًا، أو ربما أكثر من حلم، يترنّحُ بينَ اليقظةِ والخيال.

" ماذا لو كان الحُلمُ هو أكثرُ ما نحتاجُ إليه؟ "قالت **منى**، ثم ألقتْ نظرةً إلى السماء الزرقاء التي بدأت تتسعُ في الخارج.

" ربما... لكنّ الحقيقةَ تكمنُ في العيشِ بينهما، بين الحُلمِ واليقظة ".قال **نعمان** بهدوءٍ، كما لو كان يوجّهُ هذه الكلماتَ إلى نفسهِ أيضًا.

في تلك اللحظة، كان كلُّ شيءٍ حولهما يبدو ساكنًا، صامتًا، لكنّ الأفكارَ والمشاعرَ كانت تتراقصُ بينَهما كأنَّها لم تكتملْ بعد. لم يكن هنالك حديثٌ عن المستقبل، ولا عن المصير، بل كان هنالك فقط ذلك الارتباطُ الطفيفُ بينَ روحيهما، وهو ما جعلَ اللحظةَ تُمضي كأنّها أبديةٌ.

تبعثُ الشمسُ في السماء إشراقةً جديدة، تملأ المكانَ بحالةٍ من الانتظارِ، وكأنّ هذا الصباحَ هو بدايةٌ لشيءٍ ما، لشيءٍ لا يمكنُ أن يوصفَ بالكلماتِ. لكنّ القلبينِ كانا يعرفانِ، في أعماقهما، أنّ شيئًا ما قد تغيّرَ بينهما، ولم يكن إلا بداية.

كان الضوء الذي بدأ يتسلل عبر نافذة المطبخ يرقصُ برفق على وجهيهما، وكأنّه يغازلُ ما بينَ ظلال أفكارهما وأحلامهما المتشابكة. كان كلُّ شيءٍ حولهما يتنفسُ الهدوء، لكن في قلبيهما كان هناك ضجيجٌ خفيٌّ، شوقٌ لشيءٍ غير معروف، شعورٌ يجرُّهما نحو بعضهما كما لو أنّهما يسيران في نفس الدرب، لكن دون أن يدركا بعدُ أين سينتهي بهما.

" نعمان، هل تعتقد أنّنا... نستطيعُ أن نعيشَ الحلمَ كما نريد؟ "قالت **منى** بصوتٍ منخفضٍ، تقتربُ قليلاً من طاولة المطبخ، تتأملُ تلك الحوافَ البيضاءَ على فنجانها وكأنّها تبحثُ عن جوابٍ في صمتِ الزمانِ والمكان.

توقف **نعمان** عن احتساء قهوته لحظةً، نظرَ إليها بعينينِ مليئتينِ بالتساؤلات، ثم قال ببطءٍ، كما لو أنّه يزنُ كلماته:
" أعتقدُ أننا نعيشُ الحلمَ في لحظاتٍ كثيرة، يا منى. ولكنّنا أحيانًا نُضيّعُه عندما نتوقفُ عن السعي وراءه".

نظرتْ إليه **منى**، تراقبُ تلك النظرة التي تحملُ في طيّاتها جزءًا من حلمٍ بعيدٍ، ثم ابتسمتْ بابتسامةٍ خافتةٍ، وقالت:
" أنتَ مُحقّ. أحيانًا، نحاولُ أن نعيشَ الحلمَ كما لو أنّه شيءٌ خارجيٌّ، شيءٌ نصلُ إليه... بينما هو في الواقع في داخلنا، يكمنُ في قلوبنا".

سكتَ **نعمان** للحظة، ثم أدركَ أنّها لم تكن تسأله فقط عن الحلم كما تتصورهُ العقولُ، بل كانت تسأله عن الحقيقة التي تتماهى مع هذا الحلم. الحقيقة التي قد لا تكون مرئية في العالم الخارجي، بل هي مرسومةٌ على جدرانِ الروح.

" **نعم "..**قال، ثم اقترب منها ببطءٍ، وكانت المسافة بينهما تبدو وكأنها تضيق، ليُكمل:
" **ربما نكونُ نبحثُ عن تلك اللحظة التي تلتقي فيها الأحلامُ مع الواقع. في تلك اللحظة، يصبحُ كلُّ شيءٍ ممكنًا. كلُّ شيءٍ".**

وكانت **منى** تراقبُ كلماته تتساقطُ منه بلطف، وكأنّها تُنيرُ الطريقَ الذي لم يسلكاهُ بعدُ. ثم أجابته بنبرةٍ رقيقة، غارقةٍ في عمق المشاعر التي كانت تكمنُ في قلبها:
" **لستُ متأكدةً إذا ما كانت اللحظةُ الحقيقيةُ التي نبحثُ عنها موجودةً في الواقع، أم أنّها مجرد حلمٍ مستمرٍّ فينا".**

أخذ **نعمان** نفسًا عميقًا، ثمَّ نظرَ في عينيها، ورأى فيها شيئًا يتخطى الكلمات. كان يعرفُ أنَّ تلك اللحظاتِ التي يقضيها معها ليست مجرد كلماتٍ تُقال، بل هي لحظاتُ تحولٍ عميقٍ في عالمهِ الداخليّ.

" **هل يمكنُ أن نكونَ معًا في هذا الحلم، يا منى؟ "**سألها بصوتٍ خافت، وكأنّه يتحدّث إلى نفسه قبل أن يتحدّث إليها.

أحست **منى** بشيءٍ غريبٍ يتسللُ إلى قلبها، ذلك الشعورُ الذي كان يخبّئه الزمنُ بين طيّاتِ أوقاتِهما. وتساءلت في نفسها: **"هل كان هذا الحلم الذي يعيشهُ نعمان يشملُني بالفعل؟ هل كنتُ جزءًا من هذا الحلم؟"**

لكن قبل أن تجدَ الجواب، وقبل أن تفسحَ لها الكلماتُ المجالَ للخروج، ابتسمتْ ورفعتْ رأسها نحو السماء التي بدأت تُزهرُ بألوان الفجر، وقالت:
" **نعم، ربما نعيشُ الحلمَ معًا، ولكننا بحاجةٍ للبحثِ عنه معًا أيضًا".**

كان هذا التصريحُ بمثابةِ إعلانٍ غير مباشرٍ عن بدايةٍ جديدة، بدايةٍ لتجربةٍ قد تغيّرُ كلَّ شيءٍ بينهما. ولم تكن تلك اللحظةُ سوى بدايةٍ للعديد من اللحظاتِ التي ستجمعُ بينهما، لحظاتٍ ستكونُ مليئةً بالأسئلة، بالأحلام، بالمشاعر التي تعجزُ الكلماتُ عن التعبير عنها.

أما في تلك اللحظة، فقد كانت الحياةُ قد قررتْ أن تكتبَ فصلاً جديدًا في قصةِ **منى** و**نعمان**، فصلاً قد يجمَعُ بين الحلمِ واليقظةِ، بين الحروفِ والأملِ، وبين الأرواحِ التي تلتقي في غمرةٍ من الفهمِ العميق.

في صباحٍ هادئ، تجمعت خيوط الشمس الأولى على أروقة الكلية، كانت **منى** و**نعمان** في طريقهما إلى محاضرة الأدب الأندلسي، كلٌّ منهما يحاول أن يضع نفسه في أفقٍ جديد، حيث يلتقي التراث مع الحاضر، وتكتمل صورة العالم من خلال شعر الأندلس الذي كان لهم فيه بمثابة مرآةٍ تعكس مكامن الروح.

بعد أن انتهت المحاضرة، اختار نعمان ومنى أن يجلسا في زاوية هادئة من المقهى الصغير في الكلية، حيث كانت الأجواء مشبعة بالسكينة والتأمل. قدما لهما فناجين القهوة الساخنة، لكن عيونهما كانتا بعيدتين عن الكؤوس وأحاديث اليوم، فقد كان كلٌّ منهما يحمل في صدره شوقًا مُلحًّا للحديث عن ذلك التراث العظيم الذي استمعا له للتو، في محاضرة الأدب الأندلسي.

كان الهواء مثقلًا برائحة الكتب التي أضاءت سماء العقول، وكان الصمت الذي يلف المكان لا يخلو من هيبة تلك اللحظات التي عاشاها في محاضرة كانت كالنزهة الفكرية بين الماضي والحاضر.

منى، التي كانت دوماً تميل إلى تأمل المعاني العميقة في الشعر، نظرت إلى فنجانها وقالت بصوتٍ هادئ ولكن حزين:

" هل تُصدِّق يا نعمان أن الشعر الأندلسي لم يكن مجرد زخرفة لغوية أو تلاعب بالألفاظ؟ بل كان صرخةً من أعماق الأرض، كان الشِّعر الذي يروي لنا قصة حضارة ضاعت في الزمن، لكن ما أودعته تلك الأبيات من وجدان، ما زال يَحيا فينا، ويُنبِّئنا بحكمةٍ تُجاوز العصور."

ابتسم نعمان بابتسامةٍ خفيفة، ثم قال:

" أنتِ على حق. لكن الشعر الأندلسي، إضافةً إلى كونه مرآةً للحضارة، كان مرآةً لأحوال الناس. كان يعبّر عن قلوبهم المثقلة بالحنين، ولهفتهم على الزمن الذي مضى، وكانت تلك المشاعر هي نواة ما سطره الشعراء في قصائدهم."

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وكأنه يستشعر وقع الكلمات قبل أن يلفظها، وألقى على مسامع منى أبياتًا للشاعر الأندلسي ابن زيدون، وكان في صوته لمحة من الحنين:

"أَضحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا

وَنَابَ عَنْ طِيبِ لِقَائِهِ تَجَافِينَا

وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَالَّذِي لَمْ يَزَلْ فِي أَمَلٍ

وَفِي الْقَلْبِ مِنْ بَعْدِ الْفِرَاقِ يُحْيِينَا"

أغلقت منى عينيها قليلاً وهي تلمس عمق الأبيات، كأنما كانت تمثل حالةً متشابهة في قلبها، تمامًا كما في قلب نعمان، فقد شعرت بمرارة الحنين التي تُشبه الحروف التي قرأها. وكان ذلك الشعور يلوح في الأفق، محاطًا بتلك الذكريات غير المنطوقة. شعر كأن الكلمات قد جعلت القهوة أكثر مرارة، رغم أنها كانت لا تزال في فنجانها، إلا أن نكهة الحنين التي غلفت اللحظة كانت أغنى من أي مذاق.

ثم ردت منى، مُحاولةً استيضاح أعمق لفهم تلك الأبيات:

" لقد تجسد فيه الأمل والألم معًا، وفي هذا التوازن تكمن قوة الكلمات. إن الشاعر يتأمل الفراق، ولكنه يبقى مشدودًا إلى الأمل، وتحت هذا السقف من الحنين لا ينطفئ الضوء، ولا يطوي الزمن أثره."

وتابعت، مُسترجعةً ما قرأته ذات مرة، وهي تروي له بعضًا من أفكار شعراء الأندلس:

" لكنني أرى أن الشعر الأندلسي ليس فقط تعبيرًا عن الحزن، بل هو أيضًا مساحات من التفاؤل. الشعراء كانوا ينشدون الجمال في الطبيعة، وفي اللحظات اليومية التي تمر سريعًا. كما في شعر ابن خفاجة، الذي تحدث عن الأندلس في جمالٍ فريد، حين قال:

" لَعَمْرُكَ ما النَّاعِسَاتُ اللَّوَاتِ

إِلَّا فِي رُوحِي سَبَقُوكِ اللَّهُمِّ عُزَّنَاتِي"

ابتسم نعمان قليلًا، وأصغى بكل جوارحه لما تقول، ثم صمت للحظة قبل أن يضيف قائلاً:

" نعم، إن هذا الشعر يعبق بروح الأندلس، روحٌ كانت تبتسم رغم الآلام، تبكي ومع ذلك لا تنسى الجمال. وهذا يذكرني بكلمات ابن زيدون، حين كان يصف حاله في حبِّه لولادة بنت المستكفي، فتلمس تلك الرغبة العميقة في الأمل رغم الفراق."

ثم قرأ بصوتٍ شجيٍّ أبياتًا شهيرة من قصيدته:

"يَا مَنْ لِعَيْنَيْهِ مِنَ الْقَلْبِ مُرْتَهَنُ

قَلْبِي فِدَاهُ، وَإِنْ جَافَى، وَيَسْتَكِنُ

يَا رُبَّ قَافٍ عَلَى شَفَتَيْكِ مُتَلَهِّفِ

يَرْجُو الْوِصَالَ، وَفِي الْآمَالِ يُفْتَتَنُ"

ثم أضافت منى، وهي تُتابع كلامه بعينٍ لامعة:

" أما في النثر، فقد قرأت **طوق الحمامة لابن حزم، ذلك الكتاب الذي يُعدُّ مرجعًا في فهم الحب والعلاقات الإنسانية."**

أجاب نعمان بفضول:

" وأنتِ، كيف ترين هذا الكتاب؟"

ابتسمت منى، وقالت:

" إنه يعدُّ من أرقى ما كُتب في الحب العربي، فهو لا يتحدث فقط عن الحب العذري، بل يعرج على كل جانب من جوانب العلاقات الإنسانية، ويفصل بين الحب الطاهر والشهوة، ويسرد قصصًا حقيقية من الأندلس، مما يجعله أقرب إلى الواقع من أي تصور شعري."

وتابع نعمان باندهاش:

" أذكر أن هذا الكتاب يُعد مرجعًا عالميًا في أدب الحب، ويشبه إلى حدٍ ما فن الحب لأوفيد، في تناوله لآلام وآمال العشاق."

كانت تلك اللحظات بين نعمان ومنى، لحظات لا تُنسى، يتداخل فيها الأندلسي القديم مع الحاضر، وتتلاقى فيها أرواحهم في صورةٍ أدبية تتجاوز الكلمات، كما يتجاوز النهر ضفافه إلى بحرٍ أرحب..

في ظهيرةٍ رماديةٍ خفيفة، حيث ندى الخريف يُداعب نوافذ مكتبة الكُلّية، كانا يجلسان إلى طاولةٍ خشبيّةٍ مطلّةٍ على ساحة الحرم الجامعيّ، تتناثر حولهما الكتب وأوراقٌ بعثرتها الريحُ ثم رتّبتها الأيدي الحائرة في البحث.

قال نُعمان، وهو يُقلّب صفحةً في ديوان نزار قبّاني وقد انعكس على عينيه بريقٌ طفوليّ من الفضول:

" ما أكثر ما تغيّر الغَزَل يا مُنى... من ابن زيدون إلى نزار، كأنّ القصيدة نفسها قد تبدّلت ملامحها، ولبست ثوبًا آخر."

ابتسمت مُنى، وقد مالت نحوه بشيءٍ من الحماسة، وأجابت:

" لكنّ الرُوح، يا نُعمان... الرُوح باقية. هي ذاتها، شوقٌ إنسانيٌّ دفين، فقط... اختلفت اللغة وتحرّر الإيقاع."

كانا قد كُلِّفا ببحثٍ في "مُقارنة الغَزَل بين الشِّعر العموديّ والتّجديديّ"، وها هما الآن يغوصان في المراجع بين دفّتي الزمان.

قالت مُنى، وهي تقرأ من ورقةٍ خطّتها بقلمها الأزرق:

" الشِّعر العموديُّ، كما ترى، قائمٌ على بحور الخليل وقافيةٍ منتظمة، وفي الغزل يجنح إلى الرّموز الطّبيعيّة: القمر، الزهر، النسيم... حبٌّ عذريّ، شفيف، لا يبوح إلّا بعِفّة الوجدان."

ثم استشهدت بأبياتٍ من ابن زيدون، بصوتٍ رخيمٍ، وكأنّها تستحضر بها ظلّ الزهراء:

" إنِّي ذكَرتُكِ بالزّهْراءِ مُشتاقًا

والأُفُقُ طَلقٌ، و وجه الأرضِ قد راقًا"

همس نُعمان:

" كأنّه يرسم مشهدًا بلَوْن الحنين... الأُفُقُ والأرضُ... كلاهما يُشبهان قلب المُحبّ حين يشتعل بالذكرى."

هزّت مُنى رأسها، ثمّ أضافت بشيءٍ من التحليل:

" تأمّل الوزن، كيف يسير كنبضٍ مُنتظمٍ، واللغة، كم هي جزلة ونقيّة... لكنّها تُبقي المشاعر خلف ستارٍ شفاف."

ثم انتقلت إلى الورقة الأخرى، وقالت:

" أمّا نزار... فشاعرٌ خرج من قفص الوزن والقافية، وجعل القصيدة تمشي حافيةً في أزقّة المدينة، تحمل رائحة القهوة وتنهّدات العشّاق."

ضحك نُعمان بخفوت، وقال:

" بل جعلها تكتب على الجدران، وتُعلن الثورة من على شرفات القلب."

قرأت مُنى من "قارئة الفنجان":

" سَتَفتِّشُ عنها يا وَلَدي في كُلِّ مكان

وسَتسْألُ عنها موجَ البحرِ

وتَسْألُ فَيروزَ الشّطآن"

قالت، وعيناها تغوصان في المدى:

" لا بحر ولا شاطئ... وحده الحبّ صار قلقًا يتجوّلُ في الأسئلة."

أجابها نُعمان، وقد أخذ القلم وكتب بخطّه على الهامش:

" غزلُ نزار لا يتوارى خلف الصور، بل يخلع القناع، ويتحدّث باسم القلب العاري."

أشار بإصبعه إلى الفرق بين اللغتين، وقال:

" بينما يُغنّي العموديّ: *يا دارَ عبلةَ بالجَواءِ تَكلّمي*، يأتي نزار ليقول: *أُحبّكِ... والبقيّةُ تأتي*."

ضحكت مُنى، ثمّ علّقت:

" الفرق ليس في اللغة وحدها، بل في الجرأة... نزار لا يكتفي بالشوق، بل يطالب بالوصال، يتحدّى، يُصارح."

أضاف نُعمان وهو يُقلب دفتر ملاحظاته:

" انظري إلى هذا الجدول... الشعر العموديُّ يُقدّس الوفاء والتذكّر، ويُصوّر الحُبّ كحالةٍ سماويّة، أمّا شعر نزار، فهو يُقدّس الجسد، الحريّة، ويُحارب القُيود."

ثمّ أشار بإصبعه إلى عنوان الفصل الأخير:

" الغَزَل كقضيّة وجوديّة."

هنا صمتنا لحظةً... كان في الأفق شيءٌ من تأمّلٍ شخصيّ.

قالت مُنى، وقد فاجأها صوتها الداخلي:

" ربّما لأنّ الحُبّ لم يعُد رفاهيةً شعريّة... بل سؤالًا نُحاول الإجابة عليه كلّ يوم."

همس نُعمان:

" ونحن نكتبه، في صمتنا، وخوفنا، وانتظارنا لما لا نعرف إن كان سيأتي."

ثم أردفت مُنى، وهي تُخرج من حقيبتها كتابًا صغيرًا بعنوان *طوق الحمامة*:

" لستُ أنسى ما قاله ابن حزم: *الحبّ هو اتحاد الأرواح التي تتشابه في صفاتها.* أحيانًا أظنّ أنّنا نبحث في الشعر عن أنفسنا، لا عن الحبيب."

نظر إليها نُعمان طويلًا، ثمّ قال، وكأنّه يُفكّك قصيدةً في صدره:

" وأحيانًا، نكتب هذا البحث... لنهرب من كتابة مشاعرنا على الهامش."

كانت الشمس قد بدأت تميل، والمكتبة تمتلئ بضوءٍ ذهبيّ حالم، فيما ظلّ الاثنان على "أعتاب الحُلم"، يُراوغان الشعر كما يُراوغُ العُشّاقُ البَوْح.

كان ضوء الصباح ينساب بهدوء عبر الأشجار المرتفعة، بينما كانت نسمات الهواء اللطيفة تحمل معها رائحة الأرض الرطبة. في الشرفة الخلفية، حيث تتناثر الورود وتزهر النباتات، جلس نعمان ومنى معًا، كلٌّ منهما ممسكًا بفنجان قهوته، وعيناهما تتأملان الأفق البعيد.

منى بابتسامةٍ خفيفة:
" صباح الخير، كيف كان نومك البارحة؟ هل كنت تفكر في شيءٍ خاص قبل أن تغفو؟"

نعمان وهو يرفع فنجانه، يستنشق رائحة القهوة وكأنها تفوح بعطر جديد:
" صباح النور، كان النوم هادئًا رغم كل الأفكار التي كانت تدور في رأسي. لكنني شعرتُ بأنني بحاجة إلى ذلك الصمت الذي يأتي بعد حديث طويل. وأنتِ؟"

منى وهي تضع فنجانها على الطاولة، تتأمل الزهور أمامها:
" كنت أفكر في حديثنا البارحة. تلك الأسماء التي ذكرناها... فيودور، تولستوي، تشيخوف... يبدو أن الفكر الروسي له نكهة خاصة. أتساءل، هل نحن بحاجة إلى مثل هؤلاء المفكرين في هذا الزمان؟"

نعمان وهو يحدق في الأفق، صوته مملوء بالتفكير:
" أعتقد أننا نحتاجهم أكثر من أي وقتٍ مضى. قد لا يكون لدينا أولئك الذين يتحدثون بعمقٍ عن النفس البشرية كما فعلوا، لكننا بحاجة إلى تلك الأسئلة الكبرى التي طرحوها. أسئلة عن الخير والشر، عن الحياة، عن المعاناة... في زمننا هذا، يبدو أن الجميع يهرب من الأسئلة العميقة".

منى:
" هل تعتقد أن العالم اليوم لا يتقبل هذه الأسئلة؟ أن الناس أصبحوا أكثر انشغالًا بالسطحيات؟"

نعمان بابتسامة مُرَتَّبة، وكأنه يحاول فك شفرة الواقع:
" ربما... لكنني أعتقد أن الأجوبة تأتي من الداخل. أعتقد أننا نحاول الهروب منها، لكنهم هناك، هؤلاء الكتاب الروس، كانوا يواجهونها بلا رحمة. كانوا يصرخون في وجه الحياة، يسألون: ماذا يعني أن نعيش؟ هل كان تولستوي يبحث عن معنى الحياة حين ترك كل شيء وراءه؟ هل كان دوستويفسكي يتساءل عن معاناتنا اليومية؟"

منى بعد أن أخذت رشفة من قهوتها:
" أعتقد أنهم كانوا يبحثون عن أنفسهم من خلال ما يكتبون. لكن... هل نحن في حاجة إلى أن نتعذب لنجد جوابًا؟"

نعمان وهو يبتسم بشكلٍ خفيف، يتأمل القهوة في فنجانه قبل أن يجيب:
" ربما ليس بالضرورة أن نعيش المعاناة كما فعلوا. لكن... ربما نحن بحاجة إلى لحظات من الصمت العميق، مثل تلك التي نعيشها الآن، لنتمكن من مواجهة الأسئلة الصعبة. أحيانًا، يكون الجواب في السؤال نفسه".

منى وهي تضع يديها على الطاولة، تنظر إلى نعمان:
" لذا، أنت ترى أن الأدب هو مفتاح الفهم؟"

نعمان:
" بالطبع، الأدب وما نم عنه من فلفسة للحياة هما ذلك الفضاء الذي يمكننا فيه أن نرى العالم من خلال عيون الآخرين. هو دعوة لنعيش أكثر، لنفكر أكثر، وأحيانًا لنشعر أكثر".

منى بعد لحظة صمت، تغلق عينيها كما لو أنها تستشعر كلمة قالها للتو:
" قد يكون هذا ما كان ينقصنا... أن نعيش أكثر. أن نلتقط اللحظات الجميلة بعيدًا عن الضجيج".

نعمان مبتسمًا، وهو ينظر إليها في صمتٍ يعكس عمق ما قاله:
" أعتقد أنكِ على صواب. الحياة ليست مجرد سلسلة من الأيام المليئة بالأحداث، بل هي تراكم لحظات نختار أن نعيشها بكل تفاصيلها".

في تلك اللحظة، تجمّدت الكلمات بينهما، كما تجمّدت قطرات الندى على أوراق الشجر أمامهما. كانت القهوة قد اقتربت من النهاية، لكن الحديث بينهما بدا وكأنه سيستمر إلى ما لا نهاية، إذ كان كلّ واحدٍ منهما يحاول أن يُبصر طريقًا نحو الإجابة في وسط هذه الحوارات الهادئة، كما لو أن كل فكرة كانت تفتح بابًا جديدًا نحو عالمٍ أعمق.

منى مع ابتسامةٍ هادئة:
" لنشرب قهوتنا حتى آخر قطرة. فكل يومٍ يحمل معه سؤالًا جديدًا".

نعمان:
" بالطبع، وكل سؤال هو بداية لحلم جديد".

وها هي الشمس قد بدأت في الصعود أكثر في السماء، ليغمر الضوء أرجاء الأمكنة، ويبدأ يوم جديد مليء بالأحلام والتساؤلات.

في مساءٍ من أمسيات الشتاء الهادئة، كانت المائدة الصغيرة قد جمعت ثلاثتهم على طاولةٍ مستديرةٍ يملؤها نور المصباح الخافت، وعطر عدسٍ مطهوّ كما كانت الجدّات يفعلنه ذات حنين. لم تكن دفءَ البيت نارُ المدفأة وحدها، بل كانت أرواحٌ اعتادت الأُنسَ، وجلساتٍ من المعنى تُضيء زوايا القلوب.

جلس السيّد أحمد في صدر المائدة، وعن يمينه منى، وفي مواجهته نعمان، وبينهم صمتٌ أوّل، كأنّما يُفسحُ المجالَ لشيءٍ عميقٍ أن يُولد.

ناول السيد أحمد قطعةً من الخبز، نظر إلى منى نظرة الأب الذي يعرف، ثم التفت نحو نعمان وسأله بنبرةٍ ودودة:

ـ " يا نعمان، قالت لي منى إنّكما تتحدّثان كثيرًا عن الأدب الروسي... لكن، قل لي، أما قرأتَ لغيرهم؟ أم أنّ الروس سحروك بسردهم؟"

ابتسم نعمان، وبدت في عينيه لمعةُ مَن توقّع السؤال، فرفع رأسه وأجاب بصوتٍ فيه أثرُ حنينٍ طفوليّ:

ـ " بلى، أقرَأُ لكثيرين. لكنْ يبقى للأدب الإنجليزيّ موقعٌ خاصّ في قلبي. أتذكّر جيدًا أولَ مرّة قرأتُ فيها بيتًا لشكسبير، شعرتُ كأنّي وجدتُ مرآةً قديمة، لا تكتفي بعكس الوجه، بل تكشف عمّا وراءه من خبايا."

تدخّلت منى برفق، كأنّها تُكمل سطرًا ناقصًا:

ـ " شكسبير لا يكتب الكلمات فحسب، بل يكتب صدى الإنسان فيها... وكأنّه يضع الحياة على المسرح، بكلّ عبثها وعمقها."

أومأ نعمان موافقًا، وأضاف:

ـ " ومن إنجلترا، هناك كثيرون تركوا أثرًا في نفسي: شكسبير، جورج أورويل، ديكنز، جاين أوستن، فرجينيا وولف، وليم بليك، تولكين، وأغاثا كريستي."

وتابعَ وهو يشرحُ بحماسةٍ متزنة، مزجَ فيها المعلومةَ بالشغف، والواقعَ بالحلم، مستعرضًا ملامحَ كلّ كاتب، ومواضيعهم، ونظرتهم العميقة إلى الإنسان والمجتمع.

رفع السيد أحمد حاجبيه بإعجاب، وقال:

ـ " تنوّعٌ جميل. أورويل مثلًا... قرأتُ له *1984*، كانت صدمة فكرية".

فابتسمت منى وقالت:

ـ " أورويل يُخيفنا لأنّه صادق. يُريك كيف يمكن أن تُسحق روحُ الإنسان حين تصير الحقيقة جريمة."

أكمل نعمان بنبرةٍ تأمّلية:

ـ " الألمان أيضًا لهم بصمتهم العميقة. الأدب الألماني لا يقلّ غوصًا عن الروسي، لكنّه أكثر تقنينًا في الألم، وأشدّ ارتباطًا بالفكر الفلسفي."

سأل السيّد أحمد وقد زاد اهتمامه:

ـ " وهل لك اطّلاعٌ على الكتّاب الألمان؟ من تراه الأبرز فيهم؟"

أجاب نعمان بعد أن ارتشف قليلاً من الماء:

ـ " في طليعتهم غوته، عملاق الكلاسيكية الألمانية. *فاوست* ليس مجرّد مسرحية، بل صراع الإنسان مع ذاته وأشباح طموحه. *آلام فرتر*، منبع رومانسيّة عارمة، و*الديوان الشرقيّ الغربيّ*، لقاءُ الثقافتَين في لغة الشعر. بعده يأتي شيلر، صاحب *المؤامرة والفداء*، و*ماريا ستيوارت*، وقصيدة *أنشودة الفرح* التي لحّنها بيتهوفن".

وتابع:

ـ " ثمّ في القرن العشرين، يبرز توماس مان، حاصلٌ على نوبل، له *آل بودنبروك* و*الموت في فينيسيا* و*الجبل السحريّ*. وهناك كافكا، رغم كونه من براغ، لكنّه يُعدّ من أعمدة الأدب الألماني، بأعماله مثل *التحوّل* و*القضية* و*القلعة*."

أضاءت عينا منى وقالت:

ـ " كافكا يُشبه الروسيّين في شيء، لكنّه أكثر عُزلةً. شخصيّاته لا تُقاوم، بل تذوب ببطء داخل بيروقراطيةٍ تحكمها عبثيّةُ الوجود".

أكمل نعمان:

ـ " ولا ننسى برتولت برشت، رائد المسرح الملحميّ، بأعمالٍ مثل *أمّ الشجاعة* و*حياة غاليليو*. ثمّ هاينه، الشاعر السياسيّ، بهدوئه وسخريته، وهيرمان هيسه الذي كتب *سدهارتا* و*ذئب البراري*، و*لعبة الكريات الزجاجية*. وأخيرًا ريمارك... ريمارك مختلف."

سأل السيّد أحمد وقد بدت في عينيه رغبةٌ صادقة في الاستماع:

ـ " ريمَارك؟ سمعتُ باسمه، لكن لم أقرأ له. ما الذي يجعل أعماله مميّزة؟"

أجاب نعمان بنبرةٍ خاشعة:

ـ " إنه لا يكتبُ عن الحرب، بل عن إنسانٍ ضاع فيها. *كلّ شيء هادئ على الجبهة الغربية* ليس سردًا للمعارك، بل مرثيّةٌ للروح، كما لو كان يقول: حين يُقتل الحلم، لا يبقى شيء. الحربُ عنده ليست بطولة، بل نفيٌ للبطولة، وتحطيمٌ للصورة التقليدية للإنسان المقاتل".

أكملت منى حديثه:

ـ " وما يميّزه عن الأدب الروسيّ هو اختزال المشهد. بينما الروس يغوصون في النفس لصفحات، يُعبّر ريمارك بجملةٍ قصيرة عن ألمٍ لا يُطاق."

تأمّل السيّد أحمد الكوب الذي في يده، ثم قال بهدوء:

ـ " عظيمٌ أن نسمع هذا منكما. لعلّ ما ينقص مدارسنا ليس النصوص، بل الأرواح التي تُحييها. الأدب، حين يُدرَّس كأنه واجبٌ ميتٌ، يفقد ما فيه من شعلة."

قال نعمان، وقد بدا في صوته رجعُ فكرةٍ طالما سكنتْه:

ـ " الأدب الحقيقيّ لا يعلّمنا كيف ننجو، بل كيف نفهم خساراتنا. كيف نصبح أناسًا رغم كلّ ما يسحقنا."

نظرت منى إلى والدها وقالت:

ـ " الأدب لا يُدرَّس، بل يُعاش. وربما لهذا السبب يبدو القارئ ـ بين أقرانه ـ غريبًا. لأنّه مشغولٌ بأسئلته، لا بإجاباتٍ جاهزة."

ساد صمتٌ لحظاتٍ، لم يكن صمتَ فراغ، بل صمتًا نضج فيه الكلام. ثمّ تنفّس السيّد أحمد بعمق، وقال:

ـ " ما أجمل أن نُحاور شبابًا لا يقرأون الكتب فقط، بل يُنصتون لما فيها من صدى الإنسان."

أطرق نعمان برأسه، وابتسمت منى، وتسلّل دفءٌ جديد إلى الزوايا، كأنّ الكتبَ التي ذُكرتْ قد فتحت نوافذها، ومرّ منها ضوءٌ غير مرئيّ.

تنفّست مُنى بعمقٍ بعد أن ارتشفت قليلاً من الكوب الذي كان يسعى نعمان أن لا يتركه فارغاً، ثمّ شاركت الحديث قائلة:

" أبي... أظنُّ أنَّ المشكلة ليست في غياب الأدب، بل في تغييبِ أثرِهِ. الناسُ تهربُ من الأسئلة العميقة، لأنّ الإجابة تكلّفهم مواجهة أنفسهم. ولهذا، يصبح الأدبُ رفاهيةً لا ضرورة. بل حتى الفتيانُ الذين يقرؤون، كثيرًا ما يُنظرُ إليهم ككائناتٍ غريبةٍ عن السياق"!

ضحك نُعمان، وقال ممازحًا:

" أعرفُ هذا تمامًا... في مدينتي، كان يُقالُ إنّ القراءة مهنةُ العاطلين، وإنّ من يحملُ كتابًا لا يفقهُ في الزراعةِ ولا التجارةِ ولا الزواج"!

ابتسم السيّدُ أحمد بحكمةٍ دافئة، ثم قال:

" ومع ذلكَ، من أمثال هؤلاءِ العاطلين، صُنعت النهضات. الفقرُ الحقيقيّ ليسَ في الجيبِ بل في الخيال. والمجتمعاتُ التي تَخشى القارئ، إنّما تَخشى أن ترى نفسها في مرآته".

ساد الصمتُ من جديد، لكنّه كان هذه المرّة صمتًا مشبعًا، كأنَّ المائدةَ نفسها قد استمعتْ واستفادت.

تبادل الثلاثةُ نظراتٍ صادقة، وفي الأفقِ الداخليّ لكلٍّ منهم، شيءٌ جديدٌ كان يتشكّل... شيءٌ يُشبه الوعي، ويُشبه الحُلم.

ضحكَ السَّيِّدُ أحمد وهو يهزُّ رأسه، ثم قال:
" ما شاءَ الله... يبدو أنني سأحتاجُ إلى دفترٍ لتدوينِ توصياتك، لا إلى سُؤالٍ واحد"!

ضحكت مُنى بدورها، وقد بدا على وجهها ارتياحٌ ناعم، كأنَّها ترى انعكاسَ فكرِها في كلماتِ نُعمان، وهمست:
" كنتُ أعلمُ أنّك ستُبهجُه".

بعدما انفضّ العشاءُ بهدوءٍ يشبه انفضاضَ الحكاياتِ الطويلة، انتقلوا إلى الشُّرفةِ الخلفيّةِ للمنزل. كانت اللّيلةُ معتدلةً، والهواءُ يهبُّ برفقٍ كأنّه يهمسُ بأسرارٍ لم يُفصحْ عنها النهار. جلسوا حولَ طاولةٍ صغيرةٍ من الخيزران، تتوسّطها إبريقُ قهوةٍ نحاسيّ، وفناجينُ ثلاثةٌ تكادُ تبخّرُ ما تبقّى من التعبِ في الأرواح.

أوقدَ السيّدُ أحمدُ مصباحًا صغيرًا في الزاوية، وأطلقَ زفرةً طويلةً اختلطَ فيها الرضا بالحنين، ثمّ قال وهو يسكبُ القهوةَ للجميع:

" هكذا أشعرُ بالطمأنينة... عندما يجتمعُ الحديثُ الدافئُ معَ رائحةِ البنِّ، بعيدًا عن صخبِ العالم".

أخذ نُعمان فنجانه، شكرَ السيّد أحمد بصوتٍ خفيض، ثمّ ظلّ يُحدّقُ في سطحِ القهوةِ كما لو كانَ يحاولُ أن يقرأَ شيئًا فيه. داخلهُ كان مضطربًا، كأنَّ حديثَ العشاء حرّك في أعماقهِ إحساسًا بالتناقض. لقد قرأ كثيرًا... لكنّ شيئًا من الوجعِ الذي في عيني السيّد أحمد لا يوجدُ في الكتب. كان يرى في هذا الرّجل بقايا جيلٍ آمن بأنَّ الفِكرَ لا ينفصلُ عن الحرفة، وأنَّ العائلةَ ليست مجرد رابطة دم، بل مشروعُ معنى.

سألَ نُعمان فجأةً، كأنّهُ يُلقي بسؤالٍ كان مختبئًا في صدرهِ منذ أيام:

" عمي أحمد... هل شعرتَ يومًا أنَّ ما قرأتَهُ لم يُنقذك؟"

أجالَ السيّد أحمد نظرهُ بينهُ وبين مُنى، ثمّ ارتشفَ شيئًا من قهوتهِ وقال ببطء:

" بلى... بل كثيرًا. الكُتبُ لا تُنقذ، يا بُنيّ. لكنّها تُنضجُ حزنك. تُعلّمكَ كيفَ تحتملُ العالم، لا كيف تغيّره دفعةً واحدة. الأدبُ أشبهُ بنظّارةٍ ترى بها اتّساعَ الجُرح، لا بلسمًا يُخفيه".

صمتَ لحظةً، ثمّ أضاف بنبرةٍ فيها رجعُ زمنٍ بعيد:

" حين ماتَ أبي، قرأتُ كلَّ ما كتبَ (أنسي الحاج) عن الفقد، ومع ذلكَ لم أكنْ أملكُ إلّا أن أبكي في الظلّ، وأنا أُقلّبُ صورتهُ القديمة".

نظرتْ مُنى إلى والدها نظرةً تَفُوحُ منها رائحةُ العَطف، كأنّها تَمدُّ إليه غِطاءً من سَكينةٍ لا تُقال.
عيناها كانتا تقولان أكثرَ ممّا تستطيعُه الشِّفاه، لكنّها لم تتكلّم.
كانتِ الكلماتُ، في تلك اللحظة، ثقيلةً على طرفِ لسانها، كما لو أنّها تخشى أن تُربِكَ دفءَ اللحظة.
وفي داخلها، كانتْ تياراتٌ متشابكةٌ من مشاعرَ تُصارعُ للظهور: حُبٌّ عميقٌ لأبيها، إعجابٌ متجدّدٌ بنُعمان، وحُزنٌ لا تدري إن كانت قد ورثتهُ مع نبرة صوت والدتها، أم نسجَتْهُ وحدها في ليالي الفقد الأولى.

ثم قالتْ أخيرًا، بصوتٍ خفيضٍ كضوءِ قمرٍ خائفٍ أن يوقظَ النائمين:

" أشعرُ أحيانًا... أنّنا نُحبُّ الكُتُب لأنّها تقولُ ما نعجزُ عن قولهِ للناس. نقرأها كما لو كنّا نُرسلُ رسائلَ إلى أنفسنا... لكن عبرَ الآخرين".

نظرَ إليها نُعمانُ طويلًا، بنظرةٍ يُخفي فيها دهشتَهُ من قدرتها على لمسِ المعنى بمثل هذه البساطةِ العميقة. أرادَ أن يقولَ لها شيئًا ظلَّ يؤرِّقُه منذ أيام: إنّها، هي بالذات، قد أصبحتْ منذ زمنٍ كتابةُ المُفضَّل... لكنّه آثرَ الصمت. كان يعلمُ أنّ بعضَ اللحظاتِ أجملُ حين تبقى دونَ جُمل.

فاستدارَ نحو السيّدِ أحمد، كأنّه يعودُ إلى رُكنٍ آمنٍ، وقال:

" أتُصدّق، عمي، أنّني حين قرأتُ روايتين لأورويل حديقة الحيوانات و (1984)، شعرتُ بأنّني أعيشُ نوعًا آخرَ من الرقابة؟ ليست الدّولةُ وحدها مَن تراقبُنا، بل نحنُ أنفسُنا نُراقبُ أفكارَنا، نُخفي ما نعتقدُه، ونخشى أن نكونَ مختلفين".

أطرقَ السيّدُ أحمد برأسه، ثمّ هزَّهُ ببطءٍ وقالَ بنبرةٍ فيها من الحزنِ أكثرُ ممّا فيها من اللوم:

" هذه الرقابةُ هي ما يُقلقني على جيلكم... أن يكبرَ شابٌّ مثلك، فيخاف أن يقولَ ما يؤمنُ به، أو يُجبَرَ على التنازلِ عن حُلمهِ، لأنّ المُجتمعَ لا يُحبُّ الحالمين".

سادَ صمتٌ خفيف، لم يكنْ موحشًا، بل شفافًا كقطرةِ ماءٍ علِقتْ بينَ الضوءِ والذاكرة. غيرَ أنّه، بالنسبة إلى نُعمان، لم يكنْ كذلك. لقد أيقظتْ كلماتُ السيّدِ أحمد بابًا من الذكرى كان قد أوصدَهُ طويلًا.

ارتجفَ داخلهُ شيئًا، لم تَرَهُ مُنى، لكنّ أباها لمحَ ظلَّهُ يتسلّلُ على ملامحه. سأله باهتمامٍ رصين:

" مَا بِكَ، يا نُعمان؟"

أجابهُ نُعمان، كأنّه ينتشلُ صوتَهُ من بئرٍ قديم:

" إنّها واحدةٌ من نتائجِ تلك التّراكمات... تراكماتُ الوعيِ المُبكّر، وتلكَ الجرأةُ في الطرحِ التي لم يكنْ للزّمنِ أن يحتملَها".

أمالتْ مُنى رأسها قليلًا، وقالت بنبرةٍ رقيقةٍ يَكسوها اهتمامٌ صادق:

" وهل لنا... أن نعرفَ تفاصيلَ تلكَ الذكرى؟ بدقّةٍ وعمقٍ كما ينبغي؟"

نظر إليها نُعمان، ثمّ إلى والدها، فوجد في أعينِهما صدقًا لا يُقاوَم. لكنّ شيئًا في داخلهِ تمنّع، كما لو كانَ الجُرحُ لا يزالُ طريًّا.

طال صمتُه هذه المرّة، حتى ظنّناه لن يتكلّم. ثم قال أخيرًا:

" أفضلُ ألّا أخوضَ في تلكَ الذكرى المؤلمة... التي ما تزالُ تُلاحقُني حتى هذا اليوم، ولا أعلمُ متى تنتهي".

ولم يُكمل. لكنّه في داخله، كان يرى المشهدَ واضحًا: ذلك اليوم من خريفٍ بعيد، حين وقف في ساحة المدرسة، وسأل راعي الاحتفال وكان هذا الرجل مسؤولا كبيراً في حزب البعث العربي الاشتراكي، هذا الحزب الذي يقود الدولة والمجتمع في سورية ويصنع خططها المحلية والاقليمية والدولية بصوتٍ لا ينساه:

" مِن فضلكَ، أستاذي الفاضل... أُريدُ توضيحًا لتساؤلٍ يدورُ في خاطري"!

قال الرجل يومها:

(تفضّل بالسؤال، وأشكرك على اهتمامك ومشاركتك سلفًا)

لكنّ السُّؤالَ الذي لم يتجاوزْ حدودَ الفكر، كان كافيًا ليُلقيَ به في المعتقل، ويتركَ داخلهُ قيدًا من الخوفِ لا يزالُ يرنُّ في ليله، رغمَ كلِّ الحريّاتِ الظّاهرة.

ولم يحتجِ الثلاثةُ إلى المزيد من الكلمات. كانتِ الشرفةُ صامتة، لكنّها تفهّمت. الليلُ رَبتَ على كتفِ الجرح، وتركَ للأملِ كُرسيًّا فارغًا بجانبهم... كأنّه سيأتي.

عند منتصفِ اللّيل، حينما خفَّت الأصواتُ خلف النوافذ، وانسحبَ الدفءُ من الشرفةِ إلى الغُرف، بقيَ نُعمانُ وحده في العتمة، كأنّ السَّهرَ استعارهُ من النومِ لأجلِ فكرةٍ لم تكتمل.

جلسَ على طرفِ السرير، لا يُريدُ أن يُشعلَ الضوء. يكفيهِ ضوءُ الشارعِ المنعكسُ من بينِ الستائرِ ليُرى ملامحه شبحًا يُفكّر. وضعَ كفَّهُ على جبينه، وأغمضَ عينيه كأنّه يُحاولُ أن يُطفئَ داخله شيئًا لم ينطفئ منذ زمن.

لماذا عادَ ذلك اليوم؟
لماذا لم تنفع السنواتُ الطويلةُ في محوِ ذلك الشعور؟
وكيفَ يمكن لذكرى أن تبقى حيّةً كلّما جاء أحدهم على سيرةِ الحُلم؟

لم يكن الحزنُ فقط ما يؤرقه، بل تلك الدهشة القديمة من ظلمٍ لم يفهمه بعد، رغم أنّه عاشه.
في المعتقل، لم يُضرب فقط، بل شُكِّكَتْ براءتهُ نفسها، وكأنّ السؤالَ جرمٌ، لا فضول.

رفعَ رأسه، وتمتم بصوتٍ خافت:

" كانَ سؤالًا بريئًا... لا أكثر".

ثمّ ابتسم بمرارةٍ، وقال وكأنّه يُجيب نفسَه:

" لكنَّ البراءةَ، يا نُعمان، ليست دائمًا فضيلة".

تذكّر وجهَ أمهِ يومَ خرجَ من المعتقل، كيف كانت تخبّئ دمعها داخل ابتسامةٍ مرتجفة، ويدهُ الصغيرة تُمسكُ بطرفِ ثوبها خائفًا من نورِ النهار.

لم يكن يخشى العالم... بل كان يخشى ألا يفهمه أحد.

نهض من على السرير، واقترب من النافذة.
فتح الزجاجَ بصمتٍ، وتنشّقَ الهواءَ الليليّ كمن يُجري مصالحةً باردةً مع الحياة.

تُرى... لو قلتُ لها الليلة كلَّ شيء، هل كانت ستفهم؟
ولو سألني والدها أكثر، هل كنتُ سأجرؤ؟
وإن كتبتُ ذلك في رواية... هل أُشفى؟

راح يُقلّب الأسئلةَ في ذهنه، كأنّه يبحثُ عن جُملةٍ تُنقذُه من سطوة الماضي.
لكن لا شيء كان كافيًا.

ثم، فجأةً، خطر له شيء، فالتقط دفتراً قديماً من حقيبته، ذلك الذي يحتفظ به منذ سنوات.
فتح صفحةً بيضاء، وكتب:

" الحُرّيّة ليست شعارًا... إنّها امتحانٌ يوميّ. وأنا، مذ كنتُ طفلًا، رسبتُ فيه كثيرًا... لأنّي صدّقتُ أنّ الحُلمَ وحده يكفي".

توقّف، ونظر إلى السطر طويلًا، ثم أغلق الدفتر.
لم يكن يريدُ أن يُكمل الكتابة، بل أراد فقط أن يقولَ لنفسه إنّه لا يزالُ يقدر.

وهكذا، انتهت ليلتُه، لا على قرارٍ، ولا على وعد، بل على صمتٍ جديد، أقلَّ ألمًا من سابقه، لأنّه لم يكن صمتًا من الخوف، بل من إدراكٍ عميقٍ بأنّ بعض الجراح، لا تُشفى بالكلمات... بل بالحياة.

أطلَّ الصَّباحُ على المدينةِ بنعومةٍ رماديَّةٍ، كأنَّ الليلَ ما زالَ يُمسِكُ بطرفِ عباءتِهِ، لكنَّهُ لا يرغبُ في المُغادرةِ تمامًا.

في الحديقةِ الصغيرةِ القريبةِ من البيتِ، كانت عصافيرُ خجولةٌ تُغرِّدُ كمن يتعلَّمُ النَّغمةَ الأولى، تُجالسُ وقعَ أوراقٍ تتساقطُ برفقٍ على الأرضِ، فتُداعبُها دونَ أن تُزعجَها.

خرجَ نُعمانُ إلى الشُّرفةِ يحملُ فنجانَ قهوةٍ لم يذقْهُ بعد. لم تكنِ القهوةُ غايتَهُ الحقيقيَّة، بل تلكَ اللحظةُ الّتي يستطيعُ فيها أن يُراقبَ العالَمَ دونَ أن يُقاطعهُ أحدٌ بالسُّؤالِ المعتادِ: "بِمَ تُفكِّر؟"

لكنَّهُ ما لبثَ أن انتبهَ أنّهُ لم يكُن وحدَهُ.

كانت مُنى هناك، تجلسُ عند طرفِ الطاولةِ، تفتحُ دفترًا صغيرًا، تُقلِّبُ أوراقَهُ كمن يُنقِّبُ في خريطةٍ عتيقةٍ لا يبحثُ فيها عن كنزٍ، بل عن لحظةِ بوحٍ تنتظرُ أن يأتيَ من الجهةِ الأخرى.

رفعتْ نظرَها إليه، ثمّ قالت، بصوتٍ هادئٍ لا يُحدِّقُ في العيونِ لكنَّهُ يصيبُ القلبَ:

" لَم تنَمْ جيِّدًا... أليسَ كذلك؟"

أجابَها بصوتٍ خافتٍ، فيه صدقٌ لا يحتاجُ إلى تبريرٍ:

" أحيانًا... لا يكونُ السَّهرُ خيارًا."

أغلقتْ دفترَها ببطءٍ، ثم رفعتْ وجهَها نحوهُ، وفي عينيها مزيجٌ من الحنانِ وعتبٍ شفيفٍ:

" كنتُ أتمنّى لو أخبرتني بكلِّ شيءٍ... ألا أستحقُّ أن أعلم؟، ولأنّكَ لا تستحقُّ أن تبقى وحدَكَ في ذلك."

تأمَّلها طويلًا. لم يكنْ يتوقَّعُ أن يكونَ الصَّباحُ بهذا الوضوح. شعرَ وكأنَّ جدارًا شفافًا كان يفصلُ بينهُ وبين البوحِ قد تهشَّم، وصارَ ما كان يخشاهُ مرئيًّا على سطحِ قلبِها.

قال وهو يُقلِّبُ الفنجانَ بين يديهِ:

" لَم أخَفْ من الحكايةِ نفسِها... بل من أن تُغيِّرَ صورتي في عينيكِ."

ابتسمتْ. وابتسامتها كانت كصلاةٍ داخليةٍ تُصغِي إليها الأرواح:

" ما من صورةٍ في قلبي لكَ يمكنُ لشيءٍ أن يُبدِّلها. كلُّ ما فيكَ... هو ما يجعلُكَ أنت، ولا أُريدُ غيرَه."

كادتْ كلمتُها أن تجرحَهُ من رقَّتِها، لكنّها فعلتْ ذلك كما تَفعلُ نسمةٌ حنونٌ حينَ تمرُّ على جُرحٍ قديمٍ... تُداويهِ دونَ أن تُنكِّئه.

ثم قالت، فجأةً، بمرحٍ خفيفٍ يُخفي أثرَ التأثّر:

" هيا... أخبرني، كيف كنتَ ستُنقذُ العالمَ لو كُنتَ بطلًا في روايةٍ لأورويل؟"

ضحك. للمرّةِ الأولى ذلك الصباح. لم تكن ضحكةً صاخبةً، بل ضحكةٌ تشبهُ أوّلَ قطرةِ مطرٍ بعدَ جفافٍ طويل.

قال:

" كنتُ سأبدأُ بسؤالٍ صغيرٍ... كأن أقول: لِمَ نَخافُ مِمّا نَعرِفُ أنَّهُ حَقّ؟"

مرّت نسمةٌ خفيفةٌ بينهما، كأنّ الحياةَ نفسها قد تنفَّست.

وفي تلكَ اللحظة، أدركَ نُعمانُ أنَّ شيئًا ما قد يتغيَّر فيما بعد. لا في مُنى فقط، بل فيه أيضًا.

وأنّ هذا الصَّباح، مهما بدا عاديًّا، كان ربّما أوَّلَ خُطوةٍ نحو شِفاءٍ بطيءٍ، لا يُشبهُ النِّسيان، بل القَبول.

ثم سأَلها، بنظرةٍ فيها رجاءٌ صامت:

" هل تريدين فعلًا أن تسمعي تفاصيل اعتقالي؟ رغم أنَّ الأمرَ لا يمتُّ إليكِ بصِلةٍ، فأنتِ من بلدٍ مجاورٍ، والسياسة في بلدُكم تختلفُ، وربّما لا يعنيكِ الحديثُ عن في السياسة، فحديثها لا يأتي إلا بألمٍ عميق، ولا يجرُّ إلا ألمًا؟"

أدركت مُنى المعنى العميق الّذي يختبئُ خلفَ سُؤاله، ومع ذلك، قالت بإصرارٍ ناعم:

"نعم."

قال، وهو يُحاولُ أن يُهيِّئها لما هو آتٍ:

" إذاً، استمعي إليّ كما لو أنّكِ تقرئين روايةً لأورويل أو كونديرا أو سواهم... لا شخصًا عاشَ هذا كلَّهُ على أرضٍ لا تُحبُّ الأسئلة."

سألتْهُ مُنى بفضولٍ صادق:

" وهل قرأتَ في السِّياسةِ أيضًا؟"

أجابها:

" نعم، وفي الأديانِ، والفلسفةِ، وعلومٍ أخرى..."

فقالت، تُكمِلُ طريقَ السؤال:

" ومَن هُم أولئكَ الكتّاب؟ وما أبرزُ كتبِهِم؟"

ابتسمَ وقال:

" سؤالكِ ممتازٌ، لأنّهُ يتناولُ الأدبَ الذي نَبَتَ تحت ظلِّ أنظمةِ القَمعِ والحكمِ الأحادي... كالشيوعية، والفاشية، والدكتاتوريات العسكرية، أو حتى الثيوقراطية. كثيرٌ من هؤلاء الكتّاب واجهوا الرَّقابةَ، النَّفيَ، أو السّجنَ لأنّهم كشفوا القهرَ الّذي يُمارسهُ النظامُ على الإنسان."

ثمّ نهضَ إلى غرفتِه، وعادَ بدفترٍ قديمٍ يَحمِلُ آثارَ أصابعِه، قلبَ صفحاتهِ بحُنوّ، وقال:

" سأقرأُ لكِ باختصارٍ بعضًا منهم... كي لا تَمَلّي، وإن كان في قلبي الكثيرُ عنهم."

ثم راحَ يقرأ:

" كان الكاتب المصري (نجيب محفوظ) هو أول من قرأت له، في بداية تعلقي بالقراءة، من الكتاب العرب، فقد تحدث في روايتيه *أولاد حارتنا* و*ثرثرة فوق النيل*، عن الكثير من المعاناة التي بعيشها الشعب المصري، و وجَّه انتقاداتٍ غير مباشرةٍ للسُّلطةِ، فتعرضَ لمحاولةِ اغتيالٍ بسببِ أفكاره.

ثم قرأت من روسيا ل (ألكسندر سولجينتسين) *أرخبيل غولاغ* و*يوم في حياة إيفان دينيسوفيتش*، ولأنه كَشفَ عن وجود معسكراتِ الاعتقالِ السوفييتي، نُفي من بلاده.

أما في الصين فقرأت ل (لو شون و لاو شي) *يومياتُ مجنون* و*مدينة القطط*، وهما من الأعمال الرمزيّةُ تحت رقابةٍ خانقة.

ومن بولندا تعرفت إلى (تشيسلاف ميلوش) من خلال *العقل المستعبَد*، الذي جسد فيه تحليلاً نفسياً لكيفية تكيّفِ الأدباءِ مع الأنظمةِ القمعيّة."

نظرَ نُعمانُ إليها وابتسامةٌ خفيفةٌ تُداعبُ شفتَيه، وقال بنبرةٍ لا تخلو من المعنى:

" أمّا أورويل... فنحنُ نقرؤهُ لنفهمَ ما نعيشُه، وإنْ لم يَكُنْ قد عاشَهُ هو نفسُه".

التفتَتْ مُنى نحوه، بعد أن كانت تُصغي بشرودٍ يُشبه النَّومَ واقفًا، وقالت بنبرةٍ فيها دعابةٌ خفيفة:

" ها قد عُدتَ إلى أورويل... أظنُّهُ الكاتبُ الّذي أيقظَ فيكَ تلكَ الذّاكرةَ مساءَ البارحة".

أغلقَ نُعمانُ دفترَهُ برفقٍ بين يديهِ، والتفتَ إليها سريعًا كمن يحاولُ صرفَ الحديث، وقال:

" وما بأورويل؟"

رمقتهُ بنظرةٍ نصفُها دهشةٌ ونصفُها عتب، وقالت:

" أقصد... أَما حانَ الوقتُ كي تُشاركني معاناتكَ بدلَ أن تُراوغَها بالحديثِ عن الآخرين؟"

سكتَ لحظةً، ثمّ أجابَ بصوتٍ خفيضٍ، وكأنّهُ يُحدِّثُ نفسه:

" بلى... سأُخبركِ بكلّ شيء. لكنّني أُشفِقُ على نفسي، تلكَ الّتي أراها تتلألأُ في عينيكِ، من أن تصبحَ قصّةً، ثمّ تتحوّلَ إلى ما لا أُريدُه لها إن جدَّ جديدٌ".

قالت باستغرابٍ لم تُخفِه:

" ألهذا الحدِّ أصبحتَ تخاف؟"

أومأ برأسه ثم قال، وكأنّه يُحاول أن يُبدِّدَ جمود اللحظة:

" حسنًا... سأبدأُ الحديثَ ونحن نُعدُّ طعامَ الفطور. أخبري والدَكِ أن ينضمَّ إلينا، فهذا يومُ عطلةٍ، وعليه أن يخرجَ من مكتبِه قليلًا، يُروِّحُ عن نفسِه، ويُشاركنا الطَّعام... والكلام".

نهضتْ مُنى، وسارت بخفَّةٍ نحو مكتب والدها، بينما توجَّهَ نُعمانُ إلى المطبخ، يُهيِّئُ مائدةً بسيطةً ليُعيد ترتيبَ ذاكرته على نارٍ هادئة.

عَلَى المائدةِ، انتظمتِ الأكوابُ والصُّحونُ في صمتٍ وديع، كأنها تُصغي لما سيتفجَّر من حكايةٍ طالَ اختباؤُها.

جلسوا في دائرةٍ تُشبهُ العائلةَ في عشاءٍ شتويٍّ حميم، لكنّ ما سَيُروى كان أبعدَ ما يكونُ عن الدفءِ.

تنفَّسَ نُعمانُ ببطء، كأنّه يُفرِغُ صدرَهُ مِن حِمْلٍ قديمٍ، ثم قال بنبرةٍ فيها رُطوبَةُ الذّاكرةِ:

" كانَ ذٰلِكَ في السّادسِ مِن تِشْرينَ الأوَّل... أكتوبر، عامَ ألفٍ وتِسعِمِئَةٍ وأَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ. شهرٌ لا يُشبهُ غيرَهُ فِي ذاكِرَتي... فقد وُلِدتُ فيه، وفيه وُلِدَ شيءٌ آخرُ لا يموت".

نظرتْ مُنى إليه بعينَيْنِ متسائلَتَيْن، وهمست:

" شيءٌ آخر... كأنّك تتحدّثُ عن ولادةٍ ثانية؟"

أومأ نُعمان برأسه، وقال:

" بلى هي كذلك... ولكنْ مِن رحمٍ آخر".

تابع وقد شبكَ يديه على الطاولة:

" قَبْلَ ذٰلِكَ الْيَوْمِ بِأُسْبُوعَيْن، اجْتَمَعَ الأُسْتاذَةُ والإداريُّونَ فِي ثانويَّةِ دُوما لِلْبَنين، وَقَرَّرُوا إِقَامَةَ احْتِفالٍ بِالذِّكْرَى الأُولَى لِما سُمِّيَ بِحَرْبِ تِشْرينَ التَّحْريريَّة، الَّتِي قادها الفريقُ حافظ الأسد، رئيسُ الجمهوريَّة العربيَّة السوريَّة، القائدُ العامُّ للجيشِ والقواتِ المسلّحة.

هزَّ والدُ مُنى رأسَهُ، وقال بتعليقٍ مقتضب:

" أعرف شيئاً عن تلك الأيام"...

ابتسم نُعمانُ وقال:

" كان يجب أن تبقى الرُّوح معلَّقةً على أسئلةٍ لا تُسْأَل ... بعد أن حصلتِ الإدارةُ على الموافقةِ من الجهاتِ المختصّة، أُبلِغَ جميعُ العاملينَ والطلّابِ بضرورةِ الحضور. زُيِّنَت البّاحاتُ والمداخلُ باللافتاتِ والصورِ والأعلام، وحضرَ الاحتفالَ ممثّلون عن الحزبِ والمنظماتِ الشعبيّةِ والإدارةِ السياسيّة.

بدأ الحفلُ كما جرتِ العادةُ في مناسباتِ الوطن. كلماتٌ تُشيدُ بالنّصرِ العظيم، وأناشيدُ تُعلنُ المجدَ الأبديّ. كان كلُّ شيءٍ يجري كما يُراد له أن يجري... حتى رفعَ أحدُ الطلّابِ يدَهُ، وطلبَ الإذنَ بالسُّؤال. سُمِحَ له، ورُحِّبَ بمشاركته.

رفعتْ مُنى حاجبَيْها وقالت بشيءٍ من الحذر:

" وهل كان مسموحًا بالسؤال؟"

ابتسم نُعمان ابتسامةً حزينة:

" يبدو أنّه لم يكن... وإنْ بدا غيرَ ذلك في البداية".

ثم غاصَ في السرد:

" قال الطّالب: (في العامِ الماضي، بعدَ نِهايَةِ الحَرْبِ بِشَهْرَيْن، دَخَلَ صَفَّنا طَالِبٌ جَدِيدٌ مع مُوَجِّهٍ تَرْبَويٍّ، وَلم يَكُن فِي الصَّفِّ مَكَانٌ فَارِغٌ سِوى المَقْعَدِ الَّذِي بِجَانِبِي، فَجَلَسَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَمِيلِي. تَعَرَّفْنَا عَلَيْهِ، وَقالَ: إِنَّهُ مِنَ الْجَوْلَانِ، وَإِنَّهُ وَأُسْرَتَهُ نَزَحُوا أَثْنَاءَ حَرْبِ تِشْرين، بَعْدَ أَنْ احْتُلَّتْ قَرْيَتُهُمْ. سَأَلْتُهُ: أَلَيْسَ النُّزُوحُ كَانَ فِي سبعةٍ وَسِتِّين؟ فَقَالَ: لا... نَزَحْنَا فِي الثَّالِثَةِ وَالسَّبْعِين. وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَنَا أَتَسَاءَل: كَيْفَ نُسَمِّيهَا حَرْبَاً تَحْرِيرِيةً وَقَدْ خَسِرْنَا فِيهَا مَا تَبَقَّى مِنْ أَرْضِنَا في الجولان، فهل أجدُ لديكم جوابًا؟)

شهقَ والدُ مُنى، وقال:

" يا ولد!... هذا سؤالٌ في بلدكم يُكْتَبُ بالدّم لا بالحبر"!

هزّ نُعمان رأسه بتنهيدةٍ عميقة:

" وهكذا كان... فَما هيَ إلّا ثَوانٍ حَتَّى اجْتَمَعَ الطُّلَّابُ وَانْطَلَقُوا فِي مَسِيرَةٍ عَفْوِيَّةٍ، وإذا بمزيد من أعدادِ الطلابِ تهتف، تتجمهر، وَيَحْمِلُونَ أَحَدَهُمْ عَلَى الأَكْتَافِ، لم يكن أحدٌ يُديرُ المشهد، كأنّ الغضبَ كان قائدهم. إِلَى أَنْ بَلَغُوا بَوَّابَةَ المَدْرَسَةِ، ثُمَّ شَارِعَ الْجَلَاء، فَالسُّوقَ التِّجَارِيَّ".

" وماذا فعلتَ أنت؟"

سألت مُنى بشغفٍ وهي تميلُ بجسدِها نحوه.

قال نُعمان وهو يُشيحُ ببصره نحو النّافذة:

" كُنتُ بينَهم... أمشي دون أن أشعر أنني أمشي... إلى أن وصلنا إلى مخفرِ الشرطة، فَخَرَجَ رَئِيسُهُ وَبِيَدِهِ بُنْدُقِيَّةٌ رُوسِيَّة، وَأَطْلَقَ النَّارَ فِي الْهَوَاءِ فوق رؤوس الطلاب. تَبَدَّدَ الْهُتَافُ، أصواتٌ، صُوَرٌ تتساقط، الهتافُ يتكسَّر، والمظاهرةُ تتبعثر كأوراقِ خريف"..

تنهَّد، ثم أكمل:

" فِي المَسَاءِ، حِينَ حَلَّ الظَّلَامُ عَلَى المَدِينَةِ، كُنْتُ أَقْرَأُ فِي غُرْفَتِي... وَلَكِنَّ صَوْتَ مَا حَدَثَ فِي النَّهَارِ لَمْ يَكُنْ قَدِ ٱنْتَهَى.

وَإِذَا بِصَوْتِ جَدِّي يُنَادِينِي، ثُمَّ يَسْأَلُنِي، وَفِي صَوْتِهِ نَبْرَةُ رِيبَةٍ وَتَوَجُّسٍ:

" هَلْ ٱرْتَكَبْتَ جَرِيمَةً؟"

فَقُلْتُ لَهُ، وَقَلْبِي يَخْفِقُ عَلَى وَقْعِ المَفَاجَأَةِ:

" لَمْ أَرْتَكِبْ أَيًّا مِمَّا تَقُولُ...!"

وَبَيْنَمَا نَتَحَاوَرُ عِنْدَ بَابِ غُرْفَتِي، دَخَلَ رِجَالُ الشُّرْطَةِ.

أَخْبَرُوا جَدِّي بِأَنَّهُمْ سَيَأْخُذُونِي مَعَهُمْ.

وَقَفَ جَدِّي يُدَافِعُ عَنِّي، وَيَقُولُ لَهُمْ:

" إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا يَسْتَوْجِبُ أَنْ تَأْخُذُوهُ!"

فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ:

" صَحِيحٌ كَلَامُكُمَا، وَلَكِنَّ رَئِيسَ المَخْفَرِ يُرِيدُ أَنْ يَطْرَحَ عَلَيْهِ سُؤَالًا وَاحِدًا. سَنُعِيدُهُ إِلَيْكُمْ فَوْرًا."

طَلَبَ جَدِّي أَنْ يُرَافِقَنِي، لَكِنَّهُمْ رَفَضُوا، وَطَمْأَنُوهُ:

" لَا حَاجَةَ لِذَلِكَ، فَإِنَّمَا هُوَ سُؤَالٌ وَسَنُعِيدُهُ إِلَيْكُمْ سَرِيعًا..."

سَأَلَ وَالِدُ مُنَى، وَفِي صَوْتِهِ قَلَقٌ قَدِيمٌ:

" وَهَلْ أَعَادُوكَ؟"

ضَحِكَ نُعْمَانُ، وَقَالَ بِسُخْرِيَّةٍ مُرَّةٍ:

" أَعْتَذِرُ مِنْكُمْ... فَشَرُّ البَلِيَّةِ مَا يُضْحِكُ!"

غَطَّتْ مُنَى فَمَهَا بِيَدِهَا، وَقَالَتْ بِٱنْفِعَالٍ:

" وَكَيْفَ خَرَجْتَ؟!"

فَتَابَعَ نُعْمَانُ، وَصَوْتُهُ يَخْفِتُ وَيَسْتَعِيدُ ظِلَّ الذِّكْرَى:

" سَتَعْرِفِينَ... كَانَ ذَلِكَ قَدْ حَصَلَ مَسَاءَ يَوْمِ السَّادِسِ مِنْ تِشْرِينَ الأَوَّل أُكْتُوبر، عَامَ أَلْفٍ وَتِسْعِمِئَةٍ وَأَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ لِلسَّنَةِ المِيلَادِيَّةِ، المُوَافِقِ لِيَوْمِ العِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، عَامَ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِئَةٍ وَأَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ لِلهِجْرَةِ."

سألت منى بتعجب:

" وهل مازلت تحفظ التاريخين معاً؟"

أجابها وهو يتنهد بعمق:

" إن ذاكرة تلك الأيام ماتزال محفوظة في الذاكرة الدائمة، لَكِنَّ المُفَاجِئَ وَمَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ ٱلإِقَامَةَ لَدَيْهِمْ ٱمْتَدَّتْ حَتَّى يَوْمِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ تِشْرِينَ الأَوَّل أُكْتُوبر، لِعَامِ أَلْفٍ وَتِسْعِمِئَةٍ وَأَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ، المُوَافِقِ لِلثَّلَاثِينَ مِنْ رَمَضَانَ، عَامَ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِئَةٍ وَأَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ لِلهِجْرَةِ.

صَحِيحٌ أَنَّهَا كَانَتْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، وَلَكِنَّ هَذِهِ العَشْرَةَ كَامِلَةً لَا يُمْكِنُ أَنْ تُنْتَزَعَ مِنْ ذَاكِرَةِ الإِنسَانِ، أَوْ أَنْ تَغِيبَ عَنْهُ لَحْظَةً..."

بِصَوْتٍ خَفِيٍّ، وكَأَنَّهُ يُمْلِي سِرًّا عَلَى الظِّلِّ، قال نُعْمَان:

" بِتْنَا اللَّيْلَةَ الأُولَى فِي مَخْفَرِ (قسم شرطة) دُومَا، بَعْدَ ذَٰلِكَ السُّؤَالِ البَسِيطِ، المُزْعُومِ... الَّذِي كَانَ يُخْفِي خَلْفَهُ وَجْهًا قَبِيحًا لِلتَّهْدِيدِ، وَشَكْلًا خَفِيًّا لِلإِهَانَةِ، وَطَعْمًا أَمَرَّ مِنَ الشَّتِيمَةِ..."

أَجْفَلَتْ مُنى، وَقَطَعَتْهُ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ، وَعَيْنَيْهَا تَتَفَتَّحَانِ عَلَى صُورَةٍ لَمْ تَكُنْ فِي بَالِهَا:

" كَيْفَ؟! لِمَاذَا؟! هَلْ كَانَتْ لَكُمْ تُهْمَةٌ صَرِيحَةٌ؟"

أَطْرَقَ نُعْمَانُ، كَمَنْ يُرَاجِعُ لَفْظًا قَدِيمًا، ثُمَّ قَالَ:

" كُلُّ مَا سُئِلْنَا عَنْهُ، سُؤَالٌ وَاحِدٌ لَا ثَانِيَ لَهُ: (مَا هُوَ ٱنْتِمَاؤُكُمُ السِّيَاسِيُّ؟ وَمَنْ حَرَّضَكُمْ عَلَى المُشَارَكَةِ فِي مُظَاهَرَةٍ تُهَدِّدُ أَمْنَ الدَّوْلَةِ؟)"

صَفَّرَ وَالِدُ مُنى بِتَعَجُّبٍ وَتَحَسُّرٍ، ثُمَّ هَمَسَ:

" وَكُنْتُمْ طُلَّابًا... لَا أَكْثَر؟!"

أَجَابَ نُعْمَانُ وَبِصَوْتِهِ نُبُوءَةُ مَنْ ذَاقَ الْبِدَايَةَ وَلَا يَعْرِفُ لِلنِّهَايَةِ شَكْلًا:

" نَعَم، أَحَدَ عَشَرَ طَالِبًا، جُمِعْنَا كَمَنْ يُلْتَقَطُ مِنْ هَامِشِ الصُّورَةِ، أَعْرِفُ بَعْضَهُمْ، وَلَا أَعْرِفُ عَنْ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ شَيْئًا..."

تنفَّس، وَأَطْلَقَ الزَّفِيرَ بِنَبْرَةٍ حَادَّة:

" فِي الصَّبَاحِ، جَمَعُوا مَا فِي جُيُوبِنَا مِنْ نُقُودٍ، وَأَخَذَهَا أَحَدُ رِجَالِ الشُّرْطَةِ، زَاعِمًا أَنَّهُمْ سَيَسْتَأْجِرُونَ سَيَّارَتَيْ أُجْرَةٍ لِنَقْلِنَا إِلَى مَكَانٍ مَا فِي دِمَشْقَ."

صَمَتَ قَلِيلًا، ثُمَّ تَابَعَ، وَكَأَنَّهُ يَمْضُغُ كُلَّ جُمْلَةٍ:

" وَصَلْنَا دِمَشْقَ بَعْدَ الظُّهْرِ... أَدْخَلُونَا إِلَى مَبْنًى قِيلَ إِنَّهُ (الأَمْنُ السِّيَاسِيُّ).

قَالَ أَحَدُ الحُرَّاسِ: (مُعَلِّمُنَا طَيِّبٌ، يُوثَقُ بِهِ، لَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا، لَكِنَّهُ فِي اَسْتِرَاحَةِ غَدَاءٍ... أَوْ فِي جَوْلَةٍ... وَسَيَعُودُ قَرِيبًا.)

فَأَوْدَعُونَا فِي غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ، كَانَتْ تُشْبِهُ المَحْرَسَ، فِي طَرَفِ ذٰلِكَ المَبْنَى البَارِدِ."

هَمَسَتْ مُنى:

" وَكُنْتُمْ... صَائِمِينَ؟"

" نَعَم... وَقبيل العَصْرِ دَخَلَ عَلَيْنَا أَحَدُهُمْ، وَبَدَأَ يَأْخُذُنَا وَاحِدًا تِلْوَ الآخَرِ... وَمَا كُنَّا نَرَى أَحَدًا يَعُودُ مَعَهُ."

تَلَاحَقَ نَبْضُ مُنى، وَبَدَتْ كَأَنَّهَا تَتَنَفَّسُ بِعَيْنَيْهَا.

أَضَافَ نُعْمَان:

" حِينَ حَانَ دَوْرِي، أَمْسَكَنِي ذٰلِكَ الحَارِسُ بِقَبْضَةٍ مُؤْلِمَةٍ، وَجَرَّنِي نَحْوَ الدَّاخِلِ.

فَتَحَ بَابًا، وَدَفَعَنِي بِقُوَّةٍ. وَفِي الدَّاخِلِ، لَمْ أكد أن أَرَ شَيْئًا حتى شعرت بصَفْعَةٌ صَارِخَةٌ تَنْزِلَ عَلَى وَجْهِي... رَمَتْنِي عَلَى الأَرْضِ كَأَنِّي ركامٌ أو حَجَرٌ."

تَكَلَّمَ نُعْمَانُ بِلُغَةٍ هَادِئَةٍ، لَكِنَّهَا تَخْدِشُ جِلْدَ السَّكِينَةِ:

" سَأَلَنِي ذٰلِكَ الرَّجُلُ الذي صفعني، فقد كان هو المسؤول أو القَائِدُ، أَوْ الشَّيْطَانُ، لَا أَدْرِي:

(أَكُنْتَ تَهْتِفُ لِجَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ وَالقَذَّافِي؟)

فَقُلْتُ لَهُ، وَأَنَا أُخَفِّفُ وَقْعَ الحَقِيقَةِ:

عَبْدُ النَّاصِرِ قَدْ مَاتَ مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، وَأَنَا لَا عِلَاقَةَ لِي بِهِ، وَلَا بِالقَذَّافِي...

فَقَطَعَنِي بِشَتِيمَةٍ قَصَدَ فِيهَا أُمِّي... فَقُلْتُ لَهُ، وَالغَضَبُ يَحْمِلُنِي:

كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا أُمِّي! لَا عَلَاقَةَ لَهَا إِلَّا بِالطَّهَارَةِ وَالعِفَّةِ...!

وَهُنَا... اِشْتَدَّ غَضَبُهُ، وَأَشَارَ لِلْحَارِسِ، فَأَخْرَجَنِي مِنْ بَابٍ آخَرَ، إِلَى سَيَّارَةٍ مُصَفَّحَةٍ، كَانَ زُمَلَائِي فِي دَاخِلِهَا."

قَطَعَ نَفَسَهُ قَطْعَ مَنِ ٱنْفَجَرَ بِهِ الصَّبْرُ، وَقَالَ:

" وَمَا إِنْ ٱنْتَهَى التَّحْقِيقُ الأَوَّلِيُّ، حَتَّى ٱنْطَلَقَتْ بِنَا تلك النَّاقِلَةُ كَمَا لو كانت تَجُرُّ الرِّيحُ أَجْسَامَ الْهَشِيمِ، تَمِيلُ بِنَا يَمِينًا وَيَسَارًا، لَا تَلْتَفِتُ لِطَرِيقٍ، وَلَا تَأْبَهُ بِحُفْرَةٍ، حَتَّى تَسَاقَطْنَا بَعْضُنَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَٱصْطَدَمَتْ رُؤُوسُنَا بِسَقْفِهَا، فَكَادَتْ وُجُوهُنَا أَنْ تَتَشَوَّهَ، وَأَجْسَامُنَا أَنْ تَنْفَصِلَ عَنَّا..."

تَصَاعَدَ صَوْتُهُ ثُمَّ هَبَطَ:

" وَقُبَيْلَ الغُرُوبِ... وَصَلْنَا. وصلت بنا الناقلة أخيراً إلى مدخل يؤدي إلى مقبرة وفي نهايته فتح الباب الخلفي وأُنزلنا منها إلى باب ضخم ومرتفع من الحجر والحديد يشبه إلى حد كبير باب قلعة ضخم، وجدران حجرية عالية تعلوها أسلاك شائكة، كان الاستقبال حافلاً بما لديهم من إمكانيات، جسمية وخلقية، وكأن ثيراناً هائجة في حلبة صراع اسبانية، ترتقب وصول ضحاياها لتشتفي، وتنتقم لنفسها من جميع من كان قد سبب لها هزائم في الماضي البعيد أو القريب، أو وقف أمامها متحدياً.

وصَلْنا، أخيرًا، إلى مَمَرٍّ ضيّقٍ يُفْضي إلى بابٍ حديديٍّ عالٍ، بدا لي كأنَّه نهايةُ دربٍ لا مَخْرَجَ منه. كنتُ حينها قد أيقنتُ، في قرارَةِ نفسي، أنّ ما كنتُ أعدُّه عبورًا مؤقّتًا، قد انقلب إلى إقامةٍ مجهولةِ الأمد، ومجهولةِ المصير.

نظرتُ نحو الباب، فتنهّدتُ دون أن أُدركَ ذلك، كأنّني أُسلِمُ ذاتي لما وراءَه، بلا قيدٍ من أملٍ أو اعتراض.

سألَتْ منى، بصوتٍ خافتٍ، متردِّدٍ:
" يعني... كنتَ تعرف إنّك ستبقى هُناك؟"

فأجابها بنظرةٍ مواربة:
" كأنَّ الحيطان قالت لي: انتبه! سيكون لك هنا سيرة طويلة"...

وأُدْخِلْتُ إلى أوَّلِ غُرفةٍ بعد الباب إلى جهة اليمين. كان الممرُّ طويلاً، والغُرَفُ تمتدُّ على جانبيه، كأنّها قُبورٌ من حجرٍ باردٍ، نُقِشَت بعُجالةٍ في قلبِ ليلٍ أبكم.

كانت الغُرفةُ بطولِ جسدي تقريبًا، وأنا مُستلقٍ على الأرضِ، وعرضُها نصفُ ذلك. أربعةُ جدرانٍ، وسقفٌ ثقيلٌ، ونافذةٌ صغيرةٌ مستديرةٌ، عالِقةٌ كعينِ ثُقبٍ في الجدار المقابل للباب، تدخلُ منها خيوطٌ هزيلةٌ من الضوء، وشيء من الهواء، وهمساتٌ موجعةٌ من أصواتٍ لا أُميِّزها، لكنّي أعلمُ جيّدًا أنّها لأناسٍ يُعذَّبون تحتَ ذاك النور الباهت.

همَسَ والدُ منى، وقد قطّب جبينه:

" **معقول! الغُرف بهذا الحجم؟! مستحيل، هذه ليست غرف، هذه توابيت"!**

أومأ نعمان برأسه، وتنهّد:

" **لكنها توابيت لا صمت فيها، فيها شيء أبطأ منّ الموت بكثير"...**

تحتَ النافذة، كان المرحاضُ الأرضيُّ يئنُّ من قذارته، ورائحتُه تخنقُ حتى الهواءَ الشحيحَ الداخل من الثُّقب العلويّ. بجانبهِ حنفيةٌ نحاسيّةٌ، تقطرُ الماءَ قطرةً قطرة، لا تكفّ، ولا تكفي. إلى الجانب الموازي، مصطبةٌ إسمنتيّةٌ ترتفعُ عن الأرضِ بنحو أربعين سنتيمترًا، لا تصلحُ لجلوسٍ ولا نوم، لكنّها... كانت موجودة، فحسب.

مضت دقائقُ بلا صوتٍ سوى تنفُّسي، حين فُتح البابُ فجأةً. نافذتُه الصغيرة انفتحت أولًا، ثمّ لُوحَتُه الخارجيّة، وظهر وجهُ الحارس، دون ملامح، يحملُ بيديه بطّانيتين عسكريّتين رقيقتين، قال وهو يناولني إيّاهما:

" **وَاحْدِه فِرَاش، والتَّانْيِه غَطَا".**

سألتُه وأنا أضعهما بجانبي:

" **والمِخَدّة؟"**

ردّ بجمودٍ:

" **تَدَبَّر أمورك... ولا تسأل مرّة ثانية".**

كان قلبي قد أضناهُ الجوع، وفمي قد جفّ من الصيام وأكثر من الصيام ما حل بي، فقلتُ له برجاءٍ متماسك:

" **"أنا صائم وقد حان منذ لحظات موعد الافطار، هل يمكنك من فضلك أن تحضر لي رغيف خبز وكأس ماء كي أفطر"، أجاب: "سأخبر المعلم"**

نظر إليّ لحظة، ثم قال:

" **سأخَبِّر المُعَلِّم".**

فابتسمتُ، ابتسامةَ مَن لا يملكُ شيئًا إلا تهذيبه، وقلتُ له:

" **شكراُ، وأرجو أن تبلغه تحياتي وشكري الخاص لحضرته... مسبقًا".**

ضحكت منى ضحكةً صغيرة، ممزوجةً بدهشةٍ ونقمة، ثم سألت:

" **وكنّت فعلًا تتوقّع أن يحضر لك خبزاً؟"**

فقال نعمان، بنبرةٍ تحملُ الطُّرفة والسُّخرية معًا:

" **ما كنتُ أتوقّع شيئاً... لكن الكلمة الطيّبة، مثل الماء... يجب أن تبقى تسقّي الحجر".**

وتابع نُعمان، ناظرًا في البعيد كأنّه يستحضر ظلَّ تلك اللحظات:

" مَضَتْ دَقائِقُ ثَقيلَةٌ بَعدَ مُغادَرَةِ الحارِس، كأنَّها سُوَيعاتٌ تُنْزِلُ ثِقَلَها على صَدري. لم يَأتِ أَحد، ولم يَصِلْني شَيء. الضوءُ الشاحِبُ الّذي كان يَتَسَرَّبُ مِنَ الفُتحَةِ العُليا في الجِدارِ أَخَذَ يَتَلاشَى شيئًا فشيئًا، غيرَ أنّ الأصْواتَ من الغُرَفِ المُجاوِرَةِ لم تَغِبْ؛ أنينٌ، صُراخٌ، وضَرَباتٌ تُشْبِهُ وَقْعَ المَطارِقِ على اللَّحمِ الحَيّ".

أسند ظهره إلى المقعد، تنهد، ثم قال:

" حينَ بدأْتُ أُهَيِّئُ نَفْسي للنَّوْم أو بالأحرى لِلتَّكَوُّرِ على ذاتي بَسَطتُ إحْدى البَطّانِيّتَيْنِ على الأرضِ كفِراش، وأطْوَيْتُ الأُخْرى لأَجْعَلَها مِخَدَّة. وفيما كنتُ أَغْمِضُ عينَيّ، عادَ الحارِس، فَفَتَح نافِذَةَ البابِ الحديديِّ، وقال بصوتٍ جافٍّ كَصَفْعَة: (اِنْزَعْ عَنْكَ ثِيابَكَ وَانْتَظِر!)".

قاطعَتْهُ مُنى، وقد اتّسعتْ عيناها بدهشةٍ مشوبةٍ بغصّة:

" ثيابُكَ؟! ولماذا؟"

ابتسمَ نُعمانُ ابتسامةً باهِتةً وقال:

" في تلك اللحظة لم أسأل، لم أَكُنْ أَجْرُؤ على السُّؤال. نَزَعْتُ عنّي سُترَتي المَدْرَسِيّة، وبَقِيتُ واقِفًا أَنتَظِر. بعد قَليل، عَادَ الحارِسُ، ونَظَرَ إلَيَّ مِنَ الفُتحَةِ مِن جَديد، وقال: (اِنْزَعْ كُلَّ شَيْء، وَابْقَ بِالشُّورْتِ فَقَط)".

تنفّس والد منى بصوتٍ مسموعٍ، وقال بقلق:

" وهل أطَعْتَه؟"

أجابه نُعمان، وعيناه ثابتتان في الفراغ:

" فَعَلْتُ، وبَقِيتُ واقِفًا في الزّاوِيَة، أَرْتَعِشُ مِنَ البَرْد، أَنتَظِرُهُ أَنْ يَعُود. لَكِنَّهُ لم يَعُد. طالَ وُقوفِي، وأَحَسَسْتُ أَنَّ قِوايَ تَخُورُ مِنَ الجُوعِ والعَطَش. فَاقْتَرَبْتُ مِن حَنَفِيَّةِ الماءِ المُثَبَّتَةِ فِي الجِدار، حاوَلْتُ أَنْ أُنَظِّفَها بِيَدَيَّ، وجَمَعْتُ مِن نُقَطِها القَليلَةِ قَدرَ ما أَسْتَطِيعُ لِأَرتَشِفَ بَعْضَ القَطَرات، وَأَتَوَضَّأَ لِلصَّلاة".

رفعت مُنى حاجبها وسألت:

" وهل كنتَ ما تزال صائمًا؟"!

أومأ برأسه وقال:

" نَعَم، ... لم أَكُنْ أَعرِفُ اتِّجاهَ القِبْلَة، فَصَلَّيْتُ واقِفًا وَجْهِي حيثُ كنتُ. جَمَعْتُ المَغْرِبَ وَالعِشَاءَ، وَبَعْدَما أَنْهَيْتُ، فُتِحَ البَابُ مِن جَديد، وَإِذْ بِالحَارِسِ يَدْخُلُ ويَجُرُّني خَلْفَهُ، مُمْسِكًا بِي مِن شَعْرِي، كأنّي لَستُ إلاّ جُرْذًا عَلِقَ فِي جُحْرِه".

سادَ الصمتُ بين الثلاثة، كأنّ شيئًا ثقيلًا سقط على صدر الجلسة... ثم تمتم والد مُنى بصوتٍ خافت:

" يا بُنَيّ، لَيْسَ لِهَذَا الوَطَنِ أن يُعامِلَ أبناءَه هكَذا"...

هزّ نُعمان رأسه وقال:

" بَعضُ الأوطانِ، يا عَمّي، تَفْتَرِسُ أبناءَها حينَ تَخافُ مِن أَحْلامِهِم".

تابع نُعمان، وصوتُه يأخذ نبرةً متأنّيةً كأنَّه يَسردُ حلمًا غريبًا لم يفقْ منه بعد:

" أَدْخَلَني الحارِسُ إلى غُرْفَةٍ تُشْبِهُ مَكْتَبَ أَحَدِ المَسؤولين، أنيقَةُ الترتيبِ وَمُضيئَةٌ بنُورٍ خافتٍ لا يَبعَثُ الطُّمَأنينَةَ. كان هناكَ رَجُلٌ يَقِفُ عِندَ البابِ مِنَ الخارِجِ، وَثَلاثَةُ رِجالٍ آخَرونَ داخِلَ الغُرفَةِ، تَوَزَّعوا بِهُدوءٍ فِي الزَّوايا، كَأَنَّهُم جُزءٌ مِن الأثاثِ أو الظِّلال."

صمت لحظة، ثم أضاف وهو يستعيد تفاصيل المكان:

" وعلى مَسافةِ مِتْرَيْنِ أَوْ يَزِيدُ مِن طاوِلَةِ المَكْتَبِ، كانَ يَجلِسُ رَجُلٌ فِي الخمسينَ مِن عمرهِ، شَعْرُهُ خَفيفٌ، تَتَزاحَمُ فِيهِ خُصَلُ الشَّيبِ مَعَ شُقْرَةٍ فاتِحَةٍ كَأنَّهَا نَسِيَتْ أن تَشِيب. قامَ عَن كُرْسِيِّهِ، وَبِوَجْهٍ باسِمٍ تَقَرَّبَ مِنِّي قائلاً: (أَهْلًا بِكَ سَيِّدَ نُعمان! هذَا هُوَ اسْمُكَ، عَلَى مَا قَرَأْتُ...)"

تلفّتت منى نحو والدها وهمست:

" يبدو لطيفًا لأول وهلة... هل تراه كان فعلاً كذلك؟"

ابتسم نُعمان ابتسامةً عابرةً وقال:

" اللُّطْفُ فِي مِثلِ هذِهِ الأَماكِنِ مَكِيدَةٌ ناعِمَة..."

ثم تابع بصوتٍ منخفضٍ:

" قَلَبَ بَعْضَ الأوراقِ أَمَامَهُ، وَقَالَ: (نُعمان البربري. طَالِبٌ ثَانَوِيٌّ، مُثَقَّفٌ، مُتَدَيِّنٌ وَمُلتَزِمٌ دِينِيًّا)."

ثم نظر إليّ وسأل:

" (هَل صَحِيحَةٌ هَذِهِ المَعلُومَات؟)"

أجبته بهدوء:

" نَعَم، صَحِيحَة."

قال، وهو يرفع حاجبًا واحدًا:

" (كَيْفَ تَجتَمِعُ الثَّقافَةُ وَالتَّدَيُّنُ فِي آنٍ وَاحِدٍ، فِي شَابٍّ بِمِثْلِ سِنِّكَ؟)"

أجبته:

" كَثِيرُونَ قَرَأْتُ عَنْهُمْ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنِّي تَدَيُّنًا وَثَقَافَةً."

قال، مُستفهمًا:

" (مِثْلَ مَن؟)"

أخذت نَفَسًا قصيرًا، وبدأت أسرد:

" مُحَمَّد الفاتِح، السُّلطانُ العُثماني، تَولَّى الحُكْمَ وعُمُرُهُ نَحْوَ تِسْعَةَ عَشَرَ عامًا، حافِظٌ لِلقُرآن، مُلِمٌّ بِالفِقْهِ، يُجِيدُ عِدَّةَ لُغَات، وَفَتَحَ القُسْطَنطينيَّةَ وَهُوَ فِي شَبَابِهِ.

ابْنُ النَّفِيس، مُكْتَشِفُ الدَّوْرَةِ الدَّموِيَّةِ الصُّغْرَى، فَقِيهٌ شَافِعِيٌّ وَطَبِيبٌ نَابِغ، جَمَعَ بَيْنَ العِلْمِ وَالدِّينِ وَالفَلْسَفَةِ.

جُون هِنْرِي نِيومَان، مِن بريطانيا، قَسِيسٌ، ثُمَّ كَارْدِينال، وَمُفَكِّرٌ دِينِيٌّ، عَمِيقُ الإِيمَانِ، دَقِيقُ الفِكرِ.

وَديتْرِيش بُونْهُوفَر، اللَّاهُوتِيّ الألماني، انتَقَدَ النَّازِيَّةَ وَهُوَ فِي العِشْرِينَات، وَدَفَعَ حَيَاتَهُ ثَمَنًا لِمَوْقِفِهِ."

بدت الدهشة واضحة على وجه والد منى، ثم قال:

" أحقًا قرأتَ لهؤلاء؟"

أجبته بهدوء:

" نَعم، قَرَأْتُ."

قال الرجل مستغربًا:

" (مَتَى وَكَيفَ استَطَعْتَ فَهْمَهُمْ؟ وَأَنْتَ لَمْ تَزَلْ صَغِيرًا، وَتَعْمَلُ فِي الصَّيْفِ لِتُنْفِقَ عَلَى دِرَاسَتِكَ؟)"

قلت دون إطالة:

" إِنَّهَا هِوايَتِي المُفَضَّلَة."

قال الرجل:

" (وَمَا أَهَمُّ المَوَاضِيعِ الَّتِي قَرَأْتَ فِيهَا؟)"

أجبته :

" لَيسَ لَدَيَّ مَجَالٌ مُحَدَّدٌ، فَأَنَا أَقْرَأُ كُلَّ مَا يَقَعُ تَحتَ يَدِي."

قال الرجل، محاولًا الاستيضاح:

" (مِثَالًا؟)"

قلت:

" أَبْدَأُ بِمَا يُسَاعِدُنِي فِي فَهْمِ دُرُوسِي، ثُمَّ أَتَوَسَّعُ... فِي العُلُومِ، وَاللُّغَةِ، وَالأَدَبِ، وَالفِكْرِ، وَالفَلْسَفَةِ، وَالدِّينِ... كُلُّ مَا يُشْبِعُ نَهَمِي."

قال الرجل:

" (وَهَل تَحْفَظُ مَا تَقْرَأُ؟ أَمْ تَنْسَاهُ؟)"

أجبت:

" أُلَخِّصُ كُلَّ مَا أَقْرَأُهُ، حَتَّى إِذَا نَسِيتُ، عُدْتُ إِلَى المُلَخَّصَات."

ضحك الرجل ضحكةً قصيرةً ثم قال:

" (فَأَنَا إِذًا أَمَامَ عَالِمٍ صَغِير!)"

قلت بِتواضُع:

" مَعَاذَ اللهِ... إِنْ أَنَا إِلَّا مُتَعَلِّمٌ صَغِير."

قال المسؤول أخيرًا:

" (هَل لَدَيْكَ حَاجَةٌ قَبْلَ أَنْ نَدْخُلَ فِي مَوْضُوعِ التَّحْقِيق؟)"

قلت:

" يَا سَيِّدِي، كُنْتُ صَائِمًا طُولَ اليَوْم، وَهَذَا الفَجْرُ سَيَحِينُ بَعْدَ قَلِيل. فَلَو تَفَضَّلْتَ بِقِطْعَةِ خُبْزٍ، وَكَأْسِ مَاء، وَسِيجَارَتَيْنِ قَبْلَ الإِمْسَاك."

فَنَادَى الرَّجُلُ عَلَى أَحَدِ حَرَسِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُحْضِرَ مَا طَلَبْتُهُ، وسيذْهَبُ لِيَنَامَ وَيرْتَاحَ، عَلَى أَنْ يُؤَجَّلَ التَّحْقِيقُ إِلَى مَا بَعْدَ الإِفْطَارِ فِي اليَوْمِ التَّالِي."

قال نُعمان، وقد غابت عيناهُ لحظةً كأنّما استرجعتا طيفَ تلك الليلة:

" في المساء، كنت قد أنهيت طعام فطوري المتواضع، قطعتا خبزٍ مع قطعة من الحلاوة الطحينية، و ماء، وسجارتان بدتا لي وكأنّهما آخر ما تبقّى لي من شعورٍ بشيء من حريةٍ خارج هذا الجدار."

هزّت منى رأسها ببطء وهمست:

" يبدو أنّهم لم يُسيئوا معاملتك في البداية، أليس كذلك؟"

قال نُعمان:

" بعض الأبواب لا تُغلق دفعةً واحدة يا منى... بل تُدار برفق، ثم تُوصَد عليك فجأة."

ثم تابع:

" دخل الرجلُ ذاته، وأخذني إلى غرفة التحقيق تلك التي غادرتها قبل الفجر بقليل نظرت إلى الرجل الجالس خلف طاولة المكتب، فإذا به وقد بدا عليه الإرهاق، إلا أنّه ما زال يحتفظ بابتسامته الهادئة، وجلس خلف الطاولة من جديد، بعد وقف للترحيب بي عند دخولي. قال لي بصوتٍ منخفض قريب من الهمس: (نبدأ الآن يا نعمان... لكن دعني أكون واضحًا معك، نحن نعرف عنك كل شيء، لكننا نريدك أن تتحدث أنت، فهذا يخفف عنك كثيراً مما يمكن أن يحل بك من تعذيب وضرب وإهانة. وأعدك بأن ما ستقوله بإرادتك سيغير مصيرك، الذي يلاقيه أغلب المعتقلين، وبما أنك مثقف ومتدين فإنك بذلك تعرف قيمة الصدق!).

نظرتُ إليه في صمت. لا رغبة في المجادلة، ولا قدرة على التجاهل.

قال وهو يفتح ملفًا أمامه: (نعمان، ما علاقتك بفلان بن فلان؟)

نظرتُ إلى الاسم... لم أعرفه.

قلت: (لا أعرفه يا سيدي).

نظر إليّ مطوّلًا، ثم حرّك قلمه على الورقة وقال: (طيب... من الذي مزق صورة السيد الرئيس وما علاقتك به؟)

قلت: (لم أر أحداً يمزق صورة السيد الرئيس، ولا أعرف عن ذلك شيئاً يا سيدي!).

توالت الأسئلة، بعضها عن أشخاص لم أسمع بهم، وبعضها عن كتبٍ كنت قد استعرتها من المكتبات المدرسية والعامة التي كنت أرتادها، أو وجدتها صدفةً في سوقٍ شعبيّ. بعضها عن تجمعاتٍ شبابيةٍ كنت أمرّ بها دون أن أعرف أسماء من فيها. كانت الأسئلة تلتف حولي مثل حبالٍ غير مرئية، ولعل أهم الكتب التي سئلت عنها كان كتاب ١٩٨٤"

قاطع والد منى حديثه، وقال بقلق:

" وهل كنتَ فعلًا بلا علاقة بكل ذلك؟ أم أنّ الأمر فيه شبهة على الأقل؟"

قال نُعمان بثقة:

" كنت أقرأ كثيرًا، نعم. وأناقش أحيانًا في بعض المحضرات، صحيح. لكن لا تنظيم، لا تحريض، لا انتماء. مجرد عقلٍ مفتوح... وهذا كان كافيًا ليجعلني موضع شكّ."

قالت منى، بعينين دامعتين:

" وهل استمر التحقيق طويلًا؟"

أومأ نُعمان برأسه، وقال:

" يومانِ بلا نوم. الأسئلة تُعاد وتُكرر بصيغٍ مختلفة. كلُّ إجابةٍ تُسجَّل، وكلُّ سكوتٍ يُحسب. وكلما التبس عليهم شيء، جاؤوا بمجلّداتٍ ودفاترٍ، كأنّهم ينبشون في داخلي، لا في أوراقهم."

ثم صمت قليلًا، قبل أن يضيف:

" وفي اليوم الثالث، قال لي المحقّق: (نعمان، لا فائدة من المراوغة. نحن نعرف أنّك على صلةٍ بمن نبحث عنهم، لكنّنا نريد أن نسمع منك).

قلت له:

(يا سيدي، ليس عندي ما أخفيه. وإن كان لديّ، فلماذا أخفي عنكم، أتجد أن فيّ رغبة أن أعاني في وجه هذا السجن).

ضحك، ثم قال:

(أنت عنيد إذًا... سنرى كم تصمد.)"

امتقع وجه منى، وقالت بصوتٍ يكاد لا يُسمع:

" هل ضربوك؟"

نظر إليها نُعمان مطولًا، ثم قال:

" كان الضرب أهون ما في الأمر، منى..."

وساد الصمت.

قال نُعمان، وقد غيَّم صوته شيءٌ من الحزن، كأنه يُخرِج الكلمات من قاعٍ بارد:

" في الليلةِ الثّالثة، كنتُ قد فقدتُ الإحساس بالوقت. لا نافذةَ تُخبرُني بالنهار، ولا صوتَ مؤذّنٍ يدلُّني على الفجر أو المغرب. الزنزانةُ ضيقةٌ، جدرانُها تُعيدُ إليّ أنفاسي وكأنّها تُذكّرني كلّ لحظةٍ بأنّي وحدي".

قال والدُ منى، مقاطعًا:

" وهل كنتَ تشعر بالخوف؟"

ابتسم نُعمان ابتسامةً باهتة، ثمّ قال:

" الخوفُ؟ الخوفُ كان يسكنني ولا يُفارقني، لكنّه لم يكن خوفًا من الضرب أو الصراخ... كان خوفًا من المجهول، من التلاشي، من أن تُنسى حكايتك في درجٍ صدئ".

أطرقت منى رأسها، وهمست:

" وكيف قضيتَ تلك الليلة؟"

قال نُعمان:

" تكوَّرتُ على نفسي فوق المصطبةِ الاسمنتية، وجعلتُ إحدى البطّانيتين وسادةً والأُخرى غطاءً خفيفًا لا يردُّ بردًا ولا يهبُّ دفئًا. الغرفة كانت تغصُّ بالصمت، لكنّ من خلف الجدار كانت تأتيني أصواتُ بكاءٍ مكتوم، أو صراخٍ مفاجئ، أو صوتِ سحبِ سلاسلَ على أرضٍ مبلّلة، كانت الرِّيحُ تصفِرُ في ممرٍّ بعيد، وأصواتُ تأوّهاتٍ مكتومةٍ تتردَّدُ كصدى من عالَمٍ آخر".

قاطعته منى، وقد التمعتْ عيناها:
" هل كان هناكَ أحدٌ غيرُك؟"

أجاب بصوتٍ واهن:

" لم أَرَ أحدًا، لكنَّ الأصواتَ تُحدِّثُكَ بما لا تُبصِرُه. كان ثمّة مَن يتألَّم، مَن يستغيث، مَن يَشهق... ومَن لا نَسمَعُهُ لأنّه سكتَ إلى الأبد".

سعلَ والدُ منى سُعالًا خفيفًا، كأنَّهُ يطردُ شيئًا علقَ في صدره، وقالَ بصوتٍ ثقيل:

" وهل بقيتَ وحدك تلكَ الليلة؟"

أومأ نُعمان برأسه، وقال:

" نعم... وحدي معَ رُعبٍ لا يُعلَن، ووَجهِ أمِّي الذي لم يُفارِقْني. تَكوَّرتُ على نَفسي، لا أعرفُ لِمَ لم أَبكِ. ربَّما لأنَّ شيئًا داخلي كان يُقاوِمُ الانكسار. حاولتُ أسترجِعُ بعضَ ما حفظتُ من القرآن، فخانني صوتي، ثمّ دعوتُ بدعاءِ أمي: (اللهمَّ الطفْ بنا، وكنْ لنا لا علينا.)

سكتَ لحظة، ثمّ تابع:

" وقبل منتصفِ الليل بقليل، فُتح الباب الحديديُّ فجأةً، وقفزَ قلبي إلى حلقي. دخل الحارسُ، أمسكَ برأسي من الخلف كما يُمسِك المرءُ بعنق زجاجة، وقال: (تَعالْ!)

لم أتكلّم. كنتُ أجرُّ خطواتي خلفه، قدمايَ شبه عاريتين على أرضٍ باردةٍ، والحائطُ يُمرُّ بنا كأنّه يُراقبنا بعينٍ واحدةٍ مغلقة".

همست منى، تمسكُ بكفّ والدها:

" أبي... لا يمكنني تخيّل ذلك... لِمَ؟ لِمَ يُعاملونَ إنسانًا هكذا؟"

قال نُعمان بهدوءٍ مرير:

" لأنَّ الخوفَ حينَ يسكنُ دولةً، يُصبِحُ كلُّ سؤالٍ جريمة، وكلُّ فضولٍ تهمة".

ثمّ نظر والدُ منى إليهما وتنهّد وقال بنبرةٍ غاضبة:

" كلّ هذا ولم يكن هناك أيّ تهمةٍ واضحة؟"

قال نُعمان:

" في تلك العوالم يا عمّ، لا يبدأ التحقيق بتهمة، بل يبدأُ بأمرٍ إداريّ، ويكبر شيئًا فشيئًا حتى يصير نفقًا لا مخرج له".

قالت منى:

" إلى أين أخذوك؟"

نظر إليها نُعمان وقال:

" إلى غرفةٍ خافتةِ الضوء، فيها طاولةٌ معدنية، وكُرسيّان. دخل رجلٌ جديد، لم أرَه من قبل، له لحيةٌ خفيفة وملامحُ باردة. جلسَ قبالتي، ثم قال بصوتٍ ساكنٍ كأنّه يتلو نشيدًا محفوظًا: (أنتَ هنا لأنّ فيك شيئًا لا يروقُ لنا... تُفكّر، وتقرأ، وتسأل. وهذا كثير.)

قلت له: (هل هذه جريمة؟)

ابتسم، وقال: (ليست جريمة... لكنها ليست مطلوبة. المطلوب أن تكونَ نسخةً من الآخرين. لا تُناقش، لا تُحلّل، لا تُضيء المصباح إن أُطفئ.)

سألته بهدوء: (وإن كنتُ أحبُّ الضوء؟)

أجاب وهو يقوم عن الكرسي: (ستتعلّم أن تحبّ الظلمة... أو تذوب فيها.)"

شهقت منى، وقالت:

" يا إلهي... كيف احتملتَ كلّ ذلك؟"

قال نُعمان:

" كنتُ أتمسّك بشيءٍ صغيرٍ داخلي... أُسمّيه الحُلم، أو ربما الإيمان، أو ذكرى وجهِ أُمّي... لا أعرف، لكنه كان نوري الوحيد".

وسكتَ فجأة.

قال والد منى، بصوتٍ حازم:

" أكمِل يا بنيّ، لا تتوقّف... الحكاية لا يَنبغي أن تُدفن في الصمت".

نظر نُعمان إليه، ثم إلى منى، وابتسم ابتسامةً شاحبة:

" سأكمل... لكن ليس الآن فقد حان وقت الغداء. فبعضُ الوجع يحتاجُ لالتقاطِ نفس، وبعضُ الظّلام لا يُروى دفعةً واحدة".

وأردفت منى:

"إني لن أطيق الطعام، وأنا أتخيلك في مشهد كهذا، خذ كأس الماء هذا وتابع"

ارتشف نعمان شيئاً من الماء وتابع:

"حين اقتادوني مجدّدًا من الزنزانة، شعرتُ أنني أُسلِمُ نفسي لليلٍ لا ينتهي. خطواتي كانت ثقيلة، ورجلاي بالكاد تحملانني. الباب الحديدي فتح على ملامحٍ أعرفها الآن جيدًا، ذلك المحقِّق الهادئ، الباسم دومًا، الذي التقيتُه فجر الليلة الأولى.

ابتسم لي، وأشار إلى كرسيٍّ أمام مكتبه:

– "تفضّل، سيّد نُعمان."

جلست، لكن عينيّ لم تجلسا. راحتا تتنقّلان في المكان ذاته، كأن الزمن لم يتحرّك منذ تلك الليلة. رجالٌ في الخلفية، واقفون كتماثيل لا تتنفس. صورة كبيرة لرئيس الجمهورية تراقبنا من فوق رأسه، تفيض صمتًا. أدوات تعذيبٍ موزعة على الجدران: كرباجٌ، أسلاك، عصيّ خشبية، وجهاز معدني لا يُخطئ العين هدفه. لا شيء جديد... إلا بردٌ أشدّ يسري في العظم.

قال وهو يزيح ورقة عن طاولته:

– "أنظر يا سيّد نُعمان... لقد سعيتُ شخصيًّا لأن أكون من يتولّى التحقيق معك. لا أريد أن تقع بين يدي محققين لا يعرفون كيف يكلّمون شابًا مثقفًا وواعيًا مثلك. أنت لا تُضرب، لا تُهان... هكذا رأيتُك، وهكذا أريد أن أحاورك."

ثم أردف، وهو ينهض واقفًا ويشير لي أن أتبعه:

– "قبل أن نبدأ... تعالَ، سأصطحبك في جولة صغيرة، نعود بعدها لنكمل حديثنا... كأصدقاء، لا كمعتقل ومحقّق."

نظرتُ إليه، ولم أُجب. فقط نهضتُ.

منى همست:

– "جولة؟ في المعتقل؟"

والدها عقد حاجبيه، كأنّه تَنبَّه لشيء:

– "هذه ليست نزهة، بل تمهيدٌ لرسالةٍ مغلّفة بالتهديد."

تابع نعمان:

"صعدنا درَجًا ضيّقًا، وكان خلفنا اثنان من رجاله، شديدا البنية، لا تفارق أيديهما المربوطة وراء الظهر حافة السلاح. وصلنا إلى سطح المعتقل، ففتح ذراعيه كمن يُعرّف بصومعة مقدّسة وقال:

– "أترى؟ نحن هنا... في قلب مقبرة لا يسمع فيها أحد، سوى الأموات."

نظرتُ إلى امتداد الظلام. جدران شاهقة، وصمتٌ يزنُ كتلًا من الحديد. كان الهواء باردًا، لكنه لم يكن نقيًّا... كأنّه هو الآخر معتقل هنا.

ثم عاد بي إلى الطابق السفلي، مرورًا بممرٍّ تكلّمَت فيه الرطوبة من الجدران. توقف عند آلةٍ ضخمة إلى جانب الحائط، أشار إليها وهمس:

– "انظر جيدًا... هذه ليست سوى أداة، تضغط الجسد حتى لا يبقى منه شيء. نستخدمها حين نيأس من الاعتراف. كل شيء يتسرّب بعدها إلى مصبٍّ مائيٍّ في الأسفل... حيث لا يبقى لك اسم، ولا رائحة."

منى شهقت، وارتعشت يدها في حضنها.

– "هذا... لا يُصدّق."

قال والدها بنبرة متماسكة:

– "بل يُصدَّق، يا منى... هذه آلة النظام، لا القلب."

ثم استدار إليّ، كأنّه أراد أن يُنهي العرض قائلاً:

– "من يدخل إلى هنا، يخرج من كلّ شيء... حتى من الذاكرة. وإن سأل أحدٌ عنه، قلنا: لم يمرّ من هنا يومًا، ولا نعرفه. الأصوات التي سمعتَها قبل قليل؟ أولئك ما زالوا يُراهنون على الإنكار."

ثم أمسك بكتفي برفق، وأعادني إلى مكتبه. أمر رجاله بالخروج، وأغلق الباب بنفسه. خفت صوته، ومال نحوي قائلًا:

– "سيّد نُعمان، أرجوك... لا تفكّر في نفسك الآن وكأنّك في معتقل الشيخ حسن، لا تجعل المكان يخيفك."

سكت لحظة، ثم تابع:

– "أريد حوارًا بيننا كأصدقاء... لا أكثر. أتحبّذ الفكرة؟"

نظرتُ في عينيه، ورأيت قناعًا يُصغي لقناعٍ آخر. قلت له:

– "نعم... أنا على استعداد للحوار، بكل ما أملك من صدقٍ وصراحة. متى أحببتَ، نبدأ."

منى رفعت عينيها إلى والدها وهمست:

– "لكن... هل يمكن فعلاً أن يكون حوار؟ أم أنّه فصلٌ آخر من لعبة؟"

أجابها بهدوء:

– "أحيانًا يا منى... الحوار في المعتقل، يكون أداة أخرى للتعذيب... لكنها أكثر نعومة."

وأخذ نعمان يتابع بهدوء وتردد:

"جلس قبالتي، ووضع يده اليمنى فوق الطاولة، ثم قال بهدوءٍ كأنّه يحدّث صديقًا قادمًا من سفر:

– "أنت شابٌّ ذكي يا نُعمان، قرأتُ ملفّك، وأعجبتني ملاحظاتُك المدونة بخط اليد في هوامش الكتب التي صودرَت من غرفتك. فلقد أرسلت رجالي وفتشوا البت الذي تسكنه كاملاً، لكنهم لم يحضروا لي إلا دفاتر ملخصاتك، أليس هذا خطك؟" وعرض أمامي واحداً من هذه المجموعة الخاصة بي، فأومأت بنعم، وتابع: "لديك عقل يُفكّر، وروحٌ تُحاور، ولهذا أنا هنا لأستمع، لا لأُملِي."

صَمَتَ، كمن ينتظرُ أن يلتقطَ منِّي خيطًا للكلام، لكنِّي آثرتُ الترقُّب.

قال وهو يفتح دُرجًا صغيرًا في مكتبه، ويُخرج منه دفترًا ذا غلافٍ باهت:

– "لِمَ كتبتَ هذه الملاحظة على تلخيصِكَ لكتاب *العقيدة والسياسة*؟"

توقّف لحظة، ثم قرأ بصوتٍ أقرب للهمس:

– *"الخطرُ حينَ تتحوَّلُ العقيدةُ إلى أداةٍ بيدِ السُّلطة، وتتحوَّلُ السُّلطةُ إلى قُدسٍ لا يُسائلها أحد."*

نظرتُ إليه بثباتٍ، وقلتُ دونَ تردُّد:

– "لأنِّي رأيتُ ذلك... في كُتُبِ التاريخ، وفي واقعِنا.

جون ستيوارت ميل كتب في مؤلَّفه *حول الحُرِّيَّة* عام ١٨٥٩ أنّ الخطر يبدأُ حين تُصبحُ السُّلطةُ السياسيَّةُ مُقدَّسة، لا تُنتَقَد، سواء باسم الدِّين أو باسم الوطنيَّة.

وكان ممّا قاله: إنَّ الحريَّة لا تقومُ بغيرِ مساءلةٍ، ولا تُحمى بغيرِ عقلٍ يُقاومُ القداسة الزائفة."

ابتسم المحققُ ابتسامةً صغيرة، وألقى نظرةً على الورقة أمامه، ثم قال:

– "قلتَ إنّكَ تُفضِّلُ الحوار... فدعنا نتحاور."

أمالتْ منى رأسها نحو والدها، وهمست بصوتٍ خافت:

– "يا أبي، كأنَّه يُحاوِلُ كسبَه بطريقةٍ مختلفة... ألا يبدو كذلك؟"

ردَّ والدُها بتنهيدةٍ مُثقَلة:

– "هو يُغريه بالكلمات... قبل أن يُقيِّده بالاعتراف."

تابع نعمان:

"شبكَ المحقّقُ أصابعَه، ثم سأل:

– "ما رأيُكَ بالذين يُنكرون كلَّ شيء، ويظنُّونَ أنَّ الصَّمتَ يحميهم؟"

قلتُ بهدوءٍ مدروس:

– "ربَّما لأنَّهم فقدوا الثقة... بعد أن رأَوا مَنِ اعتَرفَ ولم يُنْجِه اعترافُه."

نظر إليَّ نظرةً مطوَّلة، وسأل:

– "وأنت... هل ستسلكُ دربَهم؟"

أجبتُ بصوتٍ متزن:

– "لم أفعَلْ ما أُتَّهَمُ به، ولا أَخجلُ ممَّا فَعَلتُ.

لكنِّي لا أظنُّ أنَّ الاعترافَ في هذا المكانِ يصنعُ عدالة، ولا أنَّ الإنكارَ يُنقِذ."

ابتسم، وكأنَّه وجدَ ما كان يبحثُ عنه. ثم نهضَ ببطءٍ، واتَّجه نحو نافذةٍ صغيرةٍ لا تُفتَح، وقال وهو يُديرُ ظهره لي:

– "هل تؤمنُ بأنَّ الحُلمَ يُمكنُ أن يُقتَل؟"

أجبته، وعيناي على ضوءِ المصباحِ المتدلِّي:

– "لا... لكنَّه قد يُنفى، يُجوَّع، يُسجَن... وقد يُدفنُ مؤقَّتًا.

لكنّه لا يموت."

استدار فجأةً، وقال:

– "حسنًا... فلنَجعل هذه الليلةَ بدايةَ الحُلم، لا نهايتَه."

كانت منى تُتابع الكلمات وكأنَّها تُنصتُ إلى لُغزٍ قديم. همست ببطء:

– "إنَّه يعرِض صفقة... أم أنا أتوهم؟"

أجاب والدها وهو يراقب ارتجافَ نبرتها:

– "ربّما.

لكنّه، على الأغلب، يُهيّئُ الأرض لانتزاعِ ما يُريد... ببراعةِ الممثِّل، لا صِدقِ الصَّديق."

تابع نعمان:

" جلسَ المحقّقُ من جديد، وأسندَ ظهرَه إلى الكرسيّ، ثم رمقَني بنظرةٍ طويلةٍ كأنَّه يُقوّم وزنَ كلماتي. قال بصوتٍ خفيضٍ مائلٍ إلى الوُدّ:

– "لو كنتُ مكانك... لاغتنمتُ الفرصة. نحن لا نبيعُ وَهْمًا، لكننا نمنحُ خيارات."

أجبته بهدوءٍ مريبٍ كان يخرج من أعمق توجُّسٍ في صدري:

– "وأنا هنا... لا أطلبُ نجاةً بأيّ ثمن، لكنَّني مستعدٌّ للحوار، كما قلتَ أنت، بشرط أن يكونَ حوارًا... لا استدراجًا."

ضحك بخفّة، ضحكةً قصيرةً كمن أُخذَ على حين غِرّة، ثم أخفاها خلف قناع المرونة، وقال:

– "تُحبّ أن تبدو قويًّا... حسنٌ، دعني أُريكَ كيف تُحترمُ القوّة حين تكونُ في محلِّها."

فتح أحد الأدراج، وأخرج منه صورةً صغيرةً، مطبوعةً بالأبيض والأسود، ثم انحنى نحوي، ورفعها أمام عينيّ.

رجلٌ شاب... وجهه مُزرقٌّ، تغطّيه كدماتٌ غليظة. لم تكن الصورة واضحة تمامًا، لكنّ ملامحه لم تكن لتخفى عليّ.

جفلتُ... ثم تماسكت.

قال بصوتٍ خفيض، كمن يُقدّم برهانًا قاطعًا:

– "تعرفه، أليس كذلك؟"

لم أجب، لكنّ صمتي نطقَ بما لم تنطقْ به شفتاي.

تابع، وهو يراقب وجهي عن كثب:

– "هو الآن بخير... إن تعاونتَ."

قلتُ بجمودٍ بارد:

– "ألا ترانا عدنا للابتزاز؟"

ابتسم، كأنّ شيئًا لم يكن، وقال بنبرةٍ متلوّنة:

– "بل نُمارسُ فنَّ الوقاية، يا نعمان."

سكتَ لحظة، ثم أخرج ورقةً بيضاء، وعدّل جلسته، وقال:

– "سنبدأ من جديد. أجبني على أسئلتي بصراحة، ودون لفٍّ أو مراوغة. ولن يُضايقكَ أحد."

نظرتُ إليه نظرةً لا رجاءَ فيها ولا خوف، وقلت:

– "سَلْ ما شئت."

كانت منى تمسح دمعةً تشكّلت في طرف عينها، وهمست:

– "يا أبي... إنّه لا يستجوبُ فقط، إنّه يُمارس لعبةَ القلوب."

ردّ والدها، وهو يُمسكُ بيدها المرتجفة:

– "نعم... هذه ليست جلسةَ تحقيق، هذه جلسةُ تهشيمٍ بطيء، حتى ينتزعَ ما يُريد... وهو يبتسم."

قال نعمان:

" سألني المحقّق بنبرةٍ شبه رسميّة:

– "هل كنتَ تنتمي إلى أيّ تنظيمٍ سِرّي؟"

– "لا."

– "هل اجتمعتَ بأشخاصٍ مشبوهين؟"

– "اجتمعتُ بزملاءِ دراسة، ببائعي كُتبٍ في مكتباتٍ مرموقة، أو على الأرصفة، بمديري مكتباتٍ عامّة، بأستاذِ أدبٍ ألقى محاضرة...

وأهمّ من كلّ أولئك: بأمّي.

أمّي التي غرستْ في داخلي حبَّ القراءة، وكانت تنتظرُني كلَّ ليلةٍ، لا تنام حتّى أعود."

– "هل كتبتَ منشوراتٍ سياسيّة؟"

– "كتبتُ خواطر، وبعضَ ما أسميه شعرًا، وملخّصاتٍ كنتُ جمعتُها من هوامشِ الكُتبِ التي قرأتُها... لم تُطبع، ولم تُوزّع. وهي الآن بين أيديكم."

– "هل تعتقدُ أنَّ النظامَ فاسد؟"

نظرتُ إليه مليًّا، وقلت:

– "أؤمنُ أنَّ كلّ نظامٍ لا يُحاسَب... يُنتِجُ فسادًا، ولو بدأ بأنبياء."

صمتَ المحقّقُ للحظة، ثم نهض واقفًا، يتمتمُ كمن يخاطب نفسَه:

– "ربما أنتَ أخطر ممّا كنتُ أظن..."

ثم التفت إليّ، وقال بنبرةٍ مشوبةٍ بالغموض:

– "غدًا نُكمِل... وسأجعل من حوارنا شيئًا لا يُنسى."

صفّق بيدٍ واحدة، فدخل رجلٌ بثيابٍ رماديّة باهتة، لا يحملُ سلاحًا، ولا يبدو عليه الغضب، لكن في عينيه ذلك الجمودُ الذي يَبعث على القشعريرة.

قال المحقّق بلهجةٍ وادعةٍ:

– "خُذ السيّد نعمان إلى زنزانتِه... ليأخذ قسطًا من الراحة. فغدًا يومٌ جديد."

نهضتُ عن الكرسيّ كمن فقدَ الشعورَ بثقل جسده. كانت خطواتي تتثاقل، لا من الإرهاقِ فقط، بل من ثِقَلِ الصورةِ التي لم تغادر جفوني... ومن الذي لم يُقَل، ممّا هو آتٍ.

في الممرّ السفلي، أصدرت المصابيحُ أزيزًا متقطّعًا، كأنّها تساقطُ الضوءَ قَطرةً قَطرة، على أجسادٍ تمضي بلا أسماء.

فتح الحارسُ بابَ الزنزانة، وأشار إليّ بالدخول.

قال بصوتٍ رتيبٍ، كأنَّه يُردّد تعليماتٍ بلا روح:

– "نَمْ الآن... فالكوابيسُ تنتظرُ مَن يستيقظ."

ثم أغلق الباب.

تكوّرتُ على نفسي، لا لأنّ المكانَ ضيّق، بل لأنَّ الروحَ ضاقتْ بما فيها.

البطّانيّةُ التي وُضِعتْ بجانبي لم تعُد بطّانيّة... بل جلدَ صمتٍ ثقيل، يفصلني عن العالم.

لم أستطع النوم، فتمددت على ظهري فوق المصطبة البيتوتية.

كان الجدارُ يُعيدُ صدى كلماتِه:

– "نُمارس فنّ الوقاية، يا نعمان..."

همست منى، تغالب ارتجافَ شَفَتيها:

– "هل يمكن لإنسانٍ أن ينام بعد هذا؟"

أجاب والدها وهو يضع كفَّه على يدها:

– "لا... النوم هنا موتٌ مؤقّت. لا يرتاح فيه الجسد، ولا يسكن فيه العقل."

ثم أضاف، بعد لحظة صمت:

– "لكنَّ نعمان... يُنبت من بين الحجارة قلبًا لا يُكسر."

تابع نعمان:

" وفي آخر الليل، وأنا على الأرض الباردة، شعرتُ أنّ شيئًا ينكسرُ فيّ، وشيئًا آخر ينبت.

امتدّت حركةٌ خافتةٌ في الزنزانة، ففتحتُ عينيّ.

كان جرذٌ ضخمٌ قد جثمَ على صدري، يُواجهني وجهًا لوجه. شدّني طولُ شاربيه، وأنفُه المرتجف كأنَّه يشمّ إن كان ما أمامه عدوًّا... أم طعامًا.

مددتُ يدي ببطء، وتناولتُ آخر قطعةَ خبز يابسة كانت إلى جوار رأسي، وضعتُها بجانبه.

فتوجّه نحوها، وبدأ يقضمها بهدوءٍ متأنٍّ، وأنا أتابعه دون حراك، ودون أن أجرؤ فتح عيني أكثر، أو على شهيق يصدر صوتاً غي هدوء آخر لحظات قبل الفجر.

وحين أنهى ما كان له، نظر إليّ نظرةً سريعة، ثم أسرع إلى فتحةِ المرحاضِ الأرضي، عائدًا من حيث أتى.

كانت عتمةُ الزنزانة تشبه صفحةً سوداء، مليئة بالصور والكلمات التي لم تُكتَب بعد...

لكنّ الحبرَ في داخلي لم يعُد حبرًا، بل دَمًا، ووجعًا، وأسئلةً بلا أجوبة.

قال والد منى: دعي نعمان يرتاح قليلاً في غرفته وهيا بنا نعد طعام الغداء، فقد أمضى وقتاً مليئاً بالإرهاق، وأن له أن يستريح.

في المطبخ، كان البخارُ يتصاعد من قدرِ الطعام، يملأ الهواءَ برائحةٍ دافئة، كأنّه يحاول أن يُزيل ما علِقَ في القلب من بردِ الكلمات.

وقفت منى تقطّع الخضار ببطء، وسكينُها يضرب اللوحَ الخشبيَّ بإيقاعٍ آليٍّ، كأنّه نبضٌ مضطربٌ لا تهدأ نغمتُه.

قال والدها، وهو يسكب القليل من الملح في الشوربة، دون أن ينظر إليها:

– "كنتُ أعلم أنّ الليلة الرابعة ستكون الأصعب... لكنّه تَماسَكَ، أكثر ممّا توقّعت."

سكتت منى لحظة، ثم تمتمت:

– "أبي... ذاك الذي جثَمَ على صدره، كان جرذًا... أم وهماً أو شبحاً رجلً على هيئة جرذ؟.

لأنّي لم أستطع طرد تلك الصورة من رأسي، كأنَّ الجرذ هو الذي استنطقني."

رفع الوالد الغطاء عن القدر، ثم أعاده، وقال:

– "في المعتقل، ليس هناك فرقٌ بين الجرذ والمحقّق... كلّهم يظهرون في الظلمة، يفتّشون عن نقطةِ ضعف، عن قطعةِ خوفٍ صغيرةٍ لينهشوا منها الطريق."

جلست منى على الكرسيّ، وأسندت رأسها إلى الحائط، وقالت بصوتٍ منخفض:

– "قال له: *"نُمارسُ فنّ الوقاية، يا نعمان..."*

يا أبي، ألا ترى أنّ هذه العبارة وحدها... سُمٌّ مغطّى بالابتسامة؟"

– "بلى، سُمٌّ خالص. الوقايةُ عندهم تعني أن تُبادر إلى الخضوع قبل أن تُساق إليه. أن تُخيف نفسك قبل أن يخيفك أحد.

إنّها وقايةٌ من الكرامة، لا من الألم."

نظرت إليه منى، بعينين تغشاهما ظلالٌ بعيدة:

– "لكنّ نعمان... لم ينهَزم ظلّ ثابتًا، حتى في جوابه عن النظام، حين قال: *"كلّ نظامٍ لا يُحاسَب، يُنتِج فسادًا، ولو بدأ بأنبياء..."*

أحسستُ، لوهلة، أنَّ المحقّقَ لم يُجِب، لأنّه خاف أن يكون قد نطق الحقيقة."

اقترب والدها، ووضع أمامها كأسَ ماء، ثم جلس بقربها، وقال:

– "نعم... تلك الجملة كانت سكينًا في صدر الطغيان.

ولهذا قال له: *"ربما أنتَ أخطر ممّا كنتُ أظن..."*

لأنّ الخطر ليس في من يرفع سلاحًا، بل في من يزرع فكرة."

ابتسمت منى، ابتسامةً مزيجها الاعتزاز والوجع، ثم همست:

– "يا لَهُ من جميلٍ... في قمّة ضعفه، يرفض النجاة بأيّ ثمن.

وفي حضرة الوجع، يرفع رأسه كأنّه يقول لهم: لن تأخذوا إلا جسدي... أمّا روحي، فقد نجَت منكم."

نهض والدها، وأطفأ النار تحت القدر، ثم نظر من النافذة كأنّه يتأمّل شيئًا لا يُرى.

قال بهدوء:

– "غدًا... ربّما يعرضون عليه أكثر ممّا يحتمل.

سيُساومونه على كلماته، على صمته، على اسمه حتى."

ثم التفت إلى منى، وأضاف:

– "لكنّه لن يسقط في شراكهم فهو أوعى من ذلك."

سألته منى، بصوتٍ مرتجف:

– "وأنت... كيف تُوقِن بهذا؟"

اقترب منها، وربّت على كتفها، وقال:

– "لأنّه ابنُ الحلم... لا ابن الخوف."

ساد المطبخ صمتٌ ثقيل، يقطعه صوت الملعقةِ تُحرّك الطعام، كرنينِ زمنٍ لا يريد أن ينتهي.

في المطبخِ، كانَ ضوءُ ما بعد الظهيرةِ يتسلَّلُ من فتحةِ النافذةِ المكسوَّةِ بزجاجٍ مُغبَّش، ليرسمَ على الطاولةِ خطوطًا من ذهبٍ مغبرٍّ، تُشبهُ خطوطَ يدِ الزمنِ على وجهِ أمٍّ أنهكتها الانتظارات.

نادت منى على نعمان فقد أصبح الطعام جاهزاً. لكنه أطل من غرفته وأعتذر منهما بكلمات شكر، وأوحى إليهم أنه يحتاج إلى الراحة أكثر من حاجته إلى الطعام.

كانت رائحة الطّعام قد بدأت تفقد دفئها، حين جلست منى أمام والدها على الطاولة المستطيلة في المطبخ. الصّحنُ أمامها لم يكن مغريًا، لكنّها وضعت لقمة في فمها على مضض. نظر إليها والدُها وقد لاحظ اضطرابَها.

قال بهدوء وهو يسكب لنفسه قليلًا من الطعام:

"كلي يا منى، فالذين في الزنزانات لا يملكون هذا الامتياز".

هزّت رأسها، وقالت بصوتٍ خافتٍ مشوبٍ بالخجل:

"أنا آسفة... الطّعام في فمي يُشبه الحجارة. كلّما تذكّرت صورة الجرذ على صدره... لا أستطيع".

تنهد الأب ببطء، ووضع الملعقة جانبًا، ثم نظر في عينيها:
"ما فعله نعمان الليلة الماضية ليس مجرد صبرٍ على القسوة، بل درسٌ في الكرامة. حتى الجرذ، في تلك اللحظة، لم يكن عدوًا... بل شريكًا في الزنزانة، جائعًا مثله، ضائعًا مثله".

شهقت منى بخفّة:
"ألم يخَف؟ رجل في تلك الحال، ووحش يقف فوقه، وتلك الصورة التي رأى، وذلك الصوت الذي لا يزال يرنّ في أذنيه :نُمارس فنّ الوقاية يا نعمان .ألا يُهشّم هذا إنسانًا؟"

أجاب والدها دون أن يرفع صوته:
"ربّما نعم. وربّما لا. نعمان من الذين يُهشَّمون لينهضوا أكثر وضوحًا... لا أكثر هشاشة".

قالت منى وهي تلتقط لقمةً صغيرة ثم تعيدها إلى الصحن:
"أنا خائفة، أبي... كلّ هذا يبدو كأنّه بداية لعاصفةٍ لا نعرف إلى أين ستأخذنا".

" العاصفة جاءت يا منى، ونحن في قلبها. لكنّ بعض الناس، مثل نعمان، لا ينتظرون انقشاع الغمام... بل يصنعون قبسًا من الحلم في عتمة العاصفة".

وضعتْ منى صحنَ المجدَّرةِ على الطاولةِ، ثم سكبتْ إلى جانبهِ صحناً من اللبنِ بالخيارِ، وهمست وهي تهمُّ بالجلوس:

" يا أبي... أتعلم؟ لا أزالُ أسمعُ نبرةَ المحقّقِ في أذني، ذلك التقلُّبُ السلسُ بين اللينِ والتهديد، بين الوعودِ والابتزاز... شيءٌ فيه يُرعبني."

جلسَ والدُها بهدوءِ من عرفَ كيف يختارُ كلمتَه على مائدةِ وجعٍ كهذا، وأجاب وهو يقطعُ رغيفَ الخبز:

" ما فعلهُ كان أقربَ إلى لعبةِ الشطرنج... قطعةٌ تُضحَّى بها، وأخرى تُؤخَذ، ثم ينتظرُ النقلةَ التالية من خصمٍ يجهلُ قوانينَ اللعبةِ، لكنه يعرفُ كيف لا يُهزم."

رفعتْ منى ملعقتَها، ثم وضعتها قبل أن تصلَ إلى فمِها، وقالت وهي تنظرُ إلى الفراغِ:

" هل تظنّهُ كان صادقًا حين قال لنعمان: *لنُحوّلْ هذهِ الليلةَ إلى بدايةِ حلم، لا نهايته؟"

مسحَ والدُها فمَه بورقةِ المنديل، ثم تأمّلها مليًّا:

" الصدقُ عند أمثالِه ليس فضيلة، بل أداة... هو لا يبحثُ عن حلمٍ لنعمان، بل عن خيطٍ يُمسكُ به عصبَ الحقيقةِ في داخله، لِيُفرغه ويُشكّله من جديد."

أطرقتْ منى رأسَها، وهمست:

" لكنّ نعمان... لم يكن هشًّا. كان في كلامهِ تماسكٌ لا يُشترى، وصراحةٌ تُربكُ مَن اعتادَ على الكذبِ كوسيلةِ عمل."

ابتسمَ والدُها ابتسامةً باهتةً، وقال:

" لهذا خافوه. من يَعرفُ القراءةَ في زمنِ التلقينِ يُعدُّ خطرًا، ومن يطرحُ الأسئلةَ وسطَ المذعورين يُعَدُّ وقحًا."

مدّت منى يدَها إلى الصحنِ أخيرًا، تناولتْ بعضًا من المجدّرة، ثم قالت:

" لكني أخاف عليه... أخاف من ذلك الجرذِ الذي زحفَ إلى صدره، من بردِ الزنزانةِ، من صوتِ المصابيحِ المرهقةِ وهي تئنّ كأنها تحتضر."

هزَّ والدها رأسه، وقال بصوتٍ أقرب إلى رجاءٍ داخلي:

" نعمان، يا ابنتي، لا يُكسرُ بسهولة. لكنّه... يُخدَش، يتألم، وقد ينزفُ كثيرًا قبل أن يشفى. وكلّما نجا من ألمٍ، خرج منهُ أعمق، وأشدّ إشراقًا... كالمعدنِ النبيل، لا يصفو إلّا بالنار."

رقّت أهداب منى، وراحت تغالبُ دمعًا تشكّلَ في طرفِ العينِ دون استئذان، وقالت:

" أبي... أليس لكلِّ صبرٍ نهاية؟"

نهض والدها، وسار نحو النافذة، تأمّل الشارع الخالي، ثم التفت إليها وقال:

" نعم يا ابنتي... لكنّ النهاية ليست للصبرِ وحده. النهايةُ للظلمِ أيضًا. فقط، تحتاجُ أن ننتظرَ قليلًا... وألّا ننسى الحُلم."

في الجهةِ الأُخرى من المدينة، حيث كان الوقتُ يُقاسُ بالملاعق لا بالسياط، تجلس منى إلى مائدة الغداء بصمتٍ ثقيل، والملاعقُ تتحرّك فوق الصحون كما لو كانت تحرّك الذكريات. نظر إليها والدُها، ثمّ تنهّد، وقال بصوتٍ هادئٍ كأنه يوشك على الانكسار:

– **"أيعقلُ أن يكون نِصفُ الحياةِ في زنزانة؟... والنصفُ الآخرُ في انتظارِها؟"**

رفعت منى بصرَها نحوه، وكأنها انتُزِعت من غفلة، وقالت:

– **"أشعر وكأنّ نَفَسه ما يزال معي... في الهواء، في رغيف الخبز، في صمت الجدران."**

سكتَ الوالدُ لحظة، كأنه يتفحّص في ملامحها ما لم تُقلْه، ثم تمتم:

– **"ما قاله هناك، في تلك الليلة... عن الحُلم الذي لا يموت، عن الصدق الذي لا يُكذّب نفسه، عن نُبْلِ أن تقول لا... في فم الموت... كان يُذكّرني بكِ."**

تأمّلَت وجهه المتعب، ثم همست:

"كنتُ أخاف عليه من البرد، من الليل، من قسوة الشوارع حين يتأخّر... ولم أكن أعلم أن هناك بردًا أشدّ من العراء، وأنّ الليل له بابٌ من حديد، وصمتًا لا يُحتمل."

وضعَ الأبُ الملعقةَ جانبًا، كأن الطعامَ لم يعُد له معنى، وقال:

"وهناك... في الزنزانة، كان يُطعِم الجرذ خبزه، كي لا ينهشه... أما نحن، ففي الخارج، كدنا تنهشنا الجرذان من القلق."

اغرورقت عينا منى، ثم قالت:

"كان الجرذ أهون عليه من أن يُفرّط بكرامته، أو يكذب لينجو. إنه لا يزال حُرًّا، حتى وهو خلف القُضبان."

ردّ والدها مبتسمًا بحزن:

"الحريّة يا ابنتي لا تُقاس بالقيود، بل بالقدرة على ألّا تُبدّل جلدك... حين يُطلب منك أن تبيعه."

ثم أضاف وهو ينهض ببطء:

"دعينا نغسل الصحون معًا... ربما نغسل معها هذا الثقل الجاثم على الصدر."

وقفت منى، ومسحت دمعةً أفلتت، وقالت:

"نعم يا أبي... وآثار الملحِ العالق في الصحون ليس أكثر ملوحةًً من هذا الانتظار."

في المطبخ، كانت الأطباق تُغسل بصمتٍ، لكنّ الماء كان يُحدّث أشياء لا تُقال. صوت الصنبور بدا أشبهَ بنحيبٍ خافت، ورفيف الرغوة على الصحون يشبه الأحلام التي لم تجد مكانًا تستقرُّ فيه.

منى كانت تمسك الصحن بين يديها، ثم تسلّمه لأبيها ليجففه، كأنها تُسلم قطعةً من الذاكرة، وهو يستقبلها بكفٍ نحتها الانتظار. قال وهو يمرّر المنديل فوق طبقٍ أبيض:

– "تعلمين، أكثر ما يخيفني ليس ما يمرّ به نعمان الآن... بل أن يتسلّل الظلام إلى قلبه."

أجابت منى بصوتٍ واهن، وهي تدلك كوبًا صغيرًا:

– "قلبه صُنع من نورٍ لا تطفئه العتمة، يا أبي... لكنّي أخاف أن يصير هذا النور وجعًا لا يشفى."

هزّ الأب رأسه ببطء، ثم قال:

– "الذين يصمدون هناك، لا يخرجون كما كانوا... يخرجون وهم يحملون جُرحًا يشبه البصيرة."

صمتا قليلًا، ثم قالت منى:

– "هل كنتَ لتصبر لو كنتَ مكانه؟"

أجابها دون أن ينظر إليها:

– "لا أدري... ربما كنتُ لأحاول، لكنني لا أملك شجاعته. نعمان ليس في مثابة ابننا وحدنا يا منى... هو ابن الكتب التي قرأها، والقصائد التي آمن بها، والأحلام التي أنبتتها أمّه في صدره."

أطرقت منى، ثم همست كأنها تكلّم نفسها:

– "ليته ينضم إلينا الآن ليسمعنا... ليته يعلم أن في كل لحظةٍ منّا صلاةٌ له... وأنّه قد أصبح هذا البيت من دون صوته لا يبقى بيتًا، بل صدى لا ينتهي."

توقّف والدها عن المسح، ووضع الكأس جانبًا، ثم قال:

"ناده من غرفته، فالبيوت تعرف أبناءها... حتى لا يبقى وحيداً فيشعر أنه ما يزال مع من قد غيّبتهم الأسوار."

صمتا قليلاً، ثم قالت منى بعد أن ألقت نظرة على الساعة:

" هل تظن أن الليلة القادمة ستكون أصعب؟"

" كلّ ليلة في المعتقل هي امتحانٌ جديد. لكن الليلة السادسة... ربما كانت بداية جديدة في مسار الحلم".

ثم نهض عن كرسيه، وأخذ الطبق ليضعه في الحوض، وقال وهو يمسح يديه:

"تعالي... دعينا نكتب ما رأيناه، ما فهمناه. فالحلم إن لم يُكتب، ضاع بين الجدران".

عادَ نُعمانُ بخُطًى هادئةٍ وانضمَّ إليهما في الشُّرفةِ المُطلَّةِ على الحديقةِ، وقد وُضِعَ إبريقُ الشّاي والكؤوسُ على طاولةٍ جانبيّةٍ صغيرةٍ. الهواءُ المسائيُّ يداعبُ أوراقَ الشّجرِ بنعومةٍ، ورائحةُ الياسمينِ تتسلَّلُ من عمقِ الحديقةِ كأنَّها ذاكرةٌ قديمةٌ تستيقظُ مع كلِّ لحظةِ صمتٍ.

تقدَّمَ نُعمانُ ليَسكُبَ الشّايَ للجميع، غيرَ أنَّ مُنى نهضتْ بخفَّتِها المُعتادةِ، واتَّجهتْ إلى الداخل، ثمَّ عادتْ تحملُ كأسًا من عصيرِ البرتقالِ الطازج، وقد برَدَ قليلاً وتغطّى سطحُهُ برذاذٍ نديٍّ شفاف.

مدَّتْ يدها إليه قائلةً بابتسامةٍ دافئة:

"دَعِ الشّايَ لنا، وهذا لك".

أخذَ الكأسَ منها وقد تلاقتْ أيديهما لثانيةٍ واحدةٍ، كأنَّ شيئًا غير مرئيٍّ مرَّ بينهما، ثمّ جلس.

قال والدُها وهو يحدِّقُ فيه باهتمامٍ واضحٍ، وقد غمر نبرته شيءٍ من الأبويَّةِ الحانية:

"نُعمانُ، بُنَيّ... هل ترغبُ أن تُتابِعَ ما بدأناه؟ نُصغي إليكَ بكلِّ جوارحِنا، نُشاركُكَ ذِكرى ثقيلةً، فلا تبقى وحدكَ حبيسَ جدرانها؟ أمْ تُفضّلُ أن نؤجِّل، أو... تتوقّف؟"

رفع نُعمانُ نظرَه إلى الأبِ وابنتِه، وكأنّه يبحثُ عن شيءٍ ما في أعينِهما، ثمَّ قال بصوتٍ هادئٍ يشبهُ الطُّمأنينة:

"أشكُرُ لكما هذا الاحتضانَ الذي أَشعُرُ به... فمنذ أن خَرَجتُ من المعتقلِ، حتّى صباحِ هذا اليومِ، كانت ظلالُهُ لا تزالُ تُلوِّحُ لي عند الأُفُقِ، صباحَ مساء. استعصَى عليَّ أن أتحدَّثَ عنهُ مع أحدٍ قبلَكما، لا لأنّي لا أثقُ، بل لأنّي لم أكُنْ قد خرجتُ منهُ تمامًا. الآن، أشعرُ بانفراجٍ في صدري، وهدوءٍ يسري إلى قلبي شيئًا فشيئًا... وهذا ما يدفعُني إلى أن أتابعَ معكما، إن لم يكُنْ ذلك يُثقِلُ عليكما، أو يُسبّبُ أيَّ ضيقٍ أو حرج."

أجابَ السيّدُ أحمدُ على الفور، وقد انفرجتْ أساريرُه:

"لا تقلقْ أبدًا بشأنِنا، يا بُنَيَّ... بل نحنُ مشدودانِ أكثرَ لمشاركتِكَ... نُصغي إليك لا بدافعِ الفضول، بل من أجلِك، من أجلِ أن تُخفِّفَ عنك."

التفتَ نُعمانُ إلى مُنى، وقال بنبرةٍ خافتةٍ فيها مزيجٌ من المودّةِ والخوفِ:

"وأنتِ يا مُنى... بتُّ أخشى عليكِ من نتائجِ ما أستعرضتُه أمامكِ من هولِ الأحداثِ."

ردَّتْ بصوتٍ ثابتٍ، وعينانِ مشرعتانِ على صدقٍ عميق:

"تأكَّدْ أنَّ ما قاله والدي يَنسحبُ عليَّ تمامًا... بل ربما أنا أشدُّ شوقًا منهُ لسماعِ المزيد... لا أقولُ هذا من بابِ التحدّي، بل لأنّني أُدركُ أنَّ معرفةَ ما مررتَ به، هي أيضًا معرفةٌ بكَ."

تنفّسَ نُعمانُ بعمقٍ، كمن يتحرَّرُ من قيدٍ داخليٍّ، ثم قال:

" إذًا... إليكما ماشهدته اللّيلةِ السّادسةِ في ذلكَ المعتقلِ..."

سكتَ لحظةً. ارتشفَ شيئًا من العصيرِ. ثمَّ مضى يقولُ:

"لم يكنِ اللّيلُ في الزنزانةِ يختلفُ كثيرًا عن سابقيهِ، سوى في أمرٍ واحدٍ: أنَّ الصّمتَ صار أثقلَ، والظلمةَ أعمقَ، وكأنَّ الزنزانةَ تنكمشُ مع كلِّ فكرةٍ تُفكَّرُ بصمتٍ.

كنتُ جالسًا قبالةَ الجدارِ، ظهري إلى البطّانيّةِ الخشنةِ، وعيناي نصفُ مغمضتَينِ. لا نومٌ ولا يقظةٌ. لحظةٌ معلّقةٌ لا تخافُ الزمنَ، بل تخافُ ما بعده.

وفجأةً... انفتحَ البابُ الحديديُّ على صوتٍ مألوفٍ: خشخشةُ المفتاحِ، حذاءٌ يصُكُّ الممرَّ. دخلَ أحدُ الحرسِ، أشارَ إليَّ دونَ أن ينطقَ. وقفتُ، بلا سؤالٍ. فالأسئلةُ هناك لا تُطرَحُ، بل تُكتمُ.

اقتادَني إلى ذاتِ الدّرجِ، ذاتِ الممرِّ، وذاتِ الغرفةِ: مكتبُ المحققِ الصّامتِ، كأنَّهُ بُنيَ من برودِ الزمنِ نفسه.

كان ينتظرُني، نفسُ الابتسامةِ الرماديّةِ، نفسُ الإضاءةِ الخافتةِ. قالَ وهو يشيرُ إلى الكرسيِّ أمامه:

"تفضّل، يا نُعمان... أعلمُ أنَّك لم تنمْ، لذا لن أطيل."

جلستُ. لم أُظهرْ شيئًا. لا ضعفًا ولا تحدّيًا. فقط صمتّ.

ثمَّ أخرجَ ورقةً جديدةً من الدُّرجِ، وقال:

"هل تعتقدُ أنَّ من يُقاومُ، ينتصرُ؟"

نظرتُ إليه. نبرتُهُ مختلفةٌ عن الأمسِ. فيها شيءٌ من الفضولِ، وشيءٌ من السّأمِ. قلتُ:

"أحيانًا لا ينتصرُ، لكنَّهُ يمنعُ الهزيمةَ من أن تصبحَ عادةً."

أطرقَ لحظةً، ثم قال:

"كنتُ أراقبُكَ منذ البدايةِ... فيكَ شيءٌ لا يشبهُ الباقينَ... لستَ الأقوى، لكنّك تؤمنُ أنّ ما فيكَ لا يُشترى."

صمتٌّ. ثم تابعَ:

"دعنا لا نُضِعْ الوقت... هذه مجموعةُ أسماءٍ... نُريدُ منك فقط أن تُؤكّد: هل التقيتَ بهم؟"

دفعَ الورقةَ ناحيتي. قرأتُ الأسماءَ. بعضها أعرفهُ، وبعضُها غريبٌ. كلُّ اسمٍ يرتجفُ في السُّطورِ، كما لو أنّه سيبوحُ قبل أن أفتحَ فمي.

قلتُ بهدوءٍ:

"لن أؤكّدَ شيئًا لا أذكرهُ، ولن أُنكرَ ما لم يحدثْ. أنا لستُ مُوظَّفًا في روايةٍ تكتبُها، بل إنسانٌ له ذاكرةٌ، وأمانةٌ."

ضحكَ ضحكةً قصيرةً:

"جميل... إذًا تختارُ الذّاكرةَ."

قلتُ له:

"لأنّها الشيءُ الوحيدُ الذي لا تستطيعونَ مصادرته، إلا إن خنتُها أنا."

لمعتْ عيناه للحظةٍ، ثم بهتَ بريقُها. قال:

"لدينا متّسعٌ من الوقت... نُتابعُ لاحقًا."

ثم صفقَ بيده، فعاد الرجلُ الصّامتُ بثيابهِ الرّماديّةِ. اقتادَني بصمتٍ، وأنا أجرُّ خطايَ التعبةِ.

حينَ عدتُ إلى الزنزانةِ، كنتُ أعلمُ أنَّ الصراعَ لم يَعُدْ بين سجينٍ ومُحقّقٍ، بل بين إرادتَين: واحدةٌ تُراهنُ على الخوفِ، وأخرى تُراهنُ على المعنى.

جلستُ قبالةَ الجدارِ. لم أعد أبحثُ عن الضّوءِ، بل عن يقينٍ يُضيءُ من داخلي.

همستُ لنفسي:

"غدًا... لا بُدَّ أن يُكتَب."

منَى كانت قد شبكت يديها في حجرها، تُصغي بأنفاسٍ متقطّعة، كأنّها تُمسك دموعًا لا تريد أن تنزل.
قالت بصوتٍ خافت:
"وما الذي منحكَ هذا الصُّمود؟ كيف لم تنكسر؟"

نظر إليها نُعمانُ طويلًا، ثم أجاب:
"ربّما... لأني كنتُ أرى نفسي لستُ وحدي. كنتُ أسمعُ أصواتَ الذين أحبُّهم تردِّد داخلي

: (اصمد... ليس لأجلك وحدك.)

أما السيّد أحمد، فقد تمتم وهو ينظر إلى الحديقة:
"ذلك هو المعنى... حين يصبحُ الحلمُ صامدًا في وجهِ الكابوس."

سادَ صمتٌ قصيرٌ في الشرفةِ، كأنَّ الكلماتِ التي قيلت للتوّ تحتاجُ أن تستقرَّ في الهواءِ قبل أن تُستأنفَ الحياة. أوراقُ الأشجار في الحديقةِ كانت تتحرّكُ بهدوءٍ، كأنّها تصغي هي الأخرى، أو تُعبّرُ عمّا عجزت عنه الألسنُ.

قال السيّد أحمد وهو ينهضُ ببطءٍ، يُزيحُ عن ركبتيه غلالةَ الخريف:

"لنَدخُل... صار الجوُّ أكثرَ برودة، والشّايُ لم يَعُد يكفي لِمُقاومتها."

لم يُعقّب نُعمان، فقط أومأ برأسه، وقام معهم.

داخلَ المنزل، عاد الدفء يتسلّل من تحت الأبواب، وتسرّبت رائحةُ القرفة من المطبخِ، تُعلنُ أنَّ منى كانت قد أعدّت شيئًا صغيرًا يُشبه الحلوى أو الذكرى.

جلسوا حول الطاولة المستطيلة، بينما وضعت منى ثلاثة أطباقٍ صغيرة، وقطّعت الكعك بهدوءٍ.
كانت حركةُ يديها تقول شيئًا لم تَقُله بعد.

قال نُعمان وهو يُمسكُ الكأس بيده:

"أتعلمان؟ لم يكن أكثر ما يُخيف في الزنزانة هو الألم... بل النسيان. أن يُمحى صوتُك من العالم، أنْ تمرَّ أيامُك دون أن يفتقدك أحد، أو يَعرفَ إن كنتَ حيًّا أو لا."

علّق السيّد أحمد، وهو يُمرّر طرف ملعقته على حافة الكوب:

"النسيانُ... هو ما تراهن عليه الأنظمةُ الظالمة، أن تفرغَ ذاكرتك من ذاتِك، وتملأها بما يُناسبهم."

هزَّ نُعمان رأسه، ثم نظر إلى منى، وقال:

"وأنتِ؟ ما الذي يجعلكِ تُريدين سماع كلّ هذا؟ أعلم أني أحملكِ ما لا يُحتمل."

رفعت منى رأسها، وحدّقت فيه بعمقٍ، وقالت بنبرةٍ أقرب إلى الهمس:

"لأنّي لا أريدُكَ أن تحمله وحدكَ. ولأنّي أعرف أن هذا الألم، حين يُروى، يُصبح أقلّ وحشةً. كما أنني... لا أريد أن أكون مجرّد فصلٍ سعيد في حكايتك، بل شاهدةً عليها، من أولِها إلى آخرِها."

تبادل الأب وابنته نظرةً صامتة، ثم نظر نُعمان إليهما معًا، وقال بهدوء:

"إذًا، دعونا نتابع. فما زال هناك... ما يستحقُّ أن يُروى."

عادَ نُعمانُ يُتابِعُ حديثَه، وقد غمرَهُ صمتٌ شفيفٌ، كأنَّهُ يُهيِّئُ لبوحٍ من النَّوعِ الَّذي لا يُقالُ إلّا مرَّةً واحدةً. جلست منى ووالدُها في طرف الشُّرفةِ، يرقبانِ ملامحَهُ كأنَّما يُنصِتانِ لقلبِه قبلَ أن يُنصِتا لِما يقول.

مالتْ منى قليلًا للأمام، تضعُ كفَّها تحتَ ذقنها، وهمست:

"تُرى... ماذا رأيتَ هناك؟"

لم يُجِبْ فورًا، بل أطرقَ طويلًا، ثمّ رفعَ رأسه وقال:

"خروجي إلى مكتبِ المُحقِّقِ تلكَ اللَّيلةَ، كان أشبهَ بإزاحةِ ستارةٍ عن فصلٍ جديدٍ من مسرحيَّةٍ غامضةٍ، مسرحيَّةٍ لا تُكتَبُ نهايتُها بل تُرتَجلُ في عتمةٍ باردةٍ لا تشبهُ أيَّ مساء.

لم تمضِ نصفُ ساعةٍ على إعادتي إلى الزنزانةِ، حتّى فُتِحَ البابُ من جديدٍ، وسمعتُ الأمرَ الجافَّ بالوقوفِ."

أخذ والدُ منى نَفَسًا عميقًا، كأنَّهُ يريدُ أن يقولَ شيئًا ثمّ تراجع، واكتفى بالتنهيدة.

تابع نعمانُ، بنبرةٍ أقلّ توترًا، وكأنَّهُ يُراقب صورَ الذكرى من بعيد:

"اقتادني الحارسُ ذاتهُ، نفسُ الخطواتِ الثقيلةِ على البلاطِ الباردِ، إلى غرفةٍ جانبيّةٍ لم أدخُلها من قبل. هناك... لمحْتُ شيئًا لم تنسَهُ عيني حتّى الآن.

كانا اثنين من المعتقلين. لا أذكرُ وجوهَهم تمامًا، لكنّ صوتهما وصورتَهما... محفوران في ذاكرتي كأنّهما جزءٌ من جسدي."

شهقت منى بصوتٍ خافتٍ، غطّت فمها بكفّها، ثم تمتمت:

"أكانا بخير...؟"

أومأ برأسه نافيًا، وكأنّهُ يعتذرُ من ذاك السؤالِ البريءِ، ثم واصل بصوتٍ هادئٍ، مثقَلٍ بالتفاصيل:

"كان كلٌّ منهما جالسًا داخلَ دولابِ سيارةٍ، أقدامُهما مرفوعةٌ إلى الأعلى بزاويةٍ تكاد تكونُ قائمة، واليدانِ موثقتانِ خلفَ الظهر.

إلى جانبِ كلٍّ منهما، وقفَ سجانانِ يحملانِ كِرابيجَ جلديّةً غليظة، ينهالان بها على القدمينِ بعنفٍ منتظمٍ، لا تَعنيهما دقَّة الإصابةِ ولا موقعُ الضربةِ. أحيانًا تخطئُ الضربةُ فتصيبُ الرأسَ، الكتفَ، الوجهَ... لا يهم. المهمُّ أن يستمرَّ المشهد."

أطرقَ الأبُ هذه المرّة، ومرَّر يده على حاجبه، كأنّهُ يُبعدُ عنه صورةً لا يريدُ رؤيتها.

قال نُعمانُ:

"في زاويةِ الغرفةِ، طاولةٌ صغيرةٌ، فوقها ورقةٌ وقلم. يُؤتى بهما حينَ تضعفُ المقاومةُ ويصبحُ المعتقلُ مستعدًّا للتوقيعِ، لا على أقوالهِ بل على اعترافاتٍ كُتِبتْ عنه، دون أن يقرأها.

وإن رفضَ التوقيع؟

فذلكَ مجرّدُ فرصةٍ جديدةٍ لأحد السجّانين ليُمرِّن عضلاتَه عليه."

غامت عينا منى، رفعتْ رأسها إلى السماء، كأنّها تحاولُ أن تُفرّغ قلبها من الضيق، ثم قالت بنبرةٍ مرتجفة:

"يا إلهي... وكيف كنتَ تقفُ وسطَ ذلك كلّه؟"

نظر إليها نظرةً طويلةً، ثمّ همس:

"كمن يقفُ على خشبةٍ، والجمهورُ لا يُصفِّقُ... بل ينتظرُ سقوطَه."

سكتَ لحظةً، ثمّ تابع:

"ثمَّ أُدخلتُ إلى مكتبِ المُحقّقِ ذاته، لكنَّه بدا مختلفًا تمامًا.

طاولتان صغيرتان على طرفَي الغرفة، جلسَ عند كلٍّ منهما معتقلٌ آخر، وجهُ كلّ واحدٍ منهما نحو الورق والقلم الذي على الطاولة، ويدهُ ممدودةٌ على الطاولةِ إلى الجانب من الورق، ينتظرُ إمّا أن يكتبَ أو أن يتلقّى ضربةَ خيزرانةٍ فوق ظهر كفّه.

كانت الضرباتُ قاسيةً لدرجةِ أنَّ أحدَهم صرخَ صرخةً حسبتُهُ يفقدُ يدَه معها."

تغيّر صوت نُعمان، غدا أكثرَ حدةً:

"وحينَ لا تكفي الخيزرانة، كان أحد السجانين يُمسكُ بكَمّاشةٍ حادةٍ، يشدُّ بها أظافرَ المعتقلِ واحدًا واحدًا. ببطءٍ، بلذةٍ خفيّةٍ، كأنّهُ يُمارسُ طقسًا مقدّسًا."

شهقت منى هذه المرّة بوضوح، وقالت بصوتٍ خافت:

"هل... هل رأيتَ هذا؟"

"رأيتُهُ كما أراكِ الآن... والإنارةُ خافتةٌ، مرسومةٌ لتُربكَ الإدراك، فلا تميّزَ بين الحقيقةِ والخيال. عن يسارِ المُحقِّق، وقفَ حارسٌ جامدُ القسماتِ، يُتابعُ التفاصيلَ دون أن يرمشَ، كأنّهُ جزءٌ من الجدار."

سكتَ لحظةً، ثم همسَ بصوتٍ خفيضٍ كأنهُ يُحدّثُ نفسه:

"تقدَّمتُ بخطوةٍ حذرة، وكلُّ شيءٍ فيّ كانَ يضربُ بإيقاعٍ سريع: قلبي، أنفاسي، عيوني... حتى روحي كانت تتعثَّر."

سأل والدُ منى بقلقٍ ظاهرٍ:

"والمحقِّق؟ ما الذي قالهُ لك؟"

نظر إليه نُعمانُ وقالَ بنبرةٍ متهكّمةٍ مغموسةٍ بالمرارة:

"المحقق ... قال:

(هؤلاءِ اثنانِ من المعتقلين، والثالثُ والرابعُ مررتَ بهما في الطريقِ إلى هنا، أليسَ كذلك؟ وجميعُهم ممَّن ادّعيتَ ألّا معرفة لكَ بهم...)

وكانت تلكَ فقط البداية."

وعادَ نُعمانُ يُكمِلُ روايتَهُ، بعدَ لحظةِ صمتٍ مُتوتّرٍ، كأنَّهُ يُحاولُ أن ينتزعَ من الذاكرةِ جمرةً، يعرفُ تمامًا أنّها لن تُطفئَ إذا نُطِقَت، ولن تهدأَ إذا كُتِمَت.

كانَ صوتُهُ هادئًا، ولكنَّ العينينِ... كانتا تبوحانِ بأكثرَ ممّا تُخفيان.

قالَ، وهو يُشيحُ ببصرِه كأنَّهُ لا يزالُ يرى المشهدَ أمامَه:

"لم أُجِبْ. لم أستطعْ تمييزَ ملامحِهِم في تلكَ الإضاءةِ الخافتةِ، لكنَّ الأجسادَ المرتجفةَ، وانحناءاتِ الظَّهر، وتلكَ الأيدي المرتعشةِ التي كأنَّها تُهدِّدُ بالقلمِ لا لتكتب، بل لِتَستريحَ بالكتابةِ من ألمٍ أعمقَ... كلُّها لم تكُن مألوفةً لي... ومعَ ذلك كانت تؤلِمُني كما لو كانتْ تنتمي إليّ."

همسَ والدُ منى، وقد عبسَ جبينُه واشتدَّت قبضتُه على حافةِ الكرسي:

"أيُّ عالَمٍ هذا؟ الظُّلمُ فيهِ يلبسُ قناعَ الإنصاف، ويتكلَّمُ بلُغةِ القانون!"

أرادت منى أن تُعلِّق، أن تُقاطع، أن تقول شيئًا... لكنَّها اكتفتْ بنظرةٍ مشدودةٍ إلى نُعمان، بعينينِ تلمعانِ برجاءٍ صامت:

"تابِعْ... لا تتوقّفْ".

تابعَ نُعمان، وقد بدأَ صوتهُ ينخفضُ كأنَّهُ يسيرُ في ممرٍّ ضيّقٍ من الذِّكرى:

"علّقَ المُحقِّقُ بنبرةٍ خاليةٍ من العاطفة، وهو يُلقي نظرةً جانبيّةً على أحدِ الموقوفين الذينَ تمَّ "ترويضُهم" كما يقولون:

"طلبتُ منهم أن يكتبوا كلَّ ما يعرفونه. اعترفوا طواعيةً بانتمائهم لحزبٍ سياسيٍّ محظور، وقالوا إنَّكَ كنتَ معهم. لا ضغوط، لا تهديدات... فقط، أرادوا أن يقولوا الحقيقة."

حرّك والدُ منى رأسهُ بيأسٍ قائلاً لها بنبرةٍ هامسةٍ حزينة:

"ربما هي تَمثيليَّةٌ مُتقَنة... أرأيتِ كيف يُبنى الظُّلمُ بيدٍ باردة؟"

ورغم أنَّ كلماتِه كانت موجَّهةً إلى منى، فإنَّها اخترقت نُعمان كالسّهم. لكنّه لم يُعلّق، فقط تابعَ بسكونٍ دامعٍ:

"أردتُ أن أقول: "ولمَ لا أُواجَهُ بهما؟ أليستِ النيّةُ كشفَ الحقيقة؟" لكنِّي صمتُّ. ففي ذلك المكان، حتّى الأسئلةُ تُحوَّلُ إلى تُهَمٍ تُضافُ إلى ملفّ الاتّهام."

ثمّ راحَ نُعمان يُقلِّدُ نبرةَ المُحقِّقِ بدقّةٍ لاذعة:

"لم نسمح لأحدٍ أن يرى الآخر، ولا أن يراك، كي لا يُقال لاحقًا إنَّ أحدَهم تأثَّرَ بحضورِكَ أو تلقّى إشارةً منك. أو أنّكَ تأثَّرت به."

وصمتَ لحظةً، ثم أضاف بنبرةٍ رخيمةٍ كأنَّها ابتسامةٌ مبلّلةٌ بالسم:

"ها هم يكتبون... كلٌّ بشهادته. والضميرُ هو الشاهدُ الوحيد."

هزَّ نُعمانُ رأسَه ببطء، ثم قال، وكأنَّهُ يتحدّثُ إلى ذاتهِ أكثر من تحدُّثه إليهما:

"نظرتُ إلى الورقتين، إلى الحارسين، إلى المشهدِ كلِّه... شعرتُ أنَّ الحقيقةَ قد جُرِّدت من لحمِها، وصارتْ صورةً مُملاةً على ورقة.

فقلتُ، بهدوءٍ يخفي بينَ سطورِه غضبًا صافياً:

"هذهِ ليستْ حقيقةً... هذهِ مشهديّة. أنتم لا تبحثونَ عن النّور، بل تصنعونَ ظلّا، ثم تُقنعونَ الآخرينَ أنّهُ الضّوء."

قهقهَ المُحقِّقُ ضحكةً خاويةً، لا لونَ لها، كأنَّها صدى لفراغٍ عميق، وقال:

"لعلّ أحدهم يكتبُ الآنَ ما يُدينُك أكثر ممّا قلتَه من قبل. وربّما آخرُ يُحضِرُ لنا نهايةً مفاجئة."

"نظرتُ إلى المعتقلَين، إلى أصابعِهما التي بدأتْ تتحرَّك، وقلتُ بهدوءٍ:

"أنا لا أعرفُ أيًّا منهما. ولا تربطني صِلةٌ بهما."

رفعَ المُحقِّقُ حاجبَه، وسألَ بنبرةٍ ناعمةٍ تُخفي حدَّةً:

"وماذا عن انتمائكم جميعًا إلى حزبٍ سياسيٍّ محظور؟"

أجبته:

"أيجبُ عليَّ الآنَ أن أعترفَ بانتمائي لحزبٍ محظور؟ وأنَّني قمتُ بأعمالٍ ضدّ أمنِ الوطن؟ وهل ستُفرجونَ عني، وعنهم، إذا فعلتُ؟"

نظرَ إليَّ طويلًا، ثم قال، وكأنَّهُ يُساوِمُ:

"لا نُريدُ أكثر من اعترافٍ بانتمائك، وأنَّك شاركتَ في مظاهرة. هذا كلُّ ما نطلبه... وأعدك بعودةٍ قريبةٍ إلى بيتِك."

فقلتُ لهُ بثباتٍ لم أكنْ أعرفُ أنَّهُ ما زالَ فيَّ:

"اكتبْ ما تشاء، إذا كانَ الأمرُ كذلك، وسأُوقِّع عليه."

فأشارَ إلى الحارسِ وقال:

"أحضِرْ لهُ ورقًا أبيضَ وقلمًا، وخُذْهُ إلى الغرفةِ المجاورة. فليكتبْ كلَّ ما يعرفُه، وحينَ ينتهي، أعِدْهُ إلى زنزانتِه، وأحضرِ الورقةَ إلينا. وأما الآخرانِ، فإلى زنزانتِهما فورًا."

تردَّد صوتُ نُعمان للحظة، ثمّ قال، وكأنَّهُ يعودُ بخُطاهُ إلى تلكَ الغرفةِ التي لم تغادرْ ذاكرته قط:

"في الغرفةِ المجاورة، جلستُ أمامَ الطاولةِ الخشبيّة، والحارسُ واقفٌ كالصّنمِ عندَ الباب. وُضعتِ الأوراقُ أمامي، والقلم... وبدأتُ.

لم أكتبْ ما أرادوه. بل كتبتُ ما كان يجبُ أن يُقالَ يومَ كانَ الكلامُ آمنًا.

وبدأتُ أرتّبُ ذاكرتي، كما يرتّبُ السجينُ خطواتِه في الزنزانةِ الضيّقة: ببطءٍ... وبحذر."

هنا، مالَ والدُ منى بجسدِهِ إلى الأمام، شبّك أصابعَه فوقَ ركبتيه، وسألَ بصوتٍ منخفضٍ كأنَّه يخشى أن يُفسِدَ شيئًا:

"ماذا كتبتَ أوّلًا؟"

قال نعمان:

"بدأتُ من اللحظة التي شعرتُ فيها أنّ لي عقلًا يُفكّر، لا فقط جسدًا يُطيع. كتبتُ عن صدمة أوّل كتابٍ سياسيٍّ التقطتُه من رفٍّ مغبرٍّ في مكتبةٍ صغيرةٍ لا يجرؤ أحدٌ على سؤال صاحبها عمّا يبيع. كتبتُ عن المحاضرات التي حضرتُها في المراكز الثقافية والمكتبات العامة، وعن أساتذةٍ كانت نبراتهم أقربَ إلى النبوءات منها إلى الشرح.
عن المنعطفاتِ الصغيرةِ التي كوّنتني".

في الغرفةِ المجاورة، جلستُ إلى الطاولة، التي شعرت بأنني أمتلك زمامها، وأمامِي الورقُ والقلمُ. بدأتُ أكتب... لا اعترافًا، بل ذاكرة. سطّرتُ كلَّ ما قرأته في السياسة فقط وفيما يمت منها إلى الفكر الإسلامي خصوصًا، مبتعداً عن باقي المعارف التي قرأتها، ذكرتُ أسماء الكُتُب، مؤلّفيها، من أين اقتنيتُها، أسماءَ المكتبات، المحاضرات، ومداخلاتي فيها.

منى (وقد غلبها التوتر):

"وكأنك تكتب لهم دفتر حياتك يا نعمان!"

ابتسم نعمان ابتسامةً خفيفة وقال:

"هو جانب واحد منها حمل شهادة. شهادة وعيٍ، لا جريمة. كنتُ أكتب، وأُقلّب كلَّ ما في داخلي، وكلُّ ما كتبته، كان عنّي. كلُّ سطرٍ، كلُّ فقرة، كانت لها خصوصيتها في ذاتي".

وتابع بعد أن ارتشف قليلا من الماء

"كنتُ أكتبُ كما لو أنّ أحدًا غيري لن يقرأ. لكنّني في قرارة نفسي... كنتُ أراهن على شيءٍ آخر."

السيد أحمد:

"على ماذا كنت تراهن يا بني؟"

قال نعمان وهو يحدّق في البعيد:

"كنت أُراهنُ على أن من سيقرأ، أياً كان فإنه لن يفهم. وحين انتهت الأوراق... طلبتُ غيرها. وعندما جفّ حبرُ القلم، طلبتُ آخر، كنتُ أُطيل في الكتابة... لا لأنّي أهرب منها، بل لأنّي كنتُ أُقاوِم بها، مع أني لم أكن متأكداً من شيء كما كنت يومها متأكد من أن أحداً سيقرأها. لكنّي كنتُ واثقًا من شيءٍ واحد: أنّها صارت خارج جسدي، محفوظةً في درجٍ ما، لكنّها لم تعد تحترق داخلي".

قال والد منى، بتنهيدةٍ دافئة:

"هذا النوع من القتال... لا يُدرَّس".

تابع نعمان:

" وفي ظهيرةِ اليومِ التالي، انتهيت. رقّمتُ الأوراق، وسلّمتُها للحارس. لم أعد أعلمُ من يُراقبُ من، من يكتبُ الحقَّ، ومن يُمثّلُ الصدق.

لكنّني كنتُ أعلم شيئًا واحدًا...

إذا كان على ذلك أن تتوقّفَ حياةُ إنسان، فلن أكون أنا سبباً في ذلك."

"لم أكن أعدُّ اللّيالي، بقدرِ ما كنتُ أُحصي الصّمتَ بين جَلسَتين، والارتجافَ بين خُطوتَين. تلك اللّيلة... شيءٌ فيها لم يُشبه ما قبلها. فيها طعم النّهايات، أو رائحة البدايات التي خُلقَت من ندمٍ لا يُفصِحُ عن نفسِه.

كان الهواءُ في الزّنزانةِ أبرَدَ من العادة، كأنّ الجدرانَ تنفّست أخيرًا بعد اختناقٍ طويل، وزفرت أنفاسَ الذين سبقوني... واحدًا واحدًا، بما فيهم أنا."

قال نعمان هذا، فشهقت مُنَى ببطءٍ، وكأنّها تتنفّس معه البرد ذاته، وهمست:

"وكأنّ الزنزانة تبتلع الذاكرة وتبصق أرواحًا معلّقة"...

أومأ الوالد برأسه، صامتًا.

تابع نعمان:

"الهواءُ في الزّنزانة بدا أكثرَ برودة، لا بفعل المناخ، بل كأنَّ الجُدران تنفّست أخيرًا، وزفرت كلَّ أنفاسِ الّذين مرّوا قبلي. كنتُ على الأرض، لا مُستلقيًا ولا جالسًا، بل مُعلّقًا بين وضعيْن، كأنّما صار جسدي سؤالًا مُعلّقًا لا يُريد جوابًا.

حين أُعادوني إلى الزنزانة، لم أكن أنا.

كان في داخلي شخصٌ آخر، يُشبهني في الاسم والملامح، لكنّه فقد شيئًا لا يُستَعاد.

انغلقتِ البوّابة خلفي بصوتٍ معدنيٍّ كأنَّه ختمٌ على صفحةٍ لا يُراد لها أن تُفتَح.

جلستُ في زاويتي المعتادة، لا أنظر إلى الجدار، بل أراه... كما لو كان مرآةً تفضحني.

قلتُ لنفسي بصوتٍ خافتٍ لا يسمعه إلا أنا: أتُراكَ صدَّقتَهم؟ أم أنّكَ فقط تُحاولُ أن لا تنكسر؟

هل تُخادِعُهم حين تَصمت، أم تُخادِعُ نفسك؟

أكنتَ تأمل أن ينجو أحدٌ؟ أن يكتبَ أحدهم كلمةً تُبرّئك؟

أيّ سذاجةٍ هذه يا نعمان!"

في الغرفة الهادئة حيث يجلسون مستمعين، انعقد حاجبا منى بحزنٍ صامت، وهمس والدها كأنّه يُعلّق على خاطرة لا يَعرف مصدرها: "إنَّهُ يحاكِمُ نفسَه الآن... وهذا أقسى من أيّ تحقيق."

أطرقت منى، وقالت:

"نعم... هو لا يحتمل الظّلم، لكنَّهُ أيضًا لا يُسامح نفسه إن ظنَّ أنَّهُ تهاون لحظة."

تابع نعمان في زنزانته... كأنّه يكتب على الجدران بصوته:

"هؤلاء الذين كانوا هناك، يكتبون... لا ليفضحوا الحقيقة، بل ليدفنوها.

أيعقل أن يكون الإنسانُ في لحظةِ خوفٍ قادِرًا على خيانةِ روحه؟

أم أنَّ الخوفَ لا يُنبتُ الخيانة، بل يكشفُها فقط؟

كنتُ أراهم ينحنون فوق الورق، لا ليكتبوا، بل لينزلوا من السقفِ المنخفضِ للتعذيب، إلى هاويةٍ أعمق."

هنا سألت منى، بصوتٍ رقيقٍ لكنه مشحون:

"هل كانَ خائفًا منهم؟ أم من ذاته"

أجاب والدها وهو يُحدِّق في نقطةٍ وهميّة في الأرض:

"الخوفُ من الآخرين مؤقّتٌ... لكنَّ الخوفَ من نفسك، هو الحبس الحقيقي."

وصوت نعمان يتردّد من عمق الذاكرة، من زنزانةٍ ضيّقةٍ كأنها داخل صدره:

"كم كنتُ أحمقًا حين ظننتُ أنَّ الورق سينصفني، وأنَّ القلمَ عادلٌ إن تركتَه في يدِ مَن لا يعرفُ إلّا أن يكتبَ ما يُملى عليه.

أينَ هي الحقيقة؟

في أوراقِهم الملوَّثة بالخوف؟

أم في نظرةِ معتقلٍ كنتُ أظنُّني لا أعرفه، ثمّ شعرتُ أنّي أُشبهه أكثر من أيّ أحد؟"

شردت منى ببصرها كأنّها ترى الزنزانة في خيالها، وقالت بنبرةٍ تختلط فيها الحيرة بالأسى:

"وكأنَّه يُحاوِلُ أن يجدَ نفسهُ وسط أنقاض الوجوه."

أمّا والدها، فهزّ رأسه ببطء:

"هو لا يُفتِّش عن براءة... هو يُفتِّش عن المعنى."

تابع نعمان:

" طُرِقَ البابُ، لا بعنفٍ كما في السّابق، بل كأنَّ الطّارقَ يستأذن.

فتحتُ عينيّ، فإذا بالحارسِ ذاته، لكنّ خطاهُ كانت أبطأ، ونظراتهُ تُجاهد كي لا تلتقي عيني.

أشار إليّ. نهضتُ بلا سؤال، فقد تعلّمتُ أنّ الأسئلةَ هنا لا تُجاب، بل تُعاقَب.

قالت منى هامسةً وهي تُمسِك بكفِّ والدها:

" كأنّنا نقترب من شيء... شيءٍ لا يُشبه ما سبق".

أومأ الأبُ برأسه، كمن لا يُريد أن يسبق الأحداث:

" دعيه يُكمل، يا منى... الصّمتُ الآن أصدق من كلِّ توقّع".

مضينا، الحارسُ وأنا، في الممرِّ ذاته. لم يتغيّر شيء... لا الرّطوبة، ولا رائحةُ المعدن، ولا طنينُ الصّمت. وحدَنا نحن كنّا نتغيّر.

لكنَّه لم يَقُدني إلى مكتبِ المُحقّق، بل إلى السطحِ حيث لا جُدران مرتفعة، لا سقف، فقط كرسيٌّ حديديّ بلا ظهر، وأسلاكٌ متدلّيةٌ من عُلوّ، وصوتُ رِيحٍ يئنُّ في زوايا الإسمنت.

وقفتُ في المُنتصف، بينما الحارسُ تقهقرَ إلى جانب الجدار، واستحالَ إلى تمثالٍ جامد.

ثم جاء هو. المُحقّق.

لكنّه لم يأتِ وحده... بل بصحبتهِ كوبُ قهوةٍ يتصاعدُ منهُ بخارٌ خفيف. كان يبتسمُ ابتسامةً مدروسة، تُشبه خدعةً مكرّرة.

قال، بصوتٍ بدا كأنّه يُحادثني خارج الزّمن: "هل تُحبُّ الشّمس، يا نُعمان؟"

نظرتُ إليه، دون أن أُجيب. كانت الشّمسُ تهوي ببطء، كأنّها تُجرُّ أذيالها من خجلٍ، والظلالُ تزحفُ ككائناتٍ ليليةٍ تبحث عن حكاية.

قال من جديد، وقد خفّت ابتسامتهُ قليلًا: "أتعلم؟ هذا السّطح شهدَ الكثير من الحوارات... الهواءُ يُلين الرّأس، ويفتحُ القلوب".

لم أُجبه.

اقترب وسحب الكرسيّ: "اجلِس. لا أُريد شيئًا اليوم. فقط... نتحادث كأصدقاء".

جلستُ. لا لثقة، بل لفضولٍ مشوبٍ بالحذر.

قال وهو ينظر إلى الأفق: "هل رأيتَ أحدًا من زملائك هنا؟"

أجبتُ: "لا".

هزّ رأسه كمن يؤكّد احتمالًا: "ولا أنا. فبعضهم... لا أدري إن كانوا ما سيبقون بيننا. في النّهاية، لا أحد يبقى يا نعمان".

صمت. ثم أضاف: "كلُّ شيءٍ يزول... الألم، الأصدقاء، الحقيقة. وحدها القناعة تبقى. إن نجونا".

نظرتُ إليه بصمتٍ، لكن قلبي تمزّق في الظلّ.

مالَ إليّ، وهمس بنبرةٍ أقرب إلى التقرّب: "أنتَ شابٌّ ذكيّ، ولستَ عدوًّا لنا. لكنّ عِنادك يُظهرُك كذلك... فكّر".

عاد إلى الوراء، كمن يُريد أن يتركني مع حديثِ نفسي. ثمّ قال وهو يُدير ظهره: "سأعود بعد قليل".

تبادل والد منى وابنته النّظر، والقلق يرتسم على ملامحهما. تمتم الوالد:

"هم لا يُعطون الهدنة إلا ليزرعوا ما هو أدهى"...

لكنّ نعمان لم ينتهِ من روايته.

قالت منى، وقد غصّ صوتُها:

"كأنّه يُغريك ببصيصِ حريّة، لكنّها مشروطةٌ بالرّكوع".

أجاب الأبُ مُتمهّلًا:

"أو يريد أن يرى إن كان اليأس سيُوقِعه في الطّاعة".

تابع نعمان:

"عاد بعد دقائق. اقترب وهمس في أُذني: "انتبه يا نعمان، وليبقَ هذا سرٌّ بيننا، خلال الأشهر السّتة القادمة، ستبقى أجهزة الأمن تراقبك أين ذهبت، وأنى حللت، حيثما كنت، وستجل كل شيء

عنك، بمن التقيت، وبم تحدثت. لكن عليك أن لا تخف ولا تلتفِت، لا تتردّد، ولا تسأل إلا في أشياء تهم دراستك. وستُستدعَى شهريًّا خلال السنتَين القادمتين، إلى فرع الأمن السياسي، فإياك أن تتخلف، وإياك أن تخاف. ثم كلَّ ستّة أشهر بعد تلكما السنتين، هذا إن كانت التّقارير جيّدة بحقك.

ولك مني! ..... لك أنت فقط على وجه الخصوص بشارة، يومان تقريباً و تنتهي الاجراءات... و ستعود إلى حضن أُمّك".

كأنّ العبارةَ اخترقت جدار الألم، فارتجف قلبي دون إرادةٍ منّي.

رفعت مُنَى يديها إلى وجهها، تُخفي دمعةً باغتتها، وقالت بصوتٍ لا يكاد يُسمَع:

"إنه اختبار ... اختبار لا يشبه أيَّ امتحانٍ في حياتنا".

أما والدها، فظلّ يُحدّق في الفراغ، ثمّ قال:

"هُم لا يُعيدون المعتقلين... بل يُعيدونهم مشفوعينَ بالتّوقُّع، مشدودينَ بخيطٍ لا يُرى".

تابع نعمان:

"همسُهُ لم يكن طمأنينة، بل إعلانًا عن سجنٍ جديدٍ... في الهواء الطّلق. ثم

أشار للحارس، فاصطحبني لا إلى الزنزانة هذه المرّة. بل إلى غرفةٍ فارغة، فيها سريرٌ حديديّ، ونافذةٌ صغيرةٌ تُطلُّ على فسحة ضيقة فجدار ثم على شريطٍ من السّماء.

استلقيتُ. .... أغمضتُ عينيّ ببطءٍ، وهمستُ لنفسي: "ليس هذا كرمًا... بل اختبارٌ آخر. ومَن قال إنّ الليل لا يُخفي أكثرَ ممّا يُبديه؟"

عدت استرجع ما قاله المحقّق بهدوءٍ باردٍ لا يليقُ ببشاراتِ الفرج: "أيامٌ قليلة، وستخرج." كأنَّه يُحدِّثني عن حالةِ طقسٍ ستتبدَّل، لا عن جحيمٍ يُفتحُ بابُهُ بعد أن أُوصدَ طويلًا.

أيامٌ؟

أيّامٌ فقط، وتُفتَحُ السماءُ؟

أيعقلُ أن أعودَ إنسانًا له ظلٌّ خارجَ هذه الجدران؟

ولكن لمَ لم أُجبه؟ وبم أجبه؟.

هل أصدق؟ ولم لا أُصدِّق؟.

لكأنَّ شيئًا ما في داخلي ارتجف، شيئًا يشبهُ يدَ أمِّي وهي تسحبُ الغطاءَ عن وجهي كلَّ صباحٍ، لتقول: "استيقظ، لا تنسَ أن تحلم."

حين أُغلِقَ البابُ خلفَه، وضعتُ رأسي على الجدارِ، وأغمضتُ عينيَّ...

فرأيتُها ... أمّي. ..... جالسةٌ في صدرِ البيتِ، على ذاكَ الكرسيِ الخشبيِّ الذي طالما خيّطَت عليه جراحي الصغرى، تُمسكُ بين يديها ما طرزتهَ، الألوان زهريةً، تطويها ببطء، كأنّها تُهيِّئُها لفرحِ قادم.

الضوءُ يتسلّلُ من النافذةِ كأنَّه يعلمُ، والهواءُ له رائحةُ ياسمينٍ جديدٍ.

تقومُ فجأةً، تُنصتُ... كأنَّ أقدامًا مألوفةً تقتربُ من الباب.

تتقدَّمُ ببطء، تتردَّدُ، ثم تفتحه... وأراها، للحظةٍ، تتجمَّدُ.

تُحدِّقُ بي طويلًا، لا تصدِّق.

ثم تركض، وتركضُ، وتركض...

تحتضنني، وتهمسُ في أذني: "رجعتَ؟ واللهِ، كنتُ أعلمُ أنكَ ستعود."

أبكي في حضنها، لا لأنّي ضعيف، بل لأنّي أخيرًا وصلتُ.

وصلتُ إلى النقطةِ التي تهدأُ فيها الأرواحُ، ولو مؤقّتًا.

لكن صوتًا غليظًا طرقَ البابَ من الداخلِ،

فانكسرَ الحلمُ، وتلاشى وجهُها في الظلمةِ،

وعُدتُ إلى الزنزانةِ، إلى الرطوبةِ، إلى اسمي الذي وجدتني أكتبه برماد جمعته من الأرض حتى صار كالطبشورِ على الحائطِ، أكتب تردّد صدى صوت أمي بصمتٍ: "نعمان... سيعود."

كنت لا أزال نعمان في زنزانتي الجديدة، لكنّ قلبي يسبق جسدي إلى البيت، أتخيل يومي الأوّل بعد الإفراج، لحظةً بلحظة، كما لو كنت أعيشها، حتى لا تضيع مني إن جاءت -

في تلكَ الليلةِ، بعد أن غادرَ الحارسُ وهو يجرُّ ظلَّه الثقيل، عدتُ إلى حلمي.

تخيلتُ صباحي الأوَّل في البيت...

سأستيقظُ على صوتِ المِفتاحِ في البابِ، لا صوتِ السلاسلِ في الممرِّ.

و رائحةُ القهوةِ لا رطوبةُ الجدرانِ.

ووجهُ أمّي يملأُ الأفقَ، يتقدَّمُ إليّ، يمدُّ يديه،

يُلقي عني بطانيةَ المعتقلِ ويقول بصوتٍ يشبه الدعاءَ: "الحمدُ لله، رأيتُكَ نائمًا في فراشِكَ أخيرًا."

أجلسُ على الحافةِ، أنظرُ حولي،

الجدرانُ نظيفةٌ، لا آثارَ أقدامٍ عليها،

النافذةُ مفتوحةٌ، وعصفورٌ صغيرٌ يُغنّي، كأنَّه كان ينتظرُني ليُخبرني أن العالمَ ما زال هنا.

أمّي في المطبخِ تُحضّرُ فطورًا بسيطًا،

زيتَ زيتونٍ، بيضًا مقليًا كما كنتُ أحبّه، ورغيفًا ساخنًا من التنّورِ،

تُناديني وهي تُربّتُ على الطاولةِ: "تعالَ كُل، ولا تُفكّرْ بشيءٍ اليوم، لا شيء سوى أنّك هنا... بخير."

أجلسُ أمامَها، أُحدِّقُ في وجهِها الذي غاب عني ألف عامٍ في أيامي التي أمضيتها هنا.

كلُّ ملامحها هنا معي، كلُّ كلماتها تحتَويني، عيناها ترقب تفاصيل وجهي، لم يغب عني وجها الذي أعرفه جيداً، أحفظه أكثر ما حفظت اسمي، أراهُ الآن كأوَّل مرةٍ، وكأنّي وُلِدتُ للتوّ من رحمِ الغيابِ إلى حضنِ الحياة.

أسألُها: "أمّي، هل كنتِ تنتظرينني كلَّ هذا الوقت؟"

تبتسمُ، وتُومِئُ برأسِها: "وهل ينامُ قلبُ الأمِّ ما دامَ ولدُها في الظلمةِ؟"

تُقدِّمُ لي كأسَ الشاي، ولكن يديها ترتجفانِ،

تُخبِّئُ دموعَها فتنظر إلى الملعقةِ، وتقولُ وهي تُبعِدُ نظرَها عنّي: "كنتُ أرتِّبُ غرفتكَ كلَّ يومٍ، كأنَّكَ ستدخلُها الليلةَ. كنتُ أُطفئُ النورَ وأقول: إن عادَ، فليجدْها كما تركَها."

وأنا، كنتُ أريدُ أن أقولَ لها إنّي متُّ ألف مرَّةٍ هناك، لكنّي أعُود... لأعيشَ بها.

إنها تقدم لي طعام الافطار. تطعمني بيدها، بعد أن نفرغ من الإفطار، أبقى جالسًا قربَ أمّي، نحتسي الشاي في صمتٍ دافئٍ، كأنّنا نخاف أن نبدِّد هذه اللحظةَ بالكلام.

تمدّ يدَها إلى وجهي، تمسح بباطن كفِّها على وجنتي، ثم تقول بنبرةٍ تُشبه الهمسَ: "كبرتَ كثيرًا يا نَعمان... لكن عيناكَ ما زالتا عينا طفلي."

أنظرُ إليها طويلًا، ولا أُجِب. كأنّ الكلامَ سيصير أضعف من هذه اللحظة.

ثم تقول، وهي تنهضُ على مهلٍ: "اذهبْ، خذْ نفسًا في الخارج فأهل الحيّ... الناسُ ينتظرونك."

أخرجُ من البابِ متردّدًا، كأنَّ الهواءَ في الخارجِ غريبٌ عليّ.

أولُ شيءٍ أفعلُه أن أرفع وجهي إلى السماءِ... نَفَسٌ طويلٌ، لم تسبقْه صفعةٌ ولا أمرٌ بالصمت.

الشارعُ ضيّقٌ كما كان، لكنّه يبدو أوسعَ من ذاكَ الممرِّ الطويلِ في المعتقل.

الأبوابُ ذاتها، النوافذُ ذاتها، لكنّ العيونَ التي تطلُّ منها لم تَعُد كما كانت.

أخطوُ خطواتٍ قليلة، فأسمعُ صوتًا خلفي: "نعمان؟! هو أنت؟"

التفت، فإذا هو الحاجّ حسين، صاحبُ البقالةِ، واقفًا ببابه كأنّه رأى عائدًا من الغيب.

يقتربَ بخطًى متردّدة، ثم يحتضنني بقوةٍ ويقول: "الحمدُ لله، حيّ... حيّ، يا ناس!"

ويبدأ النداءُ ينتشر كالماء: "نعمان رجع!"، "ابن حينا رجع!"

"رجع من الغياب الطويل!"، أطفالٌ يركضون حولي، نساءٌ يُطِلْنَ من الشرفات،

ورجالٌ يتقدَّمون ويصافحونني بشيءٍ من الحذر، كأنّهم لا يريدون أن يؤلموني،

ولا أن يُصدّقوا تمامًا.

أحدهم يهمسَ لي: "كأننا نحلم، يا أخي... كأنك خرجتَ من قبر، لا من زنزانة."

أسيرُ في الحيِّ كمن يعودُ إلى ذاته، إلى الطينِ الذي صاغَ قلبه، كلّ حجرٍ على الرصيفِ أعرفه، وكلّ ظلالٍ على الجدرانِ كانت تُحدّثني في الليلِ البعيدِ.

أصلُ إلى زاويةٍ عند حائطٍ مائل، حيث كنا نلعبُ صغارًا. أقفُ هناك، أبكي لأول مرّةٍ، لا من ألم، بل من امتلاء.

أعودُ إلى البيت مع الغروب، تفتح أمّي البابَ قبل أن أطرقه.

تقول، وهي تفتح ذراعيها: "كنتُ أعلمُ أنّكَ ستعودُ قبل أن يبردَ الشاي."

أدخل إلى غرفتي القديمة، حيث تبدأ الذاكرة في نسج خيوطها من جديد، ويعود الطفل الذي تركه هناك منذ أعوام.

أدخلُ غرفتي كما يدخل الغريبُ بيتًا سكنه يومًا في حلمٍ قديمٍ.

كانت كما تركتُها، أو كما أرادت أمّي أن تبقى.

الكتبُ على الرفِّ، وبعضُ الأوراقِ القديمةِ موضوعةٌ بعنايةٍ في صندوقٍ خشبيٍّ صغير.

حتى معطفي الذي كنتُ أعلّقُه على المسمارِ خلف الباب، لا يزال هناك، لكنّه الآن مغبرٌّ بعضَ الشيء، فكأنّه شاخَ معي.

اقتربُ من السريرِ وأجثو على ركبتي، أضعُ كفّي على الغطاءِ البسيطِ الذي خاطتْه أمّي بيديها. كان يحملُ رائحةَ البيت، رائحةَ الحبِّ الصامت، الذي لا يعلو صوته، لكنّه يحيا في التفاصيلِ الصغيرة.

على الجدارِ، ما زالت معلّقةً تلكَ الصورةُ التي رسمتها عندما كنت صغيراً، وجهي بألوانٍ غير متناسقة، وعبارة: "أمي .... ولا شيء يساوي أمي!"

كم بكيتُ حين رسمها... وكم أبكي الآن.

أجلسُ على طرفِ السرير، كأنّي أستمعُ إلى شيءٍ لا يُقال.

الصمتُ في الغرفةِ لم يكن صمتًا، بل حوارًا طويلًا مع أشياءَ عرفتني في وحدتي، وانتظرتني بلا ملل.

أسمعُ طرقًا خفيفًا على الباب، ثم تدخلُ أمّي تحملُ بيدها كوبَ حليبٍ ساخن، كما كانت تفعلُ في الليالي الباردة، حين كنت أتأخر في السهر وأنا أطالع في كتبي.

تقول وهي تضعُه أمامي: "أعرفُ أنّك تحبُّه قبل النوم."

ثم تجلس إلى جانبي، وتقول بصوتٍ خفيضٍ، كأنّها تخشى أن توقظَ جرحًا: "حسناً... انتهى كلُّ شيءٍ الآن، أليس كذلك؟"

أنظرُ إليها، وفي عينيها شيءٌ من التردُّد، كأنّها لا تريدُ أن تصدِّقَ أن الليلَ الطويلَ قد انتهى فعلًا.

أقول وأنا أمسكُ يدَها: "انتهى يا أمّي... ولكنْي بقيتُ داخله."

تضمني، كما كانت تفعلُ حين أعودُ متعبًا من المدرسةِ، أو من العمل، وتقول: "لن تَبقى، سأستعيدُك كما كنتَ... شيئًا فشيئًا، وسنغسلُ عنك الليلَ بكؤوسِ الصباحِ الطيّب."

تلكَ الليلة، حلمت بأني نمتُ على سريري القديمِ، وأنا أشعرُ أنّي طفلٌ يعودُ من دهليزِ كابوسٍ طويلٍ، لينامَ، أخيرًا، في حضنِ السلام.

في عزلة المعتقل، تبدأ الطفولة بالتسرّب من بين التشققات، حاملة معها ابتسامة أمّي، ويدًا صغيرة تمسك بيدي نحو البوابة الكبيرة... فالضوء خافتٌ يكاد لا يكفي لتكوين ظلّ،

لكنّه كان كافيًا لتكوين حلم.

أغمضت عيني، فوجدَت نفسي واقفًا عند بابِ المدرسة.

طفلٌ في الثامنةِ من عمره، في يومه الثاني للمدرسة، يحملُ بيده حقيبةً صغيرة، وشيئًا من الخوفِ يتدلّى من عينيه كدمعةٍ تائهة.

إلى جانبه أمُّه، تمسكُ بيده بقوة، كأنّها تُسلم العالمَ لهذا الطفلِ دفعةً واحدة.

تقول له وهي تُصلح له ياقة قميصه: "كن شجاعًا، يا روحي... المدرسةُ بيتُك الجديد."

لم يكن يفهم معنى "البيت الجديد"، لكنه شعرَ أنّ كلَّ العصافيرِ التي كانت تحطُّ على نافذته في القرية، قد جاءت اليومَ لترافقه.

نادى عليه ذلك المعلّمُ ذي اللحيةِ الخفيفة، الذي أخذه من يد والده وجده واصطحبه يوم أمس إلى الصف وصوتٍ رخيم: "أنتَ... نعمان ... تعالَ يا بُني، سنبدأُ الدرس."

يدخلَ الصف، فيتقدّم بخطى صغيرة، ويجلَسَ على المقعدِ الخشبيّ، كان ملمسه خشنًا،

لكنّه يبدو له مثلَ منصةٍ عالية.

يفتح المعلّمُ كتابًا، ويقول: "اليومُ، سنكتبُ الكلمةَ الأولى."

ويناوله طبشورةً، وأشار إلى السبورة.

ينهضَ نعمان، يقترب منها، يمدّ يده و يكتب: "أُمِّي".

استفقتَ في الزنزانة على همهمةِ الحارسِ خلف الباب.

لكنّه لم يُفلتِ الابتسامةَ من شفتيه.

فكّرت في نفسي: "ربّما سأكتبُها من جديدٍ حين أخرج... لكن هذه المرّة، لن تكون على السبورة، بل على جدران الدنيا."

نهضَت، اقتربت من الحائط، ورسمت بإصبعي الكلمة ذاتها، على الجدار البارد: "أُمِّي".

وابتسم الحرف فابتسمت، وأصبح الحرفَ يُضيء.

وكان يكفي أن يضيء الحرف

حتى تتجسد لي به أمي

فيُضاء به

× معتقل الشيخ حسن ×

على أعتاب الحلم
نعمان البربري

كانَ الوقتُ مساءً دافئًا من مساءاتِ الخريفِ المُبكِّر، حينَ التأمَ الجمعُ الصغيرُ في غرفةِ الجلوسِ في بيتِ السّيِّدِ أحمد.
جلسنا في دائرةٍ من نورٍ خافتٍ، تنبعثُ من مصباحٍ جانبيٍّ موضوعٍ على طاولةٍ من خشبِ الجوز المعتّق.
كانت منى تُقلب بين يديها كتابًا صغيرًا لم تُنهِ قراءتَه بعد، بينما والدها جلس في المقعد الوثير، يقلب جريدةً لم يقرأ منها سوى العناوين.

رفعت منى عينيها فجأةً، كأنها انتبهت لسؤال ظلّ مؤجلاً، ثم قالت بصوتٍ هادئٍ، لكن فيه رغبة صريحة في المعرفة:
ـ "نُعمان... مَتَى خَرَجْتَ مِنَ ٱلْمُعْتَقَلِ؟ وَكَيْفَ؟"

سكتَّ لحظةً. ثمّ نظر إلى والدِها، وقال بصوتٍ خفيضٍ ولكن واضح:
ـ "خَرَجْتُ فِي يَوْمِ ٱلْأَرْبِعَاءِ، فِي ٱلسَّادِسِ عَشَرَ مِنْ تَشْرِينَ ٱلثَّانِي، عَامَ أَلْفٍ وَتِسْعِمِئَةٍ وَأَرْبَعَةٍ وَسَبْعِينَ... كَانَ ذٰلِكَ ٱلثَّلَاثِينَ مِنْ رَمَضَانَ، وَقَدْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمُ يُوافِقُ ٱلصِّيَامَ وَقُرْبَ ٱلْعِيدِ، يومٌ لن أنساه، لا بل يكادُ يكونُ فاصلًا بينَ حياةٍ أُغلقتْ عليّ فيها الأبوابُ، وأخرى فُتِحَتْ... لكن ليسَ على مصراعيها".

رفعت منى حاجبَيْها بدهشةٍ خفيفة، وقالت بنبرةٍ متأثرة:
ـ "قُبَيْلَ ٱلْعِيدِ؟! يا إِلٰهِي... وَكَيْفَ كَانَ ٱلْخُرُوجُ؟"

ـ "عَرَضُونِي عَلَى قَاضِي ٱلتَّحْقِيقِ ٱلْأَوَّلِ فِي ٱلْقَصْرِ ٱلْعَدْلِيِّ بِدِمَشْقَ، وَبَعْدَ أَنْ قَرَأَ ٱلْمِلَفَّ، نَظَرَ إِلَيَّ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ بِجِدِّيَّةٍ بَارِدَةٍ: (لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَاكَ هُنَا مَرَّةً أُخْرَى). ثُمَّ مَدَّ لِي بِبِطَاقَةِ هُوِيَّتِي... وَأَخْلَى سَبِيلِي".

أطرقَ السّيِّدُ أحمد، وقد بان في عينيه أثرُ تأمُّلٍ، وكأنّه استعادَ ذكرى بعيدة. ثمّ قال بنبرةٍ متفحّصة:
ـ "وهل كان الأمرُ قد انتهى عند هذا الحدّ؟"

أجابه وهو يتنفّسُ بعمقٍ، كأنّه يستحضرُ الدقائق نفسها:
ـ "لَا... قَالَ لِي ٱلْقَاضِي: (قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إِلَى ٱلْبَيْتِ، عَلَيْكَ أَنْ تُراجِعَ شُعْبَةَ ٱلْحِزْبِ فِي مَدِينَتِكَ، وَتَتَقَدَّمَ بِطَلَبِ ٱنْتِسَابٍ إِلَى حِزْبِ ٱلْبَعْثِ، إِنْ أَرَدْتَ ٱلضَّمَانَ لِنَفْسِكَ وَمُسْتَقْبَلِكَ)".

شهقت منى بخفّةٍ، وقالت بصوتٍ يكاد يُشبه الهمس:
ـ "وَهَلْ... فَعَلْتَ؟"

ابتسم ابتسامةً باهتةً، ثمّ تابع:
ـ "كُنْتُ فِي قَاعَةِ ٱلْمَحْكَمَةِ وَجِدِّي لِأُمِّي يَنْتَظِرُنِي، كَأَنَّهُ قَدْ سَبَقَ ٱلْمَعْرِفَةَ إِلَى مَكَانِي. لَمْ يَتْرُكْ يَدِي، وَسَارَ بِي فِي شَوَارِعِ دِمَشْقَ كَمَنْ يُرَافِقُ طِفْلًا فِي ٱلْعَاصِفَةِ. دَفَعَ أُجْرَةَ ٱلْبَاصِ، وَلَمْ يُفْلِتْ يَدِي حَتَّى نَزَلْنَا. وَذَهَبَ بِي إِلَى دُكَّانِ وَالِدِي... ٱسْتَقْبَلَنِي ٱلْجَمِيعُ بِفَرَحٍ لَا يُوصَفُ".

أغمضَت منى عينيها لحظة، وكأنّها تُحاول تخيّل المشهد، ثمّ قالت:
ـ "وكيف كان لقاؤك بأمّك؟"

هنا، انخفض صوته من تلقاء نفسه، وكأنّه استعاد تلك اللحظة بكلِّ ما فيها من ارتعاش:
ـ " كانت تَنْتَظِرْنِي عِنْدَ ٱلْبَابِ، وما إن رأتني حتى ٱنْدَفَعَتْ نَحْوِي كَسَيْلٍ يُفَجِّرُ سُدُودَ ٱلْوَقَارِ.
واحتضنتني، ثم جعلت وجهي بين راحتيها، وعيناها تُمطرانني شوقًا ودعاءً.
... عَانَقَتْنِي، وَبَكَتْ. كَانَتْ تَبْكِي كَأَنَّهَا تَطْمَئِنُّ أَنَّ ٱلْحَلْمَ قَدْ عَادَ".

وتابع:

- " خَرَجْتُ مِن قاعَةِ القَصْرِ العَدْلِيِّ في دِمَشْقَ، وَنَفَسِي يَتَرَدَّدُ كَأَنَّهُ يَخْرُجُ عَلَى اسْتِئْذَانٍ. كَانَ الهَوَاءُ يَبْدُو ثَقِيلًا، لا لِكَثَافَتِهِ، بَلْ لِأَنَّهُ مُحَمَّلٌ بِذِكْرَى أَيَّامٍ لَمْ تَكُنْ تَشْبِهُ أَيَّ أَيَّامٍ.

فِي رُدْهَةِ الاِنْتِظَارِ المُتْرَعَةِ بِوُجُوهٍ مُبْهَتَةٍ، لَمَحْتُهُ... جَدِّي لِوَالِدَتِي.

كَانَ وَاقِفًا هُنَا أمام الباب، شَامِخًا كَجَبَلٍ صَبُورٍ، يَتَكِئُ عَلَى عَصًا خَفِيَّةٍ مِنَ الدُّعَاءِ، وَعَيْنَاهُ تَسْبِقَانِ خُطَايَ، كَأَنَّهُ يَتَلَقَّانِي قَبْلَ أَنْ أَصِلَ.

تَقَدَّمْتُ بِخُطًى مُرْتَبِكَةٍ، وَصَدَايَ يَتَرَدَّدُ فِي المَكَانِ كَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْ بَعْدُ أَنَّهُ نَجَا.

لَحَظَاتٌ قَبْلَ ذَلِكَ، كُنْتُ أَمَامَ قَاضِي التَّحْقِيقِ الأَوَّلِ فِي دِمَشْقَ. رَجُلٌ فِي وَسَطِ الخَمْسِينَ، لَمْ تَكُنْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ القَسْوَةُ، وَلَا البِشْرُ. نَظَرَ إِلَيَّ كَمَنْ يَرَى شَبَحًا عَادَ مِنْ مَصِيرٍ مَفْقُودٍ.

طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَقْتَرِبَ إِلَى حَدِّ طَاوِلَةِ مَكْتَبِهِ، وَقَالَ: ـ "لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَاكَ هُنَا مَرَّةً أُخْرَى." ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ، وَكَانَتْ فِيهَا هُوِيَّتِي الشَّخْصِيَّةُ، يُمْسِكُهَا بَيْنَ سَبَّابَتِهِ وَإِبْهَامِهِ، كَمَنْ يُعِيدُ لِصَاحِبِهَا نَفَسَهُ بَعْدَ اِخْتِنَاقٍ.

أَرْجَعَهَا إِلَيَّ بِحِرْصٍ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ وَجْهًا لِوَجْهٍ، كَأَنَّهُ يُسْمِعُ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُسْمِعَنِي: ـ "قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى بَيْتِكَ، عَلَيْكَ أَنْ تُرَاجِعَ شُعْبَةَ الحِزْبِ فِي مَدِينَتِكَ، وَتَتَقَدَّمَ بِطَلَبِ اِنْتِسَابٍ إِلَى حِزْبِ البَعْثِ العَرَبِيِّ الاِشْتِرَاكِيِّ."

صَمَتَ، ثُمَّ أَضَافَ بِصَوْتٍ هَادِئٍ، لَكِنَّهُ مُثْقَلٌ بِالْمَعْنَى وَفِي صَوْتِهِ نَبْرَةٌ تَتَذَبْذَبُ بَيْنَ التَّوْبِيخِ وَالتَّحْذِيرِ، وَعَيْنَاهُ تَجُوبَانِ قَاعَةَ المَحْكَمَةِ الصَّغِيرَةَ الخَالِيَةَ إِلَّا مِنْ كِلَيْنَا (هو وأنا)، وَبِشِدَّةٍ إِلَى البَابِ المُوصَدِ خَلْفِي بِإِحْكَامٍ: ـ "إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَأْمَنَ عَلَى حَيَاتِكَ... وَعَلَى مُسْتَقْبَلِكَ الدِّرَاسِيِّ، وَالمِهَنِيِّ، وَالاِجْتِمَاعِيِّ... فَهُوَ طَرِيقٌ وَاحِدٌ، يَا وَلَدِي."

كَانَ صَوْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيَّ كَحَجَرٍ فِي بِئْرٍ. رَدَدْتُ بِنَظْرَةٍ صَامِتَةٍ، لَا فِيهَا قَبُولٌ، وَلَا رَفْضٌ... فَقَطْ صَمْتُ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّهُ مَازَالَ فِي عَيْنِ العَاصِفَةِ، وَأَنَّ النَّجَاةَ لَا تَعْنِي الحُرِّيَّةَ، بَلْ مُجَرَّدَ هُدْنَةٍ قَصِيرَةٍ. أما جدي الذي أمسكَ بيدي كما لو أنّهُ يُمسكُ بحلمٍ طالَ انتظارهُ، أو بخوفٍ خشيَ ضياعهُ.
لم يتكلّم كثيرًا، ولم أكنْ أحتاجُ الكلماتِ. كانتْ يدهُ وحدها، المشدودةُ إلى كفي، تقولُ كلّ شيءٍ.

أمسكَ بيدي طوال الطريق، لم يُفلتها، كأنّهُ يخشى أن أتبدّدَ فجأةً، كما تتبدّدُ الأحلامُ عند الفجرِ. بينما كنتُ أُحاولُ أن أُقنعَ نفسي أنّني لم أعد في المعتقل.

عندَ وصولِنا إلى المدينة، قادَني إلى دكّانِ والدي في السوق.
كانَ الدكّانُ يعجُّ بالزبائن، رجالٌ ينتظرونَ دورَهم لحلاقةِ العيد، وأبي خلفَ الكرسيِّ منهمكٌ بمقصّه، حتى التفتَ... فرآني.
تجمّدَ للحظة، ثمّ ابتسمَ كما لم يفعلْ من قبل، ورمَى المقصَّ جانبًا، وهرولَ ناحيتي، احتضنني كما لم يحتضنني من قبل، واعتذرَ إلى زبائنه بصوتٍ متهدّجٍ:
ـ "اسمحوا لي... عيدُنا اليومَ قد بدأ".

رَافَقَنا جَدِّي إِلَى مَنْزِلِهِ القَرِيبِ، وَهُنَاكَ... عِندَ البَابِ، كَانَتْ أُمِّي تَنْتَظِرُ، وَقَلْبُهَا يَتَقَدَّمُهَا خُطْوَةً.

مَا إِنْ رَأَتْنِي، حَتَّى ارْتَفَعَ صَوْتُهَا بِالنَّشِيجِ... لَا، لَيْسَ بُكَاءً عَادِيًّا، بَلْ صَوْتٌ خَرَجَ مِنْ أَعْمَاقِهَا كَمَا يَخْرُجُ الأَذَانُ فِي لَيْلٍ مُمْطِرٍ؛ نِدَاءٌ يَفْتَحُ أَبْوَابَ القَلْبِ وَيَسْقِي الذِّكْرَى.

اِحْتَضَنَتْنِي، وَوَضَعَتْ وَجْهِي بَيْنَ كَفَّيْهَا، كَأَنَّهَا تُطَمْئِنُهُ أَنَّهُ عَادَ، أَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ بِالْكُلِّيَّةِ... وَعَيْنَاهَا تُطْلِقَانِ أَمْطَارًا مِنَ الشَّوْقِ وَالدُّعَاءِ، كَأَنَّهَا تُغَسِّلُنِي مِنْ خَوْفٍ قَدِيمٍ.

وَفَجْأَةً، اِنْطَلَقَتِ الزَّغَارِيدُ مِنْ حَنَاجِرِ النِّسْوَةِ فِي بَيْتِ جَدِّي، كَأَنَّهَا أَجْرَاسُ نَجَاةٍ تُقْرَعُ فِي أُذُنِ الْحَيِّ كُلِّهِ. وَهَرَعَت قَرِيبَاتُ أُمِّي مِنَ المَطْبَخِ، يَتْرُكْنَ مَا فِي أَيْدِيهِنَّ مِنْ طَبْخٍ وَخَبْزٍ وَتَحْضِيرٍ، وَهُنَّ يُرَدِّدْنَ الزَّغَارِيدُ وتضمني خالتي إليها وهي تقول:

ـ "رَجَعْ... رَجَعْ نُعْمَان، رَجَعْ وَاللهِ رَجَعْ!"

لَمْ يَكُنْ بَيْتُ جَدِّي وَاسِعًا لِيَحْتَوِيَ كُلَّ ذَلِكَ الفَرَحِ، فَانْتَشَرَ عَلَى الأَرْصِفَةِ، وَصَعِدَ مَعَ الدُّخَانِ العَطِرِ، وَطَافَ عَلَى الأَبْوَابِ يَسْتَأْذِنُهَا... أَيُّهَا الجِيرَانُ، نُعْمَانُ قَدْ عَادَ.

الأَيَادِي كَانَتْ تُعِدُّ مَوَائِدَ الإِفْطَارِ، وَالْقُلُوبُ تُصَلِّي فَرَحًا، وَأَنَا؟ كُنْتُ أُحَاوِلُ أَنْ أُصَدِّقَ أَنَّنِي عُدْتُ. كَأَنَّ فِي رُوحِي بَقَايَا قَيْدٍ... لَمْ تُنْزَعْ بَعْدُ.

وَقَبْلَ أَنْ يُؤَذِّنَ المَغْرِبُ، وَنَجْلِسَ لِطَعَامِ الإِفْطَارِ، تَذَكَّرْتُ تِلْكَ الجُمْلَةَ الَّتِي نَطَقَ بِهَا القَاضِي، وَتِلْكَ الَّتِي لَمْ يَقُلْهَا... تِلْكَ الَّتِي وَجَدْتُهَا فِي نَبْرَةِ صَوْتِهِ، وَنَظْرَتِهِ، وَفِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي أَمْسَكَ بِهَا بِطَاقَةَ هُوِيَّتِي.

اِلْتَفتُّ إِلَى وَالِدِي وَقُلْتُ، وَصَوْتِي يَسْتَأْذِنُ كَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ فَرَحٍ إِلَى وَاجِبٍ:

ـ "أَبِي... القَاضِي أَوْصَانِي أَنْ أُرَاجِعَ شُعْبَةَ الحِزْبِ فِي دُومَا، قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى البَيْتِ."

لَمْ يَتَكَلَّمْ. فَقَطْ أَمْسَكَ بِيَدِي، كَمَا فَعَلَ جَدِّي، وَسِرْنَا سَوِيًّا. الطَّرِيقُ لَمْ يَكُنْ بَعِيدًا، وَكُنَّا نَعْرِفُهُ جَيِّدًا؛ فَمَقَرُّ الشُّعْبَةِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ بَيْتِ جَدِّي.

لَكِنْ... عِنْدَمَا وَصَلْنَا، وَجَدْنَا الأَبْوَابَ مُغْلَقَةً، وَالمَكَانَ خَالِيًا.

اِقْتَرَبَ مِنَّا أَحَدُ الجِيرَانِ، وَهُوَ يَهُمُّ بِالسَّلَامِ عَلَيْنَا وَقَدْ لَاحَتِ البِشْرَةُ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ مُبْتَسِمًا:

ـ "العِيدُ غَدًا، يَا أَبَا نُعْمَان... الشُّعْبَةُ مُغْلَقَةٌ، سَيَعُودُونَ بَعْدَ اِنْتِهَاءِ عُطْلَةِ عِيدِ الفِطْرِ."

نَظَرْتُ إِلَى وَالِدِي، فَتَنَهَّدَ، وَقَالَ بِنَبْرَةٍ فِيهَا مَزِيجٌ مِنَ الحَذَرِ وَالتَّسْلِيمِ:

ـ "لِكُلِّ شَيْءٍ وَقْتُهُ... وَاليَوْمُ، يَا بُنَيَّ... يَوْمُكَ. هَيَّا، لِنُسْرِعْ فِي العَوْدَةِ، فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَذَانِ المَغْرِبِ سِوَى دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ." لكنني ما زلت أشعر بأني لم أعدْ في المعتقل... لكنّني لم أخرجْ منه كليًّا بعدُ".

بَعْدَ الإِفْطَارِ، وَفِيمَا كَانَت أصواتُ المُآذِّنِ تَتَرَنَّمُ فِي الأُفُقِ كَأَنَّها تُعَلِّقُ نَجْمًا جَدِيدًا عَلَى سَمَاءِ العِيدِ، اِسْتَأْذَنَ وَالِدِي بِصَوْتٍ هَادِئٍ لِلْعَوْدَةِ إِلَى دُكَّانِهِ ...فَالزَّبَائِنُ والجِيْرَانِ وبعضُ الأصدقاءِ لَمْ يَغَادِرُوا، وَكُلٌّ مِنْهُمْ كَانَ يَتَسَمَّرُ فِي مَكَانِهِ كَمَنْ يَنْتَظِرُ دَوْرَهُ فِي حِصَّةِ لَيَالِي رَمَضَانَ والعِيْدِ مِنَ الحَدِيثِ وَالحِلاقَةِ وَالشَّايِ.

لَمْ أَكُنْ أَدْرِي حِينَهَا أَنَّ الدُّكَّانَ لَدَيْهِ قَلْبٌ آخَرُ ...قَلْبٌ يُنَبِّضُ بالحياة لِلآخَرِينَ فِي جَانِبِهِ المَجَازِيِّ، وَهُوَ ذَلِكَ المَطْعَمُ الصَّغِيرُ الَّذِي يَمْلِكُهُ صَدِيقُ وَالِدِي، "أَبُو رَشِيد الجُوبَان"، الَّذِي كَانُوا يُنَادُونَهُ بِـ"الوَزِير"، لا لِقُرْبِهِ مِنْ سُلْطَةٍ، بَلْ لِحِسِّهِ الفَنِّيِّ فِي تَرتِيبِ الصُّحُونِ وَتَزْيِينِ المَوَائِدِ.

كَانَ "أَبُو رَشِيدٍ" ـ بِتِلْكَ اللِّحْيَةِ الخَفِيفَةِ، وَالصَّوْتِ الرَّخِيمِ ـ يُعِدُّ مَائِدَةَ الإِفْطَارِ وَيَحْمِلُهَا كَتُحْفَةٍ، وَيُودِعُهَا فِي دُكَّانِ أَبِي، لِيَأْكُلَ كُلُّ مَنْ يَجْلِسُ هُنَاكَ، دُونَ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ دَوْرِهِ، أَوْ يَفْقِدَ حَظَّهُ مِنْ حِصَّةِ الحِكَايَةِ وَالحُضُورِ.

أَكْوَابُ الشَّايِ؟ آهٍ، تِلْكَ قِصَّةٌ أُخْرَى...

كَانَ شَايُ أَبِي، ذَاتَ نَفْسٍ، يُحضَّرُ عَلَى مَهَلٍ كَأَنَّهُ طَقْسٌ مِنْ طُقُوسِ العِشْقِ. فَالنَّارُ هَادِئَةٌ، وَالمَاءُ يُسْكَبُ بِزَوَايَا وَاثِقَةٍ، وَالشَّايُ تُضَافُ فِي لَحْظَةٍ تُشْبِهُ التَّعْوِيذَةَ. وَكَانَ كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الشَّايِ يَقُولُ، كَأَنَّهُ يُسَلِّمُ بِحَقِيقَةٍ أَبَدِيَّةٍ:

ـ "مَهْمَا شَرِبْتَ شَايًا، فَلَنْ تَتَذَوَّقَ مِثْلَ ذَلِكَ الَّذِي تَصْنَعُهُ يَدُ أَبِي نُعْمَان".

وَهِيَ عِبَارَةٌ اتَّفَقَ الجَمِيعُ عَلَى تَرْدِيدِهَا، كَأَنَّهَا حُكْمٌ جَمَاعِيٌّ لَا يُنْقَضُ، وَمَعَهَا كَانُوا يُثْنُونَ عَلَى صَحْونِ "أَبِي رَشِيد"، وَتَرْتِيبِهِ، وَتَنَاغُمِ مَكَوِّنَاتِهِ :الجُبْنَةُ البَيْضَاء، وَالمُرَبَّى، وَالتَّمْرُ، وَالزَّيْتُونُ، وَشَرَائِحُ البَيْضِ، وَقِطَعُ الخُبْزِ المُحَمَّصِ، وَرَشَّةُ الزَّعْتَرِ عَلَى الطَّرَفِ، إِضَافَةً إِلَى صُحُونِ الحُمُّصِّ وَالفُولِ بِتَرَاتِيبِهَا وَتَعَدُّدِ أَنْوَاعِهَا، مُفْرَدَةً تَارَةً وَمُجَمَّعَةً تَارَةً أُخْرَى.

تِلْكَ كَانَتْ دُكَّانَ أَبِي فِي رَمَضَان ...حَلَقَةُ وُدٍّ، وَمَائِدَةُ كَرَمٍ، وَمَجْلِسُ قَصَصٍ... وَكُلُّ مَنْ فِيهِ سَيَنْتَظِرُ أَنْ يَعُودَ شَهْرُ رَمَضَانَ المُبَارَك لِيُقْسِمُ أَنَّ فِي تِكْرَارِ الحِكَايَةِ لَذَّةً لا تَقِلُّ عَنْ تَجْرِبَتِهَا الأُولَى.

ٱسْتَأْذَنْتُ الجَمِيعَ، بِكُلِّ لُطْفٍ، أَنْ أَعُودَ إِلَى بَيْتِنَا، وَأَلْتَجِئَ إِلَى رِحَابِ غُرْفَتِي... فَكَمْ كُنْتُ أَشْتَهِي ذٰلِكَ اللِّقَاءَ الحَمِيمَ مَعَ المَاءِ، وَذٰلِكَ السُّكُونَ العَذْبَ فِي ثِيَابٍ نَظِيفَةٍ، وَسَرِيرٍ يُشْبِهُ الحَنَانَ. كُلُّ خَلِيَّةٍ فِي جَسَدِي كَانَتْ تَصِيحُ: **نَوْمٌ... نَوْمٌ طَوِيلٌ، كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ فِي الدَّاخِلِ أَصْوَاتَ مَا زَالَتْ تَرْتَجِفُ.**

أَرَادَتْ أُمِّي أَنْ تُرَافِقَنِي، كَمَا تَفْعَلُ كُلَّمَا غِبْتُ عَنْهَا سَاعَةً، فَكَيْفَ وَقَدْ غِبْتُ هٰذِهِ الأيام والليالي العشر؟ لَكِنِّي أَلْحَحْتُ عَلَيْهَا أَنْ تَبْقَى... قُلْتُ لَهَا وَأَنَا أَمْسَحُ عَلَى يَدِهَا:

ـ "بَلْ ابْقَيْ مَعَ وَالِدِكِ، وَإِخْوَتِكِ، وَالنِّسْوَةِ... أَنَا فَقَطْ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَحِمَّ، وَأَغْفُو، وَأَظُنُّ أَنَّ نَوْمَتِي سَتَطُولُ حَتَّى ثاني أَيَّامِ العِيدِ بَعْدَ الغَدِ."

وَ يَا لَحُسْنِ حَظِّي، لَمْ تَأْتِ أُمِّي مَعِي. لَوْ رَأَتْ مَا حصل، وَسَمِعَتْ مَا قيل، لَمَا نَامَتْ لَيْلَتَهَا.

عِنْدَمَا فَتَحْتُ بَابَ البَيْتِ الكَبِيرِ، تَسَلَّلَتْ إِلَيَّ رَائِحَةُ التُّرَابِ المُبْتَلِّ، وَصدى أَصْوَاتِ أَطْفَالٍ يَضْحَكُونَ فِي سَاحَةِ البيت. كَأَنَّ البَيْتَ، بِكُلِّ زَوَايَاهُ، كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يَضُمَّنِي إِلَى صَدْرِهِ، كَمَنْ يَسْتَقْبِلُ وَلَدًا تَأَخَّرَ فِي العَوْدَةِ.

رَكَضَ أَبْنَاءُ عُمُومَتِي نَحْوِي، صِغَارٌ تَزَاحَمَتْ عَلَى وُجُوهِهِمْ بَسَمَاتُ العِيدِ، وَتَرَانِيمُ الطُّفُولَةِ تُلَاحِقُ خُطَايَ. وَقَبْلَ أَنْ أَبْتَسِمَ لَهُمْ، أَوْ أَجْثُوَ عَلَى رُكْبَتَيَّ لِأَحْتَضِنَهُمْ، فُتِحَ بَابٌ آخَرُ، لَمْ يَكُنْ فِي الحُسْبَانِ.

خَرَجَ جَدِّي.

وَجْهُهُ، كَمَا لَمْ أَرَهُ قَطُّ، مُتَجَهِّمٌ كَسَحَابَةِ صَيْفٍ تَكْتُمُ الرَّعْدَ، وَعُرُوقُ عُنُقِهِ تَتَفَجَّرُ غَضَبًا، وَنَظْرَتُهُ نَازِلَةٌ عَلَيَّ كَالسَّهْمِ، تُفْلِتُ مِنْ قَوْسِ صَمْتٍ مُرْعِبٍ.

وَقَبْلَ أَنْ أَسْتَفْسِرَ، أَوْ أَسْتَعِدَّ، هَوَى بِكَفِّهِ عَلَى وَجْهِي.

صَفْعَةٌ... لَيْسَتْ لِلْوَجْهِ، بَلْ لِلرُّوحِ.

صَفْعَةٌ أَيْقَظَتْ فِي أَعْمَاقِي الذِّكْرَى القَدِيمَةَ... صَفْعَةُ "بِنَاءِ الأَمْنِ السِّيَاسِيِّ".

لَمْ أَسْقُطْ، بَلْ تَزَحْزَحْتُ خَطْوَةً، كَأَنَّ الأَرْضَ تَحْتِي مَالَتْ، وَرَأْسِي دَارَ، وَصَمَتَ كُلُّ مَا فِيَّ مِنْ نُطْقٍ، كَأَنَّ الصَّوْتَ خَافَ مِنْ نَفْسِهِ. وَصَمَتَت كُلُّ حَاسَّةٍ فِيَّ عَنِ النُّطْقِ.

لا أدري .. هل كَانَتِ الصَّفْعَةُ سُؤَالًا، وَهل صَمْتِي كَانَ جَوَابًا لَا يُشْفِي لَا يُرْضِي وَلَا يُرِيحُ.

قَبْلَ أَنْ أَسْأَلَ: "لِمَاذَا؟"، جَاءَ عَمِّي "أَبُو صَلاح"، أَخُو جَدِّي الأَصْغَرُ، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ مَا يُشْبِهُ التَّوَجُّسَ، يَجُرُّ يَدَ جَدِّي بِرِفْقٍ يُخْفِي عَاصِفَةً تَكْتُمُ زَئِيرَهَا.

ـ «هَدِّئْ نَفْسَكَ، أَخِي... دَعْنَا نُفْهِمْهُ مَا جَرَى فِي غِيَابِهِ.»

ثُمَّ مَالَ نَحْوِي، وَنَظَرَ فِي عَيْنَيَّ، كَأَنَّهُ يُفَتِّشُ فِيهِمَا عَنْ قَطْرَةِ نَدَمٍ، وَقَالَ بِصَوْتٍ يَسْعَى لِرَأْبِ مَا تَصَدَّعَ:

ـ « تَقَدَّمْ، يَا نُعْمَان... قَبِّلْ يَدَ جَدِّكَ، وَاعْتَذِرْ. لَيْسَ مِنْ أَجْلِ نَفْسِكَ، بَلْ مِمَّا جَرَّهُ غِيَابُكَ عَلَيْنَا.»

وَقَفْتُ، كَأَنَّنِي أَجُرُّ جَبَلًا مِنْ أَسْئِلَةٍ لَا جَوابَ لَهَا. كُنْتُ أَتَرَدَّدُ بَيْنَ خُطْوَةٍ وَأُخْرَى. كَيْفَ أَعْتَذِرُ عَنْ ذَنْبٍ لَمْ أَقْتَرِفْهُ، وَأَتَحمَّلُ وِزْرَ خَوْفٍ أَسْكَنُوهُ فِيّ؟

لَكِنِّي تَقَدَّمْتُ. عَيْنَايَ تَطَأْطِئَانِ، وَخُطَايَ تُشْبِهُ مَسِيرَةَ مَنْ يَحْمِلُ وِزْرَ أُمَّةٍ.

مَدَدْتُ يَدَيَّ، وَقَبَّلْتُ يَدَ جَدِّي وَقُلْتُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ يَخْنُقُهُ الحَيَاءُ:

ـ «أَعْتَذر مِنْكَ، يَا جَدِّي....»

لَمْ يُجِبْ.

يَدُهُ الَّتِي كُنْتُ أُمْسِكُهَا، انْفَلَتَتْ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِي، كَأَنَّهَا تَتَبَرَّأُ مِنِّي، ثُمَّ صَاحَ بِصَوْتٍ تَصَدَّعَتْ لَهُ جُدْرَانُ البَيْتِ:

ـ «لَمْ يَبْقَ شِبْرٌ فِي هَذَا البَيْتِ، إِلَّا وَدَاسَتْهُ عَسَاكِرُهُمْ، وَنَبَشَتْهُ كِلَابُهُمْ... لَمْ يَحْتَرِمُوا بَيْتًا، وَلا أَهْلًا، وَلَا نِسَاءً. أَرْعَبُوا أُمَّكَ، وَأَخَافُوا أَخَوَاتِكَ، وَبَكَى أَطْفَالُنَا و علت صرخاتهم مِنْ رهْبَةِ ما رَأَوْا مِنَ العبثِ بأمتعتهم وتَشَتُّتِ أَلْعَابِهِم وأدواتهم وما سمعوا من دَوِيِّ الخبط على الأَبْوَابِ، وَبَقِيَتْ العُيُونُ تُحَدِّقُ فِيَّ كَمَنْ يَنْتَظِرُ تَوْضِيحًا، أَوْ حُكْمًا، حتى الجيران والمارة توقفوا يرقبون من بعيد وكل منهم يتساءل، وما زالوا يسألون ما الذي فعلناه، .... وَكُلُّ ذَلِكَ... بِسَبَبِكَ!"

وَأَخَذَ عَمِّي "أَبُو صَلاح"، يَدَ جَدِّي بِلِينٍ، وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِي، كَمَنْ يَسْتَعِيدُ مَا انْكَسَرَ. مَسَحَ عَلَى وَجْهِي، وَقَالَ بِصَوْتٍ يَتَخَلَّلُهُ الأَسَى:

ـ «عَلَيْكَ أَنْ تَعْتَذِرَ لِأُمِّكَ، وَجَدِّكَ، وَكُلِّ مَنْ فِي البَيْتِ، يَا نُعْمَان... الرُّعْبُ الَّذِي عَاشُوهُ فِي سَاعَاتٍ، لَا يُمْكِنُ لِلزَّمَنِ كُلِّهِ أَنْ يُرَمِّمَهُ. هَذَا الأَلَمُ لَيْسَ مِنْكَ، بَلْ عَلَيْكَ. هُمْ شَاهَدُوا مَا حَصَلَ هُنا، فَكَيْفَ يُمْكِنُ لَهُمْ أَنْ يَتَخَيَّلُوا مَا كَانَ يَحْدُثُ لَكَ، فَأَنْتَ لَا تُدْرِكُ مَا فَعَلَهُ غِيابُكَ فِي أَعْيُنِهِمْ. كُنَّا نَبْتَعِدُ عَنِ السِّيَاسَةِ، وَنَرْكُضُ نَحْو خُبْزِنَا، فَمَا الَّذِي جَعَلَكَ تَسْلُكُ طَرِيقَ النَّارِ؟»

تَقَدَّمْتُ نَحْوَ جَدِّي مرة أخرى وَعَيْنَايَ تُطَأْطِئَانِ بَصَرَهُمَا، كَأَنَّنِي أَحْمِلُ خَطِيئَةَ مَا حَدَثَ... وَمَا لَمْ أَحْدُثْهُ.

مَدَدْتُ يَدَيَّ وَقَبَّلْتُ يَدَهُ، يَدًا خَشِنَةً، تَشْهَدُ عَلَى سِنِينَ مِنَ العَمَلِ وَالضَّنْكِ، وَقُلْتُ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ:

ـ "سَامِحْنِي، يَا جَدِّي... لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنِّي آذَيْتُكُمْ، وَلَمْ أَكُنْ أَقْصِدُ ذٰلِكَ. فما كُنْتُ ضَائِعًا، وَلكنَّ الخَوْفُ الَّذِي عِشْتُهُ هُنَاكَ كَانَ أَكْبَرَ مِنِّي، عَلِمْت الآنَ كَمْ تألمْتُم! وَكم ضَيَّقْتُ عَلَيْكُم! وَلَكِنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَعْنِي ذٰلِكَ... ."

ثُمَّ سَكَتَ، وَأَدَارَ ظَهْرَهُ، وَمَضَى جَارًّا جَدِّي إِلَى غُرْفَتِهِ.

تَبِعْتُهُمَا بِنَظَرِي، وَصَدْرِي يَخْتَلِجُ. كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَصْرُخَ: «لَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَنْ أُوْذِيكُمْ...»

وَلَكِنَّ الصَّمْتَ بَعْدَ صَفْعَةٍ، يُشْبِهُ دُعَاءً خَجُولًا، لَا يَجْرُؤُ عَلَى سَمَاعِ نَفْسِهِ.

جَلَسْتُ عَلَى حَافَّةِ سَرِيرِي، وَوَجْهُ أَبِي، الغَائِبِ، يَتَلَأْلَأُ فِي خَيَالِي، كَأَنَّهُ يَقُولُ لِي:

ـ «كُلُّنَا أُصِبْنَا، يَا بُنَيَّ... وَلَكِنَّنَا لَا نَكْرَهُ مَنْ نُحِبُّهُ. نُعَاتِبُهُ، لِكَيْ لَا يُؤْذِي نَفْسَهُ ولا يؤذينا مَرَّةً أُخْرَى.»

أَسْدَلْتُ سِتَارَ النَّافِذَةِ، وَخَلَعْتُ قَمِيصَ المُعْتَقَلِ، وَوَقَفْتُ أَمَامَ الْمِرْآةِ...

مَنْ هَذَا الَّذِي يُحَدِّقُ فِيَّ؟

لَا يُشْبِهُنِي.

وَلَكِنْ... فِي عَيْنَيْهِ بَقَايَا نُعْمَانَ الَّذِي كُنْتُهُ.

ثُمَّ دَخَلَتْ جَدَّتِي لتواسيني، وتمسح بيدها ما أرهقني من آلام ، تَخُطُّ خُطَاهَا عَلَى الأَرْضِ كَمَنْ يَحْمِلُ كَفًّا مِنْ سَكِينَةٍ. وَجَلَسَتْ إِلَى جَانِبِي، وَمَسَحَتْ بِرِفْقٍ عَلَى وَجْهِي، وَقَالَتْ:

ـ «أَعْدَدْتُ لَكَ الحَمَّامَ، يَا حَبِيبَ جَدَّتِهِ... قُمْ وَاغْتَسِلْ، وَدَعِ الحُزْنَ يَسْقُطُ مَعَ المَاءِ. فالبيت من دونك كان كأن لا روح فيه.»

ـ "سَأَفْتَحُ صَفْحَةً جَدِيدَةً... لِأُمِّي، ولكِ وَلِجَدِّي، وَلِأَبِي وَلِنَفْسِي."

بعد أن أنهيت حمّامي، وتهيأت للخلود إلى النوم، إذ بطرقات خفيفة على الباب تُنذر بزيارة غير متوقعة. لم يكن في البيت من يطرق بتلك الطريقة إلا هو.

دخل عمي، "أبو صلاح" كما نناديه، المثقف الوحيد في العائلة، والموظف السابق الذي تقلّد منصب مدير للبريد والبرق والهاتف إبّان الاحتلال الفرنسي لسوريا وما بعد، وشهد السياسة واختبر السياسيين.

كان وجهه يحمل دائمًا ملامح زمنٍ مضى، وتغشاه مسحة فخرٍ بتلك المرحلة، ولما يرويه من علاقات وطقوس لم نكن ندرك حقيقتها تمامًا.

وقف عند طرف السرير، وألقى عليّ نظرة طويلة كأنه يُقلّب وجهي في ضوء الذاكرة، ثم قال بصوته الرخيم المتثاقل:

– " أريد أن أتكلم معك ... عن الذي صار، وعن سبب اعتقالك، فقد حضرت اليوم خصيصاً من أجلك لأني أعرف أخي الكبير جيداً، وأعرف كيف يفكر! وكيف يتصرف! وقد خفت أن يسبب لك أذى، لا لأنه يكرهك أو يحقد عليك لا سمح الله لا أبدا. ولكنه رجل اعتاد أن يبحث عن أسباب رزقه منذ ساعات الفجر الأولى وحتى نهاية كل يوم. وهو كذاك منذ أن وعيت عليه في بيت والدنا رحمه الله."

جلست على طرف السرير، أُصلح طيّة الغطاء كمن يبحث عن ترتيب داخلي بعد فوضى، فيما هو أخذ مكانه على الكرسي الصغير قرب مكتبي. أخرج من جيب سترته علبة سجائره «اللف» ولف واحدة وقدمها لي واخرى أشعلها بهدوء لا يخلو من استعراض متأنٍّ، ثم نفث الدخان في الفراغ كما لو كان يرسم به سيرة قديمة.

– " هل كنت تتوقع أن يحدث معك هذا؟"

قال وهو يشيح بنظره عني كمن لا يريد أن يراني منكسراً.

– " ماذا يعني؟" سألت وأنا أحاول أن أبدو صامداً رغم الخدر الذي ما زال يسري في عظامي من الليالي الماضية.

– " يعني، شغفك المتزايد بالكتب، بالكلام، بالشعر، ... كل هذه القصص لها ضريبة، وانت دفعت أول قسط منها".

سكتَ قليلاً، ثم حدّق في وجهي كأنه يقيس عمر الخوف في عيني، وأضاف:

- " هل تعلم، أيام كنا تحت الانتداب، كنا نعرف متى نحكي... لكن كنا نعرف متى نسكُت أيضاً. أيام فرنسا كانت القوانين واضحة، العساكر واضحين، حتى السجون كان لها نظام. أما اليوم... ما عدت تعرف عن أحدا أين يبدأ ولا أين يقّف".

أردت أن أقول شيئًا، شيئًا يُدافع عنّي أو عن الحلم الذي حملته كخيطٍ في متاهة، لكن الكلمات خانتني، تمامًا كما خانني جسدي تلك الليالي حين انفلت من إرادتي وبقي يصارع الظلّ دون صوت.

- " يعني حضرتك يا عمي ترى أنني ارتكبت خطأ؟"

همستُ كأنّي أبحث عن تبرئة لا عن جواب.

ابتسم، أو هكذا ظننت، وقال:

– " لا يا بني، ما أخطأت... لكنك حلمت. والحلم في هذه الأيام صار جريمة. أنا لا ألومك، أنا أريد فقط أن تصحو، وتنتبه إلى أن الدنيا ليست دائمًا متل الكتب، ولا الناس من حولك متل الشعراء. نحن صرنا بزمن يلزم المرء أن يخبّئ قلبه تماما متلما يخبّئ سلاحه".

ثم قام فجأة، كما جاء، ونفث سحابة دخان أخيرة في سقف الغرفة، وقال قبل أن يغادر:

– " نم، وحاول أن تنسى ... لأن التذكّر هو الذيلي يكسر، وليس الضرب.

وبقيت وحدي، أتأمل دخان سيجارته يتلاشى في هواء الغرفة، وأنا أسأل نفسي:

هل كنتُ أحلم... أم كنتُ فقط لا أعرف كيف أُخفي قلبي؟

لكنه بعد أن غادر عاد ثانية. ظل واقفاً عند الباب، يُحدّق في العتمة التي بدأت تزحف على زوايا الغرفة، ثم عاد بخطواتٍ بطيئة إلى الكرسي، جلس، وأطفأ عقب السيجارة في منفضةٍ زجاجية كأنها بقايا مكتبه القديم في البريد.

– " انظر يا نُعمان...

نحن لسنا أول ناس يُساقوا إلى السجن، ولسنا الآخرين الذين سيحلمون، بكن هذه البلد... الحياة في هذه البلد ليست راحة بل هي مطبات متتالية، ليس لعدم وجود طيّبين، لكن لأنه لا يوجد أمل في العيش إلا بين الجدران العالية.

نظرت إليه، فتابع وكأنّ نهرًا قد انفتح بداخله:

– " هل تذكر عندما كنت صغيرا وكنت تسألني عن تاريخنا؟ كنت أقول لك: لقد زهق تاريخنا من شعب لا يثبت، لا يتّحد، لا يعرف كيف يحكم نفسه. كنا نصرخ استقلال، لكن عندما خرج المحتل رجعنا نتقاتل، على العلم، على الكرسي، على الكلمة.

صمت قليلًا، ثم قال بصوتٍ أقلّ غضبًا:

– " هذا الحُكم؟

الحكم الذي كنت معتَقل من أجله؟

هذا ليس حكما، هذا طَبَق فوق طَبَق، جدار فوق جدار، يرجعك ميت وانت تمشي. كل شيء فيه مبني على الخوف، على السمع والطاعة، وليس على القناعة. لا يريدون ناس تفكّر، بل ناس تسير... تمشي، تسكت، تُصفّق.

تنهد ببطء وأشاح بوجهه، كأنما لا يريد أن يسمع صوته:

– " هذه البلد ستصبح متحفا للأسلاك، مقبرة للأفكار. أنا يا بني صرت أكره نفسي لأني كنت صدّق إن الثقافة تنقذ. اشتغلت بالكتب، بالبريد، بالهاتف، وبالنهاية؟ صرت شاهِدا على انقراض الإنسان الحر."

– " إذا يا عمي، وما الذي نعمله؟" سألتُه وأنا أشعر أني أغرق في لجّة سؤاله الكبير.

رفع إصبعه كمن يُلقي حكمة:

– " نختار... نختار أن نعيش صح أو نعيش سالمين. لكن الجمع بين الاثنين؟ صار مستحيلا. وأنت تعرف ما المؤلم في هذا؟

لأنك إذا اخترت أن تعيش صح، يجب أن تقرر كيف ستدفع وحدك. ولأن الباقي، الباقي سيلومك، أو يسكتوا، أو يشيحوا بوجوههم وكأنهم ما عرفوك.

أحسست بشيء يتحرك في صدري... مزيج من الحزن والحيرة والغضب. قلت له:

– " لكن نحن شباب! لا يحق لنا أن نُحبَط هكذا من أول مواجهة.

نظر إليّ نظرة طويلة، ثم قال بنبرة فيها رفقٌ مفاجئ:

– " إي نعم، أنتم شباب. ولهذا من الممكن أن يبقى عندكم أمل... لكن انتبه، لشيئين أولهما من هم خلفك من أهل وأقارب، ثانيهما لا تدع هذا الأمل يتحول وهْما. فلا تعيش من أجل أن تموت بكرامتك، بل لتموت إذا كان ينبغي عليك أن تعيش بكرامة. والفرق وإن كان بسيطاً... لكنه جوهري.

ثم نهض أخيرًا، ووقف عند باب الغرفة، قبل أن يقول كلمته الأخيرة:

– " هذه البلد لا مكان فيها للذي يصرخ، المكان فيها للذي ينجو وأسرته بأمان"

وترك الباب مواربًا، كما لو كان يدعوني أن أختار بين الخروج أو البقاء.

ظللتُ جالسًا لا أُحرك ساكنًا. كأنما خرج عمي من الغرفة، لكنه ترك صدى صوته يتردّد بين الجدران، يطرق رأسي كما لو كان يوقظ شيئًا نائمًا في داخلي منذ زمن.

" لا تعيش من أجل أن تموت بكرامتك، بل لتموت إذا كان ينبغي عليك أن تعيش بكرامة...."

ظلّت هذه العبارة تدور كدوامة، تسحبني إلى قاعٍ من الأسئلة.

هل كنتُ واهمًا حين ظننت أن الكرامة لا تُشترى إلا بالصدق؟

وهل يجوز لي أن أحيا حياةً هادئة، مشروطة، خالية من الصراخ... وأزعم أني ما زلتُ نزيهًا؟

نظرتُ إلى يديّ... كانت لا تزال ترتجفان.

الحمّام الدافئ لم يُزل بعد أثر البرد الذي تسلّل إليّ في تلك الليالي الطويلة داخل الزنزانة.

لكنّ الذي ارتجف أكثر... كان قلبي.

قلبي الذي ظنّ أنه سيجد في الحلم عزاء، فإذا به يرى في الحلم فخًّا جديدًا.

هل كنتُ حقًّا حرًّا؟

أم كنتُ فقط فتى صغيرًا اختار أن يكون صادقا، ليُثبت لنفسه أنه موجود؟

كنتُ أظنّ أن الجدران التي بيني وبين العالم خارجية، واضحة، مرئيّة...

لكنني الآن أرى جدرانًا أعمق، تمتدّ في الداخل:

جدار الخوف، جدار الشك، جدار ما قاله عمّي الليلة...

لأوّل مرّة أشعر أنني لا أعرف أي الطريقين أصلح لي:

أن أسير على الحبل المشدود بين الكرامة والسلامة، أم أن أقطع الحبل نفسه، وأهوي؟

لكن إلى أين؟

هل الأحلام والأسئلة، يا ترى، تستحقّ أن نُعتقل من أجلها؟

أم أن الحياة الحقيقية تبدأ فقط حين نكفّ عن الحلم، ونبدأ في الفعل؟

وهل الفعل... فعلٌ واحد، أم خياراتٌ كثيرة، كلها ناقصة، وكلها تكلّفنا جزءًا منّا؟

أغمضتُ عينيّ، واستلقيت.

كنتُ أسمع صوت جدي القديم في الحكايات... وصوت أبي المتعب في آخر زيارة... وصوت أمي عند كل عودة لي... وصوتي أنا حين كنتُ أُقسم، هناك، في العتمة، أنني لن أنكسر.

الليلة، لم أُقسم شيئًا.

الليلة... فقط، كنتُ أستمع. لكني.. مع كل ما بي ..... لم أنم.

مَضى العِيدُ كَما يَمضي الحُلمُ في لَيلةٍ صيفيَّةٍ، خَفيفًا، خَاطِفًا، يُلَوِّحُ من بعيدٍ ثمَّ يَغيبُ. ولم يَكد يَنقضي شهرٌ واحدٌ على انقضائِه، وتحديدًا في يَومِ الأحد السَّابعَ عَشرَ من تَشرينَ الثَّاني عامَ ألفٍ وتِسعِمائةٍ وأربعٍ وسبعين، حتّى وَصلَ شُرطيٌّ إلى بابِ دارِنا في مدينةِ دُوما.

كَانَ جدّي يَجلسُ في دكانه الصغير الملحقة بغرفته، يُقشِّرُ رُمّانةً نَضجَت على مَهَل. تَقدَّمَ منه الشُّرطيُّ ببطاقةٍ مُغلَّفة، خُطَّ على غلافِها الخارجيّ اسمي وعُنواني بخطٍّ مائلٍ غليظٍ. جَفَّتِ الرُّمّانةُ في يده، وسَألَ بصوتهِ الرّخيمِ المُتحفِّظ:

- "ما الأمر؟"

أجابه الشُّرطيُّ بجُملةٍ جافّةٍ، ومَضى دونَ أن يَلتفتَ. فَفَتحتُ البِطاقةَ وأنا أُحاوِلُ كَتمَ وَجَلٍ خَفيٍّ بدأ يَتَسرَّبُ إلى نَبضي، وإذا بداخلِها كُتِبَ ما يلي:

"عَلَيْكَ مُرَاجَعَةُ فِرْعِ الأَمْنِ السِّيَاسِيِّ بِدِمَشْق، قِسْمُ المُتَابَعَةِ، فِي اليَوْمِ وَالسَّاعَةِ المُحَدَّدَيْنِ خَلْفًا."

تنهَّدتُ، والتفتُّ إلى جَدِّي. هزَّ رأسَه ببطءٍ، ثمّ قال بصوتٍ متهدِّجٍ:

- "لا بُدَّ أن تَذهبَ... كَم مِثْلُها مَرَّ."

ومنذُ ذاكَ اليوم، صارَ الاستدعاءُ ضيفًا شَهريًّا لا يُخطِئُ العَنوان. في كُلِّ مرّةٍ، أَقطعُ ما بيدي من عملٍ أو دراسة، وأَمْثُلُ أمامَ الفرع في السَّاعة الثَّامنةِ صباحًا، أَنتظرُ عندَ البَوّابة، حيثُ يُلقي المساعدُ نظرةً خاطفةً على وجهي، يتأكّدُ من وصولي، ثم يُتركني واقفًا دونَ كلِمة.

في السنواتِ الثَّلاثِ الأُوَل، كثيرًا ما كان يَنقضي الدَّوامُ عند السّاعةِ الثَّانيةِ بعد الظّهر دونَ أن يُناديني أحد، فأدخُلُ غرفةَ المساعدِ الأوّلِ بنفسي، أَسألُه:

- "ماذا يجب أن أفعل؟ لقد انقضى الدّوام."

فَيَردُّ بِكلمةٍ واحدةٍ تُلخِّصُ العبثَ كلَّه:

- "اذهب الآن، وسَنَستدعيكَ في الشهرِ القادم."

ومع تَكرارِ الأمر، صارَ المساعدُ الأوّلُ وبعضُ الحُرّاسِ يَعرفونني، يُومِئون لي بالدُّخولِ إلى غرفةِ المُحرسِ، أو غرفةٍ جانبيّةٍ أَجلسُ فيها، خاصّةً في أيّامِ الشّتاءِ القارسِ أو صيفِ الشّامِ اللاهب. تحوّلَ الخوفُ إلى عادةٍ، والعادةُ إلى طقسٍ مُملّ، كأنّني أعيشُ على إيقاعِ هذا الاستدعاءِ، حتّى صِرتُ أتحسَّسُ غيابَه، وأتقصّى أثرَه.

وإنْ تأخَّرَ الاستدعاءُ، سألتُ جميعَ أفرادِ العائلةِ:

- "هل استَلمَ أحدُكم بطاقةَ الاستدعاءِ هذا الشهر؟"

فإن أنكروا، رُحتُ بنفسي إلى الفرعِ دونَ دعوة، خوفًا من أن يكونَ أحدُهم قد استلمها وبَصمَ بدلًا عني، ونَسيَ أن يُخبِرني.

في صَيفِ عامِ ألفٍ وتِسعمِائةٍ وسبعٍ وسبعين، بَعدَ حُصولي على شهادةِ الثّانويّةِ العامّة، جاءَني استدعاءٌ من نوعٍ مُختلِفٍ. لم يَكُن كالسّابق، بل نَظَرَ إليّ المساعدُ الأوّلُ تلك المرّةَ بعينٍ أُخرى، وقال وهو يُناولني ورقةً صغيرة:

- "هذهِ ثلاثةُ أسماءٍ من مدينتِك، معروفون بانتمائهم إلى حزبٍ مُعارض... أَريدُك أن تَتقرَّبَ منهم، وتُظهِرَ الوَلاء، وتَطلبَ منهم ضمَّك إلى صُفوفِهم."

صَمتٌّ. كُنتُ أعرفُ أنَّ الصَّمتَ في هذه الغُرفةِ لا يُعدُّ جُبنًا، بل وسيلةَ النّجاةِ الوحيدة. أَخذتُ الورقةَ دونَ ردٍّ، وغادرتُ الفَرعَ مسرعًا. وفي أوّلِ لحظةٍ وَصلتُ فيها إلى دوما، توجَّهتُ إلى شُعبةِ حزبِ البعثِ العربيِّ الاشتراكيّ. كانَ الطّلبُ الذي كنتُ قد قدّمتُهُ سابقًا لا يزال في ذهني، مُعلّقًا في الهواء.

في المكتبِ، تَفَقَّدتُ طلبي. كان "الرّفيقُ أبا مَعروف" يُقَلِّبُ بعضَ الأوراقِ دونَ اهتمامٍ، فقلتُ له:

- "هل سُجِّلَ طلبي؟ لقد قدّمتهُ منذ أشهر."

أجابَني بلهجةٍ تَخلُو من أيِّ ندمٍ:

- "ضاع الطَّلب... اكتب واحدًا جديدًا."

ثم أَردفَ، كما كانَ يفعلُ دائمًا، بضحكةٍ جافَّةٍ:

- "ما عليك... بسيطة!"

(تماماً كما كان يفعل معي في كل مرة كنت أراجعه فيها لأسأل عن طلبي بالانضمام إلى صفوف الحزب)

لَم أَكُن مُتحمّسًا للحزبِ، لا لفكرِه، ولا لمبادئِه، ولا لأهدافِه، لكنّني كنتُ أُريدُ شيئًا واحدًا: أن أَحصلَ على رقمٍ حزبيٍّ أُريهِ للمساعدِ الأوّلِ في فَرعِ الأمنِ السّياسيِّ، لعلَّهُ يُجنّبُني دوّامةَ الاستدعاءِ الشهريِّ، وتبعاتِه التي كانت تُربكُ دراستي، وتُقلقُ هدوئي، وتَشوّشُ استقراري، وتُفسِدُ سُلوكي.

في نهايةِ كلِّ مرَّةٍ، كنتُ أعودُ مُثقلًا بالأسئلةِ، أمشي في طُرقاتِ دوما، وفي جَوفي ألفُ حديثٍ لم أَقله، وألفُ خَوفٍ لا يُشبهُ الآخر.

مَضَتِ السّنونُ، لكنَّ ذلك الاستدعاءَ... لم يَمضِ بعد.

وكذلك لم يتم قبولي في صفوف الحزب، لأني بت متيقناً بأن (الرفيق أبا معروف) كان يمزق طلبي بعد مغادرتي باب غرفة مكتبه، لأني ذات مرة عدت إليه بعد أقل من دقيقة، فوجدته يرمي ورقة مزقها في سلة المهملات، وبإلقاء نظرة سريعة على الأوراق التي كانت فوق طاولة مكتبه، كانت كلها كما تركتها، إلا الورقة التي وقعت عليها.

هزّ السيّد أحمد رأسه ببطء، وقال بعد صمتٍ:

ـ " الحريةُ، يا نُعمان، ليست فقط خُروجًا من جدارٍ وسقف... بل عودةُ الروحِ إلى مَن يُحبُّها".

في المساءِ، بعد ذهب نُعمان إلى غرفته ليستريح قليلاً، كانت منى قد بقيت في الغرفة، تُرتِّبُ بعض الأوراق على الطاولة، بينما والدُها السيّد أحمد وقفَ أمامَ النافذة، يُحدِّقُ في الظلالِ التي تمدّدت على الجدران بفعل غروب الشمس.

قالت منى بصوتٍ خافت، كأنها تُحدّث نفسها:

ـ " كَأَنَّهُ عَبَرَ حَدًّا خَفِيًّا... نُعمان".

استدار والدها ببطء، ثمّ اقترب منها، وجلس إلى الطاولة المقابلة، وقال وهو يُربّت على حافة الكرسي بخشب يده:

ـ " قَصَّتُهُ... تَحْتَاجُ إِلَى وَقْتٍ لِتُفْهَمَ كُلِّيًا. لَيْسَ سَهْلًا عَلَى فَتًى فِي عُمْرِهِ، أَنْ يَمُرَّ بِمِثْلِ مَا مَرَّ بِهِ... وَيَبْقَى مُنْتَصِبَ الْقَامَةِ، نَقِيَّ النَّظْرَةِ، صَادِقَ اللِّسَانِ."

سكتت منى لحظة، ثمّ رفعت عينيها نحوه وسألته بنبرةٍ يغلبها التأمل:

ـ " أبي... أَتَرَاهُ يَخْشَى ..... الحُبّ؟"

ابتسم السيّد أحمد ابتسامةً خفيفةً، ومال برأسه قليلًا، ثمّ قال:

ـ " لَا يَخْشَى الحُبَّ، يَا ابْنَتِي، بَلْ يَخْشَى أَنْ يُسِيءَ إِلَيْهِ، أَوْ أَنْ يَأْتِيَهُ وَهُوَ نَاقِصُ الْقُدْرَةِ، نَاقِصُ الْوُضُوحِ، نَاقِصُ التَّصَالُحِ مَعَ ذَاتِهِ."

همست منى، وهي تُقلِّب نظراتها إلى حيث كان يجلس نُعمان قبل قليل:

ـ " كَأَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يُحِبَّنِي... دُونَ أَنْ يُقَصِّرَ نَحْوَ نَفْسِهِ أو نحو أسرته."

قال والدها وهو ينهض ويقف خلفها واضعًا كفه على كتفها برفق:

ـ " وَهَذَا مَا جَعَلَهُ يَسْتَحِقُّكِ. الْحُبُّ يَا مُنَى... لَيْسَ مُجَرَّدَ شَغَفٍ وَعَاطِفَةٍ، إِنَّهُ قَرَارٌ... وَقُدْرَةٌ عَلَى اِحْتِمَالِ الْمَسَافَةِ، وَنَقَاءُ ٱلرُّؤْيَةِ."

أومأت منى برأسها ببطء، ثم قالت بصوتٍ يحمل من الرجاء قدرَ ما يحمل من اليقين:

ـ "أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مَسَاحَتَهُ ٱلْآمِنَةَ... إِذَا خَافَ، وَوَجْهَهُ ٱلْهَادِئَ إِذَا ٱضْطَرَبَ."

ضحك السيّد أحمد، وقال بنبرةٍ فيها حنوّ أبويّ لا تخطئه الأذن:

ـ " إِذًا، فَأَنْتِ تُحِبِّينَهُ... بِوُضُوحٍ، وَصِدْقٍ، وَحِكْمَةٍ."

ابتسمت منى بخجلٍ يشبه الشكر، ثمّ قالت وهي تنهض لتُعيد ترتيب وسادة على الأريكة:

ـ " الحُبُّ، يَا أَبِي، يَكْبُرُ فِيّ كُلَّمَا سَمِعْتُهُ يَقُصُّ عَلَيَّ شَيْئًا كَانَ يُخْفِيهِ... كَأَنَّهُ يَفْتَحُ نَافِذَةً فِي قَلْبِهِ، وَيَدْعُونِي لِلدُّخُولِ."

اقترب منها والدها، ثم قال:

ـ " سَاعِدِيهِ عَلَى أَنْ يُكْمِلَ طَرِيقَهُ... وَإِذَا تَعَثَّرَ، فَذَكِّرِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمْشِي وَحْدَهُ."

الليلُ في بيتِ السيّد أحمد بدا ساكنًا، كأنّهُ يُصغي لنبضِ شيءٍ خفيٍّ.
في الجانب ، حيث غرفةُ منى المُضاءَة بنورٍ خافتٍ من مصباحٍ جانبيٍّ، جلست على حافّة سريرها، تُقلّب صفحات دفترها، لا تقرأ. كان وجهها مائلًا نحو النافذة، لكن عينيها تبحثان عن شيءٍ أعمق من المشهد الخارجي... كانت تبحث في نفسها.

نهضت فجأة، وكأنّها سمعت نداءً داخليًّا لا يُحتمل كتمانه. خرجت من الغرفة، ومشت نحو مكتبة والدها في الطابق السفلي. طرقت الباب بلطفٍ، ثم دخلت.

كان والدها جالسًا إلى مكتبه، يراجع بعض أعماله، وحين رآها، رفع حاجبيه:
ـ " مُنَى؟! أَتُرَكِتِ غُرْفَتَكِ فِي هٰذِهِ السَّاعَةِ؟"

تقدّمت نحوه بخطى مترددة، ثم قالت بنبرةٍ تختلط فيها الحيرةُ بالرجاء:
ـ " أَبِي... أَتَسْمَحُ لِي أَنْ أُحَدِّثَكَ؟"

ترك الأوراق جانبًا، وأشار إلى المقعد المقابل:
ـ " طَبْعًا، بُنَيَّتِي، أَيُّ شَيْءٍ يُقْلِقُكِ؟"

جلست، وخيم صمتٌ للحظة على ملامح وجهها، ثم قالت وقد أمسكت طرف كمّ معطفها، كأنها تبحث في قماشِه عن صيغة لما تُريد قوله:
ـ " أَبِي... أَنَا... أُحِبُّهُ".

ارتفع حاجباه مجددًا، لكنّه لم يندهش، كأنّهُ كان يعلم.
أومأ برأسه، وهمس برفق:
ـ " نُعْمَان؟"

أومأت هي أيضًا، وتمتمت:
ـ " نَعَم... وَلَكِنِّي... لَا أَعرِفُ كَيْفَ أُخْبِرُهُ. أَظُنُّ أَنَّهُ يَشْعُرُ... وَلَكِنَّهُ يَخْشَى".

تنهد السيّد أحمد، وقال مبتسمًا بنظرة فيها حنوّ عميق:
ـ " وَأَنْتِ؟ أَلَا تَخْشَيْنَ أَنْ تَقُولِي مَا فِي قَلْبِكِ؟"

هزّت رأسها نفيًا، وهمست:

ـ " لَا أَخْشَى، بَلْ أَسْتَحْيِي. كَأَنَّ مَا أَشْعُرُ بِهِ أَكْبَرُ مِنِّي. كَأَنَّهُ سِرٌّ نَبَتَ فِي صَدْرِي، وَصِرْتُ لَا أَعْرِفُ كَيْفَ أُخْرِجُهُ".

أمسك والدها بكفّها، وقال بصوتٍ دافئ:

ـ " إِذًا، لِنَقُلْ لَهُ مَعًا... بِطَرِيقَةٍ تُشْبِهُكِ. دَعِينِي أَدْعُوهُ غَدًا لِنَتَعَشَّى جميعاً في مطعم تختارينه. سَأَفْتَحُ أَنَا الْبَابَ، وَعَلَيْكِ أَنْ تَدْخُلِي بِقَلْبِكِ".

شهقت منى، كأنّها لم تتوقّع هذه المبادرة، ثم ابتسمت ابتسامةً اختلط فيها الحبُّ بالخجل، وقالت:

ـ " هَلْ تُرَاهُ يَقْبَلُ؟ أَعْنِي... أَنَّنِي أُحِبُّهُ؟"

ابتسم السيّد أحمد، وأجاب بثقةٍ عميقة:

ـ " لَوْ لَمْ تَكُونِي فِي قَلْبِهِ، مَا كَانَ لِيَسْمَحَ لِنَفْسِهِ أَنْ يُبْصِرَكِ بِكُلِّ هٰذَا النُّبْلِ. هُوَ يَخَافُ، نَعَمْ... وَلٰكِنَّ الْخَوْفَ يَسْبِقُ الْعِشْقَ أَحْيَانًا، حَتَّى يُثْبِتَ نَفْسَهُ".

سكتت منى، ثم تمتمت بصوتٍ خافتٍ يشبه دعاء:

ـ " رُبَّمَا يَكُونُ الْوَقْتُ قَدْ حَانَ"...

ردّ والدها:

ـ " بَلْ الْقَلْبُ هُوَ الَّذِي حَنَّ. وَذٰلِكَ أَصْدَقُ مِنَ السَّاعَاتِ كُلِّهَا".

في مساء الليلة التالية، بعد أن انتهى الجميع من طعام العشاء، قال السيّد أحمد:

- " كنا نفكر أن نتناول العشاء غدا في أحد المطاعم، ما رأيكم أن تختاروه معا وتخبروني".

ثمَّ استأذن تاركًا الباب مواربًا، جلست منى قُبالة نعمان. كانت عيناها تبحثان عن جملةٍ لا تُقال، بل تُلَمَّح. وكانت يداها تتشابكان في حضنها، كأنّهما تحميان سرًّا قد حان وقتُ البوحِ به.

نعمان، وقد جلس على طرف المقعد، ما زال يتردّد في النظر مباشرة إليها. الهواء ساكن، والدفء يتسرّب من المدفأة القديمة، ينسلُّ مع الضوء الخافت في الغرفة المصمّمة للمذاكرة، لكنّها الآن تحوّلت إلى مرآةٍ للبوح، لا للمعلومات.

سألته منى بصوتٍ يكاد يكون همسًا:

ـ " أَلَمْ تَقُلْ لي يومًا... إنّ الحُرِّيَّةَ هي أوّلُ ما يَحْلُمُ بِهِ مَنْ يَفْقِدُهَا؟"

أومأ برأسه، لكنّهُ لم يتكلّم.

فابتسمت، وأضافت بصوتٍ عميقٍ فيه رجعُ نَفَسٍ طويل:

ـ " الحُرِّيَّةُ، يا نُعمان... لَيسَتْ خُرُوجًا مِنْ جِدَارٍ وَسَقْفٍ... بَلْ عَوْدَةُ الرُّوحِ إِلَى مَنْ يُحِبُّهَا."

تنهّدَ نعمان، وكأنّ شيئًا ما كان قد انفكّ في داخله. نظر إليها هذه المرة دون حواجز، ثم قال:

ـ " كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي هَرَبْتُ مَرَّةً مِنْ نَفْسِي... وَلَكِنَّنِي كُنْتُ فَقَطْ أَبْحَثُ عَنْهَا فِي مَكَانٍ آخَر...."

سكتت منى، ثمّ قالت وقد لمعت عيناها قليلاً:

ـ " أَيْنَ؟"

فأجابها، بنبرةٍ حملت كلّ ما لم يقله من قبل:

ـ " وَجَدْتُهَا... في دفء حنان أمي وهُنَا فِي نَظْرَتِك، فِي تَفَاصِيلِ صَوْتِ كلٍ منكما حِينَ تَتَحَدَّثِين عَنِ الأَدَبِ، وحين تحدثني بصدق ، فِي قَلَقِكِ عَلَيَّ وفي خوفها عليَّ... وَفِي صَمْتِكُما، حِينَ يكُونَ الصَّمْتُ أَحْنَ مِنْ كُلِّ كَلَامٍ."

ارتعشت شفتاها، ثم تمتمت:

ـ " إِذًا... هَلْ تَثِقُ بِي؟"

فقال:

ـ " بِكُما... أَثِقُ، وَبِنَفْسِي إِذَا كُنْتِ فِي جِوَارِ أيٍ مِنْكُمَا."

في الغرفة التي بدأت رائحةُ الكتب فيها تختلط بنبضٍ جديد، جلست منى قُبالة نعمان، ويدها لا تزال تمسّد حوافّ كتابٍ مفتوح، كأنّها تُهيئه ليكون شاهداً على حديثٍ لا يقال كلّ يوم.

الهدوء خيّم. وحده تنفّس نعمان كان يسمع، متردداً... كأنّه ما زال يبحث عن صيغةٍ يقول فيها

" **أنا أُحبّك"**، دون أن تزلّ به قدم العبارة.

لكنّ منى قرّرت أن تكسر الصمت، بنبرةٍ رصينة تومض من خلفها لمعة قلق:

ـ " تُرى... هل مَنْ يُحبّ، في بلدٍ كهذه، يُعتَبر حُرًّا؟"

رفعَ نعمان رأسه نحوها، مستغربًا السؤال، ثمّ قال بهدوء:

ـ " أُحبُّ سؤالكِ يا منى، لكنّه مؤلمٌ أكثر مما يبدو... لأنّ الحُبَّ هنا... يبدأُ بِالْهَمْسِ، ويخاف أن يُعلن عن نفسه... تمامًا كما نفعلُ مع الرأي، ومع الحلم، ومع أبسط أشكال الحياة."

قالت منى بعد لحظة صمت، كأنّها تختبر وقع كلماته:

ـ " كُلُّ شيءٍ في هذا البلد، حتى الحبُّ، يحتاجُ إذنًا أو تمريرًا أو حيطة... نعيشُ في دائرةٍ... تُشبهُ دائرةَ السجن، لكنها بلا جدران."

أومأ نعمان برأسه وقال بصوتٍ فيه نبرة إعياء:

ـ " الحرِّيَّةُ، يا منى، لا تُقاس فقط بخروجِ الإنسانِ من باب السجن... بل بخروجهِ من خَوْفِهِ. وأنا... حتى الآن، ما زلتُ أَحْتَفِظُ بجُزءٍ كبير من هذا الخوفِ في صدري."

نظرت إليه مطوّلًا، وقالت:

ـ " لكنك خرجتَ، وتكلّمتَ، وعُدتَ إلى الدرسِ والكتابة، وإلى أمك أيضًا... أفلا يعني هذا أنك بدأت تحرّر نفسك؟"

ـ " أُحاولُ، لكن الطريق طويل. أنا ابنُ بيئةٍ ترى في السؤال تهديدًا، وفي التفكير خروجًا عن الطاعة. لقد عشتُ طفولتي لم أسمع عن الحكومةَ و الأمنَ شيئاً، لكن عندما كبرت، وجدت أن من يتكلم عنهم يختفي."

قالت منى، وهي تلتفت إلى النافذة:

ـ " وما زالوا يختفون، يا نعمان... بأجسادهم، أو بأصواتهم، أو بأحلامهم. لكننا، إنْ لم نقل ما نشعر به اليوم، فمتى؟"

اِقْتَرَبَ مِنْهَا أَكْثَر، وَهَمَسَ بِصَوْتٍ كَأَنَّهُ يُنَقِّبُ فِي أَعْمَاقِ صَدْرِهِ عَنْ كَلِمَاتٍ دُفِنَتْ مُنْذُ زَمَنٍ:

ـ "أَحْيَانًا... أَشْعُرُ أَنَّ قَوْلَ الحَقِيقَةِ فِي بِلَادٍ مِثْلَ بِلَادِنَا... هُوَ نَوْعٌ مِنْ أَفْعَالِ الحُبِّ.

لِأَنَّكَ تُحِبُّ نَفْسَكَ، وَتُحِبُّ هَذِهِ الأَرْضَ، فَتَرْفُضُ أَنْ تَرَى كُلَّ هَذَا الجَمَالِ يُدْفَنُ بِالصَّمْتِ."

صَمَتَتْ "مُنَى"، وَكَأَنَّ فِي صَمْتِهَا نَغْمَةً حَزِينَةً. تَنَفَّسَتْ بِعُمْقٍ، ثُمَّ قَالَتْ بِنَبْرَةٍ تَسْكُنُهَا مَسَافَاتٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الأَلَمِ:

ـ "وَأَنَا أُحِبُّكَ... لِأَنِّي رَأَيْتُكَ تُحِبُّ الحَقِيقَةَ، رَغْمَ خَوْفِكَ.

كِلَانَا يَعْرِفُ أَنَّ الحُبَّ بِلَا حُرِّيَّةٍ... لَيْسَ حُبًّا، بَلْ حَنِينٌ تَائِهٌ، لَا يَعْرِفُ الطَّرِيقَ."

رَفَعَ يَدَهُ نَحْوَ خَدِّهِ، كَأَنَّهُ يُحَاوِلُ لَمْسَ ذِكْرَى، أَوْ قَسَمٍ قَدِيمٍ، ثُمَّ قَالَ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ بِمَا فَاتَ:

ـ "أَلَمْ تَقْرَئِي مَا كَتَبْتُهُ لَكِ ذَاكَ اليَوْمَ... نَثْرًا وَشِعْرًا؟"

أَوْمَأَتْ "مُنَى" بِإِيجَابٍ، وَفِي عَيْنَيْهَا بَرْقٌ مِنْ تَذَكُّرٍ صَامِتٍ، فَتَابَعَ وَكَأَنَّهُ يَنْقُبُ فِي جُرْحٍ لَمْ يَلْتَئِمْ:

ـ "يَوْمَهَا... شَعَرْتُ أَنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْهَمَكِ كَمَا كَانَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَفْهَمَكِ.

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكْتُبَ لَكِ: «إِنِّي أُحِبُّكِ»،

مَعَ أَنَّكِ كُنْتِ فِي قَلْبِي، وَفِي عَقْلِي، وَفِي كُلِّ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُسَمِّيهِ وُجُودًا.

وَجَدْتُ نَفْسِي عَلَى حَافَّةِ هَاوِيَةٍ، عِنْدَمَا تَرَكْتِنِي وَهَرَبْتِ مِنِّي.

الحُبُّ ـ يَا مُنَى ـ قَرَار،

وَلَا يَجِبُ أَنْ نَهْرُبَ، أَوْ أَنْ نَتَخَلَّى عَنْ هَذَا القَرَارِ،

مَهْمَا كَانَتِ الأَسْبَابُ، وَمَهْمَا اسْتَدْعَتْهُ الظُّرُوفُ.

أَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أُعَاتِبَكِ، وَلَا أَنْ أَلُومَكِ...

بَلْ كُنْتُ أَجْدَرَ بِاللَّوْمِ، وَأَحَقَّ بِالْعِتَابِ.

أَنَا الَّذِي تَكَلَّمْتُ كَثِيرًا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ أَقُلْ لَكِ مَا يَجِبُ،

يَوْمَ قُلْتِ لِي إِنَّكِ ارْتَدَيْتِ ذَاكَ الزِّيَّ مِنْ أَجْلِي... فَقَطْ."

سَكَتَتْ "مُنى" طَوَالَ كَلَامِهِ، كَأَنَّهَا تَسْتَمِعُ بِقَلْبِهَا، لَا بِأُذُنَيْهَا.

تَحَرَّكَتْ مَلَامِحُهَا بِبُطْءٍ، وَفِي عَيْنَيْهَا نُقْطَةُ ضَوْءٍ تَتَّسِعُ كُلَّمَا أَوْغَلَ فِي اعْتِرَافِهِ.

عِنْدَمَا فَرَغ، تقَدَّمتْ نَحْوَهُ خُطْوَةً خَفِيفَةً، وَجَلَستْ بِقُرْبِهِ عَلَى الطَّرَفِ الآخرِ مِن الْأَرِيكَةِ. لَمْ تَقُلْ شَيْئًا فِي البِدَايَةِ، بَلْ بَسَطَتْ كَفَّهَا نَحْوَ يَدِهِ، وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهَا بِلُطْفٍ. ثُمَّ تَكَلَّمَتْ بِنَبْرَةٍ وَاقِعِيَّةٍ وَهَادِئَةٍ، كَأَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ الْكَلِمَاتِ تَشْفِي لَا تُعَاتِب:

ـ "نُعْمَان... أَنَا لَمْ أَكُنْ أُرِيدُ أَنْ أُعَاقِبَكَ.

كُنْتُ أُرِيدُكَ فَقَطْ أَنْ تَرَانِي كَمَا أَرَاكَ.

كُنْتُ أَحْتَاجُ أَنْ تَقُولَ مَا قُلْتَهُ الآن، لَكِنْ يَوْمَهَا... يَوْمَهَا كَانَ صَمْتُكَ أَشْبَهَ بِبَابٍ يُغْلَقُ فِي وَجْهِي."

تَنَهَّدَتْ، ثُمَّ أَضَافَتْ بِنَبْرَةٍ دَاخِلُهَا مَزِيجٌ مِنَ العِتَابِ وَالْحَنِينِ:

ـ "كَانَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَكُونَ سَوِيًّا، أَنْ نُوَاجِهَ الخَوْفَ وَالتَّوَجُّس، وَنَخْتَارَ الحُبَّ، لَوْ قُلْتَ لِي ذَلِكَ الْيَوْمَ: «لَا تَرْحَلِي».

لَكِنَّكَ لَمْ تَقُلْهَا.

وَأَنَا... كُنْتُ فَتَاةً خَائِفَةً مِنَ الصَّمْتِ أَكْثَرَ مِنْ خَوْفِهَا مِنَ الرَّفْضِ."

اِنْخَفَضَ صَوْتُهَا، وَكَأَنَّهَا تَسْتَدْعِي ذَاكِرَةَ قَلْبِهَا، ثُمَّ قَالَتْ:

ـ "أَتَدْرِي؟ الحُبُّ عِنْدِي لَيْسَ وَعْدًا، وَلَا هَدَايَا، وَلَا رَسَائِلَ مُعَطَّرَةً...

الحُبُّ هُوَ ذَلِكَ اللَّحْظَةُ الَّتِي تَقُولُ فِيهَا لِشَخْصٍ: أَنْتَ لَا تَخَافُ مَعِي، وَلَا تَجْعَلُنِي أَخَافُ مَعَكَ."

أَطْبَقَتْ صَمْتًا قَصِيرًا، ثُمَّ نَظَرَتْ فِي عَيْنَيْهِ، وَكَأَنَّهَا تَسْتَفْهِمُهُ:

ـ "فَهَلْ أَنْتَ اليَوْمَ... تُحِبُّنِي بِمَا يَكْفِي لِكَيْ نَبْدَأَ؟"

تَرَاجَعَ "نُعْمَانُ" بِجِذْعِهِ قَلِيلًا، كَأَنَّهُ يَبْحَثُ فِي جَوْفِهِ عَنْ إِجَابَةٍ قَدِيمَةٍ نَجَتْ مِنَ الغُرْبَةِ وَالخَوْفِ.

تَأَمَّلَ وَجْهَهَا، فَرَآهُ كَمَا يرَاهُ كل مَرَّةٍ... سَاكِنًا، وَاسِعًا كَسُهُوبِ الْبَادِيَةِ، وَلَكِنَّهُ يُخْفِي عَطَشًا طَوِيلًا.

قَالَ بِنَبْرَةٍ وَاطِئَةٍ، لَا خُشُوعَ فِيهَا وَلَا ادِّعَاء:

ـ "نَعَمْ، أُحِبُّكِ... وَقَدْ تَأَخَّرْتُ كَثِيرًا فِي قَوْلِهَا، لَكِنِّي لَمْ أَتَأَخَّرْ يَوْمًا فِي الإِحْسَاسِ بِهَا."

تَمَالَكَ صَوْتَهُ، وَأَضَافَ:

ـ "كُنْتُ أَخَافُ أَنْ أَقُولَ لَكِ ذَلِكَ، فَيَتَغَيَّرَ شَيْءٌ فِي عَيْنَيْكِ.

كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَحْفَظَكِ كَمَا كُنْتِ فِي ذَاكِرَتِي: نَقِيَّةً، قَرِيبَةً، بَلْ بَعِيدَةً بِقَدْرِ مَا يُبْقِينِي ذَلِكَ خَالِيًا مِنَ الأَلَمِ."

نَظَرَ نَحوَ السَّقفِ لَحظَةً، كَأَنَّهُ يُفَكِّرُ بِكُلِّ مَا ضَاعَ. ثُمَّ عَادَ يَنظُرُ إِلَيْهَا:

ـ "الْآنَ أُرِيدُكِ أَنْ تَكُونِي قُرْبِي، وَلَا أُرِيدُ لِلْخَوْفِ أَنْ يَسرِقَنَا مَرَّةً أُخْرَى.

فَإِذَا كُنْتِ تَسْتَفْهِمِينِي: «هَلْ أُحِبُّكِ بِمَا يَكْفِي لِنَبْدَأ؟»

فَإِنِّي أَقُولُ: نَعَمْ. نَبْدَأُ، وَإِنْ كَانَتِ الرِّيَاحُ فِي الظَّهْرِ، وَالطَّرِيقُ طَوِيلًا."

كَأَنَّ الغُرْفَةَ بَاتَتْ أَكْثَرَ ضِيقًا عَلَى كِلَا القَلْبَيْنِ، فَقَامَتْ "مُنى"، وَتَقَدَّمَتْ نَحْوَهُ، وَضَعَتْ رَأْسَهَا عَلَى كَتِفِهِ بِهُدُوءٍ. لَمْ تَقُلْ شَيْئًا، وَهُوَ لَمْ يَقُلْ، لَكِنَّ نَبْضَهُ تَغَيَّرَ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لَمْ يَعُدِ الحُبُّ سُؤَالًا، وَلَا إِجَابَةً...

بَلْ صَارَ سُكُونًا يُشْبِهُ الْبِدَايَةَ.

وَفَجْأَةً... صَدَرَ طَرْقٌ خَفِيفٌ عَلَى بَابِ الغُرْفَة.

اِرْتَبَكَ نُعْمَانُ، وَارْتَفَعَ رَأْسُ "مُنى" بِهُدُوءٍ، كَأَنَّهُمَا عَادَا فِي لَحْظَةٍ إِلَى سَطْحِ الوَاقِعِ.

صَوْتُ وَالِدِهَا، "السَّيِّدِ أَحْمَد"، جَاءَ وَقُورًا كَعَادَتِهِ، لَكِنَّ فِيهِ نَبْرَةَ تَرَقُّبٍ:

ـ "هَلْ يُمْكِنُنِي الدُّخُولُ؟"

تَبَادَلَا نَظْرَةً سَرِيعَةً، ثُمَّ أَجَابَتْ مُنى بِنَبْرَةٍ مُتَمَالِكَة:

ـ "تَفَضَّلْ يَا أَبِي".

فُتِحَ الْبَابُ، وَدَخَلَ "السَّيِّدُ أَحْمَد"، بِعَيْنَيْهِ اللَّتَيْنِ تَحْمِلَانِ كُلَّ مَا لَا يُقَال.

جَلَسَ قُرْبَهُمَا عَلَى الْكُرْسِي الْمُجَاوِرِ، وَقَالَ وَهُوَ يُقَلِّبُ نَظَرَهُ بَيْنَهُمَا:

ـ "سَمِعْتُ طَرَفًا مِمَّا قِيلَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَأْتِ لِأُقَاطِعَ، بَلْ لِأَسْمَعَ حَتَّى آخِرِ الجُمْلَةِ".

صَمَتُوا جَمِيعًا لِثَوَانٍ، ثُمَّ قَالَ نُعْمَانُ، وَهُوَ يُوَاجِهُ وَالِدَهَا بِكُلِّ مَا فِيهِ:

ـ "أُحِبُّ ابْنَتَكُمْ، يَا سَيِّدَ أَحْمَد، وَقَدْ قُلْتُ لَهَا ذَلِكَ، لا كَلَامًا يُقَالُ فِي الْخَفَاء، بَلْ قَرَارًا أُرِيدُ أَنْ أَمْشِيَ فِيهِ حَتَّى النِّهَايَةِ".

تَأَمَّلَهُ الرَّجُلُ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ بِلُغَتِهِ الْهَادِئَةِ كَمَنْ يَخْرُجُ مِنَ التَّأَمُّلِ:

ـ "الْحُبُّ، يَا بُنَيَّ، لَيسَ مَا نَقُولُهُ، بَلْ مَا نَفْعَلُهُ حِينَ تَأْتِي اللَّحْظَةُ الَّتِي تَتَطَلَّبُ مِنَّا أَنْ نُضَحِّي".

ثُمَّ نَظَرَ نَحْوَ ابْنَتِهِ:

ـ "وَأَنْتِ، يَا مُنى، هَلْ أَنْتِ مُسْتَعِدَّةٌ لِهَذِهِ اللَّحْظَةِ؟ هَلْ تَعْرِفِينَ أَيَّ طَرِيقٍ هُوَ هَذَا الَّذِي تَسِيرِينَ فِيهِ؟"

هَزَّتْ رَأْسَهَا بِهُدُوءٍ:

ـ "أَعْرِفُ، وَخَائِفَة... لَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْشِيَ فِيهِ مَعَهُ".

سَكَتَ الرَّجُلُ قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ:

ـ "وَهَلْ فَكَّرْتُمَا فِي أَنَّ الْبِلَادَ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا، قَدْ لَا تَسْمَحُ لِمَنْ يُحِبُّ أَنْ يُكْمِلَ طَرِيقَهُ بِسَلَامٍ؟ أَنَّ كَثِيرِينَ قَبْلَكُم خَسِرُوا كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُمْ قَالُوا كَلِمَةً فِي الْهَوَاءِ، أَوْ رَفَضُوا أَنْ يَنْحَنُوا؟"

جَاءَ صَوْتُ نُعْمَانَ هَادِئًا، وَلَكِنَّهُ مُمْتَلِئٌ بِالْوُضُوحِ:

ـ "وَهَلْ نَبْقَى صَامِتِينَ؟ نَنْحَنِي كَيْ نَعِيشَ؟ إِذًا فَلْنَمُتْ بِكَلِمَةٍ تُشْبِهُنَا، خَيْرٌ لَنَا مِنْ حَيَاةٍ نَتَذَرَّعُ فِيهَا بِالصَّمْتِ".

يَنْظُرُ السَّيِّدُ أَحْمَد إِلَيْهِ طَوِيلًا، كَمَنْ يَسْتَعِيدُ فِيهِ شَبَابَهُ الْبَعِيد

ثُمَّ يَقُولُ بِصَوْتٍ كَأَنَّهُ يُمْلِي وَصِيَّةً:

ـ "إِذًا، فَلْتَمْشُوا فِي هَذَا الطَّرِيقِ... لَكِنْ لَا تَنْسَوْا: الْحُبُّ لَيْسَ نَقِيًّا إِلَّا إِذَا نَجَا مِنَ الْخَوْفِ، وَالْحَقُّ لَا يَكُونُ حَقًّا إِلَّا إِذَا دَفَعْنَا ثَمَنَهُ".

كَانَ يُفَاجَأ، كُلَّ شَهْرٍ، بِذَاتِ البِطَاقَةِ الصَّامِتَةِ:

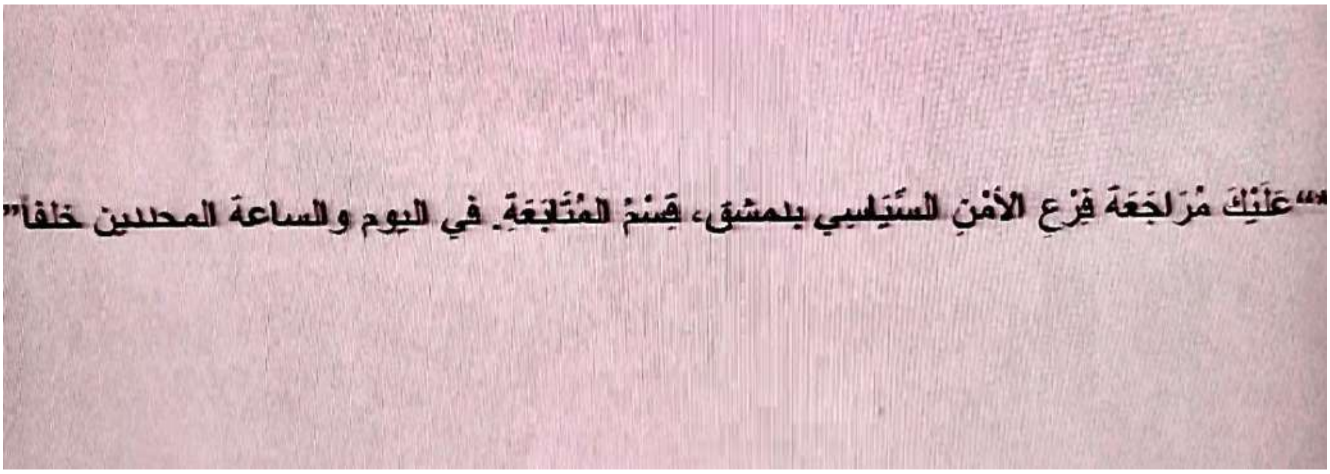
"عَلَيْكَ مُرَاجَعَةُ فِرْعِ الأمْنِ السِّيَاسِي بدمشق، قِسْمُ المُتَابَعَةِ. في اليوم والساعة المحددين خلفا"

"عَلَيْكَ مُرَاجَعَةُ فِرْعِ الأَمْنِ السِّيَاسِي بدمشق، قِسْمُ المُتَابَعَةِ. في اليوم والساعة المحددين"

تَصِلُ الْبِطَاقَةُ فِي مِظْرُوفٍ أَسْمَرَ، دُونَ خَتْمٍ، دُونَ تَوْقِيعٍ، وَدُونَ تَارِيخٍ... كَأَنَّهَا مِنْ زَمَنٍ خَارِجَ التَّقْوِيم.

كَانَ يُدْرِكُ نُعْمَانُ أَنَّ الدَّائِرَةَ لَمْ تُغْلَقْ بَعْدُ، وَأَنَّ الْبَابَ الَّذِي فُتِحَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي لَيْلَةِ التَّحْقِيقِ الأُولَى، مَا زَالَ يُفْتَحُ لَهُ كُلَّ شَهْرٍ، بِنَفْسِ الاِبْتِسَامَةِ الْبَارِدَةِ، وَنَفْسِ السُّؤَالِ الَّذِي لَا يَكْتُبُونَهُ، بَلْ يُلْقُونَهُ كَنَظْرَةٍ:

ـ "هَلْ ما زِلْتَ تُفَكِّر؟"

فِي كُلِّ زِيَارَةٍ، كَانَ يَجْلِسُ فِي غُرْفَةٍ تَشُفُّ أَجْدِرَتُهَا عَنْ رُطُوبَةٍ قَدِيمَة، يَتَسَرَّبُ فِيهَا الْخَوْفُ كَرَائِحَةٍ خَفِيَّةٍ مِنْ جِدَارٍ لَمْ يُطْلَ بِالطِّلَاءِ مُنْذُ عُقُود.

يَجْلِسُ فِي مُقَابِلِ الرَّجُلِ نَفْسِهِ. المُحَقِّقُ الَّذِي يَبْتَسِمُ بِهُدُوءٍ، وَيَسْأَلُهُ بِكُلِّ لُطْفٍ عَنْ أَخْبَارِهِ، وَعَنْ دِرَاسَتِهِ، وَعَنْ تَطَوُّرِ أَفْكَارِه.

ـ "هَلْ قَرَأْتَ كِتَابًا جَدِيدًا، يَا نُعْمَان؟"

ـ "قَرَأْتُ... كِتَابًا عَنِ الصَّمْتِ."

ـ "جَيِّد. الصَّمْتُ فَنٌّ... وَأَنْتَ تَعرِفُ أَنَّ بَعضَ الفُنُونِ يُنْقِذُ أَصْحَابَهَا."

تَتَكَرَّرُ اللِّقَاءَاتُ، كَأَنَّهَا تَمْرِينٌ عَلَى التَّكَيُّفِ. يَسْأَلُهُ الرَّجُلُ نَفْسُهُ، وَيُقَلِّبُ مَلَفَّهُ كَمَنْ يُفَتِّشُ فِي يَوْمِيَّاتٍ شَخْصِيَّة.

فِي آخِرِ كُلِّ لِقَاءٍ، يَقُولُ لَهُ الجُمْلَةَ نَفْسَهَا، كَأَنَّهَا نَافِذَةٌ تُفْتَحُ لِلتَّهْدِيدِ وَالتَّذْكِيرِ:

ـ "نُحِبُّ مَنْ يُفَكِّرُ... لَكِنَّنَا نُرَاقِبُ مَنْ يُفَكِّرُ كَثِيرًا."

فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ، كَانَ نُعْمَانُ يَسِيرُ بَيْنَ النَّاسِ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ شَيْئًا لَا يُقَال. يَرَى المَارَّةَ يَبْتَسِمُونَ، وَيَسْتَمِعُونَ لِلْمُغَنِّي يَصْدَحُ مِنْ رَادْيُو سِيَّارَةٍ قَدِيمَة، وَيَتَسَاءَلُ:

هَلْ كُلُّ هَذِهِ الْوُجُوهِ، هِيَ أَيْضًا، تَتَلَقَّى بِطَاقَاتٍ صَامِتَةً كَخِطَابِ قَدَرٍ؟

فِي زِيَارَتِهِ الشَّهْرِيَّةِ التَّالِيَةِ، لَمْ يَبْدُ عَلَى المُحَقِّقِ تِلْكَ الِابْتِسَامَةُ الَّتِي أَلِفَهَا. بَدَا وَكَأَنَّهُ نَامَ عَلَى مِلَفٍّ ثَقِيلٍ، وَصَحَا عَلَى أَسْئِلَةٍ أَكْثَرَ صَلَابَة.

تَفَحَّصَ بَعْضَ الْوَرَقَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ نَظَرَهُ، وَيَسْأَلَ بِنَبْرَةٍ مَسْكُوتٍ عَنْهَا:

ـ "نُعْمَان... مَا طَبِيعَةُ عَلَاقَتِكَ بِأُسْرَةٍ لُبْنَانِيَّةٍ تُقِيمُ فِي دِمَشْقَ؟"

تَجَمَّدَ لَحْظَةً، كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعِ السُّؤَالَ جَيِّدًا. كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَذَكَّرَ: *أَيُّ لُبْنَانِيِّينَ؟ مَتَى؟ فِي أَيِّ سِيَاقٍ؟*

ـ "أَقْصِدُ، وَفْقَ الْمَعْلُومَاتِ، أَنَّكَ تكاد تكون مقيماً في مَنْزِلٍ فِي حَيِّ المزة، وَأَنَّ هُنَاكَ صِلَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَابَّةٍ لُبْنَانِيَّةٍ... اسْمُهَا منى؟ هَلْ يَبْدُو لَكَ ذَلِكَ غَرِيبًا؟"

ـ "منىَ؟... نَعم... كَانَتْ تُقِيمُ مَعَ عَائِلَتِهَا فِي البَيْتِ الَّذِي اسْتَأْجَرْتُ فِيهِ غُرْفَةً بَعْدَ تَسْجِيلِي فِي الْجامعة."

رَفَعَ المُحَقِّقُ حَاجِبَيْهِ:

ـ "تُقِيمُ... أَم تُرَاسِلُ؟"

ـ "لَا أُرسِلُ إِلَيْهَا شَيْئًا... كَانَتْ تَتْرُكُ أَحْيَانًا كُتُبًا عَلَى الطَّاوِلَةِ، وَكُنَّا نَتَحَادَثُ... ذَات مَرَّةٍ قَرَأْنَا مَعًا *الطَّاعُون* لِكَامِي... ثُمَّ سَافَرَتْ."

تَصَفَّحَ المُحَقِّقُ وَرَقَةً، ثُمَّ نَقَرَ بِقَلَمِهِ عَلَى الطَّاوِلَةِ:

ـ "وَهَلْ تَعْلَمُ أَنَّ أحد أقاربها كَانَ صِحَافِيًّا فِي بَيْرُوت؟ وَأَنَّ لَهُ صِلَاتٍ بِجِهَاتٍ مَشْبُوهَةٍ؟"

صَمَتَ نُعْمَانُ. كَانَ يَشْعُرُ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ عَادِيٌّ يُمْكِنُ أَنْ يُجَيَّرَ لِيُصبِحَ شُبْهَةً. بَلَعَ رِيقَهُ ببطء، وَقَالَ بِنَبْرَةٍ صَافِيَةٍ:

ـ "يَا سَيِّدِي، أَنَا طَالِبٌ فَقَط... أَحْلَمُ بِكِتَابٍ وَمُسْتَقْبَلٍ، وَقَدْ كَانَ ذٰلِكَ نِقَاشًا فِي سَاحَةٍ مُشْتَرَكَةٍ، لَا أَكْثَر."

أَغْلَقَ المُحَقِّقُ المِلَفَّ بِهُدُوءٍ، وَقَالَ وَهُوَ يَنْظُرُ فِيهِ:

ـ "نُؤْمِنُ بِالْمُصَادَفَاتِ، لَكِنَّنَا نُفَضِّلُ أَنْ نَكُونَ مُتَأَكِّدِين."

خَرَجَ نُعْمَانُ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ وَكَأَنَّهُ حَمَلَ مَعَهُ جَمْرَةً. كَانَ السُّؤَالُ كَفَخٍّ. وَفِي دَاخِلِهِ، دَوَّى صَوْتٌ خَفِيٌّ:

إِذًا... حَتَّى الكَلِمَاتُ الَّتِي قُلْتَهَا عَلَى الدَّرَجِ، وَالضَّحِكَةُ الَّتِي لَمَعَتْ بَيْنَ كِتَابَيْنِ، وَالزِّيَارَةُ الَّتِي تَبَدَّتْ فِي نِهَايَةِ شَتَاءٍ خَفِيف... كُلُّهَا تُسَجَّل؟

كانَ المقهى دافئًا، يضجُّ بأحاديثٍ خافتةٍ، وبخارِ فناجينَ يتصاعدُ كأنّه أنفاسُ أمكنةٍ متعبة. جلستْ منى قبالةَ نافذةٍ صغيرةٍ، تنتظر عودة نعمان من المقابلة، تراقبُ المارّة بنظرةٍ حائرةٍ، وقد علِمت من والدها، دونَ تفاصيل، أن شيئًا ما حدث مع نُعمان في زيارته الأخيرة.

دخل نُعمان بخطواتٍ متردّدة، كأنّه لا يريدُ أن يُحدثَ صوتًا، ولا أن يوقظَ في قلبها السؤالَ الذي يعرف أنه سيأتي لا محالة.

رفعتْ عينيها، وتأمّلته لحظةً، ثمّ قالت بصوتٍ خافت:

ـ "هَلْ كَانَتْ قَصِيرَةً؟"

ابتسمَ مُرغمًا، وجلس، ثم هزّ رأسه دون أن ينظر إليها:

ـ "قَصِيرَةٌ... وباردة".

مرّت ثوانٍ من الصمت. ثم قالت وهي تُقلّب ملعقتها في الفنجان:

ـ "أَبِي قَالَ لِي... إِنَّ نُقْطَةً سَوْدَاءَ ظَهَرَتْ فِي مِلَفِّكَ".

ارتجفَ صوته وهو يردّ:

ـ "رُبَّمَا... لَكِنَّهَا لَيْسَتْ مِنِّي".

رفعت نظرها إليه فجأة، بنظرةٍ تمزجُ القلقَ بالعتب:

ـ "نُقْطَةٌ لَيْسَتْ مِنْكَ؟ أَم مِنْ من؟"

أطرقَ رأسه، ثم قال بنبرةٍ هادئة:

ـ "منى؟ لَيْسَ بيننا سِوَى صَداقَة كِتَابٍ... سَكَنَّتْ فِي الْبَيْتِ نَفْسِهِ، تَحَدَّثْنَا، قَرَأْنَا".

سكت، ثم أكمل وهو ينظر في عينيها:

ـ "كُنْتُ أُفَكِّرُ فِيكِ، أَنْتِ... لَيْسَ فِيهِم".

سحبَت يدها ببطء من الفنجان، وقالت وهي تشيح بنظرها:

ـ "لَكِنَّهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ الْقَلْبَ، يُفَتِّشُونَ فِي الأَسْمَاءِ وَالزِّيَارَاتِ وَالْكُتُبِ، وَيَجْعَلُونَ كُلَّ بَسَاطَةٍ... خَيْطًا فِي شَبَكَةِ شُبُهَاتٍ".

قال بنبرةٍ حزينة:

ـ "هَذِهِ الْبِلَادُ لَا تَخَافُ مِنَ الْكَرَاهِيَةِ، بَلْ مِنَ الْحُبِّ... خَاصَّةً إِذَا مَرَّ فَوْقَ حُدُودِهَا".

صمتت. كانت تنظر إليه الآن بنظرةٍ جديدة، تجمعُ الحنانَ بالخوف، وكأنّها تسأله بلا صوت: *هل سَيُتْرَكُ لنا ما نَبْنِيه، أم سيُهَدَّمُ حتى قبلَ أن نَبْدَأ؟*

مدّت منى يدها نحو يده، ولم تلمسها، بل اكتفت بأن تترك أصابعها قريبة، كأنّها تسأل الإذن قبل الاقتراب.

ـ "نُعمان... لَا أُرِيدُ أَنْ تَشْعُرَ بِأَنَّنِي أُحَاسِبُكَ، أَو أُرَاقِبُ خُطَاكَ. أَنَا فَقَطْ... خِفْتُ عَلَيْكَ."

نظر إليها طويلًا، كأنّه يبحث عن صيغةٍ جديدة للصدق، ثم قال بصوتٍ خافت:

ـ "وَأَنَا... خِفْتُ عَلَيْنَا."

رقّت عيناها، وسألته برقة:

ـ "مِمَّاذَا؟"

ـ "مِنْ أَنْ نُصْبِحَ مِثْلَ كَثِيرِينَ، يُحِبُّونَ بَعْضَهُم... وَيَخَافُونَ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ بِصَوْتٍ عَالٍ."

تنهدت منى، ثم همست وكأنّها تُسلّم بسرٍّ قديم:

ـ "الْحُبُّ فِي بِلَادِنَا... يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شُجَاعًا. وَإِلَّا انْكَسَرَ فِي نِصْفِ الطَّرِيقِ."

ثم قالت بعد لحظة صمتٍ، وهي تُحاول أن تضحك دون أن تنجح تمامًا:

ـ "حَتَّى أَبِي، بِكُلِّ هُدُوئِهِ وَوَعْيِهِ... لَمْ يُخْفِ قَلَقَهُ مِنْ مَجِيئِكَ إِلَى الْبَيْتِ بَعْدَ تِلْكَ الزِّيَارَةِ لِفَرْعِ الْأَمْنِ."

ابتسم نُعمان بمرارة:

ـ "هُوَ أَذْكَى مِمَّا نَظُنّ. يَعْرِفُ مَتَى يَسْكُتُ، وَمَتَى يَتَحَدَّثُ. وَلَعَلَّهُ يُرِيدُنِي أَنْ أَتَكَلَّمَ أَكْثَرَ، لِيَفْهَمَ أَكْثَرَ."

ـ "أَوْ... لِيَرَى هَلْ تَسْتَحِقُّ أَنْ تَبْقَى فِي حَيَاتِي."

نظرت إليه نظرةً طويلة، ثم تمتمت:

ـ "وَأَنَا... أَرَاكَ تَسْتَحِقّ. لَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَفْتَحَ لِي أَبْوَابَك، كَمَا فَتَحْتَ قَلْبَكَ لِهَذِهِ الْبِلَادِ."

تنهّد، ثم قال:

ـ "تَعَالَي إِذًا... وَلْتَرَيْ كَيْفَ أَخْفَيْتُ فِيكِ كُلَّ أَجْزَائِي. كَيْفَ كَتَبْتُ عَنْكِ، حَتَّى فِي أَوْجِ الْخَوْفِ. تَعَالَي وَاسْأَلِينِي... وَسَأَقُولُ لَكِ كُلَّ شَيْء."

ارتعشت الأصابع فوق الطاولة قليلًا، لا خوفًا، بل شوقًا لأن تُمسكَ يدًا صادقة.

في الخارج، كان المطر قد بدأ يهطل خفيفًا، يلمع على زجاج المقهى مثل دمعٍ مؤجل.

كان السّيِّد أحمد جالسًا إلى مكتبه، يتأمّل صورةً قديمة التُقِطت له في فرنسا، وهو يقف أمام بوّابة الجامعة، مرتديًا معطفًا ثقيلاً ونظّاراتٍ سوداء، يشعّ من عينيه آنذاك شيء من العناد والنبوغ. بجوار الصورة دفترٌ جلديّ أسود، قديم الطراز، يضمّ ما كتبه في سنوات ما بعد العودة.

طَرَقَت منى البابَ بخفّة، ثمّ دخلت دون أن تنتظر الإذن.

ـ "مساء الخير، بابا."

رفع رأسه عنها ببطء، وأشار بيده إلى الكرسي المقابل:

ـ "مساءُ الوضوح، يا منى... تفضّلي."

جلستْ وقد وضعت يديها في حضنها، نظرت إليه نظرة فيها تردّدٌ خفيف.

ـ "تحدّثنا كثيرًا عن نُعمان... لكن، أظنّ أن عليّ الآن أن أقول لك ما لم أقله من قبل."

أغلق السّيِّد أحمد الدفتر، ووضع نظّارته جانبًا:

ـ "أنتِ حرّة، يا ابنتي، لكنّني أرجو أن تكوني أيضًا... صادقة مع نفسك."

ـ "أنا أحبّه، يا أبي."

ظلّ صامتًا لحظة، كأنّه توقّع الجملة منذ زمن، ثم قال:

ـ "أعرف."

ارتبكت منى، لكنها تابعت:

ـ "لكنّي ما زلتُ أرى في عينيه ظلَّ تردُّد... شيءٌ من الخوف، لا أدري إن كان خوفًا منّي أم عليّ."

ابتسم والدها ابتسامة هادئة، وقال:

ـ "ليس خوفًا منكِ، بل من حظّك. هو قادمٌ من عالمٍ آخر، تعلّم أن لا يُظهر مشاعره إلا على ورقٍ، أو في زاوية مظلمة. ومِن عادته ألّا يتكلّم إلّا حين يُضطَرّ."

ـ "لكنه يتكلّم إليّ، ويكتب لي، ويصمت فجأة... ثم يعود فيكتب أكثر."

ـ "ذلك يا منى، لأنّه يحبّك بطريقةٍ لا تُشبه زمننا."

صمتت لحظة، ثم قالت:

ـ "وقد استُدعِيَ من جديد إلى الأمن السياسيّ... نفس الأسئلة القديمة، لكن هذه المرّة سُئل عنّي."

ـ "ومن المؤكد أنه قد سُئل عنِّي أيضاً، ربّما. ليس غريبًا يا منى. هذه البلاد لا تُحبّ من يُفكِّر... ولا من يُحب."

حدّقت منى في عيني والدها، ثمّ سألته بهدوء:

ـ "أتوافق على علاقتي به؟"

أطرق الرجل لحظةً، ثم أجاب، وكأنّه يُنقّب في قلبه عن الجواب:

ـ "إذا أردتِ الصدق: لا يهمُّ إن كنت أوافق... ما دمتِ ترين فيه رجلاً يصونك ويكبر بكِ. لكنني أطلب منك فقط شيئًا واحدًا: لا تتركيه وحده في اللحظة التي يظنّ أن لا أحد معه."

ابتسمت منى، ومدّت يدها نحو يد والدها:

ـ "ذلك ما أردت أن أسمعه... وما أردت أن أفعله."

غادر الضوء بلطفٍ حوافّ الغرفة، فيما انفتح بين الأب وابنته حوارٌ صامت، عميق، لا يحتاج إلى كلماتٍ أخرى.

قَلَّبَ المُحقِّقُ الأوراقَ بِبُطْءٍ، ونَظَرَ إلى نُعمانَ بنَظرةٍ تَحمِلُ التَّوجُّسَ:

- " طيب يا أستاذُ نُعمان، نُرِيدُ أن نَتَحَدَّثَ بِصَراحةٍ. مع منى؟، عن ماذا تَتَحَدَّثُ في العادة؟ عن الحُبِّ أم عن أمرٍ آخر؟"

تَرَدَّدَ نُعمانُ قليلاً، ثم قالَ بثباتٍ:

- " نَتَحَدَّثُ عن كلِّ شيءٍ... عن الكتب، والدِّراسة، وعن الوطن، وما يَجري حَولَنا".

رَفَعَ المُحقِّقُ حاجِبَهُ باستِهزاءٍ:

- " عن الوطن؟ أي وطن تقصد؟ وطنكم، أم فرنسا؟ أم أولئك الذين يحلُمون بالحُكم من وراء البحار؟"

لم يُجِب نُعمانُ، فَتَفَحَّصَهُ المُحَقِّقُ بتمعّنٍ، ثم سأل:

- " هل تتحدَّث منى عن والدها؟ ما رأيُه فينا؟ وماذا يَظُنُّ عنا نحن؟"

حاوَلَ نُعمانُ استعادة رباطة جأشه، فأجابَ بهدوءٍ:

- "السيد أحمد رجل مُثقَّف، له رأي، لكنّه لا يُدلي بأيّ كلامٍ ضدّ الوطن".

ضحكَ المُحَقِّقُ ببرودٍ:

- "لا يُدلي... لكنك تسمع، وتكتب. صحيح؟ تُسجِّل أفكارَه وترسلها إلى الخارج؟"

هَزَّ نُعمانُ رأسَهُ نفيًا، لكنّ المُحَقِّقَ لم يُمهله، وتابع:

- "وقريب عَمِّها في لبنان؟ ماذا يعمل؟ مع الميليشيات أم مع السفارة؟ وقريب خالَّتها الذي لديه مطبعة؟ هل تطبعون منشورات أم روايات رومانسيّة؟"

قال نُعمانُ بهدوءٍ:

- " لا أعرفُ تفاصيلَ عن عائلتهم، وليس لي شأنٌ بهذه الأمور".

وقفَ المُحَقِّقُ وتقدّم نحوهُ وقال بنبرةٍ تُخفي غضبًا مكبوتًا:

- " لكنّكَ تعرف، وتحدّث، وتسجّل كلّ شيء. هكذا كُتِبَ عنكَ: صاحبُ ذاكرةٍ حادّةٍ، يحفظ ما يُقال، وينقله بأسلوبٍ أدبيّ! ممتاز".

سحب ورقةً من الملفّ، وقرأ بصوتٍ مصطنع البرود:

- في أحد لقاءاتك مع الآنسة المذكورة، عبّرتَ عن اعتقادك أنّ قول الحقيقة في هذا الوطن صار فعلًا من أفعال الحُبّ، لأنّكَ ترفض أن يُدفَن الجمال بالصمت... تحبّون الجمال كثيرًا، أليس كذلك؟"

أجاب نُعمانُ بصوتٍ خافتٍ:

- " قلتُ الكلام أمامها... ليس منشورًا ولا بيانًا".

ضحكَ المُحَقِّقُ مستهزئًا:

- " لا داعي للنشر، وجودك، وكلامك، وكلامها، هو النشر ذاته... هو المرض".

عمَّ الصمتُ للحظة، ثم عاد يسألُهُ بنبرة أخفت:

- " آخر سؤالٍ لهذا اليوم... لو خُيّرت بين حُبِّها وولائك للوطن، ماذا تختار؟"

نظر نُعمانُ إليه مليًا، وقال بثبات:

- " إن كان الولاء يعني الكذب، فأنا لا أصلح لا للحُبّ ولا للوطن".

سادَ الصمتُ ثانيةً، أعاد المُحَقِّقُ الملفَّ إلى مكانه، طرَقَ بأصابعه على الطاولة، وقال بحزم:

- " انتهينا لهذا اليوم، لكنّنا سنلتقي قريبًا، الشهر القادم. أو ربما قبل فلا تنسَ".

عاد نُعمان إلى البيت متأخّرًا، خطاه مثقلة بثقل ما سمعه، وعيناه تحملان ظلال قلق عميق. دخل غرفة منى، التي كانت تجلس بجوار النافذة، تنظر إلى الحديقة بصمت غير مريح.

نظرت إليه منى، وابتسامة باهتة ارتسمت على شفتيها، ثم قالت بصوت متردّد:
ـ " كيف كان التحقيق؟"

تنفّس نُعمان بعمق، وجلس بجانبها، يمد يده ليأخذ يدها بين يديه، قائلاً بنبرة رقيقة لكنها متألمة:
ـ " كان كما توقعت، أسئلة عنك، عن عائلتك، عن كل شيء... عن البلد، عن كلامنا، عن... كل التفاصيل".

ارتعشت شفتي منى قليلاً، وضعت يدها على قلبها، وقالت:
ـ " هل خفت؟ هل قالوا شيئًا عنّا؟"

ابتسم نُعمان ابتسامة ضعيفة، وأجاب:
ـ " الخوف... موجود، لكن الخوف من أن نخسر بعضنا أكبر. هم يشكون في كل شيء حتى في الحقيقة ذاتها، لكننا لا نستطيع".

نظرت منى إليه، وعينيها تلمعان بالدموع، وهمست:
ـ " أنا قلقة عليك... وقلقة علينا. ماذا لو لم أعد أستطيع حمايتك؟"

مسح نُعمان دمعة هادئة على وجهها، وقال:
ـ " بل ماذا لو لم أعد أستطيع أنا على حمايتك؟".

تنهدت منى بعمق، وقالت بحزم:
ـ "هل تعدني ألا تتركني... مهما كانت العواقب".

شدّ نُعمان يدها، وقال:
ـ "بت أشك في قدرتي على أن أعدك... كما بت أشك في قدرتي بل في قدرتنا على مواجه كل شيء معًا".

غمر الصمت اللحظة، لكن بين الكلمات كان هناك شعور بالوحدة في مواجهة عالم يفرض على الحب ثمناً باهظاً.

تَصاعَدَت وتيرةُ التحقيقِ مع كلِّ زيارةٍ جديدة، وكأنّها موجةٌ لا تهدأُ، تَرتفعُ في عنفوانِها وتَشتدُّ. في اللقاءِ الأخيرِ، استَهَلَّ المحققُ حديثَهُ بنظرةٍ مُتَّسِمةٍ بالشكِّ:

– " نُعمان، أخبرني عن والد منى... كيف كان عملُه في بيروت؟ وماذا تغيّر حين انتقل إلى دمشق؟ ولماذا؟"

تَنَفَّسَ نُعمان ببطءٍ، وأجابَ محاولًا التهدئة:

– "والدها كان يعمل في شركةٍ خاصةٍ للعائلة كمندسٍ، انتقل للعمل في دمشق لأسبابٍ عائليةٍ بحتة."

تابع المحققُ، وهو يدوّن في دفتره:

– "وماذا عن دخله الشهري؟ وهل تغيّر مستواه بعد الانتقال؟"

هزّ نُعمان رأسه بتؤدةٍ:

– " الدخل تغيّر قليلاً، لكن ليس بدرجةٍ كبيرة."

ثمّ أضاف المحققُ بلهجةٍ حادةٍ:

– " هل تعلم أن عقدَ المنزل باسمك؟ وأن هناك مبالغَ طائلةً تُدفعُ وتُحصَلُ بشكلٍ غير مُبرر؟ كيف حصلت على هذه الأموال؟ ومن أين لك بها؟"

شعر نُعمان بقلبه يسرعُ، وارتجف صوته قليلاً:

– " أنا... لم أستخدم هذه الأموال. لا أعرفُ مصدرها بدقة، إنما هو عمل والد منى في مجال التعهدات والبناء."

عاد المحققُ ليتحدثَ عن تلك الاتهامات، وهو يتحدثُ بهدوءٍ كأنه يُوجّه إدانةً مُبطّنة:

– " هذه الاتهاماتُ ليست بسيطة، قد تَجلبُ الضررَ لك ولعائلتك، بل ولعائلة منى أيضًا."

في تلك اللحظة، كان نُعمان يفكر في والد منى، الرجل الحكيم الذي يحملُ ثقلاً كبيرًا في حياته.

اتصل نُعمان بوالد منى في محاولةٍ لشرح الوضعِ وطلب النصيحة، واجتمع الرجلانُ في هدوءٍ على ضوءٍ خافتٍ، وسط همسات القلق والخوف من المُستقبل:

قال والد منى بحزمٍ:

- " هذه المواقفُ خطيرةٌ يا نُعمان، لكن الصبرُ والحكمةُ هما سلاحُنا الآن. لا تجعل قلبك يخونك، ولا تكشف لهم كل ما تعرف!."

أجابه نُعمان:

- " أشعرُ أن الخناقَ يضيقُ حولنا أكثر فأكثر، لكني لن أستسلم."

أكّد والد منى:

- " علينا أن نحمي أنفسنا وأهالِينا. لا مجال للاندفاع، ولا للحديث مع من لا يفهم."

ابتسم نُعمان بتثاقل، وكان يعلم أن معركة الحقيقة والمحبة لن تكون سهلة، وأنها تتطلب صبرًا ومتانةً لا حدود لها.

وفي إحدى الأمسيات، جلس نُعمان ووالد منى في غرفةٍ مُعتِمة، يختلط فيها نورُ المصباح الخافت بظلٍّ ثقيلٍ يلفّ المكان. تنفّس الأبّ بعمقٍ قبل أن يبدأ الكلام:

ـ " يا بني أنا لا خوف علي، لكني بت أخاف عليك أكثر من أي وقت مضى، فهؤلاء لا تعرف كيف ينبشون، ولا تعرف إلامَ يتطلعون!"

نظر نُعمان إليه بعينين متسائلتين:

ـ " هل ما يدعونه يجعلك هدفًا للشكوك؟"

أجاب والد منى بنبرة جادة:

ـ "بلا شك. كل تحرك، وكل تعامل، يُراقب بدقة. وخاصة المبالغ التي تُحوَّل أو تُصرف."

ـ " وماذا عن العقد الذي يحمل اسمي؟" سأل نُعمان، معبّرًا عن قلقه.

ـ " العقدُ ليس حصنا. لكن علينا أن نكون حذرين، فكل ورقة وكل توقيع يُمكن أن يُستخدم ضدّنا."

أومأ نُعمان، ثم قال بحزم:

ـ " يجب أن نُجهّز أنفسنا لأي مواجهة، وأن نُبقي على تواصل دائم. لا يمكننا ترك الأمور تتحكم بها الخوف والشك."

ابتسم والد منى، وهو يمدّ يده في إشارة إلى اتفاق غير مكتوب:

ـ " اتفاقنا صادق، يا نُعمان. سنواجه معًا، ونبقى صامدين."

شعر نُعمان بنبضات قلبه تهدأ قليلاً، مع هذه الكلمات التي تُعيد إليه بعض الأمل في عتمة المجهول.

جلس نُعمان في غرفة التحقيق، حيث كان المحقق ينتظره بوجهٍ صارمٍ يحمل في طياته تحديًا وخبثًا. بدأ المحقق بقلب الأوراق ببطء، ثم قال بصوتٍ منخفضٍ لكنه يملؤه الضغط:

ـ " يا أستاذ نُعمان، صار عنا معلومات جديدة عن عمل والد منى، وعن أسباب انتقاله من بيروت إلى دمشق، وعن دخله الشهري. هل تستطيع أن تشرح لنا كيف تمكّنت من تدبير أمر العقد الذي باسمك؟ ومن أين لك بهذه الأموال الطائلة؟"

تنفس نُعمان ببطء، محاولًا المحافظة على رباطة جأشه، وأجاب بثبات:

ـ " العقد كان من أجل سكن البيت لعائلة السيد أحمد. أما المال، فهو من حسابه الخاص ومن دعمٍ عائلي له من عديله."

ارتسم على وجه المحقق ابتسامة ساخرة، وقال:

ـ " وماذا عن علاقتك بأسرة منى؟ وما هي التوجهات السياسية لأفرادها الذين لا يزالون في لبنان؟"

أومأ نُعمان بصمت، ثم قال:

ـ " ليس بيننا علاقة عائلية، ولا أعلم شيئا عن توجهات سياسية لأحد منهم، لأنني لا أتدخل في شؤونهم."

زاد المحقق حدّةً، ونظر إليه قائلاً:

ـ " هذه الأمور مهمة لنا، أيُّ كلمة تخفيها تُحسب عليك. فلا تستخف."

في منزل منى، اجتمع والدها ونُعمان حول الطاولة. كان الجو متوترًا، والهموم تلوح في الأفق. قال والد منى بجدية:

ـ " علينا أن نكون مستعدين. الأسئلة تتصاعد، والخطر يزداد. لا بدّ أن نحمي بعضنا البعض."

نظرت منى إلى نُعمان بنظرة دافئة:

ـ " نحن معك يا نُعمان، لا تخف. سنصبح أسرة واحدة والأسرة تبقى سندًا."

أخذ نُعمان نفسًا عميقًا، وقال:

ـ " سأكون حذرًا، ولكننا لن نستسلم للخوف. الحقّ هو دربنا، مهما كانت التضحيات."

ارتسمت على وجوههم ملامح العزم، وكأنهم يشدون العزائم استعدادًا لأي محنة قد تأتي.

تحتَ أضواءٍ باردةٍ تُسلِّطُ الضوء على تفاصيلِ بيتِ العائلة، حيثُ ارتسمت ملامحُ القلقِ على وجهِ المحقق، كانت الأنظارُ تنصبُّ على ما يملكهُ السيدُ أحمدُ، والدُ منى، من ثروةٍ ماليةٍ لفتت انتباهَ الأجهزة الأمنية.

جاء المحقّقُ ذاتَ مساءٍ مُحمّلاً بوجهٍ مُتشددٍ وابتسامةٍ لا تخلو من تهديد، وقد أحضرَ معه جهازَ تسجيلٍ صغيرًا مموهًا بقلم حبر بين يديه، واستدعى نُعمان إلى الخارج وقال له بنبرةٍ حذرةٍ ملؤها تهديدٌ مبطّن:

ـ " يَا نُعمان، حرصًا على سلامتك، وحرصًا على عدم تورطك في اتهاماتٍ استخباراتيةٍ قد تُحملُ أعباءً كبيرةً، أُعطيكَ هذا الجهازَ. ستبقى قريبًا من السيد أحمد ومن منى، وتسجّلُ كلّ ما يُقالُ، لتكونَ عونًا لنا، وضمانةً لأمن وطنك."

قال نُعمان بعد لحظة صمتٍ ثقيل:

ـ " وهل هذه هي ثقةُ الدولة؟ أن تتحولَ بيوت الناس إلى مركز مراقبةٍ وتسجيلٍ؟"

ردّ المحقّق بهدوءٍ قاتل:

ـ " ليس هذا طلبًا، يا نُعمان. إنه أمرٌ لازمٌ من أجل حماية الجميع. لا تدع الخوف يُسيطر عليك، ولا تجعل الحرص على وطنك يقلقك."

عاد نُعمان و جلس على الكرسي، وأدرك أن اللعبةَ أكبرُ مما ظنّ، وأنه صار جزءًا من شبكةٍ معقدةٍ من المراقبة والخوف، حيثُ المالُ والحبُّ والحريةُ تُحتجزُ جميعها بين جدران هذا البيتِ، تحت رقابةٍ صارمةٍ لا ترحم.

جلس صامتا وهو يحمل الجهاز الصغير بين يديه، كأنه ثقلٌ لا يُطاق.

ثم غادر إلى الحديقة وحفر حُفرة فيها ودسه في التراب وعاد. وأخبرهن بما حصل! فنظرت إليه منى بعينين تختلط فيهما الحيرة بالخوف، وقالت بصوت منخفضٍ:

ـ " هل تظنُّ أنَّ هذا الأمر سيُغيّر شيئًا؟ أهو فقط من أجل الحماية، أم بدايةُ خيانةٍ مُريرة؟"

ارتسمت على وجه والدها تعابيرُ جديّةٍ، قال بحزمٍ لكن بلهجةٍ ملؤها الحذر:

ـ " هذا واقعُنا الآن، يا منى. لا يُمكننا تجاهل ما يجري من حولنا. المالُ الذي أملكهُ صارَ بؤرة اهتمامٍ للمراقبة، وهذا الجهازُ... أداةٌ لتسلطهم علينا، أو على الأقلّ محاولةٌ لذلك".

تنفّس نُعمان ببطء، محاولًا استيعاب ثقل الكلام، ثم قال:

ـ " لكن هل يمكن أن تبقى هذه الكلماتُ، هذه الحواراتُ التي تجمعنا، تُسجّل وتُراقب؟ أليسَ هذا خنقًا للحرية؟"

ابتسم والد منى ابتسامةً مريرة، وأجاب:

ـ " نعم، يا نعمان، هذا خنقٌ، لكنه خنقٌ لنا جميعًا. وفي بعض الأحيان، علينا أن نتظاهر بالرضا لنبقى على قيد الحياة".

رفعت منى يدها لتلمس كتف نعمان، وأضافت برقة:

ـ " نحن بحاجة لأن نكون أقوى من الخوف، لنقف معًا، لا لنخضع للأصوات التي تراقبنا من الظل".

نظر إليها نعمان بعينين غارقتين في العزم، وقال:

ـ " لن أفعل ما يطلبون، حتى لو كان ذلك محفوفًا بالمخاطر".

كان الليل يوشك أن ينقضي حين التفتَ نُعمان إلى السيد أحمد، وقال بصوتٍ خافتٍ كمن يدفعُ عن أحبّته ظلال كارثةٍ وشيكة:

ـ " غدًا باكرًا... يجب أن يُباع البيت، وتُصفّى كلّ أعمالك هنا، وترجع مع منى إلى بيروت. هذه دمشق لم تَعُد آمَنة لك ولا لمنى، والخطر يقترب أكثر ممّا نظنّ."

صمتٌ ثقيل خيّم على الغرفة. منى جلست قرب النافذة، عيناها الشاخصتان نحو العتمة تذرفان الدموع، كأنها تُصغي لصوتٍ لا يُسمع، ثم التفتت ببطء إلى أبيها تنتظر منه جوابًا، أو حلا لما يمرون به.

أما السيد أحمد، فقد ضمّ يديه إلى بعضهما وأطرق رأسه قليلًا، قبل أن يرفع عينيه نحو نُعمان قائلًا بنبرة العارف المُنكسر:

ـ " أتظنّ أن الرحيل إلى بيروت يُخرجنا من الخطر؟ يا ولدي، مَن يُمسك بزمام الأمن هنا، هو ذاته من يُمسك به هناك. الحدود لم تعد تفصل بين السكين والرقاب، بل تُمسي جسرًا للشكّ والرصدِ والولاء القسري."

قالت منى وقد بدا الوجع واضحًا في صوتها:

ـ " أيعني هذا أن لا ملاذ لنا؟ لا بيت؟ لا وطن؟"

أجاب والدها، وكأنما يُحدّث نفسه:

ـ " يعني... أن علينا أن نُفكّر بحلٍّ أوسع، لا يُخرجنا وحدنا، بل يُخرج الحقيقة من هذا الحصار. أن ننجو جميعًا، لكن لا سبيل إلا بالهرب، فلا حكمة سواها تَقي وتُفهم وتُراوغ."

تقدّم نُعمان نحو الطاولة، وضع يده على أوراقٍ مترامية تخصّ البيت والمكتب، وقال:

ـ " لكن الوقت لا يرحم. كل يومٍ يمضي، يجعلهم يقتربون أكثر. المخابرات طلبت منّي أن أُسجّل لكم... أن أسمعكم. وأنقل لهم، وأنا..."

قاطعته منى وهي تنهض فجأة:

ـ " وأنت لم تفعل، أليس كذلك؟ لن تفعل!"

نظر إليها مليًّا ثم قال:

ـ "وماذا كنت تظنين؟ طبعاً لم أفعل... ولن أفعل."

أطرق والدها، وساد الصمت من جديد. ثم قال بصوتٍ هادئٍ، حاسم:

ـ " إذن نُفكّر معًا. لا نبيع شيئًا. لا ننهِ شيئًا. نحتاج إلى مهرب لا يلفت الأنظار، وخطة لا تفضحنا. نحتاج... إلى وقتٍ، ولو كان على حساب الخوف."

قال نعمان:

- " ولكن أظن أن كسب الوقت لن يكون بوجودكم هنا في دمشق"

لم يكن الوقت في صالحهم. كلّ دقيقة تمضي كانت تُضاعف القلق، وتدفع الظلال لتتسلل أكثر إلى وجوههم وأفكارهم. على الطاولة، تكدّست أوراق البيع، عقود المكتب، باتوا فجأة ثقلاً يجب التخلّص منه دون ضجّة.

قال السيد أحمد بصوتٍ منخفض، وهو يُقلّب إحدى الأوراق:

ـ " إذا عرفوا بأننا نحضّر للرحيل، سيعتبرونه فرارًا... وستُفتح أبواب الشكّ على مصراعيها."

ردّ نُعمان، محاولًا التماسك:

ـ " أعرف. لكنّهم باتوا يعرفون أكثر، مما سيدفعهم إلى الابتزاز على الأقل لتتقي أنت به شراً يخططون له أو يصنعونه... هم يراقبون، يسألون عنك، عن أموالك، عن خالك في لبنان، عن تلك المطبعة الصغيرة التي طبعت كتابًا عن الجمال والحرية منذ عشرين عامًا، فعدّوه منشورًا سياسيًّا."

ضحك أحمد بمرارة:

ـ " الجمال؟ صار تهمة؟"

فأجابه نُعمان كمن يُجاهر بما في قلبه:

ـ " نعم، تهمة! لأنّهم يخافون من كل ما لا يُشترى... من كل ما لا يَصدر إلا بأمرٍ مكتوب ضمن نطاق سلطتهم وإلا فسيُختم بالشمع الأحمر."

اقتربت منى من والدها، وضعت يدها على كتفه، وقالت بهدوءٍ يشبه الرجاء:

ـ " نحن لا نريد أن نكون أبطالًا، يا أبي... فقط نريد أن نعيش بسلام."

أومأ برأسه، ثم قال وهو ينظر إليها كأنما يستودعها شيئًا أكبر من الكلمات:

ـ " وأنا لا أريد أن أدفعكِ ثمن هذا الحلم المكسور. سنبحث عن طريقٍ لا يفضي إلى هاوية. فقط... علينا أن لا نُخطئ في الخطوة القادمة."

أجاب نُعمان:

ـ " إن شئت، أُقابلهم مرةً أخرى، لأفهم إلى أي حدّ بلغ الأمر عندهم."

قال السيد أحمد متأمّلًا:

ـ " لا تتعجّل. ولا تُقابلهم قبل أن نُحدّد نحن ما نريد. هذه ليست لعبة... إنها مصائر."

ساد السكون من جديد. ثم هبّت ريحٌ خفيفة من نافذة لم تُغلق جيدًا، فتراقصت الأوراق على الطاولة، كأنها تهمس بأن المقام بات شيئاً تذروه الرياح.

بقيت أعينهم معلّقة بذلك الارتجاف الصامت، وقد أدرك كلّ منهم أن الطريق الذي بدأوه لن يُفضي إلى المألوف، وأنّ الحياة، كما الحريّة، لن تُمنح لهم إلا بثمنٍ باهظ.

في صباحٍ رماديٍّ خافت، كانت دمشق تتهيّأ ليوم جديد، لكنّ البيت في حيّ "المزة فيلات" بدا وكأنه يُطوى على عُجالة، كصفحةٍ لا يُراد لها أن تُقرأ مرةً أخرى.

لَقَدْ قَرَرُوا الذَّهَابَ وَالمُغَادَرَةَ بَعِيداً.

كان السيّدُ أَحمد قد أمسكَ بالسماعةِ بالفعل عندما تقدّمتِ الساعةُ نحو يومهما الأخير.
بصوتٍ خافتٍ تُغلّفه العَجَلةُ، راحَ يُحدّثُ أحدَ أقاربه البعيدين، ذاكَ الذي يملكُ نُفوذًا في أماكنَ لا يَصلُها العاديّون.
رجاهُ أن يؤمّنَ ثلاثَ مقاعدَ على أوّلِ طائرةٍ تُغادرُ دمشق ـــ لا يهمُّ إلى أين، المهمُّ أن يكونَ الرحيلُ قبلَ بزوغِ الفجرِ التَّالِي: واحدةٌ له، وأخرى لابنته، والثالثةُ لِنُعمان.

كان نُعمانُ واقفًا جانبًا، جبهتُهُ تستندُ إلى الزجاجِ البارد.
وحينَ نطقَ السيّدُ أحمد بالأسماءِ، استدارَ نُعمانُ ببطءٍ كأنّ شيئًا داخلهُ قد انكسر.

قالَ بصوتٍ خفيضٍ اخترقَ سكونَ الغرفةِ كحدِّ السكين:
ـ "لا أستطيعُ أن أُغادرَ مَعَكُم... لا أستطيعُ أن أتركَ أمي... ليسَ الآن".

سادَ الصمتُ، صمتٌ كاملٌ لا يُسمَعُ فيه إلّا خريرُ الخطِّ البعيد.

نظرت إليه منى، وكأنّ الأرضَ قد سُحِبَتْ من تحتِ قدميها.
ارتجفتْ شفتاها، وكادت أن تتكلّم ـــ اعتراضًا، أو رجاءً ـــ لكنّها لم تفعل.
بدلَ ذلك، تقدّمت نحوه ببطءٍ، وأخذتْ يدَهُ بكفٍّ خفيفةٍ مرتعشة.

همستْ:
ـ "أفهمُكَ".

لكنَّ عينيها كانتا تمتلئان بدموعٍ مُعنّدة، لا تريدُ أن تنساب.

ظلّ السيّد أحمد صامتًا، يرمقُهما بنظرةٍ طويلةٍ، ثمّ أومأ برأسِه إيماءةً بالكادِ تُرى.

عادَ إلى الهاتفِ، وتنهّدَ تنهيدةً كانت أبلغَ من أيّ كلام:
ـ "تذكرتان فقط... من دمشقَ إلى عمّان... ومن هناك ـــ فرنسا، أو ربّما أستراليا .
لا يهمُّ إلى أين. المهمُّ أَنْ يَكُونَ السَّفَرُ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ".

بَدَأت منى ترتّب حاجياتها بصمت، تلفّ الكتب بشيءٍ من الوجل، تضع بينها ملاحظاتٍ قديمة بخطّ نُعمان، ورسائل قصيرة لم تُرسل، ورسمًا بالقلم الرصاص لوجه أمّها، تركته ذات مساء فوق دفتر المحاضرات.

أما السيّد أحمد، فكان منشغلًا بترتيب الوثائق، يطوي كلّ ورقة مرتين، كمن يُحاول محو أثرها، فيما ظلّ الهاتف الأرضيّ ساكنًا كقنبلةٍ أُفرغت من فتيلها، لا يرنّ، ولا يُستعمل، ولكنّه حاضر، كعَينٍ ثالثة تترصّد الهمس.

اتصل نعمان مع المكتب العقاري وبلطف طلب من صاحبه الحضور فوراً إذا لم يكن مرتبطاً بموعد، فحضر الرجل على الفور بينما كان نعمان قد أقنع السيد أحمد ببيع الشقتين معاً وكونهما باسمه فذلك سيسهل عليهما السفر دون حاجة لانتظار مواعيد الفراغ والتسجيل لدى الدوائر الحكومية، وما عليه إلا يخبر عديله وخالة منى بأنهما اضطرا للبيع لأسباب سيشرحها لهما لاحقا، وإنه سوف يجري تحويل قيمة الشقتين فور بيعهما.

وعندما وافق السيد أحمد ومنى كان صاحب المكتب العقاري قد وصل فاستقبلوه ودخل غرفة المكتب.

قال نعمان:

- " إن السيد أحمد مضطر للسفر سريعاً وإنه يريد أن يبيع شقته وشقة عديله، فهل تبحث له عن مشتر يدفع القيمة التي تستحقها الشقتين معاً".

فابتسم صاحب المكتب قائلاً:

- " يا سبحان الله!".

وطلب الإذن بالمغادرة للحظات، وعاد برفقة الجار التاجر الذي في الطابق الأعلى فقد كان قد طلب منه منذ أشهر أن يجد له شقتين قريبتين منه لأقارب له، فاتصل هذا الجار بأقاربه وحضروا على الفور، وتم البيع وتوقيع العقود اللازمة، وبقي على نعمان أن يحضر يوم الفراغ إلى الدائرة المختصة ليتم استكمال نقل الملكية.

غادر المشترون لساعة تقريباً وعادوا من جديد ليحمل كل منهم حقيبة من النقود لكن بعملة أجنبية، وكم كانت سعادة السيد أحمد بذلك حتى لا يضطر إلى عملية التصريف، وحاول الشاري أن يبقي شيئاً من النقود حتى يتم الفراغ، فقام نعمان بإعطائه هويته الشخصية كدليل على مصداقية ما وعدهم به، لكن الجار التاجر كان يعرف نعمان وقد خَبِرَهُ عن قرب لذلك أقنع قريبه أن لا حاجة لأن يحتفظ بشيء وأن يسلم المبلغ نقدا بشكل كامل. وأخذ صاحب المكتب عمولته المتعارف عليها ومضى إلى مكتبه وهو يحمد الله ويشكره على رزق جاء على أهون سبب وأسرع طريق.

بعد أن اتفقوا أن يتم تسليم المفاتيح صباحاً للجار وأن يبقى كل شيء في الشقتين على حاله عدا ما يخص السيد أحمد وابنته وخالتها من حاجيات خاصة، وغادر الجميع.

حاول السيد أحمد أن يقنع نعمان بأن يقبل إحدى هذه الحقائب الثلاثة ذي المبالغ الطائلة كهدية له، لكن نعمان أشعرهما بأنهما بذلك يخسرانه نهائيا، فألغيا هذه الفكرة واعتذرا عنها

وقف نُعمان عند الباب، لم يعرف ما الذي ينبغي قوله. الكلمات كثيرة، وكلّها غير كافية.

قال أخيرًا، وهو ينظر إلى منى:

ـ " في آخر لحظة قبل أن تفتح الطائرة أبوابها، أخبريني...بواسطة الهاتف، فقط كلمتان قصيرتان، لا حاجة للكلمات... يكفيني أن أعرف أنّك بخير، لذلك قولي (نحن بخير)".

أومأت برأسها بصمت، ثم اقتربت منه تود عناقه. بكنه مد إليها يده، فصافحها مودعاً كما لو أنّه يودّع وطنًا لا يعرف إن كان سيعود إليه يومًا.

ـ " هل ستعودون إلى هناك؟" سألها، دون أن يحدّد مكانًا.

قالت بنبرةٍ فيها من الطفولة ما يكفي لكسر القلب:

ـ " بل إلى حيث نستطيع أن نكون بشرًا دون خوف. وإن عدنا... فلن يكون الآن".

تقدّم السيّد أحمد منه، صافحه بوقارٍ فيه تقدير وحذر، ثم ضمه إلى صدره وهو يقول:

ـ " لقد كنتَ كريمًا... وشجاعًا أكثر مما ينبغي. ابقَ على حذرك، ولا تَسمح للظلال أن تبتلعك. هذه البلاد تحتاج من يحفظ وجهها الجميل، وإن خذلها الجميع".

ردّ نُعمان بصوتٍ متماسك:

ـ " أعرف الطريق، وسأحاول أن أبقى في الضوء، ما استطعت... وأن أكتب فقط، لا أن أُعلن".

ثم نظر إلى منى، وقال همسًا:

ـ " إن كتبت شعراُ يوما فلك وعنكِ... وإلا فسيكون نصًّا لا يُنشَر حتى نهاية العمر. وسيبقى بيني وبين الحلم".

لوّحت له بيدها المرتجفة، ثم أدارا ظهريهما، ومضيا.

ظلّ نُعمان واقفًا وحده، في البيت، ينتظر اتصالهما ليسلم المفاتيح لصاحبها الجديد ويعود إلى بيته.

يتأمّل السور الذي يأبى أن يتصدّع أمام البيت، وباب الحديقة الصغيرة، وشجرة النارنج التي تساقطت أوراقها باكرًا هذا العام.

تنفّس بعمق، ثم قال في سرّه:

" بعض الوداع، لا يُقال فيه شيء. فقط... يُعاش".

المشهد: بعد أسبوعٍ على مغادرة العائلة،

في مساءٍ رماديّ كئيب، استُدعي نُعمان إلى الفرع مجددًا.**

لم يكن الطريق إلى هناك جديدًا عليه، لكنّه هذه المرّة بدا أطول، كأنّ الأرصفة تنأى بنفسها عنه، وكأنّ الجدران أُدركت أكثر، واستحالت إلى وجوهٍ بلا أعين.

في الغرفة ذاتها... نفس الطاولة، نفس الكرسي المعدني البارد، ونفس العيون التي لا تُخطئ الارتباك.

دخل المحقّق، أكثر أناقةً من السابق، يحمل ملفًا رقيقًا بيده، وابتسامةً لا معنى لها على فمه.

قال وهو يُقلب بعض الأوراق:

ـ " هل غادروا؟ .... أتظن هذا أقلّ تعقيدًا؟....... ألم أَطْلُب مِنْكَ متابعة كُلَّ تَفَاصِيْلَهُم؟"

لم يُجِب نُعمان.

تابع المحقّق، وكأنّه يُلقي موعظة:

ـ " لكن... ماذا لو قلتُ لك إنّهم لم يذهبوا بعيدًا؟ وإنّ أحدًا ما قد ترك خلفه أثرًا يُقلق السيادة؟"

نُعمان (بلهجة حذرة):

ـ "أيّ أثر؟"

فتح المحقّق الملف وأخرج صورة مطويّة. فردها على الطاولة ببطء.

ـ "هل تعرف هذا؟"

وأردف

ــ " إنها صورة لحقيبة جلدية صغيرة، مألوفة... ربما كانت لمنى، أو لوالدها. لا ندري"

تابع المحقّق، وعيناه تستقرّان على عينيه:

ـ "عُثِر عليها قرب الحدود... وبداخلها شريحة ذاكرة. يبدو أنّها تحتوي شيئًا... رسائل؟ تسجيلات؟ أسماء؟ من يدري؟"

صمت قليلًا، ثم اقترب ببطء وهمس:

ـ " وكل هذا... كان في البيت الذي .....، قبل أن يُباع."

ابتلع نُعمان ريقه. وهو يضحك بصمته، لأن هذا المحقق لم يكن يعرف شيئًا، فقط يريد أن يثبت شيئاً لنفسه أو أنه أراد أن يُقنع نفسه، لقد غادروا بالطائرة، بشكل نظامي.

رفع المحقّق مسجّلًا صغيرًا، ووضعه على الطاولة.

ـ " هل تذكّر هذا الجهاز؟ إنه من ذات النوع الذي أعطيتك إياه. في بيتهم، هل استخدمته؟ هل سجّلت شيئاً كما طلبت منك؟ يمكنك أن تخبرني بكلّ أريحيّة... فنحن صرنا أصدقاء، أليس كذلك؟"

هزّ نُعمان رأسه نفيًا، ثم قال بثبات:

ـ " لم أسجّل شيئًا. ولا سلّمتكم شيئًا. ستجد الجهاز المزعوم في حديقة ذلك المنزل، مدفوناً إلى جوار الجذع الغربي لشجرة التِّين العتيقة الواقفة هناك"

ابتسم المحقّق بخبث، وأغلق الملف.

ـ " جميل... جميل. نحن نُحبّ الصادقين. ولا حاجة لي بقلم فاسد، لكن أحيانًا... الحقيقة تحتاج إلى وقتٍ لتخرج."

ثم أردف بنبرة باردة:

ـ " بالمناسبة... الأستاذ القادم من بيروت، لم يرجع إليها، و لن يعود إلى هنا ثانية. لا تقلق عليه، هو وابنته الآن بخير، سَافَرَا إِلَى (استراليا).

لكنك ستُستدعى مجددًا. طبعًا. فَالوَطَنُ لَا يَنْسَى أَصْدِقَاءَه."

بعد ساعات طوال خرج نُعمان من غرفة التحقيق التي كشفت أوراقها أمامه بكل صدق هذه المرة.

" فَلَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ، وَلَا فِي عَيْنَيْهِ، شَكًّا فِي مَنْ أَحَبَّهُمْ؛ وَلكِنَّ رَحِيلَهَا تَرَكَ فِي صَدْرِهِ غُصَّةً تَأْبَى أَنْ تَفْتُرَ".

أخرج من جيبه، ورقةٌ تركتها على وسادتها قبل أن تسافر، مكتوب عليها بخطّ يدها:

"اطْمَئِن، فأنّا بخَيْرٍ مَا دُمْتَ نَبْضًا فِي قَلْبِي، وَصَدَى فِكْرٍ يُنِيرُ رُوْحِي"

(لا تَخُطّ تِلْكَ الرِّوَايَةِ)

رِوَايَةِ الحُلْمِ

مَهْمَا اِسْتَطَعْتَ إِلَى ذَلِك سَبِيلًا

إِلَّا إِنْ خَرَجَتْ هِيَ وَحْدَهَا مِنْك

بعد أسبوعين من مغادرتهما. استفاق نُعمان باكرًا، رغم قلّة النوم. لم يكن له في الأمر فضيلة الاجتهاد، بل ذلك الفراغ الذي يُوقظه قبل الموعد، ثم لا يمنحه سببًا للنهوض.

فتح النافذة، فهبّت نسمات ريفية باردة، تُخَبِئُ رَغْمَ دِفئِهَا شيئاً من البرودة، وشيئًا من الغياب، كأنّها تقول له هذا الصباح:

" مرّت من هناك... ولن تعود."

خرج إلى كليته، يحمل كتبه ودفاتره كما لو كانت بقايا معركة. في الردهة الطويلة، لمح الوجوه المعتادة، الضحكات المتعجّلة، والأحاديث السطحية التي كانت تُغرقه بالضيق أكثر من الوحدة.

جلس في مقعده، وبجانبه الكرسيّ الذي كان لها. ظلّ فارغًا، كأنّه ينظر إليه ويقول:

"احكِ لي شيئًا... كما كنت تفعلين."

سأله زميله بصوت خافت، وهو يشير إلى الورقة التي بين يديه:

ـ "ما رأيك؟ هل سننجح هذا العام بتفوق مثل العادة؟ أو نؤجل إلى عام آخر؟"

أومأ نُعمان موافقًا دون أن يرى. عيناه كانتا تقرآن في مكانٍ آخر. في المساحات الخضراء، كان يرى خطواتها... ويسمع في الصوت المنكسر، صوتًا لم يكسره التحقيق الأخير.

بعد المحاضرة، قصد المكتبة. جلس في الزاوية التي كانت منى تفضّلها. سحب رواية "الطاعون" لكامو، فتحها من منتصفها.

كأنّ الحروف كانت تعرفه. في سطرٍ على الهامش، بخطّ صغير مألوف، كُتِب:

" أحيانًا، يقاوم الإنسان المرض بالكلمات. وأحيانًا، يموت منها."

تأمّل العبارة طويلًا. ثم أغلق الكتاب ببطء، وأخفى وجهه بين يديه.

قال في نفسه:

" تركتِ الحبر في كلّ مكان... يا منى. حتّى في الكتب التي لن أنتهِي من قراءتها."

في مساء ذلك اليوم، عاد إلى البيت. كانت الأضواء مطفأة، كما تركها. جلس إلى الطاولة، نظر إلى الزاوية حيث كانت تجلس مرّة، تدوّن بعض الملاحظات، وتضحك إذا ما علّق على خطّ يدها.

أخرج مغلفًا صغيرًا من درج المكتب. فيه صورتان: واحدة لهما في حديقة الكلية، والأخرى لورقة صغيرة... كتب فيها:

"سيجيء يومٌ... لا يكون الحُبّ فيه جريمة.... ليتنا التقينا في وَطَنٍ آَخَر."

ثم أطفأ الضوء. وبقي الليل يحرس وجعه، ويعدّ أنفاس بلدته... في انتظار استدعاءٍ جديد.

قال نعمان: ()

(" في أحدِ أيّامِ عامِ ألفٍ وتسعمئةٍ وتسعةٍ وسبعين، عقب سفر منى و والدها بشهرين تقريباً إلى قارة بعيدة.

كنتُ قد عدتُ من الجامعةِ بعدَ نهارٍ دراسيٍّ طويل، ودخلتُ دكّانَ والدي حيثُ كان يقصُّ شعرَ أحدِ زبائنه، كما اعتادَ منذ سنين. وقفتُ عند الباب برهةً ثم قلتُ له بصوتٍ هادئ:

ــ " هل تحتاجُ إلى شيءٍ يا والدي؟ إنّي ذاهبٌ إلى المنزل."

رفعَ رأسَه من فوق رأس الزبون، ونظرَ إليَّ بعينين فيهما لمعةُ ارتياح، وقال:

ــ " اجلسْ قليلًا... لا تتعجّل."

أطعتُه وجَلَسْتُ على أحدِ الكراسي الخشبيّةِ القريبةِ من المرآة. كان في صوته ما يُشبه الرغبةَ في أن أبقى، لا لمجرّدِ الحاجةِ بل لأمرٍ آخر. ثمّ عادَ يُتابعُ حديثه مع الزبون، فاسترعى انتباهي أمرٌ لم أكن معتادًا عليه؛ لقد سمعته ينادي الزبون بـ"رفيق".

رفعتُ حاجبيَّ دهشةً. لم يكن من طباعِ أبي ولا من قاموسِه مطلقاً أن يستعمل هذه الكلمة، بل كنتُ أحسبُه ينأى بنفسِه عن كلّ ما يمتُّ إلى الخطابِ الحزبيّ بصلة. فأصغيتُ أكثرَ دون أن أتدخّل، وقد تملّكني الفضول.

أنهى والدي القصّة، وربّت على كتفِ الزبون قائلًا:

ــ " نعيمًا."

ابتسم الرجلُ، ثم تقدّم وجلسَ بجانبي. نظر إليّ نظرةً متفحّصةً مليئةً بالهدوء، ثم قال بنبرةٍ تشي بالاطمئنان:

ــ " حدِّثني... ما قصّتُكَ؟"

استغربتُ سؤاله المفاجئ! تردّدتُ لحظةً، ثم سألتُه بلُطف:

ــ " مَن تكونُ حضرتُك؟"

ابتسم ابتسامةً غامضة، وقال:

ــ " عبدٌ فقيرٌ من عبادِ الله... احكِ لي كلَّ شيء، ولا تخف."

تبادلتُ نظرةً خاطفةً مع والدي، ثمّ شرعتُ في السردِ، كأنّما انفكّت عقدةُ لساني دفعةً واحدة. رويتُ له الحكاية من بدايتها: من السادسِ من تشرينَ الأوّل عامَ ١٩٧٤، مرورًا بأيّامي في المعتقل، ومهزلةِ المحكمة، واستدعاءاتِ شعبةِ الأمنِ السياسي، ومواظبتي على مراجعةِ شعبةِ الحزب، ومماطلةِ "الرفيق أبي معروف" المتكرّرة، حتى تلك اللحظة.

أصغى إليَّ بكلّ تركيزٍ دون أن يُقاطعني، ولم تظهر على وجهه علاماتُ مللٍ أو استعجال، بل كان يُومئُ برأسه بين الحينِ والآخر وكأنّه يُدوّن ملاحظاتٍ صامتة.

وحين انتهيت، سألني بنبرةٍ هادئة:

– " هل تعرفُ مبنى القيادةِ القُطرية لحزبِ البعثِ العربيِّ الاشتراكيّ في دمشق؟ في شارعِ المهدي، بعدَ مبنى الأركان العامة؟"

قلتُ متردّدًا:

– " نعم، أظنُّني أعرفُه... وإن لم أكن، فبوسعي أن أصلَ إليه."

قال:

– " غدًا، في تمامِ الساعةِ الثامنةِ صباحًا، ستجدني هناك بانتظارِك."

في صباحِ اليومِ التالي، وصلتُ إلى المكانِ قبلَ الموعدِ بربعِ ساعة. أوقفتْني بوابةٌ حديديّة وحارسٌ تبدو عليه ملامحُ البساطة.

قال لي:

– " ماذا تريد؟"

أجبته، متلعثمًا قليلًا:

– " أنتظرُ الرفيق... "

ثم صمتُّ فجأة. لقد نسيتُ أن أسأله بالأمس عن اسمِه! فاستدركتُ قائلًا:

– " هو قادمٌ الآن... لقد وعدني أن ألقاه هنا عندَ تمامِ الثامنة."

وما إن دقّتِ الساعةُ تمامًا، حتّى رأيتُه يُهرولُ نحوي من بعيد، ويُشيرُ إلى الحارسِ بإذنِ الدّخول. تبعته عبرَ ممرٍّ طويلٍ مُزخرف، حتى بلغنا بابًا فخمًا، نُقِشت على خشبِه رسوماتٌ دقيقة، وارتفعَ حتى لامسَ سقفَ الرُّدهة.

نقرَ على الباب، فجاء صوتٌ داخليٌّ يقول:

– " تفضّل."

أدخلني أمامه، وإذا بي أمامَ غرفةٍ أنيقة، يملؤها عبقُ الخشبِ العتيق والمكتباتِ المصفوفة. كانت الطاولةُ في صدرِ المكان، خلفَها رجلٌ في أواخرِ الخمسين، نهضَ حين رآني، مدَّ يده لمصافحتي بحرارة، ثم أشار إليّ بالجلوس على مقعدٍ جلديٍّ مريح، وجلس هو قبالتي، بينما قال الرجلُ الذي جاء بي:

ـ " هذا هو نُعمان الغالي، يا رفيقَنا الكبير. أرجو أن تُنصفَه كما وعدتني."

هزَّ الرجلُ رأسَه، ونهض إلى مكتبه، ثم أخرج ورقةً مطبوعةً تشبهُ تمامًا تلك التي كنتُ أملؤها كلَّ مرّةٍ دون جدوى.

ناولني إيّاها وهو يقول:

ـ " هل تعرفُ كيف تملؤها؟"

ابتسمتُ ابتسامةً مائلةً إلى السخرية، وقلت:

ـ " لقد كتبتُ مثلَها مرّاتٍ لا أُحصيها."

قال:

ـ " إذاً، املأها، ووقّعها."

فعلتُ ما طُلِبَ منّي بهدوء، ثم سلّمتُه الورقة. ناولها لمرافقي وقال له:

ـ " سجّلها في الديوان، وأعطها رقمًا وتاريخًا. وهذه ورقةٌ فيها رقمُ الجلسة وتاريخُها."

وبينما غادر صاحبي، نادى على أحدِ السُّعاة، وطلب له ولي كأسين من الشاي. التفتَ إليّ وسألني:

ـ " كيف تُحبُّ الشاي؟"

أجبتُ بابتسامةٍ خفيفة:

ـ " بسكرٍ زائد."

وأثناءَ ارتشافِنا للشاي، بدأ يسألني عن هوايتي، وعن الكتبِ التي قرأتُها، وكان في حديثِه ما يُشعرني بشيءٍ من الدفء، على غير ما اعتدتُ في السنواتِ الماضية من برودةٍ وجفاء.

عاد صاحبي بعد قليلٍ، وقدّم الورقة. قرأها المسؤولُ ثم نظرَ إليَّ وقال:

ـ " غدًا، تُراجعُ شعبةَ الحزب وتسألُ عن طلبِك."

صافحني مودِّعًا بحرارةٍ فاقتَ تلك التي استقبلني بها. وعُدتُ يومَها إلى البيت، وفي صدري طمأنينةٌ لم أذقْها منذُ خمسِ سنين.

في مساء اليومِ ذاته، كنتُ لا أزالُ غارقًا في نومٍ عميق، حين أيقظني صوتُ جدِّي يُناديني من خلف الباب:

– **" نُعمان! أحدُهم على البابِ يريدك."**

فركتُ عينيّ، وسألتُ:

– **" مَن يكونُ يا جَدّي؟"**

ردّ بهدوءٍ فيه بقايا دهشة:

– **" قال لي إنّ اسمَه... أبو معروف!"**

.. ").

لَمْ يَكُنِ الحُلْمُ الَّذِي عَادَ بِهِ نُعْمَانُ مِنَ الامْتِحَانَاتِ يُشْبِهُ ذَاكَ الَّذِي يُوقِظُهُ كُلَّ صَبَاحٍ. فَبَيْنَ وَعْدٍ لِعَائِلَتِهِ وَاعْتِرَافٍ هَامِسٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، تَشَقَّقَتِ الطُّرُقُ، وَضَاعَتِ الخَرَائِطُ.

طَرِيقُ الهَنْدَسَةِ ضَاقَ بِهِ، فَمَالَ عَنْهُ إِلَى الدِّيكُورِ، ثُمَّ تَاهَ فِي دَوَائِرَ الذَّاتِ حَتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ فِي الكَلِمَاتِ. لَمْ يَكُنْ هَرَبًا مِنْ فَشَلٍ، بَلْ مِنْ خَوْفٍ خَفِيٍّ، وَجُرْحٍ لَا اسْمَ لَهُ.

تَغَيَّرَ الحُلْمُ: مِنْ بِنَاءِ جُدْرَانٍ إِلَى سَعْيٍ لِبِنَاءِ المَعْنَى. فَكُلُّ زَاوِيَةٍ، كُلُّ لَمْسَةٍ، أَصْبَحَتْ نَصًّا يُقْرَأُ، وَكُلُّ مَادَّةٍ تُخْفِي أَثَرًا.

أَرَادَ أَنْ يَفْهَمَ العَالَمَ لِيَبْنِي نَفْسَهُ، لَا بِعَيْنِ الرُّؤْيَا، بَلْ بِبَصِيرَةٍ تَخْتَرِقُ الظِّلَالَ وَتَسْبُرُ المَعَانِي.

فَهِمَ أَنَّ الفِكْرَ وَالدِّينَ كِلَيْهِمَا تَسَلَّلَ إِلَيْهِمَا نَفَسٌ سُلْطَوِيٌّ، يُقَسِّمُ الحَقَّ وَيَسْتَحْوِذُ عَلَى المَعَانِي، كَمَا تَفْعَلُ السِّيَاسَةُ فِي جُغْرَافِيَا القَهْرِ.

وَبَيْنَ مَا كَانَ يَنْهَدِمُ فِي دَاخِلِهِ، وَمَا كَانَ يَبْنِيهِ فِي صَمْتٍ، كَانَ نُعْمَانُ يَغْرِفُ مِنْ جُرْحِهِ لِيَكْتُبَ، وَيَنْظُرُ مِنْ نَافِذَةٍ صَغِيرَةٍ فِي قَلْبِهِ نَحْوَ ضَوْءٍ بَعِيدٍ.

وَكَأَنَّهُ، كُلَّمَا عَادَ إِلَى نَفْسِهِ، عَادَ إِلَى الحُلْمِ مِنْ طَرَفٍ آخَر، أَنْقَى، وَأَعْذَب، وَلَا يُرِيدُ لَهُ أَنْ يَصْحُوَ.

كَانَ نُعْمَانُ يَغْرِفُ مِنْ جُرْحِهِ لِيَكْتُبَ، وَيَنْظُرُ مِنْ نَافِذَةٍ صَغِيرَةٍ فِي قَلْبِهِ نَحْوَ ضَوْءٍ بَعِيدٍ.

ثَمَّةَ شَيْءٌ كَانَ يُنَادِيهِ: أَنْ يُصْبِحَ معلّماً.
لَا لِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَشْعِرُ بِتَفَوُّقِهِ فِي هَذِهِ المِهْنَة، بَلْ لِأَنَّهُ ذَاقَ الضَّيَاعَ وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ خَرِيطَةً لِمَنْ سَيَأْتُونَ بَعْدَهُ.

أَرَادَ لِلْكَلِمَةِ أَنْ تَكُونَ مَلْجَأً، وَلِلصَّفِّ أَنْ يُصْبِحَ مَسْرَحًا لِلنَّهْضَةِ الصَّغِيرَةِ فِي دُخُولِ النُّفُوسِ إِلَى نُورِهَا.

وَكَأَنَّهُ، كُلَّمَا عَادَ إِلَى نَفْسِهِ، عَادَ إِلَى الحُلْمِ مِنْ طَرَفٍ آخَر، أَنْقَى، وَأَعْذَب،
حُلْمٍ يُنْبِتُ حُلْمًا، وَمِحْبَرَةٍ تَسْقِي الغَدَ.

خاتمة الكاتب

لم تكن هذه الصفحات مجرّد سردٍ لحكايةٍ شخصيةٍ عابرة، بل شهادة قلبٍ عاش في الخوف، وتكوَّن من وجع المنفى، واستحالَ على أعتابه الحلمُ حنطةً من نار.

لقد نشأتُ في وطنٍ أحببتُه حتى الألم، ثم رأيته ينقلب على ناسه، ويستحيل قفصًا كبيرًا يُلاحق فيه الحرفُ ويُذلّ فيه الصوت. أكثر من نصف قرنٍ من القهر لم تكن كافية لتطفئ هذا النور فينا، لكنها دفعت بثلثينا إلى مصائر لا تليق بإنسان: قتيلًا أو معتقلًا أو مطرودًا من داره ومن روحه.

وها أنا، إذ أضع النقطة الأخيرة في هذا العمل، أجدني واقفًا على عتبة أخرى: عتبة الامتنان.

إنني أتوجّه بخالص الشكر والامتنان إلى جمهورية ألمانيا الاتحادية، وإلى الشعب الألماني، الذين فتحوا أبوابهم وقلوبهم لضحايا الظلم والدمار، فكانت أرضُهم لنا ملاذًا لا يشبه المنفى، بل يشبه بداية ثانية للحياة.

لم تكن استضافتهم مجرّد فعلٍ سياسي، بل كانت إنسانيةً عميقة، أعادت لكثيرٍ منّا حقّ الحياة بكرامة، ومنحتني أنا على الأقل، فرصة أن أكتب، أن أقول، أن أحلم، بعدما خُنقت الأحلام في الزنازين وتحت سقوف القهر.

هذه الرواية، في وجهٍ خفيٍّ منها، هي رسالة وفاء لهذا الوطن البديل، الذي لم يسألني من أين جئت، بل سألني: ماذا يمكنك أن تصير؟

فشكرًا لألمانيا حكومةً وشعبًا.

وشكرًا لكل من آمن أن الحلم، حتى وإن اعتلَ العتبة متردّدًا، لا بدّ أن يعبر.

حين أسدل الغروب ستاره الأخير على تلك المرحلة
وانقشعت عن قلبي غشاوة الخوف من أن يُستَضعف أحدٌ ممّن أحب
آنَ لي أن أُوقن بأنني كتبتها كما عشتها، سطرًا بسطر، ونبضًا بنبض.

BACKNANG – DEUTSCHLAND
الخميس ٢٢ أيّار ٢٠٢٥
نُعمَـان البَربَـرِي

على أعتابِ الحُلم
الخوفُ، الإيمانُ، الصمتُ

حينَ يَحكمُ الخوفُ، يغدو العيشُ نفسُهُ ضربًا من التخفّي.

"*على أعتابِ الحُلم*" هي سيرةُ شابٍّ لا يتأرجحُ فحسب بينَ القريةِ والمدينة، بينَ الجذورِ والآفاق، بل يتقلّبُ قبلَ كلِّ شيءٍ بينَ الحقيقةِ والبقاء.

فخلفَ كلِّ قرارٍ، خلفَ كلِّ صمتٍ، يكمنُ ضغطٌ خفيٌّ لا يُرى:
خوفٌ من سُلطةٍ لا تغيب،
سُلطةٌ لا تكتفي بالحُكم، بل تُطالِبُ بأن تُؤمَنَ بها.
تُقنّعُ أيديولوجيّتَها بثوبِ العقيدة،
وتجعلُ من الشكِّ خيانةً لا تُغتَفَر.

نُعمانُ يريدُ أن يدرُس، أن يحلمَ، أن يُحِبّ.
لكن في وطنٍ يُراقبُ أبناءَهُ قبلَ أن يُربّيهم،
يُصبحُ كلُّ حُلمٍ فعلًا سياسيًّا،
ويغدو كلُّ قولٍ خاطئٍ خطرًا لا يُحتمل.

روايةٌ عن المنفى الداخليّ في ظلّ حُكمٍ استبداديّ،
عن فنِّ ألّا تضيعَ ذاتكَ،
حتى وأنتَ مضطرٌّ إلى التخفّي.

لِلقارئاتِ والقرّاءِ الذين يُدرِكونَ أنّ المقاومةَ تبدأُ أحيانًا... بهمسَة.

تدور أحداث هذه الرواية في سورية أواخر سبعينيات القرن الماضي، في زمن شهد تحولات اجتماعية عميقة وركودًا سياسيًا.

تروي قصة شاب من الريف يبحث عن طريقه بين التقاليد والحداثة، بين توقعات عائلته وأحلامه.

المشاهد، من متجر الأقمشة الصغير في مدينة دمشق القديمة إلى أزقة قريته الضيقة، ليست مجرد خلفيات، بل مرايا لتوترات داخلية.

يُشكل التناقض بين المدينة والريف، والتعليم والفقر، والحرية والتوافق، الخلفية العاطفية والسياسية لهذه الرواية.

على أعتاب الحلم، إذ تتعرض في جانب منها إلى عرض الواقع السياسي لكنك ستقرؤه، بين السطور.

يمكن للمرء أن يستشعر ارتعاشًا هادئًا في مجتمع يسمح لشبابه بالعيش في حالة من عدم اليقين. إنها قصة باحث وأمل يواجه كل ما يهدد بخنقه.

أدعوكم للدخول بعيون واعية وقلب مفتوح إلى عالم بعيد ومألوف في آن واحد – وربما يوقظ صدى في ذكرياتكم.

نعمان البربري

على أعتاب الحلم

من الأدبِ الواقعيّ الاجتماعيّ